

٢٦

الألف كتاب (الثاني)

رسائل وأحاديث من المنقذ

الشيخ فؤاد بن عبد الحميد

مفتي الديار المصرية

الشيخ محمد علي السخاوي

مفتي الديار المصرية

الشيخ محمد علي السخاوي

مفتي الديار المصرية

الشيخ محمد علي السخاوي

مفتي الديار المصرية

الشيخ محمد علي السخاوي

مفتي الديار المصرية

الشيخ محمد علي السخاوي

0159641



المكتبة العامة

Bibliotheca Alexandrina

رسائل وأُمّادات من المنفى

رسائل وأحاديث من المنفى

تأليف: فيكتور هوجو

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

مراجعة: محمود خليل النحاس



المسيرة الوطنية للشباب

١٩٨٦

تصميم الغلاف : محمد قطب

الخراج الفني : مراد نسيم

الاشراف الفني : عفاف توفيق

ما هية المنفى

١

القانون المجسد ، هو المواطن ، أما القانون المتوج فهو المشرع . وكانت الجمهوريات القديمة تتمثل القانون متربعا على مقعد من قبيل مقاعد القضاة الرومان العاجية ، وفى يده صولجان ، هو القانون ، ومشملا بالنوب القرمزى ، رمز السلطة . وكانت هذه الصورة صادقة ، لا يختلف المثل الأعلى فى الوقت الحاضر عنها فى شىء . ولا بد لكل مجتمع منظم من قانون مقدس ومسلح ، مقدس بالعدالة ، ومسلح بالحرية .

لم تذكر لفظة القوة فيما قلناه آنفا . ومع ذلك فالقوة موجودة ، وانما لا وجود لها خارج القانون ، بل وجودها فى داخله .

القانون قوة ..

فماذا هناك خارج القانون ؟

العنف ..

وليس هناك سوى ضرورة واحدة ، تلك هى الحقيقة . ومن ثم فليس هناك غير قوة واحدة ، هى القانون . والنجاح فى خارج الحقيقة والقانون انما هو نجاح ظاهرى ، يندفع فيه الطغاة بنظرهم القصير ، فيخالون الكمين الناجح نصرا ، ولكنه نصر ملؤه الرماد والأجداث . ويعتقد المجرم أن جريمته عون له ، ولكنه مخطئ ، فجريمته هى مؤدبته . فالقاتل يقطع جسده دائما بسكينه ، والخيانة تفضح دائما كل خائن ، والجريمة شبح خفى يطبق على أعناق المجرمين دون أن يدركوا ذلك . والعمل السيئ لا يطلق سراح مقترفه . وتنتهى أحداث الثامن عشر من شهر « برومير » بالكبار فى واترلو ، كما تنتهى أحداث الثانى من ديسمبر بالصغار فى سيدان ، يتم كل ذلك بصورة حتمية ، فى طريق قاس لا يرحم يؤدى الى

مستنقعات الدم من أجل المجد ، وإلى مهاوى الأرواح التي يغوص فيها العار .

وعندما يقدم أصحاب العنف والخونة على تجريد القانون ونزع سلطانه ، فانهم لا يعرفون عندئذ ما يصنعون .

٢

النفى هو تجريد القانون ، وليس ثمة شيء أفظع منه . ولكن بالنسبة لمن هو فظيع ، بالنسبة للمحكوم عليه بالنفى ؟ كلا ، انه فظيع بالنسبة الى من قضى به . فالقصاص ينقلب على الجلاذ فينهشه .

وليس ثمة ما هو أشد ارهابا لنفوس الأشرار المتوجين من رجل حالم ينجول وحيدا على ساحل رملي ، ومن صحراء تحيط بمفكر ، ورأس عرم هادئ تحوم حوله طيور العواصف دهشة حائرة ، ومتابرة فيلسوف على مشاهدة بزوغ الفجر المهدى للنفوس ، والاله الذي يستشهد الناس به من وقت لآخر أمام الصخور أو الأشجار ، ورجل هزيل لا يفكر فحسب ، بل أيضا يتأمل ، وشعرات تتحول في العزلة من سوداء الى شهباء ، ومن شهباء الى بيضاء ، ورجل يشعر بأنه يتحول الى شبح بمرور الأيام ، وكر السنوات الطوال على ذلك الغائب الذي لم يزل مع ذلك على قيد الحياة ، وهيبة ذلك الانسان المحروم . وحين ذلك البريء الى الاوطان .

ومهما فعل أصحاب السلطة المطلقة المؤقتون ، فان القاعدة الأبدية نناهضهم ، فليس لهم من شيء سوى الصفحة السطحية من الحفيدة الثابتة ، أما الباطن فانه من شأن المفكرين . أنتم تنفون رجلا . فليكن . ثم ماذا ؟ نستطيعون أنتم أن تنتزعوا الشجرة من جذورها ولكنكم لن تستطعوا أبدا أن نطفثوا نور السماء . ان الفجر آت عن قريب .

ومع ذلك فلنكن عدلا مع الذين قضوا بالنفى ، فهم منطقيون ، كلمة ، بغيضون . بفعلون كل ما في استطاعتهم لاهلاك المنفى .

فهل ينالون مأربهم ؟ هل ينجحون ؟ لا ريب في ذلك .

هاكم رجلا بحطم حتى لم يعد يملك سوى شرفه ، وتجرد من كل شيء حتى لم يعد له سوى ضميره ، وانزل عن الدنيا حتى لم يبق بالقرب منه سوى العدالة ، وأنكره الناس حتى لم يبق معه سوى الحقيقة ، وألقى به في الظلمات حتى لم يبق له سوى الشمس . ذلك هو رجل المنفى .

النقى ليس شيئاً مادياً ، انه نىء معنوى ، كل أركان الأرض عنده
سواء . ضاحكة ، تناسبه كل الأحلام . على أن يكون فى ركن مظلم ،
وأفق مسيح .

وأرخبيل المانن رائع فتان بصفة خاصة ، فريب الشبه من الوطن ،
فرنسا . وجيرسىي وجيرسىي قطعان من بلاد الغال ، قطعهما البحر
عنها فى القرن الثامن . وكات جيرسىي أكثر فنه ودلالا من جيرنسىي .
وانما أقل منها جمالا . فى جيرسىي تحولت العباب الى حدائق ، أما فى
جيرنسىي فقد ظلت الصخور ضخمة ماردة . هنا مزيد من الجمال ،
وهناك مزيد من الجلال . الانسان فى جيرسىي كأنه فى نورماندى ، أما
فى جيرنسىي فهو فى برينانى . جيرسىي باقه شاسعة كمدينة لندن ،
كل ما فيها عطر ونور وابسام . وهى مع ذلك فى مهب العواصف .
وصف كات هذه الصفحات جيرسىي فى موضع ما بأنها « أنشودة فى
قلب البحر » . كانت جيرسىي فى العصور الونبية أكثر ما تكون رومانية ،
أما جيرنسىي فكانت فى الأغلب كلتية . فى جيرسىي يشعر الانسان بوجود
جوبينر . أما فى جيرنسىي فانه يشعر باجود « توتاتيس » (١) . وفى
جيرنسىي اختفت الشراسة ، وانما بقيت الوحشية . من كان فى جيرنسىي
فى الزمان الماضى درويديا (٢) أصبح اليوم من الهيجونوب (٣) ولم يعد
نمة مولوخ (٤) ، بل كلفن . والكنيسة باردة ، والمنظر الطبيعى فبه
احتشام وحياء ، والدين فيه سماحة . وبالأجمال فان الجزيرتين فانتتان :
احدهما لطيفة والثانية نفور .

وذات يوم قدمت ملكة انجلترا ، أو بالأحرى دوقة نورماندى النى
يقدمها الناس ستة أيام كل أسبوع ، قدمت لزيارة جيرنسىي ، فاستقبلت
بطلقات المدافع والدخان والصخب والاحتفال . وكان ذلك فى يوم أحد ،
وهو اليوم الوحيد فى الأسبوع الذى لا تقدر فيه الملكة ، ومن تم أصبحت
فى ذاك اليوم امرأة عادية ، ولكنها نقصت راحتها المقدسة ، ونزلت على
رصيف الميناء وسط الجمهور الصامت . ولم يكشف لها أحد عن رأسه .

-
- (١) كبير الآلهة فى بلاد الغال ، وكان الأمالى فى ذلك الوقت من الكلت - المترجم
(٢) الدرويدون ، كهنة الشعوب الكلتية ورجال الطب فيها ، وبخاصة فى بلاد الغال
وبريطانيا - المترجم .
(٣) بروستانت فرنسا المعنفون مذهب كلفن - المترجم .
(٤) اله الحرب عند فرطاجة ، وكان يطلب التضحية بالشعر - المترجم .

ولكن رجلا واحدا فقط هو الذى حياها ، ذلك هو المنفى الذى يحدث
ها هنا .

ولكنه لم يحيى ملكة ، وانما حيا امرأة .
وكانت الجزيرة الوفية قاسية جافة . ولهذه الصرامة فى الخلق
ما لها من عظمة .

ولم تترك جيرنسى للمنفى سوى ذكريات طيبة . ولكن للمنفى وجود
فى خارج المنفى . ويمكن القول اجمالا انه ليس نمة نفى جميل .
المنفى هو البلد القاسى ، الأشياء فيه كلها مقلوبة ، لا تصلح للسكنى ،
مهدهمه ، جامدة ، فيما عدا الواجب ، فهو وحده القائم الذى يبدو كقبة
الكنيسة فى بلدة مهتمة ، أعلى من كل الأتقاض التى تحيط بها .

المنفى مكان الفصاى .

القصاص ممن ؟

من الطاغية ؟

ولكن الطاغية يذود عن نفسه .

٤

عليك أيها المنفى أن تتوقع كل شىء . انهم يلقون بك فى
مكان قصى ، ولكنهم لا يدعونك وشأنك . فالذى تفاك رجل فضولى ،
يحكم رقابته عليك . انه يدبر لك زيارات بارعة ومتنوعة . فئمة قس
برونستانتى مبجل يجلس فى دارك . هذا البروسنانتى يتناول مرتبا
من خزانة « نرويسان - دوميرسان » . وثمة أمير أجنبى ، فى لسانه
رطانة أجنبية ، يتقدم اليك . انه « فيدوك » أتى ليراك . ترى هل هو
أمير حقيقى ؟ نعم . انه من دم ملكى . ومن رجال الشرطة أيضا . ويعطرق
دارك أستاذ متعمق فى مبادئه ، وإذا بك تفجأ وهو يسترق النظر الى
أوراقك . كل شىء ضدك مباح . فأنت خارج على القانون ، أى خارج
العدالة والمنطق والكرامة والحقيقة . ونمة من يقول ان لديه تصريحاً منك
بنشر أحاديثك ، وإذا هو يهنم بجعل هذه الأحاديث سخيفة . وينسب
اليك البعض كلاما لم تقله قط ، ورسائل لم تكتبها بالمرّة ، وأفعالا لم
نقترفها . يقترحون منك ليحسنوا اختيار الموضوع الذى سوف يطعنونك
عنده . ما أشبه المنفى بالنور ، ينظر الانسان فيه وكأنه ينظر فى جحر
حيوان ، فأنت به معزول ومراقب . لا نكتب الى أصدقائك فى فرنسا ،
فخطاباتك مباح فتحها ، بتصريح من محكمة النقض . احترز من علاقاتك
بالناس فى المنفى فانها تؤدى الى أمور غاضبة ؟ فالرجل الذى ينتسم لك
فى جيرسى يثلبك فى باريس . وثمة من يكتب فى جيرسى نفسها ضد

أهل المنفى صفحات جديدة بأن يهدى الى رجال الامبراطوربه . ولكنه يبررها فيكتب اهداءها الى أصحاب بنك « بيرير » . واعلم أن كل هذه الأمور بسيطة فانت في الحجر الصحي « الكورنتينه » . واذا جاءك انسان سرييف ليراك فالويل له ، الحدود في انتظاره وعندها الامبراطور في بوب الشرطة . ولسوف يجردون النساء من ثيابهن بحنا عن كتاب لك يخفبه .

فاذا قاوموا واحتججن قيل لهن : لا نقصد من هذا مشاهدة مفاتنكن » .

أما السيد ، وهو أيضا الخائن ، فانه يحيطك بمسساء من الناس . فالحاكم يستطيع أن يستغل شخصية المنفى ، يضيفها على عملائه ، فليس ثمة أمان . احترس اذا تحدثت الى وجه انسان ، لأن وجه المسمم انما هو قناع . متفاك يسكنه سبج ، هو الجاسوس .

وثمة رجل مجهول شديد الغموض يأتيك فيهمس في أذنك ، ويصرح لك بأنه على استعداد لأن يقتل الامبراطور اذا شئت . انه بونابرت ، يعرض عليك أن يقتل بونابرت . وفي مادبك التي تقيمها للاخوان ، يصيح بعضهم في ركن من الأركان : « يحبا مارا ! يحبا هيبير ! نحنا الجيوتين ! » (١) فاذا انتبهت اليه قليلا عرفت فيه صوت « كارلييه » . وتجد أحيانا الجاسوس يستجدي الناس ، فالامبراطور يسألك الاحسان عن طريق « بييتري » . وتعطيه صدقة فيضحك كما يضحك الجلال . وتدفع الديون الخاصة بنفقات سكنى ذلك المنفى . انه من عمال الحكومة . وتدفع نفقات رحلة ذلك اللاجئ : انه شرطى . وتمر في الشارع فتسمع من يقول : « هذا هو الطاغية الحقيقي ! » . انه يتكلم عنك ، وندير رأسك ناحيته وتتساءل من عساه يكون هذا الرجل ، فيجيبك بعضهم : انه من المنفيين . كلا ، انه موظف جلف ، قبض أجره ، وهو حمهورى يوقع باسم « موباس » ، « كوكو » يتنكر في ثوب « شيكفولا » .

أما الابتكارات ، والخدع ، والدناعات ، فعليك أن تتقبلها . انها قذائف الامبراطورية .

وعليك بنوع خاص ألا تطالب بشيء فسوف تقابل بالسخرية . بعد المطالبة تبدأ الاهانة ، وهي نفس الاهانة ، لا يهتم أحد بتنويعها اذا ما الفائدة من تغيير الأسلوب ، فأسلوب الأمس حسن . ولسوف تستمر الاهانات كل يوم دون انقطاع ، بذلك الهدوء المستقر والضمير المرتاح الذى تستمتع به العجلة التى تدور والذمة الخبرة التى تكذب . وليس ثمة ثأر .

(١) للفصلة - آلة اعدام ، تقطع رأس الانسان بسكين - اخترعها دكتور جيوتين - وكانت سائمة الاستعمال فى فرنسا انا ان الثورة الفرنسية - المراجع .

أما الإهانة فإنها تدعم بالدناءة . الحشرة حقيرة ، بنقذها حقارتها من الهلاك . اذ يستحيل سحق الشيء الذى يساوى الصغر . أما النميمة التى نعرف قطعاً أنها فى حصانة من العقاب ، فإنها نستشترى وتستمتع ، وبهبط الى دناءات حقيرة لدرجة أن فى انكارها حطة أسد من الغياف الذى يصيب الانسان الذى يعانيتها .

والقادحون يوجهون سبابهم الى جمهور المخفليين ، وهذا أمر جسد مضحك .

نخلص من ذلك انه من العجيب انك لا نرى الافتراء عليك أمراً طبيعياً . أليس هناك من أجل ذلك ؟ ايه لك أيها الرجل الساذج ، أنت هدف لذلك . فمة شخص أصبح عضواً بالأكاديمية لأنه أهانك ، وآخر ظفر بوسام الصليب لمثل هذا العمل الباسل . فقد منحه الامبراطور هذا الوسام فى ميدان الشرف . ميدان النميمة . وممة شخص آخر بجلى أيضاً باهانات صارخه . وعين من أجلها حاكماً . اهانتك عمل مريح . ومن الضروري أن يعيش الناس . يا للعجب ، لماذا نفيت ؟ كن عاقلاً . فأنت مخطئ . من حملك اذن على الحكم بان الانقلاب السياسى أمر سيئ ؟ ترى أية فكرة دفعتك الى الكفاح فى سبيل الحق ؟ وأية نزوة اعتمدت فى نفسك فجعلتك نشور دفاعاً عن القانون ؟ هل يدافع الانسان عن الحق وعن القانون حين لا يكون فى صفهما أحد ؟ هاكم الزعماء المضللون ، من العبث مصابرينهم ومعاندينهم ومناهضينهم . فمة رجل واحد يطعن الحق ويغتال القانون . ومن المحتمل أن يكون له حججه وأعداره . فلتكن مع هذا الرجل . فالنجاح يكسبه الحق . ولتكن مع النجاح ، لأن النجاح يصبح هو الحق . ولسوف يحمذك الناس على ذلك . ولسوف نشنى عليك . ولسوف تعدو عضواً فى مجلس الشيوخ بدلاً من أن تكون منقياً ، ولن تبدو أبلة فى عيون الناس .

هل نجرؤ على التشكك فى حق هذا الرجل ؟ ولكنك ترى جيداً أنه قد أفلح ! وتعلم تمام العلم أن القضاة الذين انهموه يقسمون له يمين الولاء ! ونشهد أن القساوسة والجنود والأساقفة وقادة الجيوش كلهم معه ! اتعقد أنك تملك من الفضائل أكثر من كل هذا ؟ أتريد أن تقاوم كل هذا ؟ على رسلك يا هذا ! انك لتجد فى صفه كل ما هو محترم وجدير بالاحترام . وكل ما هو موقر وجدير بالتوقير ، ثم تجد نفسك فى الجانب الآخر . انه لأمر سخيف . وانا لنستخر بك . وحسننا فعل . الكذب ضد الآخرق شيء مباح . الأشراف كراههم ضدك . ونحن أهل الوشاية والنميمة مع الأشراف . هيا ، فكر ، واعرف نفسك . لابد من انقاذ

المجتمع . ممن " منك . بأى سىء كنت نهدد هذا المجمع ؟ بالغاء الحروب
والشنق وعقوبة الاعدام ، وبالتعليم الالزامى المجانى ، فيعرف الناس كلهم
القراءة ! انه لشيء فظيع . كم من أنظمة خيالية مثالبة كربيه ! المرأة
القاصر تصبح رسيدة . وهذا النصف من الجنس البشرى يشترك فى
الانتخابات العامة . والزواج ينحصر بالطلاق . والطفل الفقير يتعلم كما
يتعلم الطفل الغنى . فتتم المساواة بفضل التعليم . ونخفض الضرائب أولا
ثم تلغى بهدم الوسايط الطفيلية . ونأجر المنشآت الأهليه ، ونحويل
مباه المجارى الى أسمدة . ونوزع الأموال العامة . واستصلاح الأراضي
البور . واستغلال الفائص الاجتماعى . ورخص المعيشة ، بربية الأسماك
فى الأنهار . وروال الطبقات والحدود والقيود وقيام الجمهورية الأوربية .
وتوحيد النقد فى القارة الأوروبية . وداول الأموال والثروات ومضاعفتها :
يا لكل ذلك من حماقات ! لابد من الاحراز ضد كل هذا ! عجبنا ! أيستقر
السلام بين الناس كلهم . فلا يكون نمة جيوش ولا خدمة عسكرية !
كيف ! أزرع أرض فرنسا بكيفية يمكن معها اطعام مائتين وخمسين
مليوناً من الأنفس . ولا تكون نمة ضرائب . فتعيش فرنسا من إيراداتها
الخاصة ! كيف ! أعطى المرأة صونها فى الانتخاب . ويصير للولد حقوقا
قبل أبيه . ولا نكون الأم فى أسرتها خادمة ذليلة . ولا يملك الزوج حق
قتل زوجته ! كيف ! ألن يكون القس هو السيد ! كيف ! ألن تكون هناك
معارك أو جنود أو جلادون . ولا مشانق ، أو جيونين ! ولكن هذا شيء
رهيب ! لابد من انقاذنا . لقد فعل الرئيس ذلك ، فليحيا الامبراطور !
أنت تناضل ، فلنقطعك اربا ، وسنكتب عنك أمورا شتى . انا نعلم
تمام العلم أن ما نقوله هذا غير صحيح ، ولكننا نحى المجتمع . والنميمة
التي تحمى المجتمع شيء فى الصالح العام . وطالما كان القضاء مع الانقلاب
السياسى ، فان العدالة هى أيضا معه . وطالما كان الكهنوت مع الانقلاب ،
فالدين أيضا معه . والدين والعدالة وجهان طاهران ومقدسان . وكذلك
شأن النميمة التي تخدم الدين والعدالة . فهي تقاسمهما الشرف والجدارة .
انها - أى النميمة - امرأة عاهرة . فلتكن كذلك ، ولكنها تخدم عذراوات
طاهرات ، ومن ثم نحترمها .

وعلى هذا النحو يتعلل السبابون . .

وأفضل ما يفعله المنفى أن يفكر فى شيء آخر . .



ما دام هو على شاطئ البحر ، فليستفد من ذلك . ولستمحه تلك
الحركة الدائبة تحت الفضاء اللانهائى الحكمة . العقل . وليتأمل فى تواثب

الأمواج على الساحل دوما ، واعتداء القرية على الحديقة • سرور الفرح
والتشهير لا طائل من ورائها • فليأمل الموجهة وهي تبصق على الصخرة ،
ويتساءل ماذا نجنى من وراء ذلك ، وماذا يخسر الجرائيت بسبب ذلك •

كلا ، لا سر ضد الإهانة ، ولا نبدد مناعرك ، ولا نطلب النار ،
واخلد الى هدوء صبارم • الصخرة تقطر ماء ولكنها لا تتحرك • انها تلمع
أحيانا بما يسيل عندها من ماء • والنميمة تتلألأ في النهاية كالنريا •
واذ يلمح الانسان شريطا فضيا على الوردة ، يدرك أن دودة قد مرت عليها •

ما أروع البصفا على جبين المسيح !

ومة فسييس يدعى سيجور ، قال عن جاريبالدى انه جبان ، وأردف
بنشبيهه بارع : « كالقمر » - جاريبالدى جبان كالقمر ! يا لها من متعة
للذهن ! ويتفرع من ذلك بعض النتائج • فأشيل جبان ، اذن ثيرسييت
شجاع ، وفولتير غبي ، اذن سيجور ذكي •

فليؤد المنفى واجبه ، وليترك القذف والتشهير يعملان عملهما ،
وليصمت المنفى المطارد المفضوح المهزأ الذى يسميه الناس وينهشون عرضه •

يا لعظمة الصمت !

ومن ثم فان محاولة اخماد الإهانة انما تزيدها اشتعالا ، وكل
ما يلقيه الانسان على القرية يصير لها وقودا • الإهانة تستغل كل ما تحويه
من عار ، ومقاومتها انما تؤدى الى ارضائها • القرية فى الأصل نقدر المفترى ،
علبه كل التقدير ، ولكنها تعاني وتموت اذا احتقرها الانسان • انها تصبو
الى شرف التكذيب ، فلا تكذبها حتى لا تمنحها هذا الشرف • واذا صغمت
كان ذلك دليلا على أن الناس قد انتبهوا اليها ، فتكشف عن وجهها المتقد
وتقول : « اذن فأنا حية أرزق ! » •

٦

وفضلا عن ذلك فمم ينسكو المنعويون ؟ نأمل فى التاريخ كله نجد
العظماء قد أهينوا أكثر من المنفيين •

الإهانة عادة قديمة فى الانسان ، ورمى الأحجار متعة الأيدي الحاملة ،
والويل لكل من يتعدى الحدود السوية : فمن طبيعة الدرا أن رمى
الصواعق من عمدائها ، وتستثير الرجم بالأحجار من أسفل • نك هي
غلطة الدرا ، فلم كانت كذلك ؟ انها تشهد اليها الأنظار والإهانات •

والرجل الحسود لا ينقطع مسيره فى الطريق ، ووظيفته الحقد ، ونحن نلقاه دواما ، قميتا ، نائرا ، فى ظلال الصروح العالية .

أمام الأخصائيين دراسات يجرونها بحثا عن أسباب الأرق الذى بصيب العظماء . فهو ميروس ينام ملء جفنيه ، ولكن يؤرقه زويلي . أما ايسخولوس فيحس على جلده بلسعة يوبوليس وكراطينوس . ومثل هذه المخلوقات الحقة كيرة ، فمعبوس يتهجم على فيرجيل ، وليسيلوس على هوراس ، وكوردروس على جوفينال ، وتشيكى على دانتي ، وجرين على نيكسبير ، وسكوديرى على روترو ، والأكاديمية على كورنيس ، ودونو دو فيزيه على مولير ، وديفونتين على مونتسكيو ، ولابوميل على بوفون ، وباليسو على جان جاك روسو ، ونونوت على ديدرو ، وفريرون على فولتير . المجد سرير مذهب ملء بالبق .

المنفى ليس هو المجد ، ولكنه يشترك مع المجد فى شيء واحد ، ذلك هو الحشرة . والناس لا يتركون المصائب وشأنها . فرؤية المنفى وهو نائم نوما عميقا يغيظ جامعى فتات الخبز من تحت مواقد نيرون وتيبير . يا للعجب ، كيف ينام ؟ انه اذن سعيد ، فلنقرصه !

الرجل المجدل ، المطرود من الديار ، الذى يفترش الغبراء (وهذا سىء ميسور اذا كان الصنم المعبود هو فيتيلوس ، والدنس هو جوفينال) ، والمنفى ، والمحروم من الارث والمهزوم ، كل هؤلاء محسودون . الشيء العجيب أن للمنفين حسادا . وهذا شيء فهمه ميسور خاصة لدى أصحاب الفضائل السامية حين يغارون من المصائب الكبيرة . مثل كاتون حين يحسد ريجولوس ، وثرازياس حين يحسد بروتوس ، وراب حين يحسد باريس ، ولكن الأمر ليس كذلك . ان الأوغاد هم الذين يوغلون فى الغيرة من أصحاب العظمة والهيبة . ان من يتضرر من احتجاج المهزوم المترفع هو الشخص التافه الدنى . فجوستاف بلانش يغار من لوى بلان ، وباكولار يغار من ميلتون ، وجوكريس يعار من ايسخولوس .

السبب فى الزمان الماضى لا يسير الا خلف مركبة المنتصر ، أما السبب فى الوقت الحاضر فانه يسير فى أعقاب المهزوم . والمهزوم تنزف دماؤه ، ويضيف السبابون وحلهم على هذه الدماء . فليكن ، ولتكن لهم هذه المتعة . وتبدو هذه المتعة حقيقة واقعة حتى ان الرئيس لا يمقتها ، وهى تنال عادة أجرا لها .

وتتكشف مكنونات القلوب عن فضائح علنية . وللطغاة فى حربهم ضد المنفين تابعان : أولهما : الحسد . وثانيهما : الرشوة والافساد .

وعندما يتحدث الانسان عن ماهية النفى ، لابد أن يذكر قليلا
بعض النفاصيل . ويدخل فى هذا الموضوع الإشارة الى بعض الحيوانات
القارضة ، وكان يحذر بنا أن نطرق علم الحشرات .



نلك هى الجوانب الصغيرة فى موضوع المنفى ، واليكم الآن الجوانب
الكبيرة . التأمل ، والتفكر ، والمعاناة .

أن يكون الانسان وحيدا ، ويشعر مع ذلك بأنه مع الجميع ، أن
يلعن نجاح الشر ، ولكن يرنى لسعادة الشرير ، أن يؤكد ذاته كمواطن ،
وتتطهر نفسه كفيلسوف ، أن يكون فقيرا ، تم يرمى خطامه بعمله ، أن يفكر
ويتدبر : يفكر فى الخير ، ويتدبر أفضل الأشياء ، لا يغضب الا مع جمهور
الناس ، ويتجاهل الأحقاد الشخصية ، ويستنشق الهواء المنعش الفسيح ،
هواء الوحدة والعزلة ، ويسبح فى الحلم المطلق الشاسع ، وينظر الى
ما فى الأعلى دون أن تفوته رؤية ما فى الأسافل ، ولا يبالغ فى تأمل
المتل العليا الى حد نسيان الطاغية ، ويدرك فى ذاته ذلك المزيج الرائع
من السخط النامى والتهدئة المتزايدة ، وأن تكون له نفسان : ذاته
والوطن .

وثمة شئ عذب رقيق ، ذلك هو الشفقة الحاضرة : من ذلك أن
يتزود المرء بالرحمة والحنان نحو المذنب حين يقع صريعا ويركع على
ركبتيه ، ويعاهد نفسه ألا يرد أبدا يدين متوسلتين . ان الانسان ليشعر
ببهجة عظيمة حين يقدم لأولئك الذين يتوقع هزيمتهم فى المستقبل وعدا
بالكرم والضيافة . وقد اعتاد رفاق كاتب هذه السطور فى المنفى أن
يسمعه وهو يقول : « اذا حدث ذات يوم ، فى غداة انقلاب سياسى ،
أن هرب بونابرت وجاء يطرق بابى ويسألنى اللجوء والحماية ، فلن
تسقط شعرة واحدة من رأسه » .

هذه النأملات التى نختلط بنوائب الدهر كلها ، ترضى ضمير المنفى ،
ولكنها لا تمنعه من أداء واجبه ، بل انها على العكس من ذلك تشجعه على
أداء هذا الواجب . فلتكن اليوم قاسيا ، بقدر ما تكون فى الغد رحيمًا ،
ولتنبعث الرهبة فى قلب الشديد الجبار حتى يأتى اليوم الذى تأخذ فيه
ببد الدليل المتضرع . وفى المستقبل ، لن تفرق بعفوك الشامل غير شرط
واحد : التوبة . أما اليوم ، فانك تواجه الجريمة الناجحة . فلتضرب .
الجهد العظيم والحلم الكبير هو أن تحفر الهاوية للمعدو المنتصر ،

ونعد المأوى للعدو المنهزم ، وتقاتل بأمل أن تغفو . أضف الى ذلك بذل النفس للسخيف من آلام الناس . والمنفى يمنع بلون جليل من القناعة ، القناعة بأن يكون انسانا نافعا . واذا كان هو نفسه حريحا تنزف منه الدماء ، فهو ينكر ذاته ، ويبذل غاية جهده في تضييد جراح البشر . وقد ينبادر الى الذهن أنه يعيش في الأحلام ، ولكنه انما يبحث عن الحقيقة . بل نقول انه يعمر عليها . انه ينجول في الصحراء . ويفكر في المدن ، والهرج والمرج ، والزحام ، وفي ألوان البؤس ، وفي كل الاعمال ، يفكر في الفكر ، والمحراث ، والابرة وأنامل العاملة الحمراء وهي في حجرنها العلوية الباردة الخالية من النار والوفود ، يفكر في الشر الذي ينمو حيث لا يبذر الخير ، في بطالة الأب ، وجهل الطفل ، ونمو الأعشاب الضارة في العقول التي حرمت من التنقيف ، يفكر في الشوارع في المساء ، والمصابيح الشاحبة ، وما يصنعه الجوع في المارة بالطرقات ، والحاجات الاجتماعية المتطرفة ، والفتاة التعسة التي تصير عاهرة بخطيئتنا نحن الرجال . بحوث مؤلة ولكنها مفيدة . احتضن المشكلة بقوة ، ينبجس الحل ، المنفى - يحلم على الدوام . خطواته التي يخطوها على شاطئ البحر لا تضيق سدى ، انه يتآخى مع تلك القدرة الهائلة ، مع الهوة ، وينظر الى اللانهاية . وينصت الى صوت المجهول . الصوت الكبير الغامض يحدثه . الطبيعة كلها بعناصرها نهب نفسها لهذا الوحيد . والأشياء المماثلة تماثلا صارما نعلمه ونصحه . هذا المنحوس ، المضطهد المشغول الفكر ، يجد أمامه الغمام والنسمات والنسور ، ويتأكد له أن مصبره مرعد ومظلم كالغيوم ، وأن مضطهديه تافهون كالنسمات . وأن روحه حرة طليقة كالنسور .

المنفى انسان خير ، يحب الورود ، وأعشاش الطيور ، وتجوال الفراشات . في الصيف ينشرح صدره ابتهاجا بالحياة الحلوة . في قلبه ايمان لا يتزعزع بالطيبة الخفية اللانهاية ، الطيبة الساذجة التي تصل الى درجة الايمان بالله . يتخذ من الربيع دارا له . أما الأغصان المتشابكة المليئة بالفجوات الخضرة البديعة الجذابة ، فانها مأوى لروحه . يعيش حياته في شهر أبريل ، فيسكن الطبيعة ويتأمل الحداثق والمراعي ، وتشيع في نفسه الانفعالات العميقة . وينربص بالأسرار التي نستبطنها حزمة من العشب . ويدرس تلك الجمهوريات ، جمهوريات النمل والنحل ، ويقارن بين الألحان المنوعة التي تتدافع في أذن « فريجيل » (١) خفي في

(١) أعظم شعراء الرومان (٧٠ - ١٩ ق م) - اشهر بأشعاره الرعوية وديوانه من الزراعة - أما ملحنته « الأنباة » فهي أروع مؤلفاته الأدبية ، قد فيها الإلياذة والأوديسا - المترجم .

مخسيدة الغابات • وكثيرا ما ترف أحاسيسه حتى تسيل منه الدموع لأن الطبيعة جميلة • ويجتدبه الأدغال يطابعها الوحش ، ولكنه يخرج منها وجلا في رفق • وتشغله أشكال الصخور • ويلمح خلال أحلامه بنات صغيرات في الثالثة من العمر يجرين على الساحل الرمل ، وأقدامهن عارية نخوض في ماء البحر ، وقد رفعن أزهرن بأيديهن ، كاشفات عن بطونهن الطاهرة أمام الطبيعة الخصبه القسيحة • وفي الشتاء يلقي للطيور بفنات الخبز على الثلج • ويكتب لها بعضهم من وقت لآخر : ألغيت عقوبة كذا ، ولن تقطع رأس فلان • ويرفع يديه الى السماء •



وتتبادل الحكومات المعونة ضد هذا الرجل الخطر ، وتتفق فيما بينها على اضطهاد المنفيين ، وعلى السجن والطرء ، بل وتتفق أحيانا على تسليم المحرمن • تسليم المجرمين ! نعم نسليمهم • وكاد أن يحدث مثل هذا الأمر في جبرسيى عام ١٨٥٥ ، اذ شهد المنفيون في يوم ١٨ أكتوبر السفينة « آريل » من سفن البحرية الامبراطورية راسية على رصيف ميناء سان هيلبيه ، وكانت قد قدمت لتأخذهم ، اذ سلمت فيكتوريا المنفيين لنابليون ، فالتحان تتبادل مثل هذه المجاملات •

ولم يتم تسليم الهدية • كانت الصحافة الملكية الانجليزية قد هلمت لها ، ولكن شعب لندن نظر اليها بعين السخط ، وبدأ يزمجر • تلك هي طبيعة هذا الشعب • قد تكون حكومته كالكلب الصغير ، ولكنه هو شبيه بالكلب « الدوج » الكبير ، و « الدوج » هذا سبع في جسم كلب • جلال مع الأمانة : ذلك هو الشعب الانجليزي •

لقد كثر هذا الشعب عن أنيابه ، واضطر بالمرستون وبونايرت أن يكفيا بابعاد المنفيين • ونأثر المنفيون بعض الشيء ، وتسلموا باسمين الاخطار الرسمي المحرر بلغة ركيكة وقالوا : فليكن « الابعاد » ، وارتضوه •

واذا كان هناك في تلك الآونة تواطؤ بين الحكومات وبين القاضى على النفي ، فقد كان من المموس وجود مشاركة رائعة بين المنفيين وبين الشعوب • وكان هذا التضامن الذى سوف يتمخض عنه المستقبل يتبدى بجميع الأشكال ، وسوف نجد له دلالات في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب • ويتجلى هذا التضامن ساطعا في كل مناسبة يمر فيها أى شخص ، أو انسان منفرد ، أو مسافر تعرف شخصيته في الطريق ،

وهذه وقائع غير محسوسة بالطبع ، وقليلة الأهمية ، ولكن لها دلالتها .
واليكم واقعة منها ، لعلها تستحق الذكر .

٩

فى صيف عام ١٨٦٧ ، كان لوى بونايرت قد بلغ أقصى درجات
المجد الذى يمكن أن تبلغه الجريمة . كان فى الذروة ، اذ وصل الى
أسمى درجات الخزى والعار ، ولم تعد ثمة عقبة نعترضه . كان رذيلا ،
وكان عظيما ، ولم يكن هناك نصر أتم من نصره ، اذ يبدو أنه قد انتصر
على الضمائر . كان أصحاب الجلالة وأصحاب الفخامة كلهم عنده قدميه
أو بين ذراعيه . كاثت قصور وندسور والكريمين وشوينبرن (١) ،
وبوتسدام (٢) تتواعد للقاء فى التويلبرى . كان يملك كل شيء : المجد
السياسى فى شخص السيد روهير ، والمجد العسكرية فى شخص السيد
بازين ، والمجد الأدبى فى شخص السيد نيزار . واحتفت به شخصيات
عظيمة مثل السادة فييار وميريميه . كانت حركة ٢ ديسمبر قد طال
عليها الأمد ، كالخمس عشرة سنة من عهد « تاسيت » (٣) ، والامبراطورية
فى أوج نصرها وإشراقها واتساعها . كان الناس يسخرون من هوميروس
على منصات المسارح ، ومن شكسبير فى الأكاديمية ، وأساقفة التاريخ
يؤكدون أن ليونيداس وجويوم تيل لم يكن لهما وجود بالمرّة . كانت
الأمر كلها متوافقة ، وليس هناك ما يشذ عن سواء السبيل ، وهناك
توافق بين ضحالة الأفكار واستسلام الناس ، وانحطاط المذاهب ، يعادل
تفاخر الشخصيات ، والدناءة هى القانون . كان هناك نمط من فرنسا
الانجليزية يجمع بين بونايرت وفيكتوريا ، يتشكل من الحرية كما يراها
بالمستون (٤) والامبراطورية كما يراها ترولون ، ومعهما تحالف ، كأنه
قبلة . ويصدر القاضى الأكبر بانجلترا أحكاما من قبيل المجاملة ، وتعلن
الحكومة البريطانية أنها من أنصار الحكومة الامبراطورية ، وتشبت لها
نبيعتها كما رأينا منذ قليل ، بأحكام الابعاد ، والقضايا ، والتهديد بقانون
الأجانب ، واضطهادات خفيفة من الطراز الانجليزى وهذا اللون من فرنسا
الانجليزية يقضى بالنفى على فرنسا وبالاهاة على انجلترا ، ولكنه يسود ،

(١) القصر الملكى فى فيينا - المترجم

(٢) القصر الملكى فى بروسيا - المترجم

(٣) امبراطور رومانى (٢٠٠ - ٢٧٤) - كان صالحا وصارما - مات مفتولا - المترجم

(٤) لورد بالمستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥) - سياسى انجليزى - كان وزيرا للحرية ،

ثم وزيرا للخارجية - ثم عين رئيسا للوزارة مرتين - كانت دبلوماسيته تميل الى الاندفاع
بل التهور ، ولكنها رفعت من مقام انجلترا بين الدول - المترجم

فرنسا كالعبد ، وانجلترا كالخادم ، وهذا هو الموقف . أما المستقبل فهو محجوب عن الأنظار ، وأما الحاضر فهو العار بوجه مكشوف ، وانه لشيء رائع باعتراف الجميع . وفي باريس يتلأأ المعرض العالمى ويبهى أوروبا ، وفيه عجائب ، من بينها مدفع كروب المرفوع على قاعدة . وقد هنا امبراطور الفرنسيين ملك بروسيا .

كانت هذه هي لحظة الازدهار العظيمة .

ولم يكن المنفيون ينظر اليهم من قبل بنظرة أسوأ من النظرة التى يتلقونها فى هذه اللحظة . وأطلقت عليهم بعض الصحف الانجليزية اسم « المتمردين » .

وفى هذا الصيف ، فى يوم من أيام شهر يولييه ، كان مسافر يعبر البحر ، من جيرنسى الى ساوثامبتون . كان واحدا من أولئك « المتمردين » الذين تحدثنا عنهم . كان أحد ممثلى الشعب فى عام ١٨٥١ ، ونفى فى ٢ ديسمبر . هذا المسافر - ولا داعى لذكر اسمه فى هذا المجال لأنه ليس أكثر من مناسبة للواقعة التى سوف نحكيها - ركب سفينة البريد « نورماندى » فى ميناء سان بيير . وتستغرق الرحلة من جيرنسى الى ساوثامبتون سبع أو ثمانى ساعات . كان هذا فى الوقت الذى قدم فيه الخديو ليحيى فيكتوريا بعد أن حيا نابليون . وفى ذلك اليوم نفسه عرضت ملكة انجلترا على خديوى مصر مشهد الأسطول الانجليزى فى خليج شيرنيس المجاور لساوثامبتون .

كان المسافر الذى نتحدث عنه رجلا أشيب ، هادئا ، مهتما بالبحر ، يقف بالقرب من قائد الدفة .

كانت النورماندى قد أقلمت من جيرنسى فى الساعة العاشرة صباحا ، والساعة وقتئذ حوالى الثالثة بعد الظهر ، والسفينة تقترب من « نيدلز » فى الطرف الجنوبى لجزيرة « وايت » . وبدأت للأنظار تلك العمارة الوحشية فى البحر ، وتلك القمم الطباشيرية السامقة البارزة من المحيط كأنها أبراج كاتدرائية عجيبة غارقة . وشرعت السفينة تدخل فى نهر ساوثامبتون ، وبدأ قائد الدفة يحركها يسارا .

وكان المسافر يرقب دنو « الايجويى » حين سمع فجأة من يناديه باسمه ، فاستدار ، وإذا بربان السفينة واقف أمامه .

كان القبطان فى منل سنه تقريبا ، اسمه هارفى ، قوى الكتفين ، بلحية بيضاء كثيفة ، ووجه فخور لفحته الشمس ، وعين مرحة . قال القبطان :

— أحقا يا سيدى أنكم ترغبون فى رؤية الأسطول الانجليزى ؟
لم يكن المسافر قد أبدى هذه الرغبة ، ولكنه سمع بعض النسوة
من حوله يبدىنها بحماسة •

واكتفى بالإجابة قائلا :

— ولكن أيها القبطان ، ليس هذا طريقكم •
— سوف يكون طريقى اذا شئتم •

وأبدى المسافر حركة تنم عن الدهشة :

— تغير طريقك ؟

— نعم •

— ارضاء لخطرى ؟

— نعم •

— لا تفعل سفينة فرنسية ذلك من أجل !

فقال القبطان :

— ما لا تفعله سفينة فرنسية من أجلكم ، تفعله سفينة انجليزية •
وأردف :

— فقط ، ومن أجل مسئوليتى أمام رؤسائى ، أرجو أن تدونوا
رغبتكم فى دفترى •

وقدم دفتر يومية السفينة الى المسافر ، فكتب هذا حسب أهله :
« أرغب فى رؤية الأسطول الانجليزى » وقع بامضائه •

وبعد لحظة ، انحرفت الباخرة يمينا ، وتركت الى يسارها
« الياجويى » ونهر ساوثامبتون ، ودخلت فى خليج شيرنيس •

كان المنظر فى الحقيقة بديعا • وجعلت بطاريات المدفعية كلها
تخلط دخانها بهديرها • واصطفت أطراف البوارج المدرعة الضخمة الواحدة
خلف الأخرى ، يلفها ضباب ضارب الى الحمرة ، فهى خليط هائل من
الصواري التى تظهر وتختفى • ومرت النورماندى وسط هذه الأشباح
السامقة ، تحيىها الهتافات • واستمرت هذه المسيرة خلال الاسطول
الانجليزى أكثر من ساعتين •

وفى حوال الساعة السابعة ، وصلت النورماندى الى ساوثامبتون مزودة
بالاعلام •

وكان السيد راسكول ، مدير صحيفة « رسالة أوروبا » ومن أصدقاء الكابتن هارفى فى انتظاره على الميناء ، فدهش من منظر السفينة المزينة بالأعلام .

— لمن اذن رفعت الأعلام يا كابتن ؟ للخديوى ؟

فأجاب الكابتن :

— للمنفى .

للمنفى . . بل قل لفرنسا .

ولم تكن لنروى هذه الواقعة اذا لم تكن خليقة بأن تسبغ مجدا فريدا على الكابتن هارفى فى أواخر أيامه .
واليكم هذه النهاية .

مرت سنوات ثلاث على استعراض شيرنيس هذا ، وفى ليلة ١٧ مارس عام ١٨٧٠ ، بعد أن سلم الكابتن هارفى الى مسافر شهر يولية ١٨٦٧ رسالة من بحارة المانش بوقت قليل ، كان الكابتن هارفى يؤدى مسيرته العادية من ساوثامبتون الى جيرنسى ، والضباب يغطى البحر ، وكان واقفا على معبر الباخرة ، يقودها بحذر بسبب ظلام الليل والضباب ، أما الركاب فكانوا نائمين .

كانت النورماندى سفينة كبيرة للغاية ، ولعلها أجمل سفن البريد فى بحر المانش ، حمولتها ستمائة طن ، وطولها مائتان وعشرون قدما انجليزيا ، وعرضها خمسة وعشرون . كانت « فتية » كما يقول البحارة ، فلم يكن لها من العمر سبع سنوات ، اذ تم بناؤها فى عام ١٨٦٣ .

واشتدت كثافة الضباب ، وكانت السفينة قد خرجت من نهر ساوثامبتون ، وأصبحت فى عرض البحر على مسافة حوالى خمسة عشر ميلا فيما بعد « الايجويى » . كانت تتقدم ببطء والساعة الرابعة صباحا .
الظلام شديد الحلوكة . وثمة شئ كالسقف الخفيض يلف السفينة .
ولم تكن أطراف الصوارى ترى الا بصعوبة .

وليس ثمة شئ أفظع من تلك السفن العشواء التى تسير فى جنح الليل .

وفجأة انبثق سواد من داخل الضباب ، شبح أو جبل يجرى على اليم ويغرق الظلمات . كان ذلك هو الباخرة الكبيرة ذات الرفاص ، الباخرة « ماري » قادمة من أوديسا الى جريمسبى وعليها شحنة من القمح

وزنها خمسمائة طن ، والباخرة ثقيلة الوزن ، تسير بسرعة كبيرة فى اتجاه النورماندى مباشرة .

لم تكن هناك وسيلة لتجنب الصدام ، فأشباح السفن هذه تنتصب سريعا فى الضباب ، وهى لا تدنو ، انما تصدم . ويموت الانسان قبل أن يتم له رؤيتها .

كانت « مارى » منطلقة بأقصى سرعتها فصدمت النورماندى بعرضها وشقت بطنها . ووقفت « مارى » على أثر الصدمة ، وقد أصيبت بعطب . كان على ظهر النورماندى ثمانية وعشرون رجلا من طاقم السفينة ، وخادمة ، وواحد وثلاثون مسافرا منهم اثنتا عشرة امرأة .

وحدثت رجة مخيفة . وفى لحظة واحدة كان الجميع على ظهر السفينة ، رجالا ونساء وأطفالا ، نصف عرايا ، يجرون ويصيحون ويبكون . ودخلت المياه هادرة . وجعل فرن الآلة يحترج بعد أن أصابته الأمواج .

ولم يكن بالسفينة حواجز صماء ، ولم تكن بها أحزمة الانقاذ . وكان الكابتن هارفى واقفا معتدلة القامة على منصة القيادة ، وصاح :

— اسكتوا جميعا وانتبهوا ! لتنزل القوارب الى البحر . النساء أولا ، ثم المسافرون وبعدهم أفراد الطاقم . هناك ستون شخصا يجب انقاذهم .

كان هناك واحد وستون ، ولكنه تناسى نفسه .

وفكت القوارب واندفع الجميع فيها . وكان من المحتمل أن تؤدى هذه العجلة الى قلب الزوارق . وسيطر الملازم أوكلفورد ورؤساء البحارة الثلاثة جودوين ، وبنيت ، وديست على هذا الحشد المذعور . فالنوم ، ثم الموت المفاجئ السريع ، شئ رهيب .

وفى هذه الأثناء كان صوت القبطان يسمع رزينا ، فوق الصيحات والجلبة والضوضاء ، وجرى هذا الحوار الموجز خلال الظلمات :

— الميكانيكى لو كس ؟

— نعم يا كابتن ؟

— كيف حال الفرن ؟

— غرقت .

— والنار ؟

• انطفأت -

• الآلة ؟

• انتهت -

وصاح القبطان :

• الملازم أو كلفورد ؟

فاجاب الملازم :

• حاضر -

وأردف القبطان :

• كم دقيقة أمامنا ؟

• عشرون -

• تكفى • فليركب كل منكم فى القوارب بدوره • الملازم أو كلفورد ،
هل معك غدارنك ؟

• نعم يا كابتن -

• أطلقها على رأس كل رجل يحاول أن يمر قبل امرأة •

وصمت الجميع ، ولم يبد أحد أية مقاومة ، فقد كان هذا الحشد
يشعر فوقه بتلك الروح العظيمة •

وكانت « مارى » من جانبها قد أنزلت قواربها فى البحر ، وبادرت
الى النجدة فى هذا الحادث الذى كانت السبب فيه •

وجرت عملية الانقاذ بنظام ، دون جدل أو خلاف • وكانت هناك ،
كما يحدث دائما ، بعض التصرفات التى تتسم بالأنانية المؤسفة ، وكذا
بعض التضحيات المؤثرة •

وكان هارفى فى مركز القبطان ، جامد الاحساس ، يأمر ، ويسيطر ،
ويدير الأمور ، ويهتم بكل شئ وبالجميع ، ويتحكم بهدوء فى هذا الكرب ،
ويبدو وكأنه يصدر الأوامر الى الرزية نفسها • ولعلنا نقول ان الغرق نفسه
كان يطيع أوامره •

وفى لحظة من اللحظات صاح :

• انقذوا كليمان •

وكليمان هذا صبى بحار ، كان طفلا •

وجعلت السفينة تتناقص رويدا فى الماء العميق •

وازدادت سرعة القوارب في ذهابها وعودتها بين النورماندى ومارى •
وجعل القبطان يصيح : أسرعوا •

وفى الدقيقة العشرين ، غرقت السفينة ، فخطست المقدمة أولا ، ثم المؤخرة •

وكان الكابتن هارفى واقفا على القنطرة ، ولم يتحرك ، ولم ينبس ببنت شفة ، ودخل جامدا فى اللجة • وشوهد خلال الضباب كتمثال أسود يغوص فى البحر •

وهكذا انتهى الكابتن هارفى •

وليتلق من ها هنا وداع المنفى •

لم يكن نمة بحار فى المانش يماثله • فرض على نفسه طول حياته واجبه كرجل ، ثم استعمل وهو يموت حقه فى أن يكون بطلا •

١٠

نرى هل يكره المنفى نافية ؟ كلا ، انه يحاربه • هذا كل ما هنالك • يحاربه بمنتهى الشدة ؟ نعم ، وباعتباره عدوا عاما ، لا ، عدوا شخصيا • فالرجل الشريف اذا غضب لا يتعدى فى غضبه الحد الضرورى • والمنفى يمقت الطاغية ويتجاهل شخصية النافى ، واذا عرفه فانه لا يهاجمه الا فى حدود الواجب •

والمنفى يراعى العدل عند اللزوم مع النافى • فاذا كان النافى مثلا كاتباً بنوع ما ، له بعض الأعمال الأدبية ، سلم له المنفى بذلك عن طيب خاطر • وليس من شك ، بهذه المناسبة ، فى أن نابليون الثالث كان أكاديميا مناسبا ، فقد هبطت الأكاديمية فى العهد الامبراطورى بمستواها ، من باب اللياقة ولا شك ، حتى تضم الامبراطور الى عضويتها • ولابد أن الامبراطور قد اعتقد بأنه جدير بمكانه فيها بين أقرانه من الأدباء ، ولم يمس جلالته مكانة الأعضاء الأربعين الآخرين •

وفى الوقت الذى أعلن فيه ترشيح الامبراطور لمقعد شاغر فى الأكاديمية ، أراد أحد الأعضاء من معارفنا أن يعترف بمكانة مؤرخ قيصر ، ورجل حركة ديسمبر ، فكتب سلفا فى بطاقة انتخابه : « أعطى صوتى مؤيدا قبول السيد لوى بونابرت فى الأكاديمية وفى الليمان » •

وهكذا ترون أن المنفى يسلم بكل التنازلات الممكنة • وهو لا يبدو ثابتا الا فى المبادئ ، فهنا تبدأ صلابته ، فلا يكون « رجلا عمليا » كما

يقال فى لغة السياسة • ومن ثم نلمس استسلامه لكل شىء ، للعنف ،
والاهانة ، والدمار ، والنفى • فماذا تريدونه أن يفعل ؟ على لسانه الحقيقة
التي تتحدث عند الضرورة رغما عنه •

سعادته وفخاره أن يتحدث بالحقيقة ، ومن أجل الحقيقة •

الحقيقة لها اسمان : فالفلسفة يسمونها المثل الأعلى ، ورجال
السياسة يسمونها الوهم •

فهل رجال السياسة على صواب ؟ لا نظن ذلك • فكل النصائح التي
يستطيع المنفى أن يقدمها « أوهام » على حد قولهم •

ويقولون – أى رجال السياسة – انه حتى مع التسليم بأن الحقيقة
الى جانب هذه النصائح ، فالواقع ضدها •
ولنبحث ذلك •

المنفى رجل خيالى • فليكن • انه مبصر وأعمى ، مبصر على الاطلاق ،
وأعمى نسبيا ، يمارس فلسفة جيدة ، وسياسة رديئة • من يستمع اليه
يسقط فى الهاوية • نصائحه تجرى فى الأمانة وفى الضياع • المبادئ
تقول انه على صواب ، ولكن الوقائع تخطئه •
فلننظر فى الوقائع •

انهزم جون براون فى « هاربرز فيرى » • وقال رجال السياسة :
اشنقوه أما المنفى فيقول : احتراموه • وشنق جون براون • وانقسم
الاتحاد ، وانفجرت حرب الجنوب • فلو أخلى سبيل جون براون ، لخلصت
أمريكا من الولايات •

من اذن المصيب من حيث الواقع ، رجال السياسة أم رجل الأوهام؟

الواقعة الثانية : قبض على ماكسيميليان فى كويريتارو • يقول
الرجال العمليون : اضربوه بالرصاص ، ويقول رجل الأوهام : اعفوا عنه •
وضرب ماكسيميليان بالرصاص • وكان فى هذا ما يكفى لتحقيق أمر عظيم •
وفقد كفاح المكسيك البطولى رونقه الباهر ، وفقد الرحمة السامية • فلو
صدر العفو عن ماكسيميليان لأصبحت المكسيك منذ اليوم فى حصن
حصين ، وأصبحت أمة حققت بالحرب استقلالها ، ومن ثم تحقق بالمدينة
سيادتها ، وأصبح التاج على جبين هذا الشعب بعد الخوذة •
وفى هذه المرة أيضا كانت نظرة رجل الأوهام صائبة •

الواقعة الثالثة : خلعت ايزابيلا من العرش . فماذا يكون مصير اسبانيا ؟ جمهورية أم ملكية ؟ يقول رجال السياسة : لتكن ملكية . ويقول المنفى : لتكن جمهورية . ولم يستمع أحد لرجل الأوهام ، فقد تغلب عليه الرجال العمليون . وتصبح اسبانيا ملكية ، وتنحدر من ايزابيلا الى اميدى ، ومن اميدى الى ألفونس ، فى انتظار كارلوس . هذا شأن اسبانيا ، يخصصها وحدها . ولكن اليكم ما يهم العالم . فهذه الملكية التى تبحث عن ملك ، تقوم ذريعة لآل هوهنز ولرن ، ومن ثم التربص ببروسيا ، وتذبيح فرنسا ، ومعركة سيدان ، والعار والظلام .

فلو افترضنا أن اسبانيا جمهورية ، فلن نكون هناك حجة للمفدر . ولا فرصة لواحد من آل هوهنز ولرن ، ولا كوارث . ومن ثم كانت نصيحة المنفى حكيمة .

ولعل بعضهم يكتشف صدفة أن هذا الشيء الغريب المسمى «الحقيقة» ليس سخيها ، وأن فى روح الرحمة والخلاص جانبا طيبا ، وأن الرجل القوى هو الرجل المستقيم ، وأن العقل هو الصواب !

واليوم ، وسط الكوارث ، وبعد الحرب الأجنبية والحرب الأهلية ، ومع المسئوليات الملقاة على الطرفين ، يفكر المنفى القديم فى منفى الوقت الحاضر ، وينعطف ناحية المنفى . لقد أراد أن ينقذ جون براون ، وينقذ ماكسيميليان ، وينقذ فرنسا ، وهذا الماضى يضىء له المستقبل ، وهو يريد أن يغلق جرح الوطن ، فهو يطلب العفو الشامل .

هل هو أعمى ؟ أم هو مبصر ؟

١١

فى ديسمبر ١٨٥١ ، عندما وصل كاتب هذه السطور الى خارج فرنسا ، كانت الحياة فى البداية على شئ من القسوة . ففي المنفى خاصة يتبدى الشعور بأهمية الأشياء الصغيرة المنزلية .

ولن تكون هذه النبذة الموجزة عن « ماهية المنفى » كاملة ، اذا لم يذكر فى سياقها ، بالفدر المعتدل المناسب ، ذلك الجانب المادى من حياة المنفى .

لم يبق من كل ما كان يمتلكه هذا المنفى سوى دخل سنوى يبلغ سبعة آلاف وخمسمائة فرنك . أما مسرحه الذى كان يأتيه بدخل سنوى يبلغ ستين ألف فرنك فقد ألغى . ونتج من بيع أثاثه بطريق الدلالة بيعا عاجلا مبلغ أقل بقليل من ثلاثة عشر ألف فرنك . وكان ملتزما بالانفاق

على تسعة أشخاص ، وعليه أن يتكفل بالانتقالات والأسفار واعداد المساكن الجديدة ونحركات جماعة هو في مركزها ، وكل المفاجآت غير المتوقعة في حياة أصبحت من ذلك الحين منفصلة عن الأرض الثابتة ، وهائلة تحت رحمة الاقدار . المنفى هو انسان اجتثت جذوره ، ولا بد له أن يحافظ على كرامته في الحياة ، ويدبر أموره بحيث لا يتألم أحد ممن حوله .
ومن ثم كانت الضرورة العاجلة للعمل .

نقول ان أول دار له في المنفى ، وهي « مارين نيراس » كانت مؤجرة له بمبلغ معتدل للغاية ، قدره ألف وخمسمائة فرنك في السنة .

كانت السوق الفرنسية مغلقة بالنسبة الى نشر أعماله . وطبع أوائل نشره البلجيكيين كل كنبه دون أن يقدموا له أى حساب . ومن هذه الكتب ، « مجموعة خطب » بجزأيه ، باستثناء كتاب « نابليون الصغير » فقط . أما كتاب « العقوبات » ، فانه كلف المؤلف مبلغ ألفين وخمسمائة فرنك دفعه للناسر « صمويل » ولم يسترده أبدا . وصادر الناشرون الأجانب المبلغ الاجمالى الناتج من طبعات كتاب « العقوبات » كلها لمدة ثمانية عشر عاما .

ونفخت الجرائد الملكية الانجليزية أبواقها بتمجيد كرم الضيافة الانجليزية المقترن على ما نذكر بحملات ليلية واجراءات طرد وإبعاد ، وهي ضيافة قريية الشبه على أية حال بالضيافة البلجيكية . وأفضل سىء فى الضيافة الانجليزية هو عطفها على كتب المنفيين ، فأعادت طبع هذه الكتب ونشرتها وباعتها بأكثر ما يمكن من الهمة والمودة لصالح الناشرين الانجليز . وبلغت شدة الاحتفاء بالكتاب حد نسيان المؤلف نفسه . ويسمح القانون الانجليزى الذى يشارك كرم الضيافة البريطانية بهذا اللون من النسيان . فمن واجب الكتاب أن يترك مؤلفه يموت جوعا ، كما جرى لشارترون ، فى حين يرى الناسر . وقد بيع كتاب « العقوبات » فى انجلترا ولم يزل يباع هناك الى الآن لصالح الكتبي « جيفس » وحده . ولم يكن احتفاء المسرح الانجليزى بالمسرحيات الفرنسية بأقل من احتفاء المكتبة الانجليزية بالكتب الفرنسية . ولم يدفع أى مبلغ مستحق عن حقوق المؤلف لمسرحية « روى بلاس » التى عرضت أكثر من مائتى مرة فى انجلترا .

وهكذا نرى أن الصحافة الملكية البونابرتية بلندن لم تعتب بلا سبب على المنفيين سوء استغلالهم لكرم الضيافة الانجليزية .

وكثيرا ما أطلقت هذه الصحافة على كاتب هذه السطور اسم « البخيل » ، وأسمته أيضا « السكير » .
هذه التفاصيل هى بعض من المنفى .

١٢

هذا الرجل المنفى لا يشكو شيئا . لقد عمل ، وأعاد بناء حياته
لنفسه ولأهله . وكل شيء على ما يرام .

فهل هناك فضل في أن يكون الانسان منفيا ؟ كلا . وهذا يدعونا
الى التساؤل عما اذا كان هناك فضل في أن يكون الانسان شريفا . المنفى
رجل شريف يستمر شريفا . وهذا كل ما هنالك .

وهناك فترات يندر فيها هذا الاستمرار . فليكن . وهذه الندرة
تسلب هذه الفترات بعض الأشياء ، ولكنها لا تضيف شيئا الى الرجل
الشريف .

الشرف ، كالبكارة ، له وجود في خارج النناء والمديح . فانت نقى
الذيل لأنك نقى الذيل . ولا فضل للصور في بياض لونه .

لقد أدى النائب المنفى من أجل الشعب عملا آمينا . وعد وحافظ
على وعده . وهو يحافظ على وعده الى مدى أبعد من نطاق الوعد نفسه ،
كما هو واجب كل رجل ذى ضمير حى . ومن ثم فلا فائدة من الوكالة
الأمرة ، لأنها يخطئ اذ تضع كلمة مهينة لشيء نبيل هو قبول الواجب ،
وهي فوق ذلك تهمل الشيء الجوهرى وهو التضحية ، التضحية التى لا بد
من بذلها ، ويستحيل فرضها . والحقيقة هى الالتزام المتبادل بين
الطرفين ، فتكون يد المنتخب فى يد الناخب ، ويتبادل الموكل العهد مع
الوكيل ، فيتعهد الوكيل بالدفاع عن الموكل ، ويتعهد الموكل بتأييد الوكيل
— حقان وقوتان ممتزجتان . فاذا كان الأمر كذلك ، فعلى النائب أن يؤدي
واجبه ، وعلى الشعب أن يؤدي واجبه . ذلك هو ما يدين به الضمير ،
ويوفى به الجانبان . ولكن هل يبلغ الاخلاص حدا يؤدي بصاحبه الى
النفى ؟ لا ريب فى ذلك . الى هذا الحد والأمر بديع وبسيط . وكل
ما يمكن قوله عن النائب المنفى انه لم يخطئ فى صفة الشيء الموعود به .
فالوكالة عقد . وليس ثمة أى فخار فى أن يمتنع الانسان عن البيع بأثقال
زائفة .

النائب الشريف ينفذ العقد ، ولا بد له أن يمضى الى آخر حدود
الشرف والضمير . وانه ليفعل ذلك . وهناك يجد الهاوية . فليكن .
ويسقط فى الهاوية دون شك . فهل يموت فيها ؟ لا ، بل يعيش .

فلنجدل ما قلنا .

الواضح لنا أن هذا اللون من المعيشة متعدد المظاهر .

هذه الحياة ، المضطربة اذا نظر اليها من ناحية المصير ، الهادئة اذا نظر اليها من الناحية الروحية ، عاشها من عام ١٨٥١ الى عام ١٨٧٠ ، من ٢ ديسمبر الى ٤ سبتمبر ، ذلك الغائب الذى يقدم اليوم لبلده حسابا عن غيبته . بنشره هذا الكتاب . لقد طال هذا الغياب تسع عشرة سنة وتسعة شهور . فماذا صنع خلال هذه السنوات الطوال ؟ اجتهد ألا يكون عقيما . والشئ الوحيد الجميل فى هذه الغيبة هو أن ضروب التعاسة قد أتته تبحث عنه ، وهو الانسان التعس ، والغرقى يطلبون النجدة من هذا الغريق . قصده الجميع ، لا الأفراد وحدهم ، وانما أيضا الشعوب ، ولا الشعوب وحدها ، وانما أيضا الضمائر ، ولا الضمائر وحدها وانما أيضا الحقائق . وقدر له أن يمد يده من أعلى صخرته الى المثل الأعلى الذى سقط فى الهاوية . وخيل اليه فى بعض اللحظات أن المستقبل المحفوف بالشدائد يحاول أن يدنو من صخرته . ومع ذلك فمن عساه يكون ؟ شئ تافه . جهد يعيش . ما هى الارادة بين قوى الشر المتألمة المنتصرة ؟ انها لا شئ اذا كانت تمثل الأنانية ، وهى كل شئ اذا كانت تمثل الحق .

ان أشد المواقف مناعة ذلك الذى يتكون من أعماق الانهيارات . ويكفى أن يكون الرجل المتهم رجلا عدلا . ونؤكد أنه اذا كان هذا الرجل على صواب ، فمن الأفضل أن يكون مثقلا بالأعباء ، مهتما ، مسلوبا ، مبعدا عن وطنه ، مهزما ، مهينا ، مجهلا ، مفترى عليه ، وأن يجمع فى شخصه كل أشكال الهزيمة والضعف . عند هذا فهو قادر على كل شئ . وهو لا يروض ، لأن فى طبيعه استقامة ، وهو منيع لأن الحقيقة معه . فما هى قوته هذه ؟ قوته ألا يكون شيئا ، وألا يملك أى شئ ، أو يكون معه شئ ، فتلك هى أنسب الظروف للكفاح . التجرد من الدروع هو الذى بثبت مناعة الانسان . وليس ثمة موقف أسمى من موقف الانسان الذى بسقط من أجل العدالة . المنفى يتصدى للامبراطور . الامبراطور يلعن والمنفى يحكم بالادانة . أحدهما يملك القوانين والآخر يملك الحقائق . نعم من الخير أن يكون الانسان قد انهيار . ان انهيار ما كان رخاء فى الماضى ، يجعل للانسان سلطانا . وكثيرا ما تكون قدرتك وثروتك عقبة فى طريقك . وحالما تزول عنك هذه الأشياء ، تزول متاعبك ، وتحس بحريتك وسيادتك ، فلا يضايك شئ بعد ذلك . فعندما يسحبون منك

زيادة في الشرف • والموقف الحاضر حسن • ومن الأفضل أن يقطع من فرنسا جزء من أجزائها بالقوة الغاشمة بدلا من تنصاغر بالخزي والعار • هذا هو الفرق بين الجرح وبين الميكروب ، فالإنسان يبرأ من جرحه ، ولكنه يموت من الطاعون • وقد تحتضر فرنسا بسبب الامبراطورية ، ولكنها تموت اذا شربت كأس العار • أما اليوم فانها لفظت العار ، ومن ثم سوف تعيش • ولم يعد لدى الشعب ذاته الا كل ما هو قوى وسليم ، بعد أن بصق أنظمة ١٨ برومير ، و ٢ ديسمبر •

كانت مشاغل المنفى في عزلته التي كان يملؤها بالتأمل في المستقبل قاسية ولكنها رصينة • وكان يأسبه ممزوجا بالآمال • كان يستشعر كما رأينا منذ قليل الحزن من أجل مصائب الناس ، ويستشعر في الوقت نفسه الفرح مع الشموخ لأنه منفي • فالمنفى بالنسبة لهذا الرجل بهجة ، لأنه قوة • وثمة منشور بابوى حكم على لوثر بالحرمان ولكنه عجز عن ترويضه • والمقابلة صحيحة ، يدركها المنفى الذي يتحدث ها هنا • وفوق السكون الذي يعم فرنسا ، والمنبر المهدوم ، والصحافة المكتمة ، استطاع المنفى ، وهو حر مثل شيطان الحقيقة أمام يهوذا الباطل ، أن يخطب ، وخطب بالفعل ، ودافع عن الانتخاب العام ضد الاستفتاء الشعبى ، وعن الشعب ضد الحشود ، وعن المجد ضد ذلك الانسان الفظ ، وعن العدالة ضد القاضى ، وعن الشعلة ضد النار التي تحرق فيها الأجساد ، وعن الله ضد القسيس • ومن ثم كانت تلك الصيحة الطويلة التي تملأ هذا الكتاب • وقد ذكرنا آنفا ، وسوف نرى فيما بعد أن المحن أقبلت تخاطبه من جميع الجهات ، وهى تعلم أنه لن يتراجع أمام أى واجب • ورأى فيه المظلومون مدعيا عاما للجريمة الشاملة • ويكفى لقبول هذه الرسالة أن يكون الانسان روحا حية ، ويكفى للنهوض بهذه الوظيفة أن يكون له صوت ، روح صالحة ، وصوت حر • وكان له ذلك • كان يسمع عند الأفق نداءات ، يرد عليها من أعماق وحدته • ذلك ما سوف تطالعونه • وهاجمته كل اضطهادات السادة • وكان هناك ولم يزل على اسمه تركيز من الحق لا يمكن التعبير عنه • ولكن ما جدوى كل هذا وما أهميته ؟ كان مع هذا فخورا وسعيدا بأن يكون منفيًا لعشرين سنة ، وأن يناضل الجموع كلها وهو وحيد ، والكتائب كلها ، وهو أعزل من السلاح ، والقتلة كلهم وهو الحالم ، والطفة كلهم ، وهو المطارد ، والعمالقة كلهم ، وهو الذرة ، ليس له سوى تلك القوة الوحيدة وهى شعاع من نور •

ذلك النور هو الحق كما قلنا ، الحق الأبدى •

وهو يشكر الله ، فقد عاش حياة أبية زمنا كافيا لكى يهرم جبين رجل فى الأربعين فيصير فى الستين • كان ذلك المنفى المطرود المطارد ،

زيادة في الشرف • والموقف الحاضر حسن • ومن الأفضل أن يقطع من فرنسا جزء من أجزائها بالقوة الغاشمة بدلا من تنصاغر بالخزي والعار • هذا هو الفرق بين الجرح وبين الميكروب ، فالإنسان يبرأ من جرحه ، ولكنه يموت من الطاعون • وقد تحتضر فرنسا بسبب الامبراطورية ، ولكنها تموت اذا شربت كأس العار • أما اليوم فانها لفظت العار ، ومن ثم سوف تعيش • ولم يعد لدى الشعب ذاته الا كل ما هو قوى وسليم ، بعد أن بصق أنظمة ١٨ برومير ، و ٢ ديسمبر •

كانت مشاغل المنفى في عزلته التي كان يملؤها بالتأمل في المستقبل قاسية ولكنها رصينة • وكان يأسبه ممزوجا بالآمال • كان يستشعر كما رأينا منذ قليل الحزن من أجل مصائب الناس ، ويستشعر في الوقت نفسه الفرح مع الشموخ لأنه منفي • فالمنفى بالنسبة لهذا الرجل بهجة ، لأنه قوة • وثمة منشور بابوى حكم على لوثر بالحرمان ولكنه عجز عن ترويضه • والمقابلة صحيحة ، يدركها المنفى الذي يتحدث ها هنا • وفوق السكون الذي يعم فرنسا ، والمنبر المهدوم ، والصحافة المكتمة ، استطاع المنفى ، وهو حر مثل شيطان الحقيقة أمام يهوذا الباطل ، أن يخطب ، وخطب بالفعل ، ودافع عن الانتخاب العام ضد الاستفتاء الشعبى ، وعن الشعب ضد الحشود ، وعن المجد ضد ذلك الانسان الفظ ، وعن العدالة ضد القاضى ، وعن الشعلة ضد النار التي تحرق فيها الأجساد ، وعن الله ضد القسيس • ومن ثم كانت تلك الصيحة الطويلة التي تملأ هذا الكتاب • وقد ذكرنا آنفا ، وسوف نرى فيما بعد أن المحن أقبلت تخاطبه من جميع الجهات ، وهى تعلم أنه لن يتراجع أمام أى واجب • ورأى فيه المظلومون مدعيا عاما للجريمة الشاملة • ويكفى لقبول هذه الرسالة أن يكون الانسان روحا حية ، ويكفى للنهوض بهذه الوظيفة أن يكون له صوت ، روح صالحة ، وصوت حر • وكان له ذلك • كان يسمع عند الأفق نداءات ، يرد عليها من أعماق وحدته • ذلك ما سوف تطالعونه • وهاجمته كل اضطهادات السادة • وكان هناك ولم يزل على اسمه تركيز من الحق لا يمكن التعبير عنه • ولكن ما جدوى كل هذا وما أهميته ؟ كان مع هذا فخورا وسعيدا بأن يكون منفيًا لعشرين سنة ، وأن يناضل الجموع كلها وهو وحيد ، والكتائب كلها ، وهو أعزل من السلاح ، والقتلة كلهم وهو الحالم ، والطفة كلهم ، وهو المطارد ، والعمالقة كلهم ، وهو الذرة ، ليس له سوى تلك القوة الوحيدة وهى شعاع من نور •

ذلك النور هو الحق كما قلنا ، الحق الأبدى •

وهو يشكر الله ، فقد عاش حياة أبية زمنا كافيا لكى يهرم جبين رجل فى الأربعين فيصير فى الستين • كان ذلك المنفى المطرود المطارد ،

قد أهمله الجميع ، ولم يهمل أحدا • وعرف فضل الصحراء ، ففي الصحراء ينردد الصدى • هناك يسمع الانسان صخب الشعوب • وفي حين كان الطغاة يعملون في الشر تحت أنظاره النابتة ، كان هو يسعى الى عمل الخير • وترك جميع الطغاة يحركون الصواعق فوق رأسه ، فلم يكن عنده ما يشغل باله سوى الكوارث العامة • وعاش على صخرة ، وحلم ، وتأمل ، وتفكر ، هادئا تحت غمامة من الغضب والتهديد • وأبان عن رضاه ، فمم يشكو ما دام معه وبالقرب منه طوال عشرين سنة ، العدالة والفعل والضمير والحقيقة والحق ، والبحر بضوضائه الهائلة ؟ •

وكان في هذا الظل كله محبوبا • ولم تكن الكراهية وحدها تثقل عليه ، فقد كان ثمة شعاع من حب صامت يصل اليه في وحدته وشعر بالحرارة العميقة ، حرارة شعب رقيق حزين • وتفتحت القلوب من ناحيته ، ومن ثم كان يشكر النفس البشرية العظيمة • كان محبوبا من بعد ومن قرب • وكان حوله نفر من زملاء المحنة الشجعان ، الأشداء في أداء الواجب ، المتمسكين بالحق والعدل ، المناضلين الغاضبين الباسمين ، منهم فاكيري الشهير ، وبول موريس الذي يستحق الإعجاب ، وسكولشير القوى العزيمية ، وريبير ذل ، ودولاك ، وكيسلر ، هؤلاء الشجعان ، وأنت يا ولدي شارل ، وأنت يا ولدي فيكتور - وهنا أتوقف ، فدعوني ريشا أتذكر •

١٥

رؤية هذه المدينة وهي تعيش ، ومشاهدة هذا الجلال ، شعور حاد يضطرب في النفس ، فليس ثمة بيئة أكثر منها اتساعات ، وليس ثمة مشهد أشد اقلاقا للنفس وأكثر سموا • ان أولئك الذين دفعتهم مصائدات الحياة أيا كانت الى الانتقال من منظر باريس الى منظر المحيط ، لم يشعروا مع هذا التغيير بأى ارتفاع في اللانهاية ، وفضلا عن ذلك فان الانتقال من أفق الناس الى أفق الأشياء لا يمحو شيئا • وذلك الحلم المرتد الى الورا ، الذي تلح عليه الذاكرة ، يحلق كالغمام ، ولكنه أشد منه تماسكا ، فالفضاء لا يصنع به ما يشاء • والرياح التي تهب ليل نهار ، والأعاصير الأربعة التي تتوالى على الدوام ، والرياح الشمالية الباردة ، والزوايع والعواصف ، لا تحمل معها جسمي البرجين التوأمين ، ولا تشبت قوس النصر ، أو قبة أجراس الكنيسة الغوطية ، أو مجموعة العمدة العالية التي تحف بالقبة الجلييلة (قبة الأنفاليد) • وخلف أطراف الهاوية السحيقة ، وفوق تقلبات اللجج والبواخر ، ووسط الأشعة والغمام والنسمات يتبدى داخل الضباب شبح هائل ، شبح المدينة الجامدة • وانها لرؤيا جليدة

فى نظر المنفى • ولما كانت باريس فكرة كما هى مدينة ، فان لها قدرة التواجد فى أكثر من مكان • باريس للباريسيين ، وباريس أيضا للعالم كلها • ومهما أردت الخروج منها ، فلن تستطيع • ان الانسان ليستنسجها مع الهواء • انها حية فى نفس كل من يعيش • حتى ولو لم يشعر بها ، فهى حية بالأولى فى نفس كل من عرفوها • وتخلط متاهة المحيط الوحشية بتلك الذكرى التى تماثل العواصف • ومهما كان البحر عاصفا ، فان لباريس أحداث عام ١٧٩٣ (١) •

ونثور الذكرى من نفسها ، فتبدو السقوف وكأنها برز من بين الأمواج ، وتنشكّل المدينة ثانية فى تلك اللجة كلها ، بالإضافة الى تلك الرجفة الأبدية • ويخيل الى الانسان أنه يسمع فى ضجيج الأمواج هدير الشوارع المتشابكة • انه لسحر وحشى • ينظر الانسان الى البحر فيبصر باريس • ولا تتعارض مع هذه الرؤيا ألوان السلام الكبيرة التى تضمها هذه الرحاب • ولا أثر فى ذلك للمجاهل الشاسعة التى تحيط بك ، فالفكر يصل الى نطاق السكينة ، ولكنها سكينة تبيح هذا الاضطراب • ويسمح غلاف الظلمات السميك بمرور الضوء الآتى من وراء الأفق ، من باريس • ويفكر الانسان فى باريس ، ومن ثم فهو يمتلكها • وتختلط باريس بصورة غير واضحة باشعاعات الفكر الصامتة • ولا تكفى ما تخلقه السماء المرصعة بالنجوم من هدوء وسكينة سامية لاذابة هذه الصورة الكبيرة للمدينة العظيمة فى أغوار النفس • وكل هذه الآثار ، والتاريخ ، والشعب العامل ، والنسوة اللواتى هن أمهات ، والأطفال الذين هم أبطال ، والثورات التى تبدأ بالغضب وتنتهى بالعمل الرائع ، وتلك القوة الهائلة المقدسة الكامنة فى اعصار من العقول الذكية ، وتلك الأمثلة الصاخبة ، وتلك الحياة ، وهذا الشباب ، كل ذلك حاضر فى ذهن الغائب • وتبقى باريس ، لا تنسى أبدا ، ولا تمحى ، ولا تغوص فى الأعماق ، حتى بالنسبة الى الرجل الغارق فى الظلال الذى يقضى ليليه فى التأمل أمام الصفاء الأبدى ، ويشيع فى روحه الدهول العميق أمام روعة الكواكب •

(١) السنة التى اضطرت فيها مراحل الثورة الفرنسية ، وساد فيها الارهاب وكثر

الاعدام ، واعدم فيها لويس السادس عشر - المترجم •

فى المنفى - ١٨٥٢

عند مغادرة بلجيكا
أنفرس فى أول أغسطس سنة ١٨٥٢

١

فى ديسمبر ١٨٥١ كان فيكتور هوجو واحدا من خمسة من ممثلى الشعب الذى انتخبهم اليسار لقيادة المقاومة وكفاح الانقلاب السياسى . وواصلت هذه اللجنة الخماسية الصراع من ٢ ديسمبر حتى ٦ منه ، واضطرت الى تغيير مأواها سبعا وعشرين مرة . وأكدت مذبة « البولفار » فى يوم الخميس ٤ منه انتصار الجريمة ، وانتزعت من حماة القانون كل فرصة للنجاح . وكان فيكتور هوجو مختبئا فى مدينة باريس ، وعلى اتصال بالأعضاء الرئيسيين فى الضواحي ، يبنى بذلك أن يبقى أطول مدة ممكنة تحت تصرف الشعب ويستغل آخر فرصة ممكنة للمقاومة . وفى اليوم الحادى عشر ، تبدد آخر أمل : ولم يبرح فيكتور هوجو باريس الا فى هذا اليوم ، ومضى الى بروكسل حيث كتب « قصة جريمة » ، و « نابليون الصغير » الذى حمل حكومة بلجيكا على سن قانون « فيدييه » . هذا القانون الذى وضع خصيصا من أجل فيكتور هوجو ، نص على عقوبات ضد الفكر الحر ، وقرر أن أشخاص الأمراء كلهم ، وما يرتكبونه من جرائم ، مقدسة ، تتمتع بحصانة . وحمل القانون اسم منشئه ، فيدييه . وكان فيدييه هذا على ما يبدو قاضيا . وكان لزاما على فيكتور هوجو أن يبحث عن ملجأ آخر . وفى أول أغسطس ركب السفينة فى أنفرس قاصدا إنجلترا . وقدم المنفيون الفرنسيون اللاجئون الى بلجيكا لمصاحبتهم حتى يركب البحر . وانضم الصفوة من البلجيكين الأحرار الى المنفيين الفرنسيين . وكان الفراق مهيبا بين هؤلاء الرجال الذين قدر للكثير منهم أن يموتوا فى المنفى . ووجه بعضهم الى فيكتور هوجو بعض عبارات الوداع ، أجاب عليها بالكلمة الآتية :

اخوانى المنفيون ، أصدقائى البلجيكىون . .

ردا على مثل هذا القدر من الكلمات الودية الموجهة الى شخصي ،
 أرجو معافاتي من الحديث عن نفسي ، وأن سمحوا لي بأن أتأسى ذاتي .
 فما أهمية ما يحدث لي ! لقد نفيت من فرنسا لأنني كافحت مؤامرة
 ديسمبر وصارعت الخيانة . ونفيت من بلجيكا لأنني كتبت « نابليون
 الصغير » . وهكذا نفيت مرين ! طاردني السيد بونايرت في باريس ،
 ثم يطاردني الى بروكسل . الأمر بسيط ، والجريمة تدافع عن نفسها .
 لقد أدت واجبي ، وسوف أواصل أداءه . فلندع الحديث عن ذلك . اني
 أتألم حقا من فراقكم ، ولكن ألم نخلق لتألم ! قلبي يدمى ، فلندعه يدمى .
 ألسنا نسمى بالضحايا ؟

اسمحوا لي اذن أن أترك جانبا ما يمس شخصي ، وأقدم شكري
 لماديه مونجو لتصريحاته القلبية الكريمة ، وشارا لكلماته الجميلة العظيمة ،
 وديشانيل لفصاحه النبيلة الساحرة ، وديسوب ، وأجريكول بيرديجيه
 لدواعهما المؤثر ، وأشكركم أيها الأصدقاء البلجيكيون لمشاعركم الودية
 الأخوية التي عبرتم عنها بقوة وثبات . ولست أعرف ، في لحظة الرحيل
 عن هذه الأرض الكريمة المضيفة ، ولعله رحيل الى غير رجعة ، الا أن
 ألعن آخر مرة لوى بونايرت ، وأهتف للجمهورية لآخر مرة : فلتحيا
 الجمهورية أيها الأصدقاء !

(يصيح الجميع من كل الأنحاء : لتحيا الجمهورية ! ويسترسل
 الخطيب) .

هناك أناس يقولون : ماتت الجمهورية . حسن ، اذا كانت قد
 ماتت ، فانا نهيب بالعالم المستغرق في هذه الساعة في الاستمتاع العنيف
 باشباع المصالح المادية ، أن يدير رأسه لحظة واحدة ، ويشهد المنفى وهو
 يحيى المقبرة .

أيها المنفيون ، اذا كانت الجمهورية قد ماتت ، فلنسهر على جثتها !
 ولنشغل أرواحنا وندعها تحترق كما تحترق الشموع حول النعش ، ولنبق
 منحنيين أمام الفكرة الميتة ، ولنكن كهنتها لندفنها ، بعد أن كنا جنودها
 المدافعين عنها .

ولكن لا ، الجمهورية لم تمت !

أيها المواطنون ، أعلن لكم أنها لم تكن من قبل أقوى حياة مما هي
 عليه اليوم . انها في السرايب السفلى وهذا شيء طيب . ان الذين يعتقدون
 أنها ماتت هم وحدهم الذين يظنون السرايب قبورا . السرداب ليس
 قبرا ، وانما هو المهد . لقد خرجت المسيحية من السرايب والتاج على
 رأسها ، ولسوف تخرج الجمهورية منها وأكاليل الغار على جبينها .

الجمهورية ميتة ! عجبا يا الهى ، بل انها خالدة ! وفى آية لحظة يقال هذا ؟ فى اللحظة التى لها فى فرنسا وحدها ألفان من القتلى ، ومائتان وألف أعدموا ، وعشرة آلاف أبعادوا ، وأربعون ألفا نفوا ! الجمهورية ميتة ! ولكن ارسلوا الطرف حولكم . أرض المنفى ، والجسور العائمة ، والسجون ، و « بيل ايل » (١) و « مازاس » (٢) ، وأمريكييا ، و « كابين » (٣) ، وخنادق « شان دو مارس » ، وجبانة مونمارتر ، كل هؤلاء ملأى بحياة الجمهورية . أيها المواطنون ، ديننا الديموقراطية والحرية والجمهورية . حسن ، اسمحوا لى بهذه العبارة : الشهداء هم وقود الأديان . وكلما زاد عددهم فى الآتون . ارفعت الشعلة ، وعظمت الفكرة ، وأضاءت الحقيقة . وأكرر لكم أيها المنقبون أن الجمهورية فى هذه الساعة أفوى حياة وأشد نالفا من أى وقت مضى ، فانها قد صنعت بهاءها من ألوان تعاستكم كلها .

ولن ألتمس لذلك برهاننا ، اذا اقتضى الأمر ، سوى هذا النور الذى يضىء وجوهكم أيها المنفيون الذين نلتفون حولى ، النور الذى لا يعلم الا الله من أين ينبع . ماذا يوجد بحق الله فى عيونكم وعلى جباهكم ؟ الفرحة . فرحة الضحايا المقدسة . وفى قلب كل منكم ، خلاف بلدته الأصلية التى نلانت صورتها من ذهنه ، والثروة المفقودة ، والعمل المحطم ، والخبز الناقص ، والعادات التى انقطعت ، والدار التى انهدمت ، فى قلبه أب وأم واخوة وأطفال ، كان لابد من فراقهم ، وزوجة محبوبة مهجورة ، أو حب منسحق ودام . انكم تقاسون ، وتتلون فوق هذه الجمرات المنهية ، ولكنكم ترفعون الرؤوس ، وعيونكم نقول : اننا راضون . ذلك لأنكم تعلمون أن الجمهورية موضع ايمانكم ، وفكرنكم عن الوطن انما تستمد حياة جديدة من عذابكم . آية ذلك آلامكم . الحطب يشتعل ، والشهيد يتألق ، فلتحيا الجمهورية أيها المواطنون !

(ترتفع صيحة ، لتتحيا الجمهورية ! وثمة صوت يقول : كلمة للأصدقاء البلجيكيين ! ويواصل فيكتور هوجو الحديث) :

سمعت الآن صوتا ينادينى قائلا : كلمة للأصدقاء البلجيكيين !

-
- (١) مضيق بيل ايل Bell-Isle ذراع البحر يفصل لرادور الشمالى من جزيره نيوفونلاند والملاحة فيها عسيرة فى الغالب - المترجم
- (٢) مازاس سجن ، بغرف انفرادية ، بنى فى باريس عام ١٨٤٥ - ١٨٥٠ فى حى مازا (اليوم ديديرو) - هدم عام ١٨٩٨ -
- (٣) كابين - جزيرة فى المحيط الأطلسى - قاعدة جيانا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) كانت منفى ترسل اليه السلطات الفرنسية المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة - المترجم .

هل خطر لكم حقاً أننى سأنسأهم ؟ (لا ! لا !) • أأنسأهم فى هذا الوداع ! وهم الذين جاءوا فى أعقابنا الى هذا المكان ، ويلتفون حولنا فى هذه الساعة بجموعهم الذكية الودودة • أولئك الذين يعتبرون بشدة على صعب حكومتهم • كيف أنسأهم ؟ أبدا ! انهم أمة صغيرة تسلك سلوك شعب عظيم • تذكرون أيها المنفيون أنهم قد بادروا لاستقبالنا حين وصلنا الى حدودهم بعد يوم ٢ ديسمبر ، منفيين ، مطرودين ، ومطاردين ، والعرق على جباهنا ، ولم تزل آذاننا تدوى بعجيج المعركة ، ووحل المتاريس المجيد عالق بنبابنا • ولم يخافوا من عدوانا • المجد لهم • لقد أنزلوا فى ديارهم ، ببساطة ورحابة ذلك النوع من الموبوئين بالطاءعون الذين يطلق عليهم اسم المقهورين •

أصل عندكم اذن مباشرة ، أيها الأصدقاء البلجيكيون ، دون أن تكون بلادكم مجرد معبر فى طريقى • فأنتم مضيفونا ، أى اخواننا • وليس الانسان فى حاجة الى المرور من أرض الى أخرى لكى يمد يده الى اخوانه •

ومنذ هنيهة ، برهن أحدكم ، ذلك الشجاع لوى لا بار ، على وطنيتكم بعبارات بليغة ، حين أقسم أن يموت دفاعا عن الوطن • هذا شئ طيب أويده ، ونؤيده نحن الفرنسيين الموجودين هنا •

نعم • اذا جاء السيد بونا برت ، اذا غزاكم السيد بونا برت ، اذا قدم ذات ليلة - فالليل وقته المفضل - يضرب حدودكم ، وهو يجر فى أعقابيه ، أو بعبارة أصح ، يسوق أمامه - فليس من طبعه أن يسير فى المقدمة - يسوق أمامه ما يسميه اليوم فرنسا ، ذلك الجيش الذى أصبح اليوم فاقد الجنسية ، بفرقه التى جعلها عصابات ، ورجال الحرس الامبراطورى الذين انتهكوا حرمة الجمعية الوطنية ، وأولئك الجنود « الأنكشارية » الذين طعنوا الدستور بسيوفهم ، وجنود شارع مونمارتر الذين كانوا خليقين بأن يصبحوا أبطالاً ، ولكنه جعل منهم لصوصاً ، اذا وصل هذا الرجل الى حدودكم ، معلناً أن بلجيكا ولاية تابعة له ، جالباً لكم العار ، أنتم الأشراف ، والعبودية ، أنتم أهل الحرية ، جالباً لكم النهب والسلب ، أنتم الأمناء ••• أوه ، عندئذ انهضوا أيها البلجيكيون ! انهضوا جميعاً ! استقبلوا لوى بونا برت كما استقبل أجدادكم الشرفيون (بلجيكيو بلاد الغال) كاليجولا ! أسرعوا الى المدرات والحجارة والمناجل وأسلحة المحارث ، وخذوا سكاكينكم وبنادقكم وغداراتكم ، واقفروا على سيف ارتيفيلد القديم ، وعلى هراوة كوبينول القديمة ، وضعوا اذا لزم الأمر كرات من الرخام فى مدفع جاندي القديم الضخم ، وسوف تجدون كراته الرخامية فى نوتردام دو هال ! نادوا بالسلاح ! فليس الذى عند

الأبواب هو هانيبال ، انما هو شنيدر هانز (١) اقرعوا أجراس الخطر ، ودقوا الطبول لحشد الجيوش ، واضرموا نار الحرب ، حرب السهول والأسوار والأدغال ، وقاتلوا العدو شبرا شبرا ، ودافعوا عن أنفسكم ، واضربوا وموتوا ، وتذكروا آباءكم الذين أرادوا أن يورثوكم المجد ، نذكروا أطفالكم الذين يجب أن يورثوهم الحرية ! اسعبروا من وائرلو صيحنها المفجعة : تموت بلجيكا ولا تسلم !

إذا جاءكم بونايرت فافعلوا هذا !

ولكن أيها البلجيكيون ، إذا جاءكم فرنسا ذات يوم ، فرنسا الحقيقية ، وجبينها يتألق بالنور ، وهي تحرك في ريح الثورات البهيجة علما ذا لون واحد ، تطالعون عليه عبارة : أخاء الشعوب ، الولايات المتحدة الأوروبية - جاءكم عظمة حرة فخورة رقيقة رائقة ، في يديها سنابل القمح وأكاليل الغار ، آه ، انهضوا هذه المرة أيضا أيها البلجيكيون ، وانما استبدلوا بالهراوة المكسوة بالحديد غصنا مزهرا • انهضوا ، وانما لتستقبلوا فرنسا وتقولوا لها : مرحبا !

انهضوا لتمدوا أيديكم إليها ، وهي أمانة ، كما نمد نحن أولادها أيدينا إليكم ، ولتفتحوا لها أذرعكم ، كما نفتحها لكم • ذلك لأن فرنسا تلك لن تكون هذه المرة فرنسا الغازية ، وانما المرشدة ، لن تكون فرنسا القاهرة المذلة ، وانما فرنسا المخلصة ، لن نكون فرنسا البونايرتية ، وانما فرنسا الأمم !

استقبلوها صديقة عظيمة • رحبوا بها منتصرة ، كما رحبتم بها منفية ، فهي التي تهنفون لها في هذه اللحظة ، لأنها فرنسا الحاضرة ها هنا • هي التي يضطهدا حكامكم أحيانا ، وتقومون أنتم دوما بانهاضها ومواساتها • انها تبكي على أبواب مدائنكم ، تحت قميص العامل أو بذلة الفلاح المنفى •

أصدقائي ، اليوم يوم الاضطهاد والألم ، أما الغد فللولايات المتحدة الأوروبية والشعوب الشقيقة ، غدا لا محيد عنه لأعدائنا ، محتوم بالنسبة إلينا • أيها الأصدقاء ، مهما كانت مخاوف اللحظة الحاضرة وقسوتها ، فعلينا أن نركز فكرنا في هذا الغد الباهر الذي يتبدى له منذ الآن ، وهذا المستقبل الشاسع الذي تنتهي إليه الحرية والأخوة • وانكم لتستمدون سكينتكم من هذه التأملات ، يا منفيي فرنسا • لقد ذكرت لكم منذ هنيهة

(١) يقصد لوى نابليون بونايرت - المترجم

أن الانسان ليدعش حين يرى فى عيونكم ، فى الظلام المفجع الذى يحف بكم ، نورا ساطعا • هذا النور هو ضياء المستقبل الذى يغمركم •

أيها المواطنون الفرنسيون والبلجيكيون ، لنرفع القوميات عالية فى وجه الطفاة ، ونحنىها أمام الديمقراطية • الديمقراطية هى الوطن الأكبر • الجمهورية العالمية هى الوطن العالمى • وعندما يحين الأوان ، يجب على القوميات والأوطان أن تطلق صيحة الحرب ضد الطفاة • فاذا نم هذا العمل ، فان الوحدة ، الوحدة الانسانية المقدسة ، سوف تضع على جبين الأمم كلها قبلة السلام • لنصعد من درجة الى درجة ، ومن علم الى علم ، ومن ألم الى ألم ، ومن شقوة الى شقوة ، الى القوالب الكبرى • ولتوسع كل درجة نجتازها دائرة الأفق • هناك من هو أعلى من الألمانى والبلجيكى والىطالى والانجليزى والفرنسى ، انه المواطن • • وهناك من هو أسمى من المواطن ، انه الانسان • الوحدة هى نهاية الأمم ، كما ان الجذور هى نهاية الشجر ، والسماء نهاية الرياح ، والبحر نهاية الأنهار • أما الشعوب ، فليس هناك غير شعب واحد • لتحبوا الجمهورية العالمية !

الوصول الى جيرسي

فى ٥ أغسطس ١٨٥٢

٢

اكتفى فيكتور هوجو باجتياز انجلترا . وفى ٥ أغسطس نزل من البحر الى جيرسي ، واستقبله عند وصوله جماعة المنفيين الفرنسيين الذين كانوا فى انتظاره على رصيف سانت هيليه .
أيها المواطنون . .

أشكركم على حفاوتكم الاخوية ، وانى لألمس فيها شبيها بالوداع الرقيق الذى أداه أصدقاؤنا فى بلجيكا . لقد غادرت فرنسا على رصيف أنفيس ، وهانذا ألقاها ثانية على رصيف سانت هيليه .

أصدقائي ، رأيت فى بلجيكا مشهدا مؤثرا ، رأيت الاختلافات كلها وقد نسيت ، والفوارق الجمهورية كلها وقد أصلح ما بينها ، وجدت توافقا عميقا ، وقد ضمت الأنظمة كلها الى راية الفكر ، وتقارب المنفيون بعضهم من بعض فى أحضان الأسي . رأيت كل انسان يبحث عن خصمه ليجعل منه صديقا له ، ويبحث عن عدوه ليجعل منه أخا له ، رأيت الأحقاد كلها وقد تلاشت فى بسمة الشقاء المعذبة الأبية . رأيت هذا ، وتحدثت عنه ، وامتلا قلبي به ، وانه لشيء جميل . نعم ، الأيدي كلها تنلاقى . ولم يعد الديموقراطيون والاشتراكيون كلهم يشكلون سوى شخصية جمهورية واحدة . وليس ثمة نظرة شرسة واحدة ، ولا جهة منعزلة واحدة ، ولا مجافاة . الأشياء الشريفة الماضية تتراخى ، والمحن كلها تتأخى ، والطبائع الشديدة التشعب تتوافق ، الكل من المجاهدين الى الفلاسفة ، من « شارلا » المحارب الى « اجريكول بيرديجييه » رجل السلام ، من أولئك الذين كانوا أطفالا لجماعة « الفكر » فأسعدهم الحظ بأن يولدوا ويكبروا فى أحضان العقيدة الجمهورية ، حتى أولئك الذين ولدوا مثل فى مراتب أخرى ، فارتقوا من تقدم الى تقدم ، ومن أفق الى أفق ، ومن تضحية الى تضحية ، الى الديموقراطية الصافية !

أكرر لكم أنى رأيت هذا ، وعلينا نحن القادمين الجدد أن نهنى ،
به الجمهورية .

أقول « القادمين الجدد » لأننا نحن الجمهوريين ، حسب (انقلاب)
فبراير (١٨٤٨) ، نحن — كما أعلم — وأؤكد — عمال الساعة الأخيرة ،
ولنا أن نفخر بذلك ، فقد كانت تلك الساعة الأخيرة هى ساعة الاضطهاد ،
والدموع ، والدم ، والقتال ، والنفى .

رأيت فى بلجيكا مشهدا رائعا ، مشهد المعاناة التى يعانيتها الناس
فى هدوء وتبات ، مشهدهم وهم يشتركون فى مرارة المحنة وكانهم
يشتركون فى وليمة عامة ، متحابين مؤمنين . أنتم يا من تكونون اخوة
لهم ، دعوني أمددا هنا فى بصور أخير ، تحية الوداع التى أديتها لهم !
دعوني أمدد هؤلاء الرجال الذين يقاسون كما يجب أن تكون المأساة ،
هؤلاء العمال الذين انتزعوا من المدينة التى كانت تغذى أبدانهم وتضئ
قريحتهم ، وهؤلاء الفلاحين الذين اجتثوا من الحقول التى ولدوا فى رحابها ،
وغيرهم الذين لا يقلون عنهم جدارة ، من متعلمين ، وأسائفة ، وفنانين ،
ومحامين ، وموثقى عقود ، وأطباء ، فالمهن كلها قد أبدت كل ضروب
النسجاعة . دعوني أمدد هؤلاء المنفيين المطرودين المضطهدين ، ومن بين
الجميع ممثلو الشعب الذين كافحوا ثلاث سنوات على المنبر ضد تحزب
الرجعيات والخيانات والأحقاد ، ثم قاتلوا بعد ذلك فى الشوارع أربعة
أيام ضد جيش بأكمله ! لقد عرفت هؤلاء النواب ، انهم أصدقاؤى ، فدعوني
أحدثكم عنهم ، واسمحوا لى بأن أكاشفكم بما فى صدرى : لقد رأيتهم فى
المعارك ، وشهدتهم على مشارف الكوارث ، ولمست هدوءهم خلف المنابر .
رأيت ما هو أندر من الشجاعة العسكرية ، رأيت جبينهم الباسل فى
المعارك البرلمانية ، حين كان المستقبل الغامض يتهددهم ، وكانت ثورات
الغضب المنبعثة من الأغلبية تتساقط على رؤوسهم ، وكانت الصحافة
الملكية ، أى الفوضوية تهينهم ، والصحف البونابرتية التى اشتركت فى
ترتيبات الايزيه المشنومة تتعمد أن تصب عليهم الأوحال ، والسباب
والافتراء يجعلهم جديرين بالنفى .

رأيتهم بعد ذلك ، بعد الانهيار ، فى العناء والمحنة الكبرى ، على
رأس طابور الضحايا المشنوم المتجه الى صحارى النفى . لقد أعجبت بهم ،
أنا الذى أحبهم .

هذا ما شهدته فى بلجيكا ، وهذا ما أعرف أننى سوف أشهده ثانية
ها هنا . ذلك لأن هذا المثل العظيم للتوافق بين المنفيين ، التوافق الذى
تحتاج اليه فرنسا ، هذا المشهد البديع للاخاء الذى تنهار أمامه الافتراءات ،

لا تنفرد بلجيكا باعطائه ، بل انا نجده على سائر أرماب « الميدوز » (١) ،
على سائر البقاع التي اجتمع فيها الغرقى المنفيون ، ونجده بصفة خاصة
فى جيرسبى . وأشكركم أيها الأصدقاء باسم شقائنا .

آه ! فلنقو هذا التوافق وندعمه ! ولننبذ كل انشقاق وخلاف فى
الرأى ! وطالما أنه لم يبق لرايتنا سوى لون واحد ، وهو الأرجوانى ،
فعلينا ألا نبقى فى نفوسنا سوى شعور واحد ، وهو الاخاء ! وأكرر لكم
أن فرنسا فى حاجة الى أن ترانا متحدين . فلنكن متحدين حتى نكون
أقوياء ولنكن متحدين حتى نكون سعداء .

سعداء ! يا لها من كلمة ! وهل فى الوسع التلفظ بها مع الأسف ،
والوطن بعيد ، والحرية مية ؟ نعم ، يمكن ذلك ، اذا أحببنا ، فالحب
المتبادل فى المحنة ، هو هناء التعساء .

وكيف لا نتحاب ؟ هل هناك ألم لم نقسسه جميعا فيما بيننا ؟ اننا
نشترك فى شقاء واحد وأمل واحد . سماء واحدة تعلو رؤوسنا ، ومنفى
واحد يضمنا ، ما تبكونه أبكيه ، وما تأسفون عليه آسف عليه ، وما تأملونه
أنتظروه . نحن متعائلون فى المصير ، فلم لا نكون اخوة بالروح . الدمع
الذى فى عيوننا اسمه فرنسا ، والشعاع الذى فى فكرنا اسمه الجمهورية .
فليحب بعضنا بعضا ! ومعاناتنا المشتركة هى بالفعل حب بيننا والمحنة
التي قطعت قلوبنا بسيف واحد جمعت بين قلوبنا فى الوقت ذاته بحب
واحد .

لنتحاب من أجل الوطن الغائب ، ومن أجل الجمهورية المذبوحة !
لنتحاب ضد العدو المشترك !

هدفنا شعب واحد ، ومنطلقنا لابد أن يكون روحا واحدة . لنرسم
الوحدة بالاتحاد .

أيها المواطنون ، لتحيا الجمهورية ! أيها المنفيون ، لتحيا فرنسا !

(١) شرق الميدوز - حادث مفجع مشهور ، جرى فى يولية ١٨١٦ - على ساحل أرجوين.
(موريتانيا - غرب أفريقيا) على بعد ٤٠ فرسخا من الشاطئ - المترجم .

تصريح فى موضوع الامبراطورية

جيسيبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٥٢

٣

الى الشعب

أيها المواطنون ..

سوف نتشكل الامبراطورية . هل علينا أن نعطي أصواتنا ، أم علينا أن نسنمر ممتنعين عن ذلك ؟ هذا هو السؤال الموجه إلينا .

فى مقاطعة السين عدد من الجمهوريين من بين أولئك الذين امتنعوا الى اليوم - كما يجب عليهم أن يفعلوا - عن الاشتراك بأية صورة كانت فى أعمال حكومة السيد بوناپرت ، يبدو أنهم يظنون اليوم أنه من المفيد ، بمناسبة قيام الامبراطورية ، تنظيم مظاهرة مضادة فى مدينة باريس عن طريق الاقتراع ، وأن الوقت ربما قد حان للتدخل فى التصويت . ويضيفون الى ذلك أن الانتخاب قد يكون فى جميع الأحوال وسيلة لاحتواء الحزب الجمهورى ، فبفضل التصويت يمكن معرفة تعداده .

وهم يطلبون رأينا .

جوابنا بسيط . وما عسانا أن نقوله عن باريس ، يصح قوله عن سائر المقاطعات .

ولن نريث حتى نبين لكم أن السيد بوناپرت لم يقرر المناداة بنفسه امبراطورا دون أن يحدد أولا مع أعوانه عدد الأصوات التى ينبغى أن يتجاوز بها الى ٧٥٠٠٠٠٠ صوت التى حصل عليها فى ٢٠ ديسمبر . وقد حدد رقمه فى الوقت الحاضر ، سواء أكان ثمانية ملايين أم تسعة ملايين أم عشرة ملايين ، ولن يغير الانتخاب من ذلك شيئا . ولست فى حاجة الى أن أذكركم بماهية « الانتخاب العام » الذى يجريه السيد

بونابرت ، وماهية انتخابات السيد بونابرت . مظاهرات مدينة باريس ، أو مدينة ليون ، احصاء الحزب الجمهوري ، هل هذا شيء ممكن ؟ أين ضمانات الانتخاب ؟ أين الرقابة ؟ أين الرقباء ؟ أين الحرية ؟ فكروا في كل هذه المهازل . ماذا يخرج من صندوق الانتخاب ؟ ارادة السيد بونابرت لا غير . ففي يد السيد بونابرت مفاتيح الصناديق ، في يده بطاقات نعم و لا ، في يده التصويت . فبعد أن ينجز المديرون والعمد أعمالهم ، ينقرد هذا الحاكم المستبد بصناديق الانتخاب ويجردها من محتوياتها . وما أسهل عنده من اضافة بعض الأصوات أو حذف البعض الآخر ، أو تزوير محضر أو ابتكار مجموع ، أو اصطناع رقم . الكذب عنده أمر ضئيل ، والتزوير عنده لا شيء على الاطلاق .

لنتمسك أيها المواطنون بالمبادئ . واليكم قولنا في ذلك .

يرى السيد بونابرت أنه قد آن الأوان لأن يسمى نفسه صاحب الجلالة . وهو لم يرجع للبابا سلطانه ليتركه بعد ذلك دون عمل ، فقد اعتزم تكليفه بأن يكرسه ويتوجه . كان له منذ ٢ ديسمبر السلطة الفعلية والطفيان ، أما الآن فهو يريد الاسم ، يريد الامبراطورية . فليكن .

أما نحن الجمهوريين ، فما هي وظيفتنا ؟ ماذا يجب أن يكون عليهِ موقفنا ؟

أيها المواطنون ، لوى بونابرت خارج على القانون ، لوى بونابرت خارج على الانسانية . هذا الشرير يحكم البلاد منذ عشرة شهور ، ولم يزل الحق في الثورة قائما ومسيطرا على الموقف كله . وفي اللحظة التي نمر بها ، تتوطد في أعماق الضمائر دعوة دائمة الى حمل السلاح . ولكن علينا أن نلزم الهدوء ، فان ما ينور في جميع الضمائر سوف يؤدي سريعا الى تسليح السواعد كلها .

أيها الأصدقاء والاخوان ! في وجود هذه الحكومة الرذيلة المنافية لكل المبادئ الأخلاقية ، المعركة لكل تقدم اجتماعي ، في وجود هذه الحكومة ، قاتلة الشعب ، سفاكة الجمهورية ، المعتدية على القوانين ، هذه الحكومة التي ولدت من القوة ، والتي لابد أن تموت بالقوة ، الحكومة التي أقامت الجريمة والتي يجب أن يصرعها القانون ، في وجود هذه الحكومة لا يعرف الفرنسي الجديد بلقب المواطن ولا يريد أن يعرف ما اذا كان هناك شيء شبيهه بالانتخاب ومهازل الانتخاب ، ومساخر دعوة الأمة ، ولا يستنصر عما اذا كان هناك رجال يعطون أصواتهم ، ورجال يحملون غيرهم على التصويت ، وعما اذا كان هناك قطيع يسمى مجلس الشيوخ ،

يتداول ، وقطيع آخر يسمى الشعب . عليه أن يطيع ، ولا يستفسر عما اذا كان البابا سيتزوج فى الهيكل الرئيسى لكنيسة نوتردام الرجل الذى سوف يدقه الجلاذ على خشبة الاعدام - وهو أمر لا ريب فيه ، المستقبل الذى لا مفر منه . فى حضور السيد بونايرت وحكومته ، لا يفعل المواطن الجدير بهذا النعت الا شيئا واحدا : أن يحشو بندقيته ، ويترقب الساعة .

وليمة بولندية

٤

الذكرى السنوية لثورة بولندا

٢٩ نوفمبر ١٨٥٢

أيها المنفيون البولنديون ..

نطقتم باسمى وسط هذه الحفلة المقامة لتمجيد كفاحكم العظيم ،
ودعوتمنى ، فهأنذا أقف .

هَذَا الاحتفال عزيز على ، وذلك لسببين ، فهل تعرفون لماذا أيها
المواطنون ؟ ليس فقط لأنه يثير فى نفوسنا ذكرى صحتكم البطولية
فى عام ١٨٣٠ ، وإنما أيضا وعلى الأخص لأنه يمجّد الثورة ، فى اليوم ،
بل وفى الساعة التى ينتخب فيها الأذلاء الامبراطورية .

نعم ، هذا يسرنى ويرضىنى . هذه الوحدة التى أشهدها ، الوحدة
بين فرنسا المنفية وبولندا المنفية فى ذكرى مجيدة ، ويوم تاريخى مشهود ،
لها سمة عظيمة ، سمة الايمان . نعم أيها المواطنون ، يجب دعم الحياة
فى نفس اللحظة التى يبدو فيها أن النعوش تغلق .

هنا اليوم ، فى هذه الجزيرة ، فى اللحظة التى ينادى فيها الناس
فى فرنسا بمجرم ٢ ديسمبر امبراطورا ، أهيب بأصواتكم الكريمة ،
وأحاديثكم الملهمة ، وأناشيدكم الوطنية أن تجيب كصدى للضمير الانسانى
على تلك الهتافات المشينة !

والآن ، اسمحوا لى أن أقف خاشعا أمام هذا اليوم التاريخى الذى
يجمعنا ، والذى أراه مدونا على هذا الحائط .

بولندا ! ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ ! يا لها من أمة ! ويا لها من ذكرى سنوية ! أيها المواطنون ، اليوم ، خلال تلك الأكوام الهائلة من العقود الكريهة التي تشكل ما تسميه مكاتب المبعوثين السياسيين بالقانون العام الفعلى لأوروبا ، وفى وسط هذه التجارة التي نتناول بالبيع والشراء الأراضى والأقاليم ، وعمليات شراء الشعوب ، وبيع الأمم ، وهذه الأكوام الكريهة من الوثائق المهوررة بكل الأختام الامبراطورية والملكية التي تتشكل صفحتها الأولى من معاهدة التقسيم العام ١٧٧٢ وصفحتها الأخيرة من معاهدة التقسيم لعام ١٨١٥ ، يرى الانسان ثغرة عميقة رهيبة خطيرة ، جرحا فاغرا يخترق الحزمة من جانب الى جانب . هذه الثغرة من يا ترى قد صنعها ؟ سيف بولندا . وبكم ضربة صنعها ؟ بضربة واحدة . وفى أى يوم ؟ فى ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ .

فى ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ ، شعرت بولندا بأن اللحظة قد حانت لمنع سقوط قوميتها بالتقادم ، وفى ذلك اليوم ضربت بالسيف ضربتها الرهيبة .

ومن ذاك الحين ، تهشم السيف ، وقيلت تلك العبارة البشعة : لقد استتب النظام فى وارسو ! هذا الشعب الذى كان بطلا من الأبطال ، عاد فأصبح مستعبدا ، وارتدى ثاوية أسمال المساجين . لقد قيد بعض الأمراء الذين يستحقون الليمان هذا المسجون الجدير بأكاليل الفخار وشدوه بالسلاسل .

أوه ، أيها البولنديون ، انكم على حق فى اتجاهكم الينا ، نحن أبناء أوروبا ، وفى نفوسكم مرارة . وان قلبى لينقبض حين أفكر فيكم . معاهدة ١٧٧٢ التي أعدت ونفذت فى مواجهة فرنسا ، فى أنوار الفلسفة والحضارة ، فى ذلك الضوء الساطع الذى أرسله على العالم فولتير وروسو ، هذه المعاهدة ، معاهدة ١٧٧٢ هي وصمة القرن الثامن عشر الكبرى ، كما أن ٢ ديسمبر هي عار القرن التاسع عشر الأكبر . وخلال فترة تاريخية طويلة - ولم أتريث حتى يومنا هذا لأقول هذا الكلام ، فقد سبق لى أن ذكرت به فى يوم ١٧ مارس عام ١٨٤٦ المجلس السياسى الذى كنت عضوا به - أقول انه منذ السنوات الأولى لعهد هنرى الثامن حتى السنوات الأخيرة لعهد لويس الرابع عشر ، غطت بولندا القارة (الأوروبية) التي كان الرعب يغشاها من حين الى حين بسبب طغيان الأتراك الهائل - وعاشت أوروبا ونمت ، وفكرت ، وتطورت ، وكانت سعيدة ، وأصبحت أوروبا بحق خلف هذا الطريق الكبير (يقصد بولندا) . وهاجت البربرية وماجت ، كالمذ الصاعد على بولندا ، كما يهدر المحيط على الساحل

الصخري ، وقالت بولندا للبربرية ، ملما تقول الصخور للمحيط : لن تمضى أبعد من هذا . واستمر الأمر كذلك ثلاثمائة سنة .

فماذا كان الجزاء ؟ ذات يوم أقدمت أوروبا التي أنقذتها بولندا من تركيا على تسليم بولندا الى روسيا . ولم تدرك أوروبا وهي ترتكب هذه الجريمة أنها ترتكب في الوقت نفسه حماقة ، وأن في ذلك عمى هو لون من العقاب . وبغير الموقف في القارة . ولم يعد الخطر آتيا من الجانب نفسه . واتسم القرن الثامن عشر الذي كان اعدادا في كل الأمور للقرن التاسع عشر ، اتسم بتضاؤل السلطان (التركي) ونمو نفوذ قيصر (روسيا) . ولم يدرك أوروبا هذه الظاهرة . وكان بطرس الأول ومربيه الصارم شارل الثاني عشر قد غيرا اسم موسكو فيا الى روسيا . وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، كانت تركيا ننسحب والروسيا ننقدم . ولم تعد الفوهة العاغرة هي تركيا ، وانما أصبحت الروسية . ولم يعد التهدير الأصم الذي يقرع أسماع الناس آتيا من اسطنبول ، وانما راح يأتي من بطرسبرج . وتغير موضع الخطر ، ولكن بقيت بولندا في مكانها . والشئ المدهش أن العناية الالهية قد أهلتها لمقاومة الروس . وصند الأتراك . فمادا صنعت أوروبا في عام ١٧٧٢ ازاء هذا الموقف ؟ كانت بولندا هي الحارسة ، فسلمتها أوروبا ، لمن ؟ للعُدو .

ومن الذي فعل هذا الشيء الذي لا اسم له ؟ الدبلوماسيون ، الروس السياسية المفكرة في ذاك الحين ، القادة السياسيون المحترفون . ولم يكن هذا عفوقا فحسب ، وانما كان أيضا غباء ، ولم يكن عارا فحسب ، وانما كان فوق ذلك حماقة .

واليوم تقاسى أوروبا من عقوبة الجرم . وجاء دور بولندا الميتة لتسلم أوروبا الى روسيا .

الروسيا ، أيها المواطنون ، تشكل خطرا أعظم من تركيا . والاثنان آسيويتان ، ولكن تركيا كانت آسيا الساخنة ، الملونة ، المتقدة ، الالهيبة الذي يضرم النار ، وانما يستطيع الاخصاب . أما روسيا فهي آسيا الباردة ، آسيا الشاحبة المتلجة ، آسيا المينة ، حجر الضريح الذي يقع فلا يرفعه أحد . لم تكن تركيا سوى الاسلام ، ضارية من غير تنظيم . أما روسيا فهي شئ أشد هولا ، انه الماضي القاتم الذي يصر على البقاء والحياة ويقترن بالحاضر ، غضة الفهد أهون من عناق الشبح . ولم تهاجم تركيا الا شكلا من أشكال الحضارة ، هو المسيحية ، وهو شكل قد زال وجهه الكاثوليكي من قبل . أما الروسية فانها تريد خنق الحضارة كلها مع الديموقراطية بضربة واحدة . تريد أن تقتل الثورة والحضارة

والمستقبل . ويبدو أن الاستبداد الروسي قال لنفسه : عدوى هو الروح
الانسانية . ألخص هذا في عبارة واحدة : عاشت اليونان بعد الأتراك ،
أما أوروبا فانها لن تعيش بعد الروس .

أوه ، أيها البولنديون ، أقول لكم من أعماق نفسى ، انى معجب
بكم . أنتم أقدم من اضطهد منا . وانا لنجد فى كأس المرارة التى نشربها
اليوم آثار شفاهكم . أنتم تحملون دعائم المنفى ، واخوانكم منفيون فى
سيبيريا ، كما أن لنا اخوانا منفيين فى أفريقيا . أيها المنفيون من بولندا ،
ان منفى فرنسا يحيونكم .

نجحى تاريخك أيها الشعب البولندى الطيب! ارفع الرأس فى محنتك .
أنت عظيم ، ترقد على أقدار الروس . آه لك يا أيوب الأمم ، ان جروحك
أمجاد .

نجحى تاريخك ، وتاريخ كل الشعوب التى قاست وكافحت . هذا
الاجتماع . وذاك التاريخ الجليل ، ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ يبعث أمام أنظارنا
الذكريات الثورية العظيمة ، وكل الرجال العظام محررى الشعوب . ونحن،
فى اعترافنا الدينى العميق بأفضال الرجال ، ندعو كوتشيسكو ،
وواشنجتون ، وبوليفار ، وبوتزاريس ، وكل المناضلين الشجعان فى
سبيل التقدم ، وكل الشهداء الأمجاد فى سبيل الفكر ، ندعوهم الى هذه
الولائم المقدسة فى المنفى . ألا يخيل اليكم ، كما يخيل الى ، أننا نراهم
فى هذه القاعة فوق رعوسنا ؟ ألا يوجد حول هذا اليوم التاريخى الجليل
شئ أشبه بالغمام الساطع يتجلى لنا عنده هؤلاء المنتصرون ، أجدادنا
الحقيقيون ، وهم لنا يتسمون ؟ انظروا اليهم ، وقد تغيرت ملامحهم ،
تأملوهم كما فعل ، لقد قاسوا هم أيضا . فى الضوء الغامض الذى يخرج
من القبر ، يتحول أولئك الذين لم يكونوا سوى آدميين ، فيصرون أنصاف
آلهة ، وتتغير أكاليل الأشواك التى سفحت الدماء على جبين الأحياء الى
أكاليل من الغار تنير جبين الأشباح .

أيها المواطنون ، هنا ممثلو خمس أمم : بولندا والمجر وألمانيا وإيطاليا
وفرنسا ، خمس أمم مجيدة أمام الجنس البشرى ، ترقد اليوم فى الهوة .

ويرتجف رجال الحكم الاستبدادى المطلق فرحا لذلك . ولكنهم
مخطئون فى فرحهم هذا . ولن أكف أبدا عن القول ان هذه الأمم رغم
اغتيالها لم تمت أبدا . ولا يعرف الطغاة الذين لا روح لهم أن الشعوب
لها روح .

ترى ماذا فعل الطغاة حين أحكموا غلق حجر المقبرة فوق شعب من

الشعوب ؟ يعنفون أنهم قد سجنوا أمة في القبر ، انما هم قد سجنوا
 مبه فكرة . ولكن القبر لا يفعل شيئا بمن لا يموت ، والفكرة خالده
 لا يموت . أيها المواطنون ، ليس الشعب لحما ، انما الشعب فكرة !
 ما هي بولندا ؟ انها الاسمعال . ما هي ألمانيا ؟ انها الفضيله . ما هي
 المجر ؟ انها البطولة . ما هي ايطاليا ؟ انها المجد . ما هي فرنسا ؟ انها
 الحرية . أيها المواطنون ، في اليوم الذي يموت فيه الاستقلال والفضيله
 والبطولة والمجد والحرية . في هذا اليوم فقط تموت بولندا وألمانيا والمجر
 وايطاليا وفرنسا .

في هذا اليوم أيها المواطنون ، نخفي روح العالم . ولكن روح العالم
 هي الله .

أيها المواطنون ، لنشرب نخب الفكرة التي لا يموت . لنشرب نخب
 الشعوب التي تبعت .

١٨٥٣

على قبر جان بوسكيه
فى جبانة سان جان بجيرسى
٢٠ أبريل ١٨٥٣

١

أقام فيكتور هوجو معنكفا فى دار نسمى «مارين بيراس» على شاطئ البحر .

وفى هذه الأثناء بدأ المنفيون يموتون . ولم يكن من الجائز دفن انسان فى القبر دون أن تقال عنه كلمة تنتقل منه الى الله . وأقبل المنفيون على فيكتور هوجو ، وطلبوا اليه أن يتكلم باسمهم ، فألقى هذه الكلمة :
أيها المواطنون . .

هذا الرجل الذى جئنا لنودعه الوداع الأخير ، جان بوسكيه ، من مقاطعة تارن - ايه - جارون ، كان جنديا نشيطا من جنود الديموقراطية . رأيناه منفيًا لا تلين له قناة ، يذوى بيننا بصورة مؤلمة . لقد أضناه المرض ، وكان يشعر فى أناة بالتسمم من ذكرى كل ما خلفه وراءه . كان باستطاعته أن يرى الغائبين ، والأماكن المحبوبة ، بلدته وداره ، يرى فرنسا ثانية . كان يستطيع ذلك بكلمة ينطق بها ، فقد عرض عليه ذلك الهوان الممقوت الذى يسميه السيد بونابرت العفو الشامل ، ولكنه رفضه . ومات وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . وها هو ذا الآن (ويشير الخطيب الى الحفرة) . ولن أضيف مديحا الى هذه الحياة البسيطة ، وهذه الميتة العظيمة . فليسترح فى سلام ، فى هذه الحفرة المظلمة التى سوف يغطيه فيها التراب والتى مضت روحه فيها لتلتقى بأمانى القبر الأبدية !

فليتيم هنا ، هذا الجمهورى ، وليعلم الشعب أنه لم تزل هناك قلوب طاهرة أبية مخلصه لقضيته ! ولتعلم الجمهورية أن الناس يموتون ولا يتخلون عنها ! ولنعلم فرنسا أن هناك من يموت لأنه لم يعد يراها !

فلبسهم هذا الوطنى فى بلده أجنبى ! ونحن ، رملاءه فى الكفاح وفى المحنة ، نحن الذين أغلقنا عينيه ، سوف نرد على أفراد أسرته وعلى أصدقائه اذا سألونا : أين هو ؟ فنقول : مات فى المنفى ! كما أجاب الجنود عند ذكر اسم " لانون دى فيرنى " : مات فى ساحه الشرف !

أيها المواطنين ! المرتدون عن مبادئهم فرحون . وتشهد الارض القديمة ، أرض ١٤ يولية ، و ١٠ أغسطس ازدهار الخسة بصورة بنسعة . ومسيرة النصر النى يسيرها الخوة . وليس تمة دناءة لم نفرز للمحال بمكافئها . فذلك العمدة قد خالف القانون . ومن ثم يعين محافظا . وذلك الجندى قد دنس العلم ، ومن ثم يرفى جنرالا . وذلك القس قد باع الدين ، ومن ثم ينصب أسقفا ، وذلك القاضى دنس العدالة ، ومن ثم يجعل عضوا بمجلس الشيوخ ، وذلك الأمير المغامر قد اقترف كل الجرائم ، من الدنابات التى لا يرنكبها النصاب ، الى الأعمال الشنيعة التى نحجم عن اقترافها القاتل ، ومن ثم يصير امبراطورا . وكل ما حول هؤلاء الرجال ، موسيقات وولائم ورقصات وخطب وبصفيق وركوع . ضروب العبودية تأتى لتهنىء ألوان المخازى .

أيها المواطنون ، لهؤلاء الرجال أعيادهم ! ولنا أيضا أعيادنا . ونحن ينهار أحد زملائنا فى المنفى ويموت وقد أضناه الحنين الى الوطن ، وأنهكته الحمى البطيئة ، حمى العادات النى انقطعت ، والعواصف السى نحطم ، بعد أن شرب حتى النماءة كل أشجان المنفى ، نسير خلف نعشه المغطى بملاءة سوداء ، ونصل الى حافة الحفرة ، ونركع نحن أيضا على ركبنا ، لا أمام النجاج ، وانما أمام القبر ، ونحنى أمام أحيانا المدفون ونقول له : أيها الصديق ، نهنتك لأنك كنت شجاعا ، وكنت كريما وجريئا ، نهنتك لأنك كنت مخلصا ، ولأنك ضحييت فى سبيل مبدئك حتى آخر أنفاسك ، وآخر خفقة فى قلبك ، ولأنك قاسيت ، نهنتك لأنك مت ! ثم نرفع رؤوسنا ونصرف وقلوبنا ملؤها بهجة قائمة . تلك هى أعياد المنفى .

تلك هى الفكرة الرصينة الصارمة القائمة فى أعماق نفوسنا كلها . ونحن ، أمام هذا القبر ، وهذه الهاوية التى يبدو أنها قد ابتلعت الرجل ، أمام هذه الظاهرة ، ظاهرة العدم المفجع ، نشعر بأننا معززون فى مبادئنا ومعتقداتنا . ولا ترسخ قدم المؤمن بأشد ما ترسخ الا على تربة القبر المتحركة . ونحن المؤمنين الراسخين فى الايمان ، نثبت أبصارنا على هذا الميت ، هذا الكائن الفانى ، هذا الشبح الذى مر وانقضى ، ونمجد الحرية التى لا تموت ، ونمجد الاله السرمدى .

نعم ، الله ! لا يجوز أبدا أن ينغلق قبر قبل أن تلفظ هذه الكلمة

الجليلة ، الحية ، فالموتى يلتمسونها ، ولسمنا نحن الذين نجرهم منها .
 فليفهم الشعب الحر المتدين الذى نعيش بين ظهرائه فهما جيدا أن الرجال
 النعميين ، رجال الديمقراطية . رجال النورة يعرفون أن للروح
 مصيرين ، ويدل نكران الذات الذى يظهره فى هذه الحياة على أنهم
 يعتمدون على المصير الأخرى . وإن إيمانهم بهذا المستقبل الغامض العظيم
 لسعوم ذلك المشهد الكريه الذى يصوره لنا منذ ٢ ديسمبر الكهوت
 الكابوليكى المسعبد . والبابوية الرومانية نفزع الضمير الانسانى فى
 هذه اللحظة . آه ! أقول ذلك والقلب مفعم بالمرارة حين أفكر فى كل هذه
 الخسة وهذا العار ، فى هؤلاء القساوسة الذين يباركون ويمجدون الزور
 والبهتان والقتل والخيانة من أجل القصور والسيارات والوصوليات ، وحبا
 فى مباح الدنيا ، وتلك الكنائس التى ينشدون فيها التسابيح من أجل
 الجريمة المتوحشة . نعم ، فى تلك الكنائس . وفى هؤلاء القساوسة ما يكفى
 لرعزة أرسخ العقائد فى أعماق النفوس ، إذا لم يبصر الانسان السماء
 هو الكنيسة . ولم ير الله فوق القس !

وهنا ، أيها المواطنون ، على عتبة هذا القبر المفتوح ، وفى وسط
 هذا الجمع الخاسع الذى يحف حول هذه الحفرة ، قد حانت اللحظة التى
 ينبغى فيها أن نبذر حديثا جديا مهيبا حتى ينبت فى كل الضمائر .

أيها المواطنون ، فى اللحظة التى نمر بها ، وهى لحظة مشؤمة
 سوف تنذكرها الأجيال القادمة ، يسود أوروبا كلها مبدأ الحكم المطلق ،
 ذلك المبدأ القديم ، وينتصر كما يحلو له أن ينتصر ، بالسيف والبلطة
 والحبل والنطع والمذابح والاعدام بالرصاص ، وضروب التعذيب . ويحتفل
 الاستبداد ، فى صورة الاله « مولوخ » (١) المحاط بعظام الموتى ، يحتفل
 بأسراره المخفية ، فى وجه الشمس تحت سلطان الكهنوت الدموى ، من
 أمال هينو وبونا برت ، ورايتسكى . مشانق فى البحر ، مشانق فى
 لومبارديا ، مشانق فى سيسيليا وفى فرنسا ، الجيوتين والنفى . وفى
 أملاك البابا وحدها ، البابا الملقب « بملك الرقة » ، أعدم منذ ثلاث سنوات
 ألفا وستمئة وأربعة وأربعين وطنيا ، وهذا رقم رسمى صحيح ، أعدموا
 شنقا أو ربما بالرصاص ، بالإضافة الى الكثيرين من الموتى الذين دفنوا
 أحياء فى السجون الضيقة المظلمة . وفى اللحظة التى أتحدث فيها ،
 تعج القارة ، كما كانت تعج فى أبشع عهود التاريخ بالمشانق والجثث .
 وفى اليوم الذى نعتزم فيه الثورة أن تتخذ علما من أكفان الضحايا كلها ،

(١) اله المومنين ، كانوا يقدمون له الأطفال فى البار فرانا ، ويمثل فى صورة

رحل له وجه ثور - المترجم .

سوف يغطى ظل هذا العلم أوروبا كلها . هذا الدم ، كل هذا الدم الذى بسيل غزيرا فى حداول من كل مكان ، دم ديموقراطى ، دمكم .

أيها المواطنون . فى وجود هذا الفيض من النذبيح والتفتيل . ومع هذه المحاكم المزدولة التى يجلس فيها قتلة فى توب القضاة ، وهذا العنصر المفجع الشرس الذى فازت به الرجعيات ، وكل هذه الحبس العزبه المقدسه ، أعلنها صريحة ، باسم المنفيين فى جبرسيى الذين فوصونى فى المتحدث عنهم — وأضيف اليهم المنفيين الجمهوريين كلهم ، فلن يكذبى صوت واحد جمهورى حقيقى موثوق بكلمته — أعلن أمام هذا النعش الذى يضم واحدا من المنفيين ، وهو ثانى منفى ننزله الى القبر منذ عشره أيام أننا ، نحن المنفيين ، الضحايا ، نجحد ، فى اليوم القريب الذى لا مفر منه ، يوم الخاتمة الثورية . نجحد كل ارادة ، وكل شعور ، وكل فكرة عن الأعمال السارية الدموية .

ولسوف يعاقب المذنبون كلهم بالتأكيد عقابا قاسيا . ولا بد من ذلك . ولكن لن يسقط منهم رأس واحد ، ولن تدنس قطرة دم واحده . أو بقله فى مشنقة ثوب جمهورية فبراير الطاهر . بل ان التقدم السورى سوف يحمى رأس مجرم ديسمبر نفسه ، رغم بشاعته . وسوف يجعل النورة من هذا الرجل أمتولة كبرى ، فتستبدل بموبه الامبراطورى الأرجوانى سترة المسجون نزيل الليمان . كلا ، لن نرد على المشنقة بمشنقة أخرى . وسوف نرفض القانون القديم الأخرف قانون العن بالعين والسن بالسن ، فهذا القانون ، لنظام الحكم الملكى ، بعض من الزمان الماضى ، ونحن نترك الماضى . وعقوبة الاعدام التى ألغتها الجمهورية فى عام ١٨٤٨ بصورة باهرة ، وأعادها لوى بونا بربت بصورة سنعة . لم نزل ملغاة بالنسبة اليها ، ملغاة الى الأبد . ولقد حملنا معا فى المنفى أمانة التقدم المقدسة ، وسوف نحملها معنا ثانية باخلاص الى فرنسا . وما نطلبه الى المستقبل . وما نريده من هذا المستقبل ، هو العدالة ، لا الانتقام . وكما أنه كان يكفى لأهل اسبرطة أن يشهدوا العبيد وهم سكارى من شرب النبيذ حتى يشمتوا دوما من حفلات اللهو والعريضة ، فانه يكفىنا نحن الجمهوريين أن نشهد الملوك سكارى من سرب الدماء حتى تشمت نفوسنا الى الأبد من آلات الاعدام .

نعم . نعلنها ، ونشهد على ذلك هذا البحر الذى يربط جبرسيى بفرنسا ، وهذه الحقول ، وهذه الطبيعة الهادئة التى نحيط بنا ، وانجلترا الحرة التى تنصت اليها ، نعلن أن رجال الثورة سوف يعودون الى فرنسا رغم ما تقول الافتراءات البونا بربتية ، يعودون لا سفاحين وانما اخوانا !

وانا لنشهد على أقوالنا هذه السماء المقدسة التي تتألق فوق رؤوسنا ،
والتي لا تصب في أرواحنا الا أفكار الائتلاف والسلام ! ونستشهد بهذا
الميث الرائد في هذه الحفرة ، والذي يتمم في كفه بصوت خفيض ،
بينما أنا أنكلم ، بقول : نعم أيها الاخوان ، اطرّدوا الموت ! لقد قبلته
لنفسى . ولكنى لا أريده لعبرى *

الجمهورية هي الاتحاد ، والوحدة ، والتوافق ، والور ، والعمل
الذى يخلق الرفاهية ، ومحو المنازعات بين الناس وبين الأمم ، ونهاية
الاستغلال المنافي للإنسانية ، والغاء قانون الاعداء ، واقامة قانون الحياة *

أيها المواطنون ، هذه الفكرة موجودة في نفوسكم ، ولست الا معبرا
عنها . لقد انقضى عهد الضرورات الثورية الدموية الرهيبة . أما فيما يبقى
لنا عمله . فان في قانون التقدم الوطيد ما يكفي . ثم لنهتدأ نفوسنا ،
فأمامنا كفاح سوف يلازمنا في المعارك الكبيرة التي سنخوضها . معارك
لا يمر ضرورتها الجلية من صفاء عقول المفكرين ، معارك سوف تكون
فيها الطاقة الثورية ندا لنعصب المكيّة ، معارك سوف تصرع فيها القوة
المتحدة مع الحق العنّب المقرون بالاعتصاب ، معارك رائعة مجيدة حماسية
حاسمة . لا ريب في نهايتها ، معارك ستكون ديموقراطية مثل معارك
بولساك وهبستنجنز وأوسترلينز *

أيها المواطنون : لقد حان وقت القضاء على العالم القديم . لقد أذان
القانون الالهى ضروب الاستبداد القديمة . فالزمن — هذا اللحاء المنحنى
في الظلال — يتكفل بدفنها ، وكل يوم ينقضى ، يقوص بها أكثر فأكثر
في الفراغ والعدم . والله يلقي بالسنب على التيجان منلما نلقى التراب
بالجاروف على النعوش *

والآن أيها الاخوان ، في لحظة الفراق ، علينا أن نطلق صيحة
النصر . صيحة اليقظة ، كما قلت لكم منذ شهور في مناسبة حفل بولندا ،
انه يجب الحديث عن البعث فوق القبور . وأكرر لكم القول ان المستقبل ،
وهو مستقبل قريب بلا شك ، يعدنا بانتصار الرأى الاجتماعى . ولكنه
يعدنا أيضا بأكر من ذلك ، يعدنا في كل الأجواء ، وتحت كل الشمس ،
وفي كل القارات ، في أمريكا وفي أوروبا ، يعدنا بنهاية كل ضروب القهر
والعبودية . وليس ما يلزمنا بعد المحن الشديدة التى عانىها تحرير طبقة
أو أخرى من الطبقات التى قاست طويلا ، أو الغاء امتياز ، أو تدعيم حق
فحسب . فكل ذلك سوف نحظى به ، ولكنه لن يكفيننا . ان ما نريده .
وما سوف نحصل عليه بلا ريب . وما آمل فيه من الآن أيها المواطنون
ببريق الفرح فى أعماق هذه الليلة القاتمة فى المنفى ، وما أطمح اليه ،

انما هو خلاص الشعوب كلها ونحرير الساس كلهم ! أيها الأصدقاء . ان
 آلامنا تازم الله ، فهو مدين لنا بنمنها ، وهو صادق أمين يوفى بالدين .
 فليكن لنا ايمان قوى ، ولننجز تضحيتنا بحماس . أيها المقهورون من كل
 الأمم ، مدموا حروكم ، أيها البولنديون قدموا نعاستكم ، أيها المجريون
 قدموا مسانقكم ، أيها الايطاليون قدموا صليبكم . أيها الاخوان الأبطال
 المنفيون فى « كابين » . وفى أفريقيا ، قدموا أغلالكم ، أيها المنفيون ،
 قدموا نفىكم وأنت أيها الشهيد ، قدم موتك همة لحرية الجنس البشرى .

على قبر لويز جوليان
جبانة سان جان
٢٦ يولية ١٨٥٣

٢

أيها المواطنين . .

ثلاثة نعوش في أربعة شهور . الموت معجل . والله يسلمنا الواحد
بعد الآخر . ونحن يا الهى لا ننهك وانما نشكر . نشكرك أيها الاله
القدير الذى نفتح لنا من جديد . نحن المنفيين أبواب الأبدية .

أما المخلوق العرب الميئ الذى نأتى به الى القبر في هذه المرة فانه
سيده .

ففي يوم ٢١ يناير الماضى قبض على امرأة في دارها . قبض عليها
السيد بودرو من مأمورى الشرطة في باريس . وأرسلت المرأة - وكانت
وفتش في ريعان شبابها . في الخامسة والثلاثين . ولكنها كسيحة -
أرسلت الى مركز الشرطة وسجنحت في الزنزانة رقم (١) في السجن
المسمى سجن « الاختبار » هذه الزنزانة . وهى أشبه شئ بقفص مساحته
من سبع الى ثمانى أقدام مربعة تقريبا . لا هواء فيها ولا نور . وصفقتها
السجينة التعسة بكلمة واحدة . اذ سميتها «حجرة القبر» . وقالت الكلمات
الآتية . انبها بحداييرها : « في حجرة القبر هذه أمضيت أنا الكسيحة
المقعدة واحدا وعشرين يوما ألصق سفتى من ساعة لأخرى على شبكة النافذة
لأستنشق الهواء الضرورى حتى لا أموت » . وفي نهاية اليوم الواحد
والعشرين . أى في ١٤ فبراير . أخرجت حكومة ديسمبر هذه المرأة من
سجنها وطردها من البلاد . ألقت بها خارج السجن وخارج الوطن في
وقت واحد . وخرجت المنقبة من سجن الاختبار وفي جسهما جرائم
السل . وغادرت فرنسا ودخلت بلجيكا . واضطرتها الفاقة الى السفر
وهى سعل وتبصق دما . ورثناها عليتان في صميم الشتاء . في الشمال
نحت المطر والثليج . في تلك العربات المكشوفة المخبفة التى تعتبر عارا
على مشروعات السكك الحديدية الغنية . ووصلت الى أوستند . كانت

مطرودة من فرنسا ، فطردتها بلجيكا ، ومرت بانجلترا • وما كادت ننزل
فى لندن حى لازمت الفراش ، وأصبح المرض الذى أصيبت به فى السجن
والذى استعجل خلال رحلة النفى الجبرية يهددها بالخطر •

وبقيت المنعفة أو بالأحرى المحكوم عليها بالاعدام ، طريحة الفراش
شهرين ونصف شهر • ثم قدمت الى جبرسيى وهى بطمح فى القليل من
جو الربيع وأسعة الشمس • وما زلنا نذكر أننا رأيناها تصل ذاب صباح
بارد ممطر فى ضباب البحر • وهى شفق وترجف داخل ثوبها المبلل
الرحيى المبتل • وانقضت بضعة أيام على يوم وصولها ، رفدت بعدها ،
ولم تنهض أبدا •

لقد ماتت منذ ثلاثة أيام •

وتسألونى عن هذه المرأة وعما فعلته حتى تعامل هذه المعاملة •
وهأنذا أحدثكم عن ذلك •

استنهرت هذه المرأة فى صواحي باريس باسم لويز جوليان ، وهو
الاسم الذى عرفها به الشعب وحياتها ، اشتهرت بالأغاسى الوطنية والحاديت
اللطيفة الودية ، والأعمال الطيبة الوطنية • استعلت عاملة فتعهدت بالغذاء
أمرها العليقة ، وتولت رعايتها والمحافظة عليها سنوات عسرا • وفى أيام
الصراع الأهلى ، كانت تضع الضمادات ، وتركب عربات نقل المصابين •
وهى عرجاء تجر قدميها ، وتسعف الجرحى من كل الأحزاب • كانت
امرأة الشعب هذه شاعره ، وعقلا مفكرا ، نرنم بمديح الجمهورية •
وتحب الحرية ، وتنادى فى حرارة بالمستقبل الأخوى لكل الأمم وكل
الناس ، ونؤمن بالله وبالشعب والتقدم ، وبفرنسا ، ونسكب حولها ،
كالاناء ، فى نفوس عامة الشعب (البروليتاريا) قلبها الكبير المععم بالحب
والايمان • هذا ما كانت نفعله هذه المرأة • لقد قتلها السبد بونابرت •

آه ، مثل هذا القبر ليس أخرس • انه مليء بالرفرات والتأوهات
والصيحات •

أيها المواطنون ، ان الشعوب ، فى اعتزازها الشرعى بحقها
وسلطانها ، تشيد بالجرائيت والرخام عمائر مدوية ، وأسوارا فخمة ،
ومنابر جلية يتحدث من فوقها عباقرتهم ، ونفيض من أعلاها بغزارة على
النفوس ، كلمات بليغة مقدسة فى حب الوطن والنفدم والحرية • ونخيل
الشعوب أنه يكفيها أن تكون صاحبة سيادة لكى تكون منيعة لا تفهر •
وتعتقد أن قلاع الكلمة ، والحصون المقدسة ، هى حصون الذكاء البشرى
والحضارة ، ويقول : المنبر سىء لا يمكن هدمه • ولكنها مخطئة • فهذه

المنابر يمكن قلبها . فمة خائن يأنى . وجنود يقدمون ، وسرذمة من اللصوص يتآمرون ، ويكشفون النقاب عن وجوههم ، ويضرمون النار ، فاذا الهبكل المقدس قد سقط . ويبعثر الحجر والرخام ، وانهار القصر والمعبد الذى كانت الامة نتحدث فيه الى الدنيا . ويهمل الطاغية الدنس المنصر . ويصق وبقول : انتهى الأمر . ولن يكلم أحد ، ولن يرتفع صوب بعد الآن . ها قد ساد الهدوء .

أيها المواطنون ! لقد أخطأ الطاعبه بدوره . والله لا يريد الهدوء أن يسود . الله لا يريد أن تصمب الحربه . والحرية صوت الله . أيها المواطنون . فى اللحظة التى بطن فيها الطغاه المنتصرون أنهم قد انزعوا الكلمة من الأفكار الى الأبد . يعبد الله الكلمة الى الأفكار ، ويعبد بناء المنبر الذى نهدم . لا فى وسط المبدان العام . ولا بالرخام والجرايت ، فلا حاجة به الى ذلك . اما يبنيه فى الوحدة . فى عشب الجبانه . بظل سجر السرو . بالرابية المشؤمة التى تكون من النعوس المخفية تحت سطح الارض . أتعلمون أيها المواطنون ما الذى يخرج من هذه الوحدة . وهذا العشب . وهذا السرو . وهذه النعوس المدفونة " نخرج منها صبحه الانسانية المؤلمة ، يخرج منها فضح الجريمة والاشهاد عليها . يخرج الاتهام القاسى الذى يمتقع له وجه المتهم الموج . يخرج احتجاج الموتى القوى . يجرى صوب الانتقام ، الصوت الذى لا يخمد ولا يسكت ! آه ! لقد أسكت السيد بونابرت المنبر . حسن . والآن فليحاول أن يسكب صوب القبر !

لن يستطيع هو وأمثاله أن يفعلوا شيئاً طالما صدر نهد من القبر ، أو سوهدت دمة تجرى فى العيون الجليلة . عبون الرحمة .
الرحمة ! . . . خرج هذه الكلمة التى بطقت بها لفرورى من أعماق جوارحى أمام هذا النعش . نعش امرأة . نعش أخت . نعش شهيدة .
بولين رولان فى أفريقيا . لوير جوليان فى جيرسيى ، فرانثيسكا مادير سباح فى نمسوار . بلانكا نلبكى فى ببشت ، وكثيرات غيرهن . روزالى جويبر . أوحينى جيمو . أوجسنين بيان . بلانش كلوار . سانجفان برايبى . اليزابيت بارلبه . مارى راينيل . كلودين هيردى ، آن سانجلا ، الارملة كومبيسكر . أرمانين هودى . وكثيرات غيرهن أيضا . أخوات وأمهات وبسات وزوجات . منعبات ومبعدات ومعذبات ومصلوبات ، ايه لكن أينها النساء ! يا له من موضوع ملؤه الدموع الغزيرة . والشفقة السى لا يمكن التعسر عنها ! منهن ضعيفات ومتألمات ومريضات . منهن من انسرعن من أسرهن وأزواجهن وآبائهن . منهن عجائز حطمهن كبن السن ، كل هؤلاء بطلات ، بل وأبطالا . أوه ! ان فكرى ليغوص فى هذه اللحظة

فى هذا القبر ، وبلتم قدمى هذه المينة الباردين فى نعشها ! ليست امرأة معينة بالذات هى التى أوقرها فى شخص لويز جوليان ، وانما المرأة عامة ! المرأة فى عصرنا ، المرأة الجديرة بأن نصبح مواطنة ، المرأة كما نراها حولنا ، فى كامل اخلاصها ورقتها وتضحيتها وجلالها ! أيها الأصدقاء ، سوف يكون دور المرأة كبيرا فى مستقبل الأيام ، فى تلك الجمهورية الاشتراكية الجميلة الهادئة الرقيقة الأخوية ، جمهورية المستقبل . ولكن يا له من نهيد بديع لهذا الدور ، ينمى فى هؤلاء الشهيدات اللواتى فاسين المحب بمثل هذه النجاعة ! أيها الرجال المواطنون ، قلنا أكثر من مرة بفخار : أعلن القرن الثامن عشر حق الإنسان . وسوف يعلن القرن التاسع عشر حق المرأة . ولكن يجب علينا أيها المواطنون أن نعرف بأننا لم نسرع أبدا فى هذا الموضوع . لقد اسوقنا الكثر من الاعتبارات التى أسلم بأنها شديدة الأهمية ، وأنها تطلبت الكثر من التمهيد . وفى هذه اللحظة التى أتحدث فيها ، فى الوقت الذى أدركنا فيه التقدم ، نجد الكثر من أصحاب العقول الممتازة ، من بين أحسن الجمهوريين ، وأكر الديمقراطيين صدقا وصفاء ، ما زالوا يترددون فى التسليم بمساواة النفس البشرية عند كل من الرجل والمرأة ، ومن ثم التسليم بالتشابه بينهما ، ان لم يكن التماثل التام ، فى الحقوق المدنية . ولنقل جهارا أيها المواطنون ، انه طالما استمر الرخاء ، وطالما كانت الجمهورية قائمة ، فان النساء اللواتى نسيناهن ، سوف ينسين أنفسهن . ويقتصرن على الإشعاع كالنور . وتدفئة الأرواح ، وترقيق القلوب ، وإيقاظ الحماسة ، وإظهار الناس على الطيبة والعدل والعظمة والحق . ولم يكن يطمع فى أكثر من ذلك ، وهن فى بعض اللحظات صورة الوطن المحب ، وكان باستطاعتهم أن يصرن روح المدينة . ولكنهن ظلمن روح الأسرة فحسب . ولكن فى ساعة المحنة ، تغير سلوكهن . ولم يعدن متواضعات . قلن فى ساعة المحنة : لا نعلم اذا كان لنا الحق فيما لكم من سلطة وحرية ومجد ، ولكننا نعلم أن لنا الحق فى تعاستكم ، حق المرأة الذى نطالب به هو أن تقاسمكم المعاناة والكد والفاقة والكرب والتنازلات والبفى . والحرمان من المأوى ، والجوع اذا افتقدتم الخبز . أوه يا اخوانى ، ها هن اللواتى يتبعننا فى الكفاح ، ويرافقننا فى المنفى ، ويسبقننا الى القبر !

أيها المواطنون ، طالما أنكم أردتمونى أن أنكلم هذه المرة أيضا باسمكم ، وطالما أن تفويضكم قد أكسب صونى القوة التى نفتقدها الكلمة المنعزلة ، فان الصيحة الأخيرة التى أود أن أطلقها على قبر لويز جوليان ، منلما فعلت منذ ثلاثة شهور على قبر جان بوسكيه ، هى صيحة الشجاعة والثورة والامل !

نعم ، ان نعوشنا ملل نعش هذه المرأة النبيلة الموجود ها هنا ، ننبئ ،
بسقوط الجلادين عما قريب ، وانهيار الطغيان والطغاة انهيارا لا مفر منه .
يموت المنفيون الواحد بعد الآخر ، ويحفر الحاكم المسبب قبرهم ، ولكن
سوف يأتي اليوم الذي تجذب فيه الحفرة اليها اللحد وتبتلعه .

ايه لكم أيها المونى الذين يحبطون بى ونسئمعون الى ، اللعنة على
لوى بونابرت ! يا أيها الموتى ، فليخسأ هذا الرجل ! ولن تكون هناك
مشائق حين يأتي النصر ، وانما كفارة طويلة ومخزية لهذا التعس ! اللعنة
بحت كل السماوات ، وفي كل الأجواء ، فى فرنسا والنمسا ولومبارديا
وصقلية وروما وبولنده والمجر ، اللعنة على المعتدين على حقوق الانسان
والقانون الالهى ! اللعنة على ممولى سفن عذيب المساجين ، ومسيدي
المشائق ، وهادمى الأسر ، ومعذبى الشعوب ! اللعنة على الذين ينفون
الآباء والأمهات والأطفال ! اللعنة على من يجلدون النساء بالسياط ! أيها
المنفيون ، فليكن صارمين فى هذه المطالب المهيبة المقدسة فى سبيل الحق
والانسانية . والجنس البتمرى فى حاجة الى هذه الصيحات الرهيبة ،
والضمير العالمى فى حاجة الى هذه الفورات من السخط من أجل الرحمة .
مقت الجلادين عزاء للضحايا ، ولعن الطغاة مباركة للامم .

الذكرى السنوية الثالثة والعشرون

للسورة البولندية

٢٩ نوفمبر ١٨٥٣ في جيرسي

٣

أخواني المنفيون . .

كل شيء يسر ويسعد ويقرب ، وأقول لكم بفرحة عميقة ان بشائر
الحدث العظيم قد بدأت بالفعل تنجلي ويظهر للعيان . نعم ، افرحوا أيها
المنفيون من جميع الأمم ، أو بالأحرى من الأمة العظيمة الوحيدة . تلك
الأمة التي ستكون أمة الجنس البشري . وسمى الجمهورية العالمية .
افرحوا ! في العام الماضي لم تكن سمطيع أن تفعل شيئاً أكثر من الدعاء
بالأمل ، أما في هذا العام ، ففي مقدورنا أن نلمس الحقيقة الواقعة .
في مثل هذا الوقت وهذا اليوم من العام الماضي . اكتفينا بالقول بأن
الفكرة سوف تبعد ! أما هذا العام ففي مقدورنا أن نقول : الفكرة تبعد !
كيف تبعد ؟ وبأي صورة ؟ ومن يبعثها ؟ هذا هو الشيء الذي لا بد
أذ ، نعجب له .

أيها المواطنون ، في أوروبا رحل ينقل عليها ، رجل هو في شخص
واحد أمير روحاني ، وسيد دنيوى ، وطاع ، وحاكم مطلق ، أمره مطاع
في المعسكر ، ومقدس في الدير ، صاحب الاوامر والعقائد ، يحرك في
سبيل سحق الحريات في القارة امبراطورية تعدادها ستون مليوناً من
الرجال . انه يفيض بيده على هؤلاء الملايين المسمتين ، لا باعتبارهم رجالاً ،
وانما مخلوقات فظة ، ولا باعتبارهم أرواحاً ، وانما آلات . وهو بصفته
المزدوجة ، الكنسية والعسكرية ، يلبس أرواحهم وأبدانهم ثوباً موحد
الزى . يقول : سبروا ! فيجب عليهم السير . ويقول : آمنوا ! فلا بد من
الايمان . هذا الرجل يسمونه في السياسة « الحاكم المطلق » ، وفي الدين
« الأرثوذكسى » . هو التعبير الاسمى للقدرة البشرية المطلقة . يعذب
كما يحلو له ، يعذب شعوباً بأسرها ، وما عليه الا أن يوميء ، فيفرغ
بولندا في سيبيريا . وهو يشبك ويخلط ويعقد كل خيوط المؤامرة الكبرى

التي يسجها الأمراء ضد الرجال . كان في روما ، فأعطى بصفته البابا اليوناني قبلة التحالف للبابا اللاتيني . يفرض سلطانه في برلين وميوينخ. ودرسدن وسنوبجارت وفيينا كما يفرضه في سان بطرسبرج . هو روح امبراطور النمسا وارادة ملك بروسيا . ولم تعد ألمانيا القديمة سوى تابع له . انه نىء سبيه بملك الملوك في قديم الزمان ، انه «أجاهسون» في حرب طروادة التي يضرهما رجال الزمان الماضي ضد رجال المستقبل . انه الخطر الوحشي الذي يتهدد به الظل النور ، من الشمال الى الجنوب . حدثكم عن هذا الجبار صاحب السلطة المطلقة ، وسألخص لكم الحديد. في كلمة واحدة : هو امبراطور مل سارل كنت ، وبابا منل جريجورى السابع . يمسك بيديه صليبا يسهى بسيف وصولجانا ينتهى بسوط .

هذا الأمير ، هذا العاهل ، ما دامت الشعوب تسمح لبعض الرجال أن يتخذوا لأنفسهم هذا الاسم ، هذا الذى يسمونه نيقولا الروسيا ، هو في الوقت الحاضر رجل الطغيان الحقيقي ، انه رأس الطغيان ، وليس لوى بونايرت الاقناعه .

وفي هذه القضية المعقدة التى لها كل ما للأقدار من قوة واقتدار ، قضية « أوروبا الجمهورية » أو أوروبا « القوزاقية » ، يتجسد نيقولا الروسيا أو أوروبا القوزاقية . نيقولا روسيا هو الوجه المضاد للثورة . أيها المواطنون ، هنا يجب اعمال الفكر ، فالأشياء الضرورية نحدث دائما ، وانما بأية طريقة ؟ هذا هو الشيء العجيب . وانى أوجه أنظاركم اليه .

بدا أن نيقولا روسيا قد انتصر . وسيطر الاستبداد - وهو نظام قديم أعيد بناؤه - سيطر على أوروبا من جديد بصورة أقوى في الظاهر من أى وقت مضى ، على أساس قتل عشر أمم ، وتوج بجريمة بونايرت . وكانت فرنسا التى يسميها سكسبير شاعر الانجليز « جندى الله » مجندلة ، مزوعة السلاح ، مقعدة بالأغلال ، مهزومة . كان يبدو أنه لم يبق سوى الاستمئاع بالنصر . غير أنه لم يكن للقياصرة منذ بطرس ، سوى فكرتين : الحكم المطلق ، والغزو . وحينما تحققت الفكرة الأولى ، فكر نيقولا في الثانية . وكان الى جانبه ظله . بل كدت أقول كان عند قدميه أمير مصغر ، امبراطورية تشيخ ، شعب ضعف بسبب التصاقه بالحضارة الأوروبية . وقال لنفسه : لقد حانت اللحظة . وبسط ذراعه نحو القسطنطينية . ومد مخرجه الى فريسته . ونسى كل كرامة ، وكل حياة ، وكل احترام لنفسه ولغيره ، وأظهر فجأة لأوروبا أشد ألوان الطموح فجورا وعريا ، وألقى ذلك الجبار بحمله وثقله على حطام ، وانقض على

ما كان يسقط ، وقال لنفسه مسرورا . فلنأخذ القسطنطينية ، انه لأمير
ميسور . غير عادل ولكنه مقيد .

فماذا حدث أيها المواطنون ؟

بهض السلطان ..

لقد انخد ببقولا بدهائه وفوته من اليأس ، تلك القوة العظيمة .
خصما له . وكانت هناك النورة ، تلك الصاعقة الخالدة . ولكن اسمعوا
هذا . فانه نبي عظيم : لقد حدث أن هذا التركي - هذا الأمير الهيريل
العليل المتصرف على الموت ، هذا الشبح الذي كان يكفى الفيصر أن ينفخ
فيه ، هذا السلطان الصغير الذي صفعه مينشيكيوف وجده جوريساكوف ،
حدث أنه ، وقد مست مشاعره . وأهين . وفجع ، ونفذ صبره . ألفى
بنفسه على الصاعقة فقبض عليها ، وهو الآن يمسك بها ويهزها فوق
رأسه . وتغيرت الأوضاع . وها هو ذا نيقولا يرتجف ! وها هي العروش
تتزعزع ، وها هم سفراء النمسا وبروسيا يبرحون القسطنطينية .
وها هي الفرق البولندية والمجرية والايطالية ششكل ، وها هي رومانيا
وترنسيلفانيا والمجر ترتعد ، وبلاد الشركس تنهض ، وبولندا ترتجف .
ذلك لأن الشعوب كلها والملوك كلهم قد عرفوا ذلك الشيء الساطع الذي
يبرق ويضيء في الشرق ، ويعلمون كل العلم أن ما يتلأأ في هذه اللحظة
في يد تركيا اليائسة ، ليس هو السيف القديم المنلوم ، سيف عثمان .
وانما هو بريق الثورات الفاخر !

نعم ، أيها المواطنون . انها الثورة التي اجتازت الدانوب منذ هنيهة !
وارتجفت منها أنهار الراين والتاير والشتول والسين .

أيها المنفيون ، المقاتلون في كل الأزمان ، والشهداء في كل
الصراعات ، صفقوا بأيديكم لهذا الحدث الخطير الذي بدأ منذ قليل ولى
يوقفه شيء الآن . وكل الأمم التي اعتقد الناس أنها ماتت نرفع في هذه
اللحظة رأسها . يقظة الشعوب ، هي يقظة السبع .

لقد اندلعت هذه الحرب بسبب جدت كانت الدنيا يريد مفاتيحه .
أى جدت وأية مفاتيح ؟ هذا هو الأمر الذي يجهله الملوك كلهم . هذا
القبر أيها المواطنون هو القبر الكبير الذي سجنحت فيه الجمهورية ،
الجمهورية التي تقف في الظلمات على أهبة الخروج . في أية أيدي سوف
تقع تلك المفاتيح التي ستفتح هذا القبر ؟ أيها الأصدقاء ، الملوك هم الذين
يتخاطفونها ، ولكن الشعب هو الذي سيحصل عليها .

انتهى الأمر ، وأؤكد ذلك . ومنذ اليوم لن تسبسط المفاوضات أو

المذكرات ، أو البرونوكولات ، أو الانذارات النهائية ، أو الهدنات ، أو دعاءات السلم نفسها أن يصنع شيئا في هذا الصدد . فما جرى قد جرى . وما بدى فيه سوف يتم . ولجأ السلطان في يأسه الى الثورة ، والورة أمسكه . ولم يعد في مهوره اليوم أن ينخلص من العون الرهيب الذى تلقاه . لقد اراد ما ليس في طاقته . وحين يستنجد الانسان بأحد الملائكة ويتخذة معينا له ، يحمله الملاك على أجنحته .

انه لامر مدحس ، وربما فدر للسلطان أن يعمل على انهيار العروس (صوت ينادى : بما فيها عرشه) .

هذا العمل الذى يجبر السلطان على القيام به ، عمل اسبارة الفيصر ! وسوف يكون فيصر هو المتسبب فى انهيار العروش الذى سببرنب عليه نآلف « الشعوب المتحدة » ، ولا أقول انه هو الذى أراده . ولسوف تكون أوروبا القورافية مصدرا لبزوغ أوروبا الجمهورية . الرجل السورى الأكبر فى أوروبا حاليا ، أيها المواطنون ، هو نيقولا روسيا .

أست محقا حين أقول لكم : تعجبوا من الكيفية التى نصرف بها العناية الربانية ؟

نعم ، ان العناية الالهية نسير بنا الى المستقبل فى طيات الظلام . انظروا واسمعوا ، ألا ترون أن الحركة الشاملة قد بدأت نصير هائلة ؟ عجيج الحكم المطلق المتشوم يمر كشبح فى دجى الليل ، وصفوف المتسابق تترنج فى الافق ، والجنات التى نلمحها تظهر وتخفى ، ونهض الجفر السى نضم الشهداء ، وكل سىء يسرع فى دوامة الظلمات هذه . ويبدو أننا نسمع هذه الصيحة الغامضة « مرحا مرحا ! الملوك يمضون سريعا ! » .

أيها المنفيون ، فلننتظر الساعة فسوف تدق عما قريب ، ولنتأهب . سوف تدق الساعة من أجل الأمم ، ومن أجلنا . عندئذ لن يتخاذل قلب . عندئذ نخرج نحن أيضا من هذا القبر الذى نسميه المنفى ، ونحرك كل الذكريات الدموية المقدسة . وفى أعماق الأعماق تنهض الحشود ضد الطغاة . وينتصر الحق والعدالة والتقدم . ان أكثر الأعلام جلالا ورهبة هو الكفن الذى حاول الملوك أن يدفنوا فيه الحرية .

أيها المواطنون ، انا نهتف من أعماق هذه المحنة التى ما زلنا فيها . ولنحى - وراء كل هذه الاضطرابات وكل هذه الحروب - لنحى الفجر المبارك ، فجر الولايات المتحدة الأوروبية ! آه ، سوف يكون هذا انجازا عظيما ! لن تكون هناك بعد ذلك حدود ، أو جمارك ، أو حروب ، أو جيوش ، أو بروليتاريا ، أو جهل ، أو تعاسة . سوف تلغى كل

الاستبدالات الأثيمة . وسمحي كل ضروب الاغتصاب ، وتتضاعف الشروة ،
ويحل العلم مشكلة الرخاء ، ويكون العمل والحق والواجب ، والوثام
بين الشعوب ، والحب بين الناس ، والعقاب وقد زال بفضل التربية
والسيف وقد انكسر هو وكل سلاح ، والحقوق كلها وقد أعلنت
وصيحت : حق الانسان في السيادة ، وحق المرأة في المساواة ، وحق
الطفل في النور ، ويصير الفكر هو المحرك الوحيد ، وتصير المادة هي الآلة
المسيخرة الوحيدة ، وتصير الحكومة نتاج تراكم قوانين المجتمع وقوانين
الطبيعة ، أي لا تكون نمة حكومة خلاف حق الانسان - وهكذا أيها المواطنون
ستكون على ما يحتمل اوروبا الغد ، وهذه الصورة التي تجعلكم تهتزون
طربا هي رسم مقتضب سريع . أيها المنفيون ، لنبارك آباءنا في قبورهم ،
ولنبارك هذه النواريح المجيدة التي تسطع على هذه الجدران ، ولنبارك
المسيرة المباركة التي تتخذها الأفكار . الماضي ينتمي الى الأمراء ، ويسمى
« الهمحة » ، أما المستقبل فينتمي الى الشعوب ، ويسمى « الانسان » !

١٨٥٤

الى سكان جيرنسي

يناير ١٨٥٤

١

صدر الحكم بالاعدام فى جزر بحر المانش . وتصدى له .
فيكتور هوجو .

أيا شعب جيرنسي . .

هذا الذى يأتى اليكم هو واحد من المنفيين . .

منفى هو ، ذلك الذى يتحدث اليكم فى شأن انسان محكوم عليه .
الرجل المنفى يمد يده للرجل الذى فى القبرة ، فلا تستهجنوه واستمعوا
اليه .

فى يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٨٥٣ ، فى جيرنسي ، دخل رجل
يدعى جون شارل تابنر ليلا فى منزل امرأة تدعى مدام سوجون وقتلها ،
ثم سرقها وأشعل النار فى جثتها وفى المنزل بأمل أن تضيع معالم الجريمة
الأولى فى دخان الثانية . ولكنه كان مخطئا ، فالجريمة لا تحابى أحدا .
وأبى الحريق أن يخفى جريمة القتل . والعناية الالهية لا تخفى الجرائم ،
ومن ثم سلمت القاتل .

وألقت الدعوى التى أقيمت ضد تابنر ضموا بشعا على الكثير من
الجرائم الأخرى . فمنذ بعض الوقت ، أشعلت بعض الأيدي النار فى منازل
مختلفة بالجزيرة ، ثم اختفت على الأثر . وتجمعت القرائن ضد تابنر ،
وبدا على الراجح أن كل الحرائق السابقة لابد أن تكون ذات صلة بالحريق
الدموى الذى وقع فى ١٨ أكتوبر .

وحكم الرجل ، حوكم بنزاهة وتمحيص بشرف قضائكم الحر
العادل . وانعقدت ثلاث عشرة جلسة استخدمت بروية فى فحص الوقائع
وتكوين عقيدة القضاة . وفى ٣ يناير صدر الحكم بالإجماع . وفى الساعة
التاسعة مساء ، انعقدت جلسة علنية مهيبه ، أعلن فيها رئيس قضائكم

الموقر ، عمدة جيرنسي ، بصوت مرتج مستغلق ، يرتجف بانفعال أحسده عليه ، أعلن للمتهم أنه بمقتضى « القانون الذى يقضى على القاتل بالاعدام » فعليه ، جون شارل نابنر أن يستعد للموت ، وأنه سوف يشنق فى يوم ٢٧ يناير القادم ، فى نفس مكان جريمته ، ويعدم فى الموضع الذى ارتكب فيه جريمة القتل .

وهكذا فهناك فى اللحظة التى تمر بنا ، بينكم وبيننا يا سكان هذه الجزر ، رجل يبصر بوضوح ساعته الأخيرة ، فى هذا المستقبل الملىء بالساعات المظلمة بالنسبة الى غيره من الناس . هناك فى هذه اللحظة التى نتنفس فيها بحرية ، ونذهب فيها ونجى ، وفتكلم ونبتسم ، هناك على بعد خطوات منا - والقلب ينبض لدى هذه الفكرة - فى سجن ، على حصير حقير ، رجل تعس يرتجف ، يعيش وعينه مثبتة على يوم من أيام هذا الشهر ، يوم ٢٧ يناير ، يوم كالسبح ، يتضخم ويقترب . يوم ٢٧ يناير المحجوب عنا جميعا كغيره من الأيام التى تنتظرنا ، لا يظهر وجهه الا لهذا الرجل ، ذلك الوجه المشثوم ، وجه الموت .

يا أهالى جيرنسي . لقد حكم على نابنر بالاعدام ، بمقتضى النصوص القانونية ، وأدى قضاؤكم واجبه ، ووفى بالتزامه « حسب تعبير كبار القضاة ، ولكن كونوا على حذر ، فهذا هو قانون « العين بالعين » . قتلت ، فسوف تقتل . هذا عدل أمام القانون البشرى ، ولكنه شئ مخيف أمام القانون الالهى .

أيا شعب جيرنسي . ليس ثمة شئ صغير فى موضوع الحصانة البشرية . ان العالم المتحضر ليطالبكم بالحفاظ على حياة هذا الرجل .

من أكون ؟ لا شئ . ولكن هل من حاجة لأن يكون الانسان شيئا ما لكى يحق له أن يتوسل ؟ هل من الضرورى أن يكون الانسان عظيما لكى يلتمس العفو ؟ أيا رجال جزائر بحر المانش ، نحن المنفيين من فرنسا ، نعيش بينكم ونحبكم . اننا نشهد مراكمم الشراعية وهى تمر عند الأفق فى أوقات الغسق ، خلال العواصف ؟ ونرسل اليكم بركاتنا وأدعيتنا . نحن اخوانكم ، نقدركم ونبجلكم ونقدس عندكم العمل ، والشجاعة ، والليالى التى تقضونها فى البحر لتوفير الغذاء للزوجة والأطفال ، وأيدي الملاح الخشنة ، وجبين الفلاح الذى لفحته الشمس ، نقدر فرنسا التى نحن أبناؤها ، وأنتم أحفادها ، وانجلترا التى أنتم مواطنوها ، ونحن ضيوفها .

اسمحوا لنا اذن أن نوجه اليكم الخطاب ، ما دمنا جالسين فى عقر

داركم ، وأن نرد لكم ضيافكم بقلوبنا ، وأن نأسى من أجل كل ما يمكن أن يكدر بلدكم اللطيف .

الغطاس ينزل الى أعماق البحر ليأتي بحفنة من الحصى . أما نحن الذين نقاسى ، والذين عانينا ، نحن المفكرين ، أو اذا شئتم الحالين ، فاننا نغوص في أعماق الأنسياء ، ونحاول أن نلمس الله ، ونعود بحفنة من الحقائق .

واليكم أولى هذه الحقائق ، انك لن تقتل .
هذا كلام مطلق ، قيل للقانون كما قيل للفرد .

أيها أهالي جيرنسي ، اسمعوا هذا :

هناك آلهة مخيفة ، مفعجة ، ممقوتة ، وثنية . كانت هذه الآلهة تسمى عند العبريين « مولوخ » ، وعند الكليتين « توفانيس » ، وتسمى الآن عقوبة الاعدام . كان كهنتها فيما مضى « المنجمين » في الشرق ، و « الدرويد » في الغرب . أما قسيسه اليوم فهو الجلال . وحل القتل الشرعى محل القتل المقدس . وقد ملأت هذه الآلهة فيما مضى جزيرتكم بالضحايا البشرية ، وتركت منها آثارا في كل مكان ، تلك الأحجار المفعجة وعليها صبدأ القرون وقد محا صبدأ الدماء ، نجدها نصف مطمورة في العشب على قمم تلالكم ، وعليها يصفر العوسج في ريح المساء . واليوم ، وفى هذه السنة ، يعود المعبود البشع ، فيظهر بينكم ، ويرعب فجر أيامكم ، وينذركم بطاعته ، ويدعوكم للحضور في يوم معلوم للاحتفال بطقوسه كما كان في الماضي ، ويطلبكم ، أنتم الذين قرأتم الانجيل ، وتنظرون الى الصليب المرفوع ، يطلبكم بضحية بشرية ! فهل تطيعونه ؟ هل تعودون من جديد وثنيين ، لساعتين ، في يوم ٢٧ يناير ١٨٥٤ ؟ وثنيين لنقتلوا رجلا ! وثنيين لتنقذوا روحا ! وثنيين لتبتسروا مصير مجرم بأن تقطعوا عنه فترة التوبة ! أستفعلون ذلك ؟ أهذا هو التقدم ؟ أى حالة صار اليها الناس اذا كانت التضحية البشرية ما زالت ممكنة ؟ أما زلتم في جيرنسي تعبدون الصنم ، صنم الماضي القديم الذى يزهد النفوس في حضرة الاله الخلاق ؟ ما جدوى ازالة الصنم اذا استبدلت به المشنقة ؟

عجبا ! أمن العسير اذن تخفيف العقوبة ، ومنح المذنب فرصة للندم والصلاح ، واستبدال الغفران الجميل بالتضحية البشرية ، وعدم قتل الانسان ؟ هل السفينة فى خطر شديد حتى يصبح رجل واحد عبثا زائدا عليها ؟ هل اذن يثقل على المجتمع الانسانى الى هذا الحد مجرم تائب ،

لدرجة أنه يتعين التعجيل بالقاء هذا المخلوق من على ظهر السفينة الى ظلام الهاوية ؟

أيا أهالي جيرنسي ! اليوم تتراجع عقوبة الاعدام فى كل مكان ، وتخسر أرضا لها كل يوم . انها ترحل أمام الشعور الانسانى . فى عام ١٨٣٠ ، طالب مجلس النواب الفرنسى ، بالهتاف الاجماعى ، بالغاء هذه العقوبة . وقد ألغتها الجمعية التأسيسية فى فرانكفورت من القوانين فى عام ١٨٤٨ ، وألغتها الجمعية التأسيسية فى روما عام ١٨٤٩ ، ولم تبق عليها جمعيتنا التأسيسية فى باريس الا بأغلبية غير محسوسة . أقول أكثر من ذلك ان توسكانيا وهى كاثوليكية قد ألغتها ، وروسيا وهى همجية قد ألغتها ، وأوناهيتى المتوحشة قد ألغتها . ويبدو أن الظلمات نفسها لم نعد لها رغبة فيها . فهل ترغبون فيها ، أنتم يا أهالي هذا البلد الطيب ؟

فى أيديكم الغاء عقوبة الاعدام الغاء فعليا فى جيرنسي . فى أيديكم ألا « يشنق رجل حتى يموت » فى ٢٧ من يناير . فى أيديكم ألا يكون عندكم هذا المشهد المخيف الذى سوف يترك لطخة سوداء على سمائكم الجميلة .

دستوركم الحر يضع فى متناولكم كل الوسائل الخليفة بانجاز هذا العمل الدينى المقدس . اجمعوا شملكم طبقا للقانون . حركوا الآراء والضماير حركة سلمية . فى مقدور الجزيرة كلها ، بل ومن واجبها أن تتدخل . على الزوجات أن يضغطن على الأزواج ، على الأبناء أن يرققوا قلوب الآباء ، وعلى الرجال أن يوقعوا على الطلبات والالتماسات . خاطبوا حكامكم وقضاتكم فى حدود القانون . طالبوا بوقف تنفيذ الحكم . طالبوا بتخفيف العقوبة وسوف تحصلون على ذلك . انهضوا ، أسرعوا ، لا تضيعوا ساعة ، لا تضيعوا لحظة . اجعلوا نصب أعينكم دائما هذا اليوم المشئوم ، يوم ٢٧ يناير . ولتخص الجزيرة كلها الدقائق كما يحضنها هذا الرجل .

فكروا فى هذا جيدا ، ان الصوت الذى تسمعون الآن فى كل ساعاتكم الحائطية ، منذ أن صدر حكم الاعدام هذا ، هو خفقات قلب هذا التعس .

أمن الضرورى أن تكون هناك سابقة ؟ اليكم واحدة منها . فى عام ١٨٥١ ، قتل رجل فى جيرسي رجلا آخر . فثمة رجل يدعى جاك فوكيه أطلق رصاصة من بندقية على رجل يدعى ديربيشاير ، وصدر قرار هيبشتي

التحكيم على التوالى بأن جاك فوكيه مذنب . وفى ٢٧ أغسطس حكمت عليه المحكمة بالإعدام . واضطربت مشاعر الجزيرة مع دنو موعد تنفيذ الحكم . وانعقد اجتماع كبير حضره ألف وستمائة شخص ، تحدث خلاله بعض الفرنسيين ، وصفق لهم شعب جيرسيي الكريم . ووقعت عريضة . وفى ٢٣ سبتمبر وصل قرار العفو عن فوكيه .

والآن ، ماذا حدث لفوكيه ؟ سأقول لكم ماذا حدث له .

فوكيه يعيش ، فوكيه يتندم (١) .

ما رد المشنقة على هذا ؟

يا أهالى جيرسيي ، ما فعله جيرسيي ، تستطيع أن تفعله جيرسيي . وما حصلت عليه جيرسيي سوف تحصل عليه جيرسيي .

أيقال ان الاعدام يبدو عدلا فى هذه الجريمة التى ارتكبت فى ١٨ أكتوبر ، أما جريمة تابنر فانها شئ فظيع ؟ كلما ازدادت خطورة الجريمة كان من الواجب اطالة الوقت اللازم للندم .

عجبا ! امرأة قتلت ، قتلت بئذالة ، نعم بئذالة ! ومنزل نهب ، واغتصب ، وأحرق ، جريمة قتل ارتكبت . ويعتقد الناس أن حول هذا القتل قد جرت مجموعة أخرى من الأعمال الشريرة ، فجرى اعتداء ، لا بل الكثير من الاعتداءات التى تتطلب اصلاحا جديا طويلا ، ثم القصاص المصحوب بالتفكير ، وافتداء الشر بالتوبة والندم ، وركوع المجرم تحت وطأة الجريمة ، والمحكوم عليه تحت وطأة العقوبة ، وحياة بأسرها مفعمة بالألم والتطهير . ومع كل ذلك يصير كل شئ على ما يرام لمجرد انه ذات صباح فى يوم محدد ، يوم الجمعة ٢٧ يناير ، ستدق مشنقة فى الأرض فى لحظات قلائل ، ثم يضغط حبل على رقبة رجل ، وتفلت روح من جسده تعس ، مصحوبة بولولة المسكين الهالك !

يا لها من عدالة انسانية هزيلة مقتضبة !

(١) جاك فوكيه - تأكد لنا أن جاك فوكيه المحكوم عليه بالإعدام من قبل محكمة الملكية باعتباره مذنبا فى جريمة قتل فريدريك ديريشاير ، والذى خففت صاحبه الجلالة عقوبته فاستبدل بها النفى المؤبد ، قد نقل منذ ستة أشهر من سجن ميلبانك الذى كان مقيما فيه الى دارتمور . وقد شفى تماما من العلة التى كان يشكو منها فى رقبته . وكان سلوكه فى ميلبانك باعثا لمحافظ هذا السجن أن يعتقد أنه من الأرجح أن نخفف عقوبته من جديد ، وينفى الى الممتلكات الانجليزية .

(كرونك دوجيرسى ، فى ٧ يناير ١٨٥٤) .

آه ! نحن القرن التاسع عشر ، نحن الشعب الجديد ، الشعب المفكر . الرصين ، الحر ، الذكي ، المجده ، صاحب السيادة ، نحن أفضل أجيال البشرية ، عصر التقدم ، ، والفن ، والعلم ، والحب ، والأمل ، والأخوة ، والمشائق ! ماذا تريدون منا يا آلات الموت البشعة ، يا هياكل القناء القبيحة ، يا أطيايف الماضي : أنت يا من تمسك بيدك السكين المنلثة ، وأنت يا من تهز هيكل عظيم في طرف جبل ، بأى حق تعودون للظهور فى وضج النهار ، ونور الشمس . وفى قلب القرن التاسع عشر ، وصميم الحياة ؟ أنتم أتباح . أنتم متاع الليل فعودوا الى الليل . هل تخدم الظلمات النور ؟ انصرفوا ، عندنا ما هو أفضل منكم ، لتهذيب الانسان ، واصلاح المذنب ، وانارة الضمير ، وانبات الندم فى هجة الجريمة ، عندنا الفكر ، والتعليم ، والتربية المتأنية ، والمثل الدينى ، والضياء العلوى ، والتجربة السفلية ، والتكشف ، والعمل ، والرحمة . عجبا ! أفى مدينة السيادة ، مركز الجنس البشرى ، مدينة ١٤ يولية ، و ١٠ اغسطس ، المدينة التى يرقد فيها روسو وفولتير ، عاصمة الثورات ، مهد الفكر ، نجد ميدان « جريف » (١) ، وبوابة سان جان ، و (سجن) لاروكيت ! ومع ذلك لا يكفى هذا التناقض الفطيع ، وقليل هو هذا المنطق المعكوس ، فلا بد اذن أن تنصب المشنقة ، وترتفع ، وتؤكد حقها ، وتسود ، هنا فى هذه الجزر ، بين الصخور والأشجار والأزهار ، فى ظل الغمام الكبيرة التى تأتى من القطب ! هنا فى عجيح الرياح ، فى هدير الأمواج الدائم ، فى وحدة الهاوية ، وجلال الطبيعة ! هيا ، انصرفوا ، اختفوا ! ماذا جئت تفعل ، أنت أيها الجيوتين ، فى قلب باريس ، وأنت أيتها المشنقة ، فى وجه المحيط ؟

يا شعب الصيادين ، يا رجال البحر الشجعان الطيبين ، لاتركوا هذا الرجل يموت . لا تلقوا ظل المشنقة على جزيرتكم الجميلة المباركة . لا تدخلوا فى مغامراتكم البحرية البطولية الخطرة عنصر الفجيرة الغامض هذا . لا تقبلوا التضامن الرهيب الذى يتجلى فى تعدى القوة البشرية على القدرة الالهية . من ذا الذى عنده العلم والمعرفة ؟ من ذا الذى كشف اللغز ؟ هناك أسرار خفية فى أفعال الانسان ، مثل الدوامات فى اللجج . فكروا فى الأيام العاصفة ، وليالى الشتاء ، وفى القوى الخائفة الغامضة التى تسيطر عليكم فى بعض اللحظات . فكروا فى وعارة شاطئ « سيرك » ، وفى أعماق « مانكييه » ، ورداءة صخور « باتير نوستير » . لا تنفخوا ريح القبر فى شراع مراكبكم . لا تنسوا أيها الملاحون ، لا تنسوا أيها الصيادون ، لا تنسوا أيها البحارة ، أنه ليس هناك سوى

(١) ميدان فى باريس ، كانت تنفذ فيه أحكام الاعدام فى الزمان الماضى - المترجم .

لوحة واحدة بينكم وبين الأبدية ، وأنكم نحت رحمته الأمواج التي لا يسرف لها قرار ، والأقدار المجهولة ، وأنه قد توجد هناك إرادة فيما تحسبونه نزوة ، وأنكم تصارعون البحر والزمن بلا هوادة ، وأنكم أيها الناس الذين لا تعرفون إلا القليل جدا ، ولا حول لكم ولا قوة ، تواجهون دائما اللانهاية والمجهول .

المجهول واللانهاية ، هما القبر .

لا تفتحوا بأيديكم قبرا بين ظهرائكم .

لعمري ، ألا تقول لنا أصوات هذا المجهول شيئا ؟ ألا تحدثنا كل هذه الأسرار الغامضة بعضها عن البعض الآخر ؟ ألا يتطلب جلال المحيط قداسة القبر ؟

فى العاصفة ، وفى الزوبعة ، وفى أوقات الاعتدال الشمسى ، حينما تهز نسائم الليل ذلك الرجل الميت المعلق على دعائم المشنقة ، ألا نجد هذا الهيكل البشرى شيئا مخيفا ، وهو يلعن هذه الجزيرة وسط الفضاء الشاسع ؟

الم تفكروا وأنتم ترتجفون - وألح عليكم أن تفعلوا ذلك - فى أن هذه الريح التى سوف تأتى وتلفح أدوات مراكمكم ، قد قابلت فى طريقها هذا الجبل ، وتلك الجثة ، وأن هذا الجبل وتلك الجثة قد تحدثا إليه ؟

لا ! لا اعدام بعد اليوم . لم نعد ، نحن رجال هذا الجيل العظيم نريد شيئا من ذلك . لا نريد تعذيبا للمذنب أو لغير المذنب . وأكرر القول بأن الجريمة يكفر عنها بالندم لا بضربة من بلطة أو بحبل المشنقة ، وأن الدم يغسل بالدموع لا بالدم . لا ، لا تكلفوا الجلاد عملا بعد اليوم . وليكن هذا ماثلا فى أذهانكم . وليتأمل ضمير القاضى الأمين المتدين فيما يتفق مع ضميرنا . وفضلا عن الاعتداء على حصانة الحياة البشرية ، ذلك الاعتداء الواقع على المجرم الذى يعدم ، والبطل الذى يعاقب بالقتل ، فإن أدوات الاعداد كلها قد ارتكبت جرائم . قانون الاعداد رجل شرير يلبس قناعك أيتها العدالة ، يقتل ويذبح دون أن يناله عقاب . وتحمل أدوات الاعداد كلها أسماء الأبرياء والشهداء . لا ، لا نريد اعداماً بعد الآن . والجيوتين تسمى عندنا « ليزورك » (١) وعجلة التعذيب تسمى « كالاس » (٢) ، ونار الاحراق تسمى جان دارك ، وآلة التعذيب تسمى .

(١) متهم ، اعدام فى فرنسا بالجيوتين ، ثم ثبتت براءته - المترجم .

(٢) أحد ضحايا عجلة التعذيب الأبرياء - المترجم .

« كامبانيلا » ، والنطع يسمى « توماس مورس » ، والقتل بالسهم يسمى سقراط ، والصليب يسمى يسوع المسيح !

أوه ! اذا كان هناك شيء من الجلال في تعاليم الأخوة هذه ، ومبادئ الرحمة والحب هذه ، التي نصيح بها كل الأفواه التي تنادى بالدين ، وكل الألسنة التي تتشدد بالديموقراطية ، وكل أصوات انجيل العهد القديم وانجيل العهد الجديد وتنشرها في جميع أركان العالم ، البعض باسم « الانسان الاله » ، والبعض الآخر باسم « الانسان الشعب » ، اذا كانت كل هذه المبادئ عادلة ، وهذه الآراء صادقة ، اذا كان الحى أخا للحي ، وحياة الانسان موقرة ، ولوحة خالدة ، واذا كان الله هو وحده صاحب الحق فى أن يسترد ما سبق أن كان له القدرة فى اعطائه ، واذا كانت الأم التي تحس بالطفل وهو يتحرك فى أحشائها مخلوقا مباركا ، وكان المهد شيئا مكروسا ، والقبر شيئا مقدسا ، اذا كان كل ذلك كذلك . فيا أهالى جزيرة جيرنيسى ، لا تقتلوا هذا الرجل !

أقول : لا تقتلوه ، فاعلموا أنه اذا كان فى الامكان الجيلولة دون الموت ، فان ترك الانسان يموت يعنى قتله .

لا تدهشوا من هذا الالاح فى كلامى . أقول لكم ، دعوا المنفى يتشفع من أجل المحكوم عليه . لا تقولوا : ماذا يريد منا هذا الأجنبى ؟ لا تقولوا للمنفى : فيم تتدخل ؟ ليس هذا شأنك . اننى أتدخل فى أمور التعس والشفاء ، وهذا حقى ، ما دمت أنا أقاسى . سوء الحظ يشفق على التعاسة ، والالم يحنو على اليأس .

ثم ألسنا نعانى ، أنا وهذا الرجل ، آلاما متشابهة ؟ ألا يمد كل منا ذراعيه نحو هذا الشيء الذى يفلت منا ؟ ألسنا نستدير ، نحن الاثنين صوب نورنا ، أنا المنفى صوب الوطن ، وهو المحكوم عليه صوب الحياة ؟ تم يتعين علينا أن نفكر فى هذا الأمر - وهو أن ذلك المخلوق الذى بنفى ويصدر الأحكام أعمى ، شديد العمى ، وأن الظلمة على وجه الأرض كثيفة لدرجة أننا نضرب ، نحن منفيى فرنسا ، لأننا أديننا واجبنا ، مثلما يضرب هذا الرجل لأنه ارتكب الجريمة . فالعدالة والظلم يتعاونان فى داخل الظلمات .

ولكن لا أهمية لذلك ! فهذا القاتل لم يعد فى نظرى قاتلا ، ولم يعد مشعل الحرائق هذا مشعلا للحرائق ، ولم يعد هذا اللص لصا ، انه مخلوق يرتجف ، وسوف يموت بعد قليل . التعاسة تجعل منه أخا لى . وأنا أدافع عنه .

وللمحنة التي نبلوها في بعض الأحيان ، الى جانب المعاناة ، منافع
غير متوقعة • وقد تتخذ أحكام المنفى ، اذا ما فسرت بالأشياء التي تفيد
فيها ، معاني غير متوقعة ، ومواسية •

فاذا سمع صوني ، ولم يذهب هباء في هدير الأمواج والزوابع ،
ولم يضع في الرياح العاصفة التي تفصل بين الجزيرتين ، واذا أنبتت
بذور الرحمة التي ألقيتها الى ربح البحر في القلوب وأثمرت ، واذا كان
لحديتي الغامض الذي يقوله المغلوب على أمره ذلك الشرف الرفيع ، شرف
استناره الحركة الطيبة التي سوف تؤدي الى تخفيف العقوبة ، وتوبة
المجرم ، واذا أتيت لي أنا المنفى الملقى به ها هنا ، الذي لا فائدة منه ، أن
أضع نفسي في عرض مقبرة تفتح ، وأسد الطريق دون الموت ، وأنقذ
رأس انسان ، لو كنت حبة الرمل الساقطة من يد الصدفة ، والتي تميل
كفة الميزان ، وترجح كفة الحياة على الموت ، اذا كان نفسي مفيدا على هذا
النحو ، اذا كان هو الهدف الغامض لم أقاس شيئا ، وأشكر الله وأحمده
وأرفع يدي الى السماء • وفي هذه المناسبة التي تتفجر فيها الارادة
الربانية ، يكون النصر لك يا الهى اذ جعلت فرنسا تبارك جيرنيسى ،
وجعلت الحضارة كلها تبارك هذا الشعب الذي يكاد يكون بدائيا ، والرجل
الذي قتل يحمي الرجال الذين لا يقتلون أبدا ، والقاتل يحمي قانون الرحمة
والحياة ، والرجل المنفى يبارك المنفى !

أيا أهالي جيرنيسى ، ليس من يخاطبكم في هذه اللحظة مجرد
شخصي ، لست سوى البذرة التي حملتها ربح الشدائد في ليلة من
الليالي • أقول لكم ان من يخاطبكم اليوم ، هو الحضارة بأسرها ، الحضارة
التي نمد اليكم أيديها الموقرة • لو كان بيكاريا منفيًا بينكم لقال لكم :
عقوبة الاعدام كفر ، ولو عاش فرانكلين مقصيا في داركم لقال لكم :
القانون الذي يعدم قانون مشئوم ، ولو عاش فيلانجييري لاجئا تحت
سقفكم ، وفيكو منفيًا ، وتيرجو مطرودا ، ومونتسكيو مطاردا لقالوا لكم :
المشنقة ملعونة ، ولو طرق يسوع المسيح جزيرتكم هاربا من قيافا (أو
قايفي) (١) لقال لكم : لا تضربوا بالسلاح ، ترى هل تردون بكلمة لا
على مونتسكيو ، وتيرجو ، وفيكو ، وفيلانجييري ، وبيكاريا ، وفرانكلين
وهم ينادونكم قائلين : الرحمة ! وعلى يسوع المسيح وهو يناديكم :
الرحمة !

لا ، هذه الكلمة جواب الشر ، لا ! انها جواب العدم • الرجل الحر
المؤمن انما يؤكد الحياة ، ويؤكد الشفقة والحنان والعفو ، ويؤيد الروح

(١) رئيس كهنة اليهود ، أصدر حكم الاعدام على يسوع المسيح - المترجم •

الاجتماعية بسماحة القانون ، ولا يجيب بلا الا على الخزي والاستبداد
والموت .

كأمة أخيرة انتهى بها .

في هذه الساعة الحتمية من ساعات التاريخ التي تمر بنا - فمهما
عظم سان جيل من الأجيال ، ومهما كان جمال نجم من النجوم ، فلكل
من هؤلاء خسوف - في هذه اللحظة المشئومة التي نجتارها ، ليكن هناك
على الأقل مكان على وجه الأرض يلوذ به ، وينجو من الغرق ، السعد الملتخ
بالقروح ، الملقى في وجه الروابع ، المقهور ، المكدود ، المحتضر . أيا جزر
بحر المانش ، فلتكونوا الطوق الذي يلوذ به هذا الغريق الجليل ! وفي
الوقت الذي يتصادم فيه الشرق مع الغرب ارضاء لمزاج الأمراء ، ولا تعرض
القارات على الأنظار في كل مكان شيئا غير الخديعة والعنف والمكر والطموح ،
وفي حين تبسط الامبراطوريات الكبيرة الميول المنحطة ، عليكم أيتها البلاد
الصغيرة أن تعطوا المثل العظيمة . أريخوا أنظار الجنس البشري .

نعم ، في هذه اللحظة التي تجري فيها دماء الرجال كالجدول بسبب
رجل واحد . في هذه اللحظة التي تشهد فيها أوروبا احتضار الأتراك
البطولي تحت نعال قيصر ، ذلك المظفر الذي ينتظره الفصاص ، في هذه
اللحظة التي تتصاعد فيها في كل مكان نيران الحرب التي أضرمتها نزوة
امبراطور . ببشاعتها وجرائمها ، لنشهد هنا ، على الأقل ، في هذا الركن
من العالم ، في هذه الجمهورية ، جمهورية البحارة والفلاحين ، هذا المنظر
الجميل . منظر شعب يحطم المشنقة ! فلتكن الحرب في كل مكان ، وهنا
السلم ! ولتكن الهمجية في كل مكان ، وهنا المدنية ! وليكن الموت في
كل مكان . ما دام الأمراء يريدون ذلك ، ولتكن هنا الحياة ! وبينما الملوك
الذين أصابهم لونة يجعلون من أوروبا ملعبا يحل فيه الناس محل
التمور . فيلتهم بعضهم بعضا ، فانا نهيب بشعب جيرنيسي ، وهو مطوق
بمصائب العالم وزوايع السماء ، أن يجعل صخرته ركيزة ومذبحا ، ركيزة
للانسانية ، ومذبحا للاله !

جيرنيسي . مارين تيراس ، ١٠ يناير ١٨٥٤ .

الى لورد بالمرستون ووزير داخلية انجلترا

٢

أنازت الرسالة السالفة مشاعر الناس فى جزيرة جيرنسى ، وجرت مقابلات وقع الحاضرون فيها على التماس موجه للملكة ، ونشرت الصحف الانجليزية طلب فيكتور هوجو الخاص بالعتو عن تابنر وأيدت هذا الطلب . وكانت الحكومة الانجليزية قد وافقت ثلاث مرات متتالية على تأجيل تنفيذ الحكم . واعتقد الناس أن الحكم لن ينفذ . وفجأة سرت اساعة بأن سفير فرنسا ، السيد فالفيسكى قد ذهب لمقابلة لورد بالمرستون . وبعد يومين أعدم تابنر . نفذ الاعدام فى يوم ١٠ فبراير ، وفى يوم ١١ كتب فيكتور هوجو الى لورد بالمرستون الرسالة التى نطالها فيما يلى :

سيسى . .

أضع تحت أنظاركم مجموعة من الوقائع التى جرت فى جيرنسى . فى السنوات الأخيرة .

فمنذ خمس عشرة سنة صدر الحكم باعدام القاتل « كاليو » ، ثم صدر العفو عنه . ومنذ ثمانى سنوات ، صدر الحكم باعدام القاتل « نوداس نيكول » ثم صدر العفو عنه . ومنذ ثلاث سنوات ، عام ١٨٥١ صدر الحكم باعدام القاتل « جاك فوكيه » ثم صدر العفو عنه . وقد خففت عقوبة الاعدام بالنسبة الى كل هؤلاء المجرمين فاستبدل بها النفى . وكانت عريضة سكان الجزيرة كافية للحصول على قرارات العفو هذه .

أضيف الى ذلك انه اكتفى أيضا ، فى عام ١٨٥١ ، بنفى ادوارد كارلتون الذى قتل زوجته فى ظروف شنيعة .

هذا ما حدث منذ خمس عشرة سنة فى الجزيرة التى أكتب لكم . منها .

وفى أعقاب كل هذه الأحداث ذات الدلالة الكبيرة ، محيت أخنام المشنقة من فوق « مون باتيبولير فى ميناء سان هيليبه » القديم ، ولم يعد ثمة جلاد فى جيرسيى .

ولنترك الآن جيرسيى وننتقل الى جيرنسيى .

حكم بالاعدام على تابنر القاتل ومشعل الحريق واللص . لقد ألغيت عقوبة الاعدام يا سيدى فى الوقت الحاضر فى كل الضمائر الصحيحة السوية ، وفى الحقائق التى ذكرتها آنفا ما يكفى لاثبات ذلك اذا لزم الأمر . وعندما حكم على تابنر بالاعدام ، ارنفعت صيحة ، وكثرت العرائض ، فمنها ما يستند بشدة الى مبدأ حصانة الحياة البشرية ، ووقع على هذه العرائض ستمائة من أبناء سكان الجزيرة . ونوه هنا بأنه من بين المذاهب المسيحية العديدة التى تتقاسم سكان جيرسيى البالغ عددهم أربعون ألف نسمة ، لم يوقع على العرائض غير ثلاثة من القساوسة (١) . أما الآخرون فقد رفضوا جميعا التوقيع عليها . وأغلب الظن أن هؤلاء الرجال يجهلون أن الصليب هو مشنقة . صاح الشعب : العفو ! بينما صاح القس : الموت ! رثاؤنا للقس . ولننتقل الى غيره . سلمت العرائض اليك يا سيدى . ووافقت على تأجيل تنفيذ الحكم . والتأجيل فى مثل هذه القضية يعنى التخفيف . وتتنفس الجزيرة الصعداء ، فلن تقام المشنقة . لا ، المشنقة قائمة ، وتابنر أعدم !

ونفكر . ثم نتساءل : لماذا ؟

لماذا يرفض فى جيرنسيى الشئ الذى منح مرارا فى جيرسيى ؟ لماذا السماح فى جزيرة والقصاص العلنى فى جزيرة أخرى ؟ لماذا العفو هنا ، والجلاد هناك ؟ لم هذه التفرقة حيث كانت المماثلة ؟ ما معنى هذا التأجيل الذى انتهى الى تشديد ؟ أهناك سر غامض ؟ ماذا كانت فائدة التفكير ؟

هناك يا سيدى أشياء تقال ، أشيخ عنها وجهى . لا ، ان ما يقال غير صحيح . عجباً ! ألا يستطيع صوت ، من أكثر الأصوات غموضاً ، صوت رجل منفى ، أن يلتبس العفو ، فى ركن مغمر فى أوروبا دون أن يسمعه السيد بونابرت ، ودون أن يتدخل السيد بونابرت ، ويقر النظام ؟ عجباً ! السيد بونابرت الذى عنده جيوتين «بيلي» ، وجيوتين «دارجينيان» ، وجيوتين «مونبيليه» لا يقنع بكل ذلك ، ويشتهى مشنقة فى جيرنسيى ! عجباً ! أتخشى يا سيدى فى هذه القضية أن تعكر مزاج الرجل الذى ينفى

(١) السادة بيرس ، وكاريسى ، وكوكيرن .

الناس ، اذا أيدت رأى المنفى ، ومن ثم تجعل من المشنوق مرضاة له ،
ومن المشنقة مجاملة له وتفعل ذلك من أجل « دعم الصداقة » ! لا ، لا ،
لا ، لا أصدق ذلك ، ولا أستطيع أن أصدق . لا أستطيع أن اسلم بهذه
الفكرة ، مع أنها تبعث فى نفسى القشعريرة .

أمام الأمة البريطانية العظيمة الكريمة ، تتمتع ملكتكم بحق العفو ،
كما يتمتع السيد بونايرت بحق الاعتراض (الفينو) ! وبينما همك اله
قدير فى السماء ، نجد سلطانا قديرا على الأرض ! لا !

على أنه لم يكن فى استطاعة صحف فرنسا أن تتحدث عن تابنر .
وأنا أقرر الواقع ، ولكى لا أستخلص منه شيئا . وعلى أية حال ، فقد
أصدرت الأمر بأن « تأخذ العدالة مجراها » حسب ما ورد فى برقيتك .
وانتهى كل شئ . وشنق تابنر أمس العاشر من شهر فبراير ، بعد ثلاثة
أجالات ، وثلاث مراجعات . واليك يا سيدى النشرة الخاصة بذلك اليوم -
مع ما لعله قد ورد بها من أحداث صحيحة لا أستطيع مع ذلك أن أصدقها .
ولك فى هذه الحالة أن ترسل هذه النشرة الى قصر التويليرى ، وليس
فى هذه التفاصيل ما من شأنه أن يكدر امبراطورية ٢ ديسمبر التى سوف
تنبهج لهذا النصر . انها نسر بمشانق !

فهذه بضعة أيام ، كان المحكوم عليه مرتجف الأوصال . وفى يوم
الاثنين ٦ فبراير سمع هذا الحديث بينه وبين زائر :

- كيف حالك ؟
- خائف من الموت أكثر من أى وقت مضى .
- أخائف أنت من عذاب الموت ؟
- لا ، ليس من ذلك ولكن من فراق أطفالى .

وجهل يبكى . ثم أردف قائلا :

- لم لا يتيحون لى الوقت للتوبة ؟

وفى الليلة الأخيرة طالع المزمور ٥١ عدة مرات . وبعد أن استلقى
دقيقة على فراشه ، ركع على ركبتيه . واقترب منه أحد المساعدين وقال
له : أشعر بحاجة الى الغفران ؟ فأجاب : نعم . واسترسل الشخص نفسه
نائلا : لمن تصلى ؟ فقال المحكوم عليه : لأطفالى . ثم رفع رأسه ، وشوهد
وجهه غارفا فى الدموع ، وبقي جاثيا على ركبتيه . وعندما سمع الساعة
ندق الرابعة صباحا ، استندار وقال للحارس : أمامى أربع ساعات ، ولكن
الى أين ستذهب روحى ؟

وبدأت التجهيزات ، وأصلح من سنان الرجل كما يجب • ولم يكن جلاذ جيرنسيي يزاول حرفته الا في القليل النادر • وقال المحكوم عليه بصوت خفيض لنائب العمدة : أيستطيع هذا الرجل أن يؤدي عمله جيدا ؟ فأجابه نائب العمدة : اطمئن • ودخل وكيل النيابة ومعه اليه المحكوم عاياه يده ، وكان الصبح قد انبلج • ونظر الرجل من نافذة السجن التي صارت بيضاء وتمتم قائلا : أطفالا ! وجعل يطالع كتابا بعنوان : « آمنوا وعيشوا » •

ومنذ ارتفاع النهار ، تجمع في مجاورات السجن حشد كبير من الناس •

وكان بجانب السجن حديقة أقيمت فيها المشنقة • وفي الجدار ثغرة جعلت ليمر منها المحكوم عليه • وفي الساعة الثامنة صباحا ظهر الرجل عند الثغرة ، وكان الجمهور قد ملأ الشوارع المجاورة ، واحتل الحديقة مائتان من المتفرجين السعيدى الحظ • كان مرفوع الجبين ، ثابت الخطو ، ممتقع الوجه ، وحول عينيه دائرتان حمراوان من الأرق • لقد أضاف الشهر الذى مر به أخيرا عشرين سنة الى عمره ، ويدا ذلك الرجل الذى كان فى الثلاثين وكأنه فى الخمسين • ويقول تشاهد عيان (١) : « كانت طاقة من القطن الأبيض غائرة فى رأسه ، ومرفوعة على جبينه ، ويرتدى الردينجوت البنى الذى كان يرتديه أثناء المحاكمة ، وفى قدميه خفان قديمان » • وجال بقسم من الحديقة على ممشى مغطى خصيصا بالرمل ، يحف حوله بعض المزارعين والعمدة ونائب العمدة ووكيل النيابة وكاتب المحكمة والجاوينس • وكانت يدها موثوقيتين بشكل ردىء كما سوف ترى • ومع ذلك ففي حين كانت يدها متقاطعتين تشبههما أربطة فوق الصدر ، كان ثمة حبل يشد المرفقين خلف الظهر ، حسب العادات الانجليزية • كان يسير وبصره عالق بالمشنقة ، ويقول بصوت خفيض : أه ، يا أطفالا المساكين ! والى جواره كان القس بوفيرى الذى رفض أن يوقع على طلب العفو ، يبكى • وكان الممشى المغطى بالرمل يؤدي الى السلم ، وعقدة الحبل مدلاة • وصعد تابنر ، وكان الجلاذ يرتعد ، فالجلاذون يتأثرون أحيانا • ووقف تابنر بنفسه تحت الأنشودة وأدخل فيها رقبته • ولما كانت يدها غير مشدودتين كما ينبغي ، ورأى الجلاذ مرتبكا ، فانه جعل يساعده على أداء عمله • ويقول نفس الشاهد : واذ حدثه قلبه بما سوف يجرى بعد ذلك ، فانه قال للجلاذ : « اربط يدي جيدا » • فرد عليه هذا قائلا : « لا فائدة من ذلك • وهكذا كان تابنر واقفا تحت الأنشودة ، وقدماه فوق « الطبلية » ، فأسدل الجلاذ الطاوية على وجهه ، ولم يعد يظهر من هذا الوجه الشاحب سوى قم يصل • وكانت

(١) اعدام ج • لك • تابز (طبع فى مكتب « ستار » بجيرنسي) •

مساحة الطبليّة المهيأة للانفتاح تحته حوالى قدمين مربعين • وبعد بضعة ثوان ، الزمن اللازم للاستدارة ، ضغط الرجل « منفذ أحكام الاعدام » لولب الطبليّة • وانفتحت حفرة تحت المحكوم عليه ، سقط فيها فجأة ، وشاهد الحبل ، واستدار الجسم ، واعتقد الناس أن الرجل قد مات • ويقول الشاهد : « فلنا أن تابنر قد قضى للحال بانفصال النخاع الشوكي » • وسقط الرجل بكل ثقله من ارتفاع أربع أقدام ، وكان طويل القامة • ويضيف الشاهد قائلا : « ولم نستمر الراحة التي نزلت بالنفوس المكروبة سوى دقيقتين » • وفجأة تحرك الرجل الذي لم يصبح جنّة هامة بعد ، وانما كان شيئا شبيها بالأشباح ، وارتفعت ساقاه وانخفضتا ، الواحدة بعد الأخرى ، كأنهما تحاولان ارتقاء الدرجات في الفضاء • وكان المنظر الذي يلحظ الانسسان من الأمام شيئا رهيبا ، فاليدان شبه المفككتين تقربان أحدهما من الأخرى « كما لو كانت نطلبان المعونة » كما يقول الشاهد • وانقطع رباط المرفقين عندما سقط الجسم • وراح الحبل يهتز مع هذه الحركات الشنجية • واصطدم مرفقا التعس بحافة الطبليّة ، ونسبت يده بهذه الحافة ، واتكأت عليها الركبة اليمنى ، ونهض الجسم ، ومال المشنوق ناحية الجمهور المحتشد ، ثم سقط ثانية ، ثم جعل يميل مرتين ، كما يقول الشاهد • وفى المرة الثانية نهض لارتفاع قدم واحدة ، وراعى الحبل دقيقة واحدة • ثم رفع طافينه وأبصر الناس وجهه • واستفرقت هذه الحال على ما يبدو مدة طويلة ، وكان لابد من إنهاؤها • وصعد الجلاد ثانية بعد أن كان قد نزل ، ويقول فى ذلك شاهد العيان « وأخيم الحبل عن المحكوم عليه » • وكان الحبل قد انحرف عن موضعه ، وأصبح تحت الذقن ، فأعاده الجلاد تحت الأذن ، ثم ضغط على الكتفين (١) ، واصطرع الجلاد والسبح لحظة ، وتغلب الجلاد • ثم نزل الجلاد التعس ، فقد كان هو الآخر يقاسى كالمحكوم عليه ، نزل فى الحفرة التي كان تابنر معلقا فيها ، وضغط على ركبتيه ، ثم تعلق من قدميه • وتأرجح الحبل لحظة حاملا المحكوم عليه والجلاد ، الجريمة والقانون • وأخيرا تخلى الجلاد عن قبضته وانتهى الأمر ، ومات الرجل •

وهكذا ترى يا سيدى أن الأمور سارت على ما يرام ، وكان العمل كاملا • وإذا كان الماد انطلاق صيحة فزع فقد تم المراد • ولما كانت المدينة متسيدة على شكل مدرج دائرى فقد روى هذا المشهد من كل النوافذ ، واتجهت الأنظار كلها الى الحديقة •

وصاح الجميع الحاشد : يا للعار ، يا للعار ! وسقط بعض النسوة فاقدات الوعي •

(١) صحيفة جازيب دو جبرنسى ، ١١ فبراير •

وفى هذه الأثناء ، كان فوكيه الذى أعفى عنه فى عام ١٨٥١ بنوب .
لقد جعل الجلاد من تابنر جثة هامدة ، أما الرحمه فقد أصلحت من شأن
فوكيه وجعلت منه انسانا .

أمر أخير . .

بين اللحظة التى سقط فيها تابنر فى حفرة المشنقة واللحظة التى
دخل فيها الجلاد عن قدميه حينما لم يعد يحس بأية رجفة ، انقضت اثنا
عشرة دقيقة . ولنحسب مقدار هذا الزمن ، اذا عرفنا الساعة التى يمكن
أن تحسب بها دقائق الاحتضار !

هاك با سيدى الكيفنة التى مات بها تابنر .

وقد تكلف هذا الاعدام خمسين ألف فرنك وانه لبذخ شديد (١) .

ويقول بعض أنصار عقوبة الاعدام انه كان فى الامكان تنفيذ عملية
الخنق هذه بخمسة وعشرين جنيه استرليني . ولكن لم التقتير ؟ خمسون
ألف فرنك ؟ ليس هذا بالشئ الغالى . وهناك الكثير من التفاصيل فى
هذا الموضوع .

ان الانسان ليشهد فى لندن فى فصل الشتاء جماعات من المخلوقات
قابعة فى زوايا الشوارع وأركان الأبواب ، تقضى على هذا النحو الليالى
والأيام ، مبتلة ، جائعة ، مثلجة ، بلا مأوى أو ملابس أو أحذية ، تحت
المطر والصقيع . ومعظم هذه المخلوقات ، سيوخا وأطفالا ونساء ، من
الايرلنديين ، مملك يا سيدى . وهم يواجهون الشتاء بالشارع . ويواجهون
الثلج بالعرى ، ويواجهون الجوع بأكوام الزباله الموجودة بالقرب منهم ،
ومن ألوان الفاقة والبؤس هذه تستخلص الخزانه الخمسين ألف فرنك
لتدفعها للجلاد روكس . بهذا المبلغ يمكن اعالة مائة أسرة من هذه الأسر
سنة واحدة . ولكن الأفضل قتل انسان .

ويبدو أن أولئك الذين يعتقدون أن الجلاد روكس لم يحسن أداء
عمله قد أخطأوا التقدير ، فلم يكن اعدام تابنر الا شيئا بسيطا ، ويجب
أن يجرى سنقه على هذا المنوال . فقد شنق أخيرا رجل يدعى « تاول »
بيدى جلاذ لندن الذى تصفه رسالة تحت ناظرى بأنه « سيد الجلادين » ،

(١) كلف الجلاد « روكس » الخزانه حوالى ألفى جنيه استرليني (جازيت دوجيرنسى
فى ١١ فبراير) ، ولم يكن روكس قد شنق أحدا من قبل ، وكان تابنر أول تجربة له ،
وبرجع آخر مسقه شهديها جبرسى الى أربع وعشرين سنه مضت ، وكانت فد أميم من
أجل قاتل يدعى « بياس » أعدم فى ٣ نوفمبر ١٨٣٠ .

الذى اكنسب شهرة لا نظير لها فى حرفته النى لا يحسد عليها » • حسن ،
ان ما حدث لنا من حدث بالمثل لتناول (١) •

ولعله من الخطأ القول انه لم تتخذ أية احتياطات بالنسبة لتأثير •
ففى يوم الخميس ٩ منه ، قام بعض المتحمسين لعقوبة الاعدام بزيارة
المشقة التى كانت مجهزة فى الحديقة • ولما كانوا على المام بهذا الموضوع ،
فقد لاحظوا أن « الحبل سميك كإبهام اليد ، والأنسوط فى تخانة قبضة
اليد » • وأخطر وكمل النائب العام بذلك ، ومن ثم استبدل بالحبل
السميك حبلًا رقيقًا • فمم الشكوى ؟

لقد ظل نائب ساعا فى المشقة • ولما انقضت الساعة انتزع منها •
وفى الساعة الثامنة مساء دفن فى الجبابة المعروفة • بجبابة الأجانب ،
الى جوار بياس الذى أعدم فى عام ١٨٣٠ •

وهناك أيضا مخلوق آخر مقضى عليه بالهلاك ، تلك هى زوجة
نابى ، فقد أغمى عليها مرتين وهى تودعه • واستمرت الاغماء الثانية
نصف الساعة ، وظن الناس أنها ماتت •

هاك يا سيدى ، مرة ثانية ، الكيفية التى مات بها نابى • وثمة
حقيقة لا أستطيع أن أصمت عنها دونك ، ذلك أن الصحف المحلبة قد
أجمعت على النقطة الآتية : أنه لن يكون هناك اعدام بعد الآن فى هذا
البلد ، ولن يحتمل انسان المشقة بعد اليوم •

وتضيف صحيفة « كرونك دى جرسى » فى ١١ فبراير أن
« الاعدام كان أسد فطاعة من الجريمة » •

وانى لأرتاب فى أنك ربما قد ألغيت عقوبه الاعدام فى جيرنسى
دون أن تقصد ذلك •

ثم انى أعرض ذلك على قريحتك هذه الفقرة من رسالة كتبها الى
واحد من كبار أهالى الجزيرة اذ قال : « كان السخط على أشده ، ولو
شهد الجمع ما جرى تحت المشقة لحدث أمر خطير ، ولحاول بعضهم
انقاذ ذلك الانسان الجارى تعذيبه » •

(١) « سقطت الطلبة ، واعتور الرجل التعس نشجات عنيفة ، وارتمش جسمه
كله وتقلص الذراعان والساوان ، ثم سقطنا ثم نملصنا ثابته ، ثم سقطنا ، ثم تفلصنا ،
ولم يمد جنة المشوى الا بعد هذه المرة الثالثة » (اعدام ناول • دار ثورن للطباعة -
شارع شارلز) •

وانى لأنقل لك هذه الصيحات المترددة المحتجة وأعهد اليك
بأمرها .

ولنعد الى تابنر .

لقد نم ارضاء نظرية العدو . ولكن الفيلسوف هو وحده الحزين ،
ويتساءل عما اذا كان هذا الشيء هو ما يسمونه العدالة « التي نتخذ
مجرها » .

لا بد من الاعتقاد بأن الفيلسوف مخطيء . كان الاعداد رهيبا ، ولكن
الجريمة شنعاء . ولا بد أن يدافع المجتمع عن نفسه ، أليس كذلك ؟ فماذا
يحدث لنا اذا . . . الخ ، الخ ؟ فلن يكون هناك حدود لجرأة الأشرار .
ولن يشهد الانسان سوى الآنام الشنيعة ، وكمائن الشر . القصاص
ضرورى . وأخيرا فهذا هو رأيك يا سدى ، أن أمتال نابشر يجب أن
يشنقوا ، اللهم الا اذا كانوا أباطرة .

فلتكن مشيئة رجال الدولة !

المفكرون والحالمون والعقول الغريبة الضاربة فى الأوهام التى تدرك
الخير والشر لا تستطيع أن تسبر أغوار بعض جوانب مشكلة القدر دون
أن ترتبك .

لماذا لم يقتل تابنر ثلاثمائة نفس بدلا من امرأة واحدة فقط ، فيضيف
اليها بضعب مئات من العجائز والأطفال ؟ لماذا لم يحنن بقسيم بدلا من أن
يحطم بابا ؟ لماذا لم يسرق خمسة وعشرين مليون شلن بدلا من بضعة
تسلينات ؟ لماذا لم يضرب مدينة باريس برصاص المدافع الرشاشة بدلا من
أن يحرق منزل سوجون ؟ اذا فعل هذا كان له سفير فى لندن .

غير أنه ربما كان من الأفضل التوصل الى تحديد النقطة التى لا يكون
تابنر بعدها مجرما ، والتى يبدأ عندها شنيدر هانز فى أن يكون من
رجال السياسة .

عجبا يا سيدى ، انه لشيء رهيب . اننا نقطن أنا وأنت هذا العالم
المتناهى الصغر . أما أنا فلست سوى رجل منفى ، وأما أنت فلست سوى
وزير ، أنا رماد وأنت تراب ، الذرة تستطيع أن تتحدث الى الذرة .
ويستطيع الناس أن يتبادلوا ذكر الحقائق من عدم الى عدم . حسن ،
فلتعلم أنه مهما كان جلال سياستك الحالية ، ومهما كان المجد والفخر
فى حلفك مع السيد بوناوبرت ، ومهما كان الشرف الذى تحظى به من وضع
رأسك بجانب رأسه فى القلنسوة التى يرتديها ، ومهما كانت يا سدى

اصبار انكم المشركه فى المسألة التركيه رائعه ومدويه ، فان هذا الجبل الذى ينغمد حول رغبة اسان ، وتلك الطبلية النى نمنح نحت قدميه ، وهذا الأمل فى أن ينكسر عموده الفقرى وهو يسقط ، وهذا الوجه الذى يسنجبل أزرق خلف نقاب المشنقة المفجع ، وعيناه الداميتان اللتان تبرزان فحاه من محجرهما ، وهذا اللسان الذى يخرج من الحلق ، وتلك الحشرة حشرة المكروب السى تخنفها عقدة الجبل ، وتلك الروح الداهله السى رنطم فى الجمجمة فلا نستطيع الخروج ، ونلكم الركبتان المرتجفتان اللتان تبحتان عن نقطة ارتكاز ، واليدان الموثقتان الساكنتان اللتان تنضممان احدهما الى الأخرى ونطلبان النجدة ، وذلك الرجل الآخر ، رجل الأشباح الذى يشتبب بساقي المشنوق التعس ويتعلق بجسده ، انه لشيء مرعب يا سيدى . ولو كانت الظنون التى استبعدها صادقة ، لو كان الرجل الذى تشبب بقدمى نابتر هو السيد بوناوبرت ، لكان ذلك أمرا فظيحا . غير انى أكرر القول انى لا أظن ذلك . انك لم تخضع لأى تأثير . قلت : فلتأخذ العدالة مجراها ، وأصدرت هذا الأمر مثل سواء من الأوامر ، والترنرة فى مسألة الاعدام شئ لا يمسه الا قليلا . شنىق انسان ، كشرى كوب ماء . انك لم تشهد خطورة العمل . استهتار من رجل السياسة ، لا أكر من ذلك . سبدى ، احتفظ برعونتك للأرض ، لا توجهها للأبدية . صدقنى ، لا تلعب بتلك الأعماق ، لا تلق فيها شيئا من ذاتك . ان فى ذلك قلة نبصر . انى أقرب منك الى تلك الأعماق ، فأنا أراها . فالرجل المنفى أشبه بالمت . وأنا أحدثك من داخل القبر .

آه ! لا أهمية لذلك ! رجل شنىق ، ثم ماذا ؟ خيط نلفه ، وهيكى نلفه . وجنة ندفنها ، أمر بسيط ، سنطلق المدافع ، قلبل من الدخان فى الشرق ، وتنتهى رواية القصة كلها . جيرنسى ، نابتر ، لايد من مجهر لرؤية هذين الشينين . أيها السادة ، هذا الخيط ، وهذه الكتلة الخشبية ، وهذه الجثة ، وهذه المشنقة الشريرة الضئيلة التى لا يدركها الحس ، وهذا الشتاء ، هذا هو الفضاء الشاسع ، انها المسألة الاجتماعية ، وهى أعلى قدرا من المسألة السياسية .

الأمر أكثر من ذلك ، انه الشئ الذى لم يعد من شئون الأرض . الشئ القليل الأهمية هو مدفعكم وسياستكم ودخانكم . أما الشئ الرهيب فهو أن يصبح القائل بين عشية وضحاها مقتولا . روح تطير وتحمل معها طرف جبل المشنقة ، شئ فظيع بين وجبتى عشاء . أيها رجال الدولة ، انكم ، بين حفلتين رسميتين (بروتوكولين) ، وبين بسمتين ، تضغطون بأصابعكم المغطاة بقفاز أبيض ، دون اكترات ، على لولب المشنقة ، فتسقط الطبلية تحت قدمى المشنوق . أتعلمون ما هى الطبلية ؟ انها الأبدية التى

نكششف ، انها المجبول الذى لا سسبر أغواره ، انها الظلام الشاسع الذى
بنهبح بعنه بصورة مفزعه تحت حقارة شانكم .

استمروا ، انه لتيء طيب ، ولنشهد رجال العالم القديم وهم
يعملون . وما دام الماضى يتسبب ببفائه ، فلننظر اليه . ولننظر على التوالى
الى كل تلك الأسكال ، الى الخازوفى فى تونس ، والسوط عند قيصر ،
وآلة الضغط على الجسم عند البابا ، والجيويتين فى فرنسا ، والمشفقة فى
انجلترا ، وسوق العبيد فى آسيا وأمريكا . آه ، سوف يتلاشى كل ذلك .
نحن الفوضويين ، والنظرين ، وشاربى الدماء (١) ، نعلنها لكم أنتم
المحافظين ، أن حرية الانسان نىء جليل ، ودكاء الانسان مقدس . والحياة
البشرية مقدسة ، والروح البشرية ربانية . هيا استمقوا اذن !

ولكن حذار ! فالمستقبل يعترب . نطنون الميت حيا ، وتظنون الحى
مينا . أقول لكم ان المجتمع القديم قائم ولكنه ميت . أنتم مخطئون . لقد
وضعتهم أيديكم فى الظلمات على الشبح واتخذتموه خطيبة لكم . وتديرون
ظهوركم للحياة ، ولكن الحياة سوف يرتفع من خلفكم عما قريب .

و نحن عندما ننطق بهذه الكلمات : التقدم ، الثورة ، الحرية .
الانسانية ، تبسّمون أيها التعساء ، وبشرون الى الليل الذى نحن فيه ،
وأنتم فيه . أتعرفون حقا ما هو هذا الليل ؟ فلتعرفوه ، فسوف تخرج
منه عما قريب الأفكار هائلة مشرقة . الديموقراطية ، كانت بالامس
فرنسا ، وسوف تكون فى الغد أوروبا ، والخسوف الحالى انما يحجب
نضجهم النجم بصورة غامضة .
وأنا يا سيدي خادمكم ..

فيكتور هوغو

مارين نيراس ، فى ١١ فبراير ١٨٥٤

(١) يعصده المؤلف بهذه الصفات ما يتعنه بها أعداؤه وأعداء الثورة - المترجم .

الذكرى السنوية السادسة

ليوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨

٣

أيها المواطنون . . .

اليوم التاريخي ، فكرة تنخذ صورة روم ، نصر يتكسف وينباور في
رقم مضى ، ويشتعل أبد الآباد في ذاكرة الناس .

احفلنم منذ هنيهة بذكرى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ ، ومجدد التاريخ،
فاسمحوا لي أن أدير وجهي صوب المستقبل . اسمحوا لي أن أستدير ناحية
ذلك اليوم الذي لم يزل مجهولا ، وهو أخ ليوم ٢٤ فبراير ، والذي سوف
يمنح اسمه للتورة القادمة ويكون نظبرا لها .

اسمحوا لي أن أرسل الى التاريخ المقبل كل ما في روعي من آمال .
وليكن لهذا التاريخ ما كان لنظيره في الماضي من عظمة ، وليكن له قدر
أكبر من السعادة !

وليكن الرجال الذين سوف يشرى لهم (التاريخ المقبل) حازمين ،
أصفاء ، وليكونوا طيبين وعظماء ، عادلين ، ناعين ، منصورين ، ولينالوا
جزاء آخر خلاف النفي !

ولكن مصيرهم أفضل من مصيرنا !

أيها المواطنون ! ليكن التاريخ المقبل تاريخا حاسما ! ليكن استمرارا
لعمل التاريخ الماضي ، على أن ينجزه !

ليكن ، كيوم ٢٤ فبراير الماضي ، ساطعا ، وانما أخويا ، ليكن يوما
حربا ، يمضى قدما نحو الهدف ! لينظر الى أوروبا بالكيفية التي كان
دانتون ينظر بها اليها !

وليقيم ، منلما فعل يوم ٢٤ فبراير بالغاء الملكية فى فرنسا ، وانما عليه أن يلغيا أيضا فى العارة (الأوروبية) ! وعليه ألا يخيب فيه الآمال .
ليستبدل القانون الانسانى فى كل مكان بالقانون الالهى ! وليناد فى القوميات : انهضى ، انهضى يا ايطاليا ، انهضى يا بولندا ، انهضى يا مجر .
انهضى يا ألمانيا ، انهضى أيتها الشعوب . من أجل الحرية ! وليضع فى فمه نفير المصباح . وليعلن عن انبلاج نور الفجر ! ولتندق أجراس الشعوب فى تلك الفترة الليلية التى ترقد فيها الأمم المخدرة بنوع من النعاس المستنوم .

آه ! اللحظة نتقدم ! قلت لكم من قبل ، أيها المواطنون . وأصر على أن أقولها لكم ، انه بمجرد أن تقع الاصطدامات الحاسمة ، بمجرد أن تتصل فرنسا مباشرة بروسيا والنمسا وتصارعهما جسدا لجسد ، وتبدأ الحرب العالمية الكبرى ، فانكم سوف تشهدون الثورة وهى تبرى وسوف يكون من اختصاص النورة أن تضرب ملوك القارة الأوروبية . الامبراطورية هى الغمد . والجمهورية هى السيف .

فلنهدف اذن للتاريخ المقبل ! لنهدف للثورة القادمة ! لنرحب بذلك الصديق الغامض المسمى « بالغد » ! ليكن التاريخ المقبل باهرا ، ولتكن الثورة القادمة منيعة لا تقهر ! ولتنشأ الولايات المتحدة الأوروبية !

ولتكن مثل سهر فبراير . فتفتح المستنفل على مصراعيه ، وتغلق الى الأبد باب الماضى الكريه ! ولتصنع من كل السلاسل التى تقيد الشعوب قفلا لهذا الباب ! وليكن هذا القفل شديد الضخامة كما كان الارهاب ! لتكن مثل شهر فبراير فترفع الدعامة الثلاثية السامية : الحرية والاخاء والمساواة ، وتضعها على المذبح . على أن توقد فوق هذه الأثافية شعلة الانسانية الكبيرة بكيفية تنير بها الأرض كلها ! ولتبهر بها المفكرين ، وتغشى أبصار المستبدين !

لتفعل منلما فعل سهر فبراير . فتقلب المقصلة السياسية التى أقامتها حركة بونايرت فى سهر ديسمبر ، ولتقلب أيضا المقصلة الاجتماعية ! وعلينا أيها المواطنون ألا ننسى أن المقصلة الاجتماعية إنما تعلق سكينها فوق رأس البروليتاريا . لا خبز فى الأسرة ، ولا نور فى العقل ، ومن ثم يكون الخطأ والسقوط والجريمة .

اقتربت ذات مساء ، على مشارف الليل ، من الجيوتين الذى كان منذ قليل فى ميدان « جريف » . وكان هناك دعامتان تسندان السكين التى زالت دخنا . سألت الدعامة الأولى : ما اسمك ؟ أجابنى : الفاقة . وسألت الثانية : ما اسمك ؟ فأجابتنى : الجهل .

فلنقلع الثورة القادمة والنار يخ المقبل هاتين الدعاهتين ، وتهدم هذه
المفصلة !

ولتفعل كما فعل شهر فبراير ، فتؤكد حق الانسان ، ولنعلن أيضا
حق المرأة ، وتقرر حق الطفل ، أى المساواة للأولى ، والتربية والتعليم
للناس !

لسفعل كما فعل شهر فبراير ، فنلغى المصادرة والعنف ، فلا يجرد
الانسان من ماله . و نعطى المال كل انسان ، عليها ألا تكون ضد الأغنياء ،
وانما مع الفقراء ! نعم ، فلنصنع الرخاء المادى والعقلى والخلقى ومنحه
للدنيا بأسرها ، وذلك بالاصلاح الاقتصادى الشاسع ، واستيعاب حق العمل
بصورة أفضل ، وأنظمة كبيرة للخصم والائتمان ، بالبطالة وقد أصبحت
مستجيلة ، وبلغاء الجمارك وإزالة الحدود ، بالمواصلات وقد ضوعفت
عشر مرات ، بلغاء الجيوش الدائمة التى تكلف أوروبا أربعة مليارات فى
السنة بالإضافة الى ما تتكلفه الحروب ، باستغلال التربة استغلالا كاملا ،
وموازنة الاناج والاستهلاك على أفضل الوجوه ، والانتاج والاستهلاك هما
نبض الشريان الاجتماعى ، بالمقايسة ، وهى نبع الحياة المتدفق ، بالثورة
النقدية ، وهى الرافعة القادرة على رفع كل ضروب الفاقة ، وأخيرا بخلق
نورات جديدة كل الجدة ، على نطاق هائل ، ثروات يلحظها العلم منذ
الآن ويؤكددها .

ولتسحق كل الأنظمة القديمة المخزية ، وتهشمها وتمحها . تلك
هى رسالتها السياسية . ولكن عليها أيضا أن تدفع الى الأمام رسالتها
الاجتماعية . لتقدم خبزا للعمال ! ولتحفظ النفوس الصغيرة من التعليم
— كلاله أخطأت — وانما أقصد أن تحفظها من التسمم الجزويتى والكهنوتى .
فعليها أن تبني التعليم المجانى والالزامى على أساس ضخيم ! أتعلمون
أيها المواطنون ما يلزم الحضارة حتى نصبح توافقا وانسجاما ؟ يلزمها
مصانع ومصانع ، ومدارس ومدارس ! المصنع والمدرسة هما المعمل المزدوج
الذى تخرج منه الحياة المزدوجة ، حياة الجسد وحياة الفكر . ولا تكون
هناك بعد ذلك أفواه جائعة ، ولا عقول مظلمة ! ولتختف هاتان العبارتان
المخزيتان ، المتداولتان ، والجاريتان تقريبا مجرى الأمثال ، واللذان نطقنا
كلنا بهما فى حياتنا أكثر من مرة ، وهما : « هذا الرجل لا يملك
ما يأكله » ، و « هذا الرجل لا يعرف القراءة » . لتختف هاتان العبارتان
اللذان هما مظهران من مظاهر التمس القديم الأزلى .

وأخبرا فليخطط التاريخ المقبل العظيم ، أى الثورة المقبلة ، على غرار
يوم ٢٤ فبراير . فى كل الاتجاهات خطوات الى الأمام ، ولا يخط خطوة

واحدة الى الوراء ! عليه ألا ينقاعد قبل أن يسنى من سعيه ! ولكن كلمته الأخيرة : الانتخاب العام ، والرحاء العام ، والسلم العام ، والمعرفة العامة !

وعندما يسألنا بعضهم عما نقصده بكلمه « جمهورية عالمية » نجيب بأننا نقصد ما ذكرناه . فمن يرمى ذلك ؟ (صيحة اجتماعيه : الجميع) .

والآن أيها الأصدقاء ، هذا التاريخ الذى أناديه ، التاريخ الذى اذا انضم الى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ العظيم ، و ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ الهائل ، يشكل سيثا شبيها بمنى البوره النارى . هذا التاريخ السالب . التاريخ الأعظم . منى يأتى " مى يظهر . فى آية سنه وأى شهر وأى يوم ؟ بأى رقم يتكون ، فى سلسله الأعداد المظلمة ؟ هل هى بعيدة ما أم قريبة . تلك الأرقام التى لم نزل غامضه والننى نسمى الى نور رائع ؟ أيها المواطنون ، هذه الأرقام مكتوبه فى صمحه من صفحات التاريخ . مكتوبه بالفعل فى الآونة الحاضرة ، فى هذه الساعة التى أنحدث فيها . ولكن تلك الصفحة لم تطوها اصبع الاله بعد . نحن لا نعلم عنها شيئا ، ولكننا نأمل وننتظر . وكل ما نستطيع أن نقوله ونردده انه يبدو لنا أن ساعة التحرير تقترب . نحن لا نميز الرفم ، ولكننا نرى الاسعاع .

أيها المنقبون ! ارفعوا جباهكم حتى بضئها هذه الاشعة !

ارفعوا جباهكم حتى اذا ما ساءل الشعب قائلا : ما الذى بيص بهذه الصورة جبين هؤلاء الرجال ؟ أمكن اجابتهم : هذا ضياء البوره القادمة !

لندفع جباهنا ، نحن المنقبين ، ولنحى المستقبل كما فعلنا كثيرا من قبل بايماننا الورع .

للمستقبل أسماء كثيرة .

اسمه المستحيل عند الضعفاء ، والمجهول عند المخبولين ، والمنل الأعلى عند المفكرين والشجعان .

المستحيل ! المجهول !

لعمرى ، ألن يصيب الانسان سقاء بعد الآن ؟ ألن يكون بغاء بين النساء ، وجهل بين الأطفال ؟ هذا هو المستحيل !

عجبا ! الولايات المتحدة الأوروبية ، كل ولاية فيها حرة ذات سيادة ، تحركها وتربط بينها جمعبة مركزية ، نتصل عبر البحار بالولايات المتحدة الأمريكية ؟ هذا هو الشئ المجهول .

ماذا ! أكون ما أراده عيسى المسيح هو المستحيل !

ماذا ! أكون ما صنعه واشنجنون هو المجهول !

ولكن يقال لنا : وفررة الانفال ، وآلام الولادة ، وزوبعة الانتقال من العالم القديم الى العالم الجديد ! قارة تتحول ! قارة تتناسخ ! أنتصرون هذا الشيء الرهيب ؟ ومقاومة العروش البائسة ، وغضب الطوائف ، وسخط الجيوش . الملك يدافع عن روانبه ، والقس يدافع عن ايراده الكنسى ، والقاضى يدافع عن مرتبه ، والمرابى يدافع عن قائمة حساباته ، والمسفل يدافع عن امنيازه ، يا لها من عصب ! ويا لها من صراعات ، وأعاصير ، ومعارك ، وعقبات ! هيتوا عيونكم لسكب الدموع ، وشرايينكم لاراقة الدماء ! قفوا ، ارجعوا الى الوراء ! . فليصمت الضعفاء والحقولون . أما المستحيل ، ذلك القضيب الحديدى الأحمر ، فسوف نعصه بالنواجذ . وأما المجهول ، تلك الظلمات ، فسوف نفوص فيها ، وسوف نظفر بك ، أيها المثل الأعلى !

فلتحي ثورة المستقبل !

نداء الى المواطنين العالميين

١٤ يونية ١٨٥٤

٤

أصبحت الضرورة الماحقة نفضي برفع الصوت وتنبيه النفوس الكريمة
الوفية . وليتذكر من هم في داخل البلاد غيرهم من الموجودين خارجها .
ونحن المكافحين في المنفى ، محاطون بمحن بطولية لم يسمع بمنلها أحد .
فالفلاح يعاني بعيدا عن حقله ، والعامل يعاني بعيدا عن مصنعه . لا عمل ،
ولا ثياب ، ولا أحذية ، ولا خبز . ووسط كل هذا نساء وأطفال . تلك
هي حالة جماعة من المنفيين . زملاؤنا لا يشكون ، ولكننا نشكو من أجلهم .
وقد أدى الطغاة ، وعلى رأسهم السيد بوبابر ، ما يجب عليه أدؤه .
من زور وبهتان ، بمعونه السرطة ، وبالاذلال ، لمع وصول النجدة الى
هؤلاء الصامدين المؤمنين بالديموقراطية والحرية . كانوا يأملون نرويضهم
باجاعتهم . أوهم ! سوف يسقطون في مكانهم . والى أن يأتي ذلك
الأوان ، فالوقت يمر ، والأحوال تزداد سوءا ، وما كان شفاء فحسب .
أصبح احتضارا . الفاقة ، والحنين الى الوطن ، والجوع ، كل ذلك قضى
على المنفى . لقد مات الكبرون الى الآن . ألا مناص من أن يموت الآخرون ؟

أيا مواطني الجمهورية العالمية ، نجدة الانسان الذي يقاسى هو أمر
واجب ، ونجدة الانسان الذي يقاسى في سبيل الانسان هو أكثر من
واجب .

وأنتم جميعا ، يا من بعيتكم في أوطانكم ، ويا من تملكون على الأقل
هذين الشبثين اللذين يحفظان حياة الانسان : الخبز ، وهواء الوطن ،
حولوا أبصاركم نحو هذه الأسرة ، أسرة المنفى التي تناضل من أجل
الجميع ، والتي تترسم وسط الآلام والمحن صورة الأسرة الكبيرة ، أسرة
الشعوب .

وليعط كل منكم ما يستطيع اعطائه . انا ندعو الاخوان الى نجدة
اخواتنا .

على قبر فيليكس بونى

٢٧ سبتمبر ١٨٥٤

٥

أيها المواطنين ..

هذا مواطن آخر حكم عليه بالموت نفيا ، ونفذت فيه العقوبة منذ قليل . انسان آخر يموت فى ميعة الصبا ، مثل هيلان ، وبوسكيه ، ولويز جوليان ، وجافنى ، وايزديبسكى ، وكوفيه ! انه فيليكس بونى الموجود فى هذا النعش والذي يبلغ من العمر التاسعة والعشرين .

الشيء المؤلم أن الأطفال أيضا يسقطون ! وقبل أن نصل الى هذا العبر ، بوقت قليل ، نوقفنا أمام حفرة أخرى ، فتحت أخيرا مثل هذه الحفرة ، وأودعنا فيها ابن زميلنا فى المنفى أوجين بوفيه ، وهو طفل مسكين مات بعد أن ولدته أمه ، مات للأسف ولم تكلم عيناه تكتحلان بنور الحياة .

وهكذا فى المرحلة الأليمة التى نمر بنا ، ينطوى الفتى والطفل مختلطين فى الظلام تحت أقدامنا .

كان فيليكس بونى جنديا ، وكابد ذلك القانون البشع ، قانون الدم الذى يسمونه « الخدمة العسكرية » والذي ينتزع الرجل من محرائه ويسلمه للسلاح .

كان عاملا ، اجتاز مع البطالة ، والمرض ، والعمل بالأجر الزهيد ، والاستغلال ، والمساومة ، والتطفل ، والتعاسة ، اجتاز دوائر جحيم البروليتاريا السبع . وهكذا نرون أن هذا الرجل الذى لم يزل فى فجر العمر ، قد ألت به المحن من جميع الجهات ، ووجدته صروف الدهر قوى الشكيمة .

ومنذ ٢ ديسمبر أصبح منفيا . لماذا ؟ ولاية جريمة ؟

كانت جريمته جريمتي . أنا الذي أحدثكم ، وجريمتكم أنتم الذين تستمعون الى . كان جمهوريا في جمهورية ، يؤمن بأن من يؤدي قسما لابد أن يفى بقسمه ، وأنه اذا كان الانسان أميرا ، أو يعتقد في نفسه أنه أمير ، فإن اعتقاده هذا لا يعفيه من أن يكون رجلا شريفا ، وأن على الجنود أن يطيعوا الدسانير ، وعلى القضاة أن يحترموا القوانين . كان عنده تلك الآراء الغريبة ، ونهض ليؤيدها . وحمل السلاح كما حملناه للدفاع عن القوانين . وجعل من صدره درعا للدستور . قصارى القول انه أدى واجبه . ومن أجل ذلك نزلت به النازلة ، من أجل ذلك نفى ؟ من أجل ذلك « حكم بادانته » كما يقول القضاة الفاجرون الذين يصدرون الأحكام باسم المتهم لوى بونابرت .

مات . مات حيننا الى الوطن ، مثل غيره الذين سبقوه الى هذا المكان ، مات من انحطاط القوى . مات بعيدا عن أمه العجوز ، بعيدا عن طفله الصغير . احضر ، فالاحتضار يبدأ مع النفى ، وظل يحتضر ثلاث سنوات ، ولم تلن قناته ساعة واحدة . لقد عرفتموه كلكم ، ونذكرونه . آه ، انه كان نابت الفؤاد شجاعا !

فليخلد الى الراحة في ذلك الهدوء القاسي ! وليجد على الأقل في هذا القبر تحقيقا رصينا لما كان يتخذة ملا أعلى له في حياته . الموت هو الاخاء الأكبر .

أيها المنفيون ، طالما أن هذا الصديق قد مات حقا ، وأن هنا أيضا واحدا منا قد غاب عن الدنيا في نعشه ، فلنناد الحاضرين في صفوفنا ، ولننكاتف أمام الموت كما يفعل الجنود أمام المدفع الرشاش . هذى لحظة البكاء كما هي لحظة الابتسام . هنا عيد الفصح الأكبر . فلنقو ضميرنا الجمهوري ، ولنقو ايماننا بالله وبالتقدم في هذه الظلمات التي ربما ننزل فيها جميعا الواحد بعد الآخر قبل أن نرى ثانية أرض الوطن العزيز . لنجلس جنبا الى جنب مع موتانا في هذا اللون من العشاء الرباني المقدس ، من أجل الشرف والاخلاص والتضحية . لنقم العشاء الرباني للمقبر .

وهكذا فان هواء المنفى يقتل الناس . الناس هنا يموتون ، ويموتون بكثرة واستمرار . والمنفى يكافح ، ويقاوم ، ويصمد ، ويجلس على شاطئ البحر ، وينظر ناحية فرنسا ، ويموت ويواصل غبه النضال بعده . غير أن فجوة المنفى قد بدأت تزدهم بجثث الموتى .

كل شيء حسن . وهذا (يشير الى الحفرة) يفتدى ذاك (يمد الخطيب ذراعه ناحية فرنسا) . وبينما هناك الكثير من الرجال الذين في استطاعتهم اذا شاءوا أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم مع ذلك يقبلون العبودية ، ويحملون انتصار الغدر والخيانة ، والانتقال تطبق على أعناقهم .

انصار دنيء ، وخضوع دنيء ، وببسا توغل الحشود في العار ، يمضى
المنفيون داخل القبر • وكل هذا حسن •

آه يا أصدقائي ، ما أسد الألم !

هـ ، أنا لنهيب على الأقل بالشعوب ، في انتظار اليوم الذي تنهض
فيه ، وسسحي ، وتشمئز ، نهيب بالشعوب الملقاة الآن على الأرض ،
بعضها مشدود الوبا ، والبعض مخبول ، في حالة أسوء من غيرها ،
وشعوب أخرى راکمة ذللة ، فحالها هي أيضا أسوأ من غيرها ، نهيب
بهذه الشعوب أن ينظر الى ذلك الطابور الفخور من المنفيين وهم يمرون
وجباههم سامخة في الظلمات ، يتوغلون ساكنين في صحراء المنفى ،
ويمضون صوب المستقبل ، وفي مقدمة طابورهم نعوش !

المستقبل • لقد واتتني هذه الكلمة ، فهل تعلمون لماذا ؟ لأنها تصدر
بصورة طبيعية عن الفكر في هذا المكان الغامض الذي نحن فيه • ذلك
لأن حافة القبر مكان مناسب ينظر الانسان منه الى المستقبل • ومن هذا
المرجع يبصر الانسان بعيدا في الأعماق الالهية ، بعيدا في الآفاق البشرية •
اليوم ، حبس الحرية والحقيقة والعدالة مشدودة الأيدي خلف الظهور ،
يضرب بالعصا ، ويجلد في الساحة العامة ، الحرية يضربها الجنود ،
والحقيقة يضربها الفسائسة ، والعدالة يضربها القضاة ، اليوم ، والفكرة
الآتية من عند الله ، تعذب ، والله على أفق الانسانية ، الله يجلد في الساحة
العامة ، ولنا أن نقول ، نعم نستطيع أن نقول انه يتعذب معنا وينزف
الدماء • من حق الانسان اذن أن يسير الجرح البشري في هذا المكان
الذي ينمى الى الشئون الأبدية • ثم ان الناس لا يزعمون القبر ، وخاصة
قبور الشهداء بالحديث عن الأمل • حسن ! أقول لكم اننا نبصر الأمل
بوضوح ، وخاصة من أعلى هذا المسحدر الجنائزى • وهناك في كل مكان
ضوء في دجى الليل ، ضوء في اسبانيا ، وضوء في إيطاليا ، ونور في
الشرق ، يقول قصار النظر في السياسة ان هذه الأضواء حريق ، أما
أنا فأقول انها الفجر !

هذا النور ، نور الشرق الذي لم يزل بعد ضعيفا ، هو المجهول ،
السر الغامض • لا ترفعوا عنه أبصاركم أيها المنفيون لحظة واحدة ، فعنده
سوف يشرق المستقبل •

اتركوني ، مع الوقار اللائق في حفرة هذا المستمع الجنائزى (يشير
الخطيب الى النعش) ، دعوني أتحدث اليكم عن الأحداث الجارية ، والأحداث
التي تنتهي ، أتحدث بحرية وصراحة ، وبالكيفية الملائمة لأولئك الواصلين
بالمستقبل لأنهم واثقون بالحق • يقال لنا أحيانا ، احترسوا فأحاديثكم

حريشة أكثر مما ينبغي . وينقصكم الحرص - وهل الحرص هو الشيء المطلوب في هذه الآونة ؟ إنما المطلوب هو الشجاعة . المجد ، في ساعات النضال الشديد ، لأصحاب الكلام الصادر دون احتراز ، والسيوف المسلولة من الأغماذ .

وفضلا عن ذلك فالملوك مدربون . فاهدأوا بالآ

هناك حدثان في الموقف الحاضر . حلف ، وحرب .

الحلف ؟ أقر بأننا ننظر في هذه اللحظة دون حماسة الى تلك الألفة الظاهرية بين فونتونا وواترلو ، التي يبدو أنه قد خرج منها نوع من فرنسا الانجليزية . ونحن المتفرجين على هذا المشهد في صمت وبرود ، نترك الجوقة المتذلة التي تتبع كل المواكب وتتجمع على أبواب النجاح ، نتركها تغنى على جانبي المانش ، وتتراشق القصائد بين لندن وباريس ، هذا الحلف البديع الذي بفضلته يتنزه في ضوء الشمس جندي فانسني (من فرنسا) في صحبة جندي الحرس الانجليزي ، والبحار الفرنسي في صحبة البحار الانجليزي ، والمعطف الأزرق (الذي كان يلبسه الفرنسيون) في صحبة الرداء الأحمر ، وأيضا ، وبلا شك ، نابليون في صحبة « هيدسون لو » (١) ، في اللحد .

اننا هادئون أمام هذا الأمر ، على ألا يخطيء أحد في فهم ما تفكر فيه . فنحن أهل فرنسا نحب أهل انجلترا ، والخطوط الصفراء أو الخضراء التي تلطخ بها الخرائط لا وجود لها عندنا . ونحن الجمهوريين الديموقراطيين الاشتراكيين نرفض اقامة الحواجز بين طائفة وأخرى ، كما نرفض الأحكام المسبقة من شعب عن شعب آخر والتي انبثقت من أحلك ظلمات البشرية القديمة العشواء . وانا لنبجل بصفة خاصة تلك الأمة الانجليزية النبيلة الحرة التي تؤدي عملا رائعا في الجهد الحضاري المشترك ، ونعلم قيمة هذا الشعب الذي أنجب شكسبير وكرومويل ونيوتون ، وقد أقمنا في موطنه راضين ، دون أن نلتزم قبله بشيء ، فانا نمضي فيه الى أبعد مما تحلم به كل الدبلوماسية ، فنحن لا نريد فقط الاتحاد بين فرنسا وانجلترا ، وانما نريد أيضا اتحاد أوروبا مع نفسها ، واتحاد أوروبا مع أمريكا ، واتحاد العالم مع العالم ! نحن أعداء الحرب . نحن المسخرين في سبيل الاخاء . نحن الذين نحرك النور والحياة . نحن نكافح الموت الذي يشيد أجهزة الاعدام ، والظلام الذي يرسم الحدود . وليس في مفهومنا منذ الآن سوى شعب واحد ، كما أنه لن يكون هناك

(١) جنرال انجليزي ، كان سجان نابليون في سانت هيلين - المرحوم .

في المستقبل سوى انسان واحد . اننا نريد الموافق الشامل في الاسماع
الشامل . ونحن كلنا الموحودين هما ، على اسعداد لبذل دماثنا بسرور
لكي نعجل بمقدار ساعه فدوم اليوم الذي سوف تعطى فيه قبلة السلام
السامية بين الأمم .

لذلك . فعلى أصدقاء الحلف الانجليزى الفرنسى ألا يخطئوا في
مدلول كلامى . وأؤكد ، أكبر من أى انسان آخر ، أننا نحن الجمهوريين
نريد هذه الأحلاف . وأكرر القول ان السبب في ذلك هو أن شعارنا
الاتحاد بين الشعوب . وبدرجة أكبر . الوحدة بين البشر . ولكننا نريد
هذه الاتحادات صافية ألفة عميقة خصنة . نريدها أخلاقه حتى نكون
حقيقة . وسريعه حتى نكون مسنديه ، نريدها فائمة على المصالح دون
سك . ولكننا نريدها قائمة أكبر من ذلك على كل أشكال الاخاء في مجال
التقدم والحريه . نريدها أن تكون بنوع ما تتسجة المسيرة الودية في
النور ، خالصة من الاذلال من جهة . ومن التنازلات من جهة أخرى ، ومن
المقاصد المستة من ناحية المستقبل ، ومن أسباح الماضي . ونجد أن
الاحتقار بين الحكومات . حتى ولو كان مستترا ، عنصر سيئ من ناحية
تعزير الاحترام بين الأمم . قصارى القول اننا نريد أن تقوم على الواجهات
المشرقة لهذه الأحلاف بين الشعوب تماثيل من الرخام ، لا مخلوقات
من طين .

نريد اتحادات جديدة بتوقيع (الجنرال) واشنجتون ، ولا نريد
وثائق من جسد نحمل امضاء بونابرت .

أما الأحلاف النى نشهدها في هذه الآونة ، فانا نعتقد أنها سيئة
بالنسبة الى الطرفين . وبالنسبة الى الشعبين اللذين نعجب بهما ونحبهما ،
والحكومنين اللتين لا نهتم بهما كثيرا . فهل يعلم أحد تمام العلم ما يراد
عمله هنا ، وما سوف يعمل هناك ؟ نقول ان كلا من الطرفين في الواقع
يرتاب قلبلا في الطرف الآخر . ولبسا مخطئين في ذلك . نقول لهؤلاء
ان للتاجر دائما شئونه التجارية . ونقول للآخرين ان الخيانة تكون دائما
الى جانب الخائن .

أتفهمون الآن ؟

وكما أننا لا نكثر بالحلف الواهى . فان الحرب المعلقة تنبر
اهتمامنا . نعم ، اننا ننظر بمزيج عجيب من الأمل والضيق الى المغامرة
الأخيرة التى قامت بها الملكيات ، هذا العمل الطائش من أجل مفتاح تكلف
حتى الآن الملايين من الذهب وآلاف الرجال . انها حرب مؤامرات أكثر
منها حرب مجازك ، نزيد فيها بطولة الأتراك باطراد ، وتزداد فيها دولة

٢ ديسمبر جينا باطراد ، وتصير فيها النمسا روسية أكثر فأكثر ، حرب طاحنة ، لا ينطلق فيها المدفع ، يموت فيها جنودنا البواسل ، بناء المصنع والكوخ ، مينة تعسة مع الأسف ، بل ولا تخرج من جنتهم البائسة هالة المعارك المفجعة ، حرب لا منتصر فيها غير الوباء ، حرب كان التيفوس فيها هو الوحيد الذى استطاع أن ينشر بياناته ، ولم يكن فيها معركة شبيهة بأوستر ليتز سوى معركة الكوليرا ، حرب حالكة . سوداء ، مقلقة ، مقهقرة ، مهلكة ، غامضة ، لا يفهمها أولئك الذين صنعوها ، لأنها عامرة بالمشيئة الالهية ، لغز رهيب صنعه الملوك بصورة عشوائية ، لا يعرف سره الا النورة وحدها .

وفى هذه الساعة التى تمر بنا ، واللحظة التى أتحدث فيها ، فى هذه اللحظة بالذات ، أيها المواطنون ، تتم أحداث هذا الصراع الكئيب . ويبدو أن الفشل فى البلطيق قد وجد نظيرا له من العار فى البحر الأسود . ولما كانت شعوب مثل شعبي فرنسا وانجلترا لا يمكن بعد كل شئ أن تستمر دواما دون عواقب سيئة ذليلة فى جيوشها ، فإنها نجازف بإيهاء المشكلة ، وتقدم على هذه المحاولة . أيها المواطنون ، هذه الحرب التى أخفت سرها أمام كرونستات ، هل تكشف يا ترى عن نفسها أمام سيباستيول ؟ من الذى سيسقط ؟ لمن الحمد والشكر ؟ لا أحد يعرف ذلك حتى الآن . غير أنه مهما جرى أيها المنفيون ، مهما كانت الأحداث ، فان الطغيان هو الذى ينفار ، على رأس نيقولا ، أو على رأس بونايرت . وأعيد ما قلته منذ عام ، انه عذاب أوروبا الذى ينتهى . أما الضربة الواقعة فى هذه الدقيقة بالذات فإنها سوف تسقط حتما ، وفى زمن معين ، اما امبراطور سيبيريا واما امبراطور « كايين » (١) ، بل سوف تسقط الاثنان معا ، ذلك لان أيا من دعامتى مشنقة الشعوب هذه لا يمكن أن يسقط دون أن يجرح معه الدعامة الأخرى .

ترى ماذا يفعل الطاغيتان فى أثناء ذلك ؟ انهما يبتسمان ، بذلك الهدوء السخيف الذى يتسم به الطغيان الانسانى الحقيق ، يبتسمان للمستقبل الرهيب ! انهما ينأمان فى أتم سلطانهما المطلق المشوه البشع ، ولكنهما لا يتمتعان بنزوة الامجاد الشخصية الكئيبة ، أمجاد الحروب التى يفوز بها الأمراء بسهولة ، ولا يأنهان لآلام الجموع المعذبة التى يقولان عنها انها جيوشهما . وفى حين يحتضر الألوف من الرجال ، من أجلهما ، ومن جرائمهما ، على النقلابات ، وحصر الكوليرا ، وتحترق فارنا ، وترتفع

(١) أى امبراطور فرنسا - وكايين جزيرة فى المحيط الأطلسى ، قاعدة جيانا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) وكانت منفى ترسل اليه السلطات الفرنسية المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة - المترجم .

الأدخنة من أوديسا تحت طلقات المدافع ، وتحترق « كولا » فى الشمال ، و « سولبنا » فى الجنوب ، وسحق « سبليسرى » تحت كرات المدافع والقنابل ، وترد الأعمال الوحشية فى « بورماسوند » على الأعمال الضارية فى « سينوب » ، وتنفجر الأبراج ، وتشتعل السفن الحربية وتغرق ، وتغص « مستودعات الجنث » فى المستشفيات الروسية بالجنث ، وفى المسيرات الاضطرابية فى دوبروجا ، ونكات كوستينجى ، وفى حين تذوب فرو بأسرها وتتلانى فى معسكر كارفاليك المفجع ، ماذا يفعل القيصران فى هذه الأثناء ! يستمتع أحدهما بالنسيم العليل فى قصره الصيفى ، ويستمتع الآخر بحمامات البحر فى بياريتز .

• فلنعكر صفو هذه المسرات .

أيتها الشعوب ، فوق التدبيرات والمؤامرات والاتفاقيات ، فوق الدبلوماسية والحروب ، فوق كل المسائل ، التركية واليونانية والروسية ، فوق كل ما تفعله الملكيات أو تحلم به ، تحلق الجرائم .

علينا ألا ندع الاحجاج النأرى يسقط بمضى المدة ، وعلينا ألا نحيد عن الهدف العظيم . فى الامكان أن نقول فى كل زمان : « نرون موجود » . يدعى البعض أن الأجيال تنسى . حسن ! من أجل قدسية الحق ، ومن أجل شرف الضمير الانسانى ، يطلب الينا الضحايا ، ويصيح بنا الشهداء من أعماق قبورهم أن ننعش الذكريات ، وأن نجعل من كل الذكريات جروحا وقروحا دائمة .

أيتها الشعوب ، علينا ألا نمل من ترديد صحيفة الاتهام المفجعة المتهدة ا فى هذه اللحظة ينتصر الحكام المستبدون والطغاة بالقارة الأوروبية . لقد أطلقوا المدافع الرشاشة فى باليرمو وبريشيا وبرلين وفيينا وباريس ، وأطلقوا على الناس الرصاص فى أفكونا وبولونيا وروما وأراد وفانسين وشان دومارس ، وأقاموا المشنقة فى بيشيت ، وآلة ضغط الجسم فى ميلانو ، والمقصلة فى بيليبى ، وشحنوا الجسور العائمة ، وملاؤا السجون الضيقة ، وحشدوا الناس فى الاستحكامات المسقوفة ، وفتحوا الجباب . لقد جعلوا الصحراء ليما ، واستعانوا بتوبولسك وثلوجها ، ولامبيسا وحياتها ، وجزيرة « الأم » الصغيرة وتيفوسها ، وصادروا وهدموا وحبسوا وحجزوا وسلبوا وطردوا وأقصوا ونفوا . وعندما وضعوا أقدامهم على رقبة الانسانية ، وسمعوا حشرجتها الأخيرة ، قالوا فرحين : انتهى ! وها هم الآن فى قاعة الوليمة ، ها هم هناك منتصرين ، ثملين ، قادرين على كل شىء ، التاج على رؤوسهم ، وأكاليل الغار على هاماتهم . تلك هى وليمة الزفاف الأكبر . ذلك هو اقتران النظام الملكى بالغدر ، والملكية بالاغتيل ،

والقانون الالهي باليمين الكاذبة ، وكل ما يسمونه جنيلًا بكل ما نسميه نحن مشينًا ، زواج فاخر وبشع ، ونحت أقدامهم تصدح الموسيقىات ، وكل ضروب الخيانة والندالة نتغنى بمديح العروسين • نعم ، الطغاة ينتصرون ، نعم ، الطغاة يتألقون ، نعم ، هم وشرطتهم وشركاؤهم وحاشيتهم فخورون وسعداء وراضون ومفعمون وشباب وماجدون • ولكن ما شأن كل ذلك بالعدالة الأبدية ! أيتها الأمم المقهورة ، الساعة تقترب • انظروا جيذا الى هذا الحفل ، القناديل والنريا مضاءة ، والموسيقى لا تكف عن العزف ، والرياش والذهب والماسات تتلألأ ، وجماعات الخدم فى أزيائهم الرسمية، أو ثيابهم الكهنوتية ، أو أرديتهم الفضفاضة يركعون ، والأمراء فى ثيابهم الأرجوانية يضحكون ويتبادلون التهانى • ولكنى أقول لكم ان الساعة سوف تدق ، والظل يغشى القاعة • انظروا فى هذا الظل الهائل ، تروا التورة مغطاة بالجروح والقروح ، ولكنها حية ، مكمة ولكنها رهيبة ، تنتصب خلفهم ، وعيونها مثبتة عليكم أيتها الشعوب ، تلوح بيديها الداميتين فوق رؤوسهم حفتين من الخرق البالية المنزوعة من أكفان الموتى !

حرب الشرق

٢٩ نوفمبر ١٨٥٤

٦

أبها المنفيون . .

ان الذكرى السنوية المجيدة التى نحتفل بها فى هذه اللحظة (١) ،
نعيد الى الأذهان ذكرى بولندة ، ويعيدها الموقف الأوروبى الى مجرى
الأحداث . كيف ! سأحاول أن أقول لكم ذلك .

ولكن لنفحص الموقف أولا .

من المهم تحديد الوقائع بالنسبة الى النقطة التى استقر عندها الموقف ،
الى جانب أمور حاسمة يجرى الاعداد لها .

ولنبداً بنصحيح خطأ يكاد يكون عاما .

فبفضل بعض الغمائم التى ألقته الحكومة الفرنسية بدهاء على مصدر
هذه القضية ، وكثفتها الحكومة الانجليزية من باب المجاملة ، ينسب الناس
اليوم عادة ، فى انجلترا وفرنسا ، حرب الشرق ، هذه الكارثة القارية ،
الى الامبراطور نيقولا . ولكنهم مخطئون ، فحرب الشرق جريمة ، ولكنها
ليست بالمرّة جريمة نيقولا ، فليس لنا أن ننسبها الى هذا الرجل الملىء .
ولنشبت الحقيقة . ثم نستخلص بالتالى النتيجة .

أيها المواطنون ، فى ٢ ديسمبر ١٨٥١ — ذلك لأنه يجب دائما الرجوع
الى هذا التاريخ ، وطالما كان السيد بوناپرت قائما فى مكانه ، فان الأحداث
كلها سوف تخرج من هذا الينبوع الرهيب ، وكل الأحداث ، مهما كان
سُأنها ، والتى يجرى هذا السم فى عروقها ، سوف تكون سامة وتقرح
سريعا — فى ٢ ديسمبر اذن ، فعل السيد بوناپرت ما تعرفونه ، ارتكب
جريمة ، وأقام من هذه الجريمة عرشا جلس عليه . وأعلن شنيدر هانز

(١) الثورة البولندية فى عام ١٨٣٠ .

نفسه قيصرًا • ولكن لابد لقيصر من « بطرس » (البابا) • وعندما يكون الانسان امبراطورا ، فان كلمة « نعم » التي يقولها الشعب ليست ذات أهمية ، وانما المهم هو كلمة « نعم » التي يقولها البابا • ولا يكفي أبدا أن يكون (الامبراطور) حائنا لليمين وخائنا وقاتلا ، انما يجب أيضا أن يكرس • لقد كرس بونابرت الأكبر امبراطورا • وأراد بونابرت « الأصغر » أن يكون كذلك •

• تلك هي المسألة •

هل يوافق البابا على ذلك !

وبعث ياور للامبراطور ، يدعى « دو كوت » وهو من رجال الدين في ذلك الوقت ، الى « أنطونيللي » المعروفة حاليا باسم « كونسالفى » ، فلم يوفق في مهمته • لقد كرس البابا بيوس السابع « مارينجو » (١) • أما بيوس التاسع فإنه تردد في تكريس « شمدع مونمارتر » • كان مزج هذا الدم وهذا الوحل الزيت الرومانى القديم أمرا خطيرا • وأظهر البابا تقزذه • وتحير السيد بونابرت • فما العمل ! وما هي الوسيلة التي يمكن بها اقناع بيوس التاسع ! كيف يمكن اقناع فتاة ! كيف يمكن اقناع بابا ! بهدية • تلك هي القصة •

— أحد المنفيين (المواطن بيانكى) : تلك عادات كهنونية •

— فيكتور هوجو (قاطعا حديثه) : الحق معك • منذ زمان بعيد ، صاح ارميا (٢) في اورشليم • كما صاح لوثر في روما ، قائلا : عاهرة ! (يواصل حديثه) • قرر السيد بونابرت اذن أن يقدم هدية للسيد ماستاي •

• أية هدية ؟ هذى هي المغامرة الحاضرة كلها •

أيها المواطنون : هناك في الوقت الحاضر بابوان : البابا اللاتينى ، والبابا اليونانى • أما البابا اليونانى الذى يدعى أيضا « قيصر » فإنه جاثم على كاهل السلطان بكل أثقال البلاد الروسية • ولما كان السلطان يمتلك أرض يهوذا ، فهو بالتالى يملك قبر المسيح • انتبهوا الى ما يأتى • فمنذ عدة قرون ، كان المطمح الأكبر للمذهب الكاثوليكي ، اليونانى واللاتينى ، أن يتمكن الاثنان من النفاذ بحرية في هذه المقبرة واقامة الشعائر بها ، لا جنبا الى جنب ، ولكن بأن يقصى أحدهما الآخر ، أى أن تقصى الكاثوليكية

(١) قرية بايطاليا ، مشهورة بانتصار الفرنسيين عندها ، بقياده بونابرت على النمساويين (١٤ يونية ١٨٠٠) — المترجم •

(٢) أحد أنبياء اسرائيل الأربعة الكبار (حوالى ٦٥٠ - ٥٩٠ قبل الميلاد) — المترجم •

اللاتينية اليونانية ، أو تفصى اليونانية اللاتينية • فماذا فعل الاسلام بين هذين المطالبين المتضادين ! لقد احتفظ بالميزان سويا ، أى احتفظ بالباب مغلقا ، ولم يسمح بدخول المقبرة ، لا للصليب اليونانى ، ولا للصليب اللاتينى ، لا لموسكو ولا لروما • وأضرم ذلك على الأخص قلب البابا اللاتينى الذى يدعى السيادة • اذن فعلى وجه العموم ، وبصرف النظر عن السيد بونابرت ، ما هى الهدية الواجب تقديمها للبابا لحمله على تكريس أى وغد أنيم وتتويجه ! اذا ألقى هذا السؤال على ماكيافيل لأجاب « ما أسهل ذلك : أن ترجع كفة روما فى أورسليم ، ونحطم تلك المساواة المهيمنة بين الصليبيين أمام قبر المسيح ، وتوضع الكنيسة الشرقية تحت أقدام الكنيسة الغربية ، ويفتح الباب المقدس أمام احدهما ويغلق فى وجه الأخرى ، ويحقر البابا اليونانى ، وباختصار يعطى البابا اللاتينى مفتاح القبر » • هذا ما سوف يجيب به ماكيافيل : وهذا ما فهمه السيد بونابرت وما فعله • وتذكرون أن هذه المسألة سميت مسألة « الأماكن المقدسة » •

وانعقدت المؤامرة ، فى سرية أول الأمر • وطلب وكيل السيد بونابرت فى القسطنطينية الى السيد لافاليت باسم سيده مفتاح قبر المسيح من السلطان لبابا روما • ولما كان السلطان واهنا مرتبكا ، فى رأسه دوار العهد الأخير من دولة الاسلام ، مشدودا فى اتجاهين متضادين ، فهو يخشى نيقولا ، ويخشى بونابرت ، لا يعرف لآى من الامبراطورين يستمع ، فانه أرخى العنان وسلم المفتاح • وشكره بونابرت ، وغضب نيقولا • وأرسل البابا اليونانى الى السراى قاصده الرسول منتشيكوف ، وفى يده سوط ، وطالب ، فى مقابل المفتاح المعطى الى السيد بونابرت ، من أجل بابا روما أشياء أكثر صلابة وثباتا ، هى بوجه التقريب كل ما قد يكون قد بى للسلطان من سيادة • ورفض السلطان • وأيدت فرنسا وانجلترا السلطان • وتعرفون الباقي • واندلعت حرب الشرق •

هذى هى الوقائع ••

لنعت ما لقيصر لقيصر ، ولا نعطي لنيقولا ما تملكه حكومة ٢ ديسمبر • لقد صنع مطعم بونابرت فى التكريس كل شئ • مسألة الأراضي المقدسة والمفاح هى الأصل فى كل شئ •

والآن اليكم ما خرج من هذا المفتاح •

ففى الساعة التى نمر بها ، تشهد آسيا الصغرى ، وجزر آلاند ، والدانوب ، وتشيرنايا ، والبحر الأبيض ، والبحر الأسود ، والجنوب مدنا كانت منذ بضعة شهور مزدهرة ، أصبحت رمادا ودخانا • فى الساعة الحاضرة تحترق سينوب ، وبومارسوند ، وسليسترا ، وفارنا ، وكولا ، وسباسمتيول • فى الساعة الحاضرة يذبح الانجليز والفرنسيون والأتراك

والروس بعضهم بعضا فى الشرق أمام تل من الخرائب • ويأتى العربى من النيل ليقتله التتارى الآنى من الفولجا ، ويأبى القوزاقى من البرارى ليقتله الاسكتلندى الآتى من الهضاب • المدفيعات نصعق المدفيعات ، ومستودعات البارود تنفجر ، والاستحكامات البارزة تنهدم ، والمتاريس تنهار ، وكرات المدافع تخرق السفن الحربية ، والخنادق تنهال عليها القنابل ، والمعسكرات المتنقلة تنهمر عليها الأمطار ، والتيفوس والطاعون والكوليرا تنقض مع المدافع الرشاشية على المحاصرين والمحصورين • وعلى المعسكرات والسفن الحربية ، والحامية ، والمدينة التى يحضر فيها السكان من نسوة وأطفال وشيوخ • القنابل تدك المستشفيات • وهناك بيان يقول ان أحد المستشفيات قد اشتعل به النار فتكلس (١) به ألفان من المرضى • وبختلط العاصفة بكل ذلك ، فهذا هو فصل العواصف • وتغرق الفرقاطة التركية « بهيرة » وهى مبحرة ، وتغرق السفينة المصرية ذات الطابقين « عباد الجهاد » بالقرب من اينبادا وبها سبعمائة رجل • وتخلع الرياح العاصفة صواري السفن الحربية ، وتغرق البارجة ذات الرفاص « لويرانس » ، والفرقاطة « حورية البحار » • وأربع سفن بخارية حربية أخرى ، وتنحطم السفن « لوصان باربى » و « سانسون » و « أجامنون » فى مياه قليلة العمق بفعل الأعصار ، ولا تنجو « لاربتريسيون » من الهلاك الا بعد أن ألقت مدافعها فى البحر ، وتهلك الباخرة « هنرى الرابع » ذات مائة المدفع بالقرب من « أوباتوريا » ، وتتلغ سفينة المراسلة ذات العجلات الرفاصية « لوبليتون » ، وتجنح ثلاثة وعشرون مركب نقل محملا بالرجال وتهلك • وعلى البر ، تزداد المعارك ضراوة يوما بعد يوم • ويجهز الروس على الجرحى بكعوب بنادقهم • وفى آخر كل يوم ، تعوق أكبادس الموتى والمحتضرين الجنود المشاة من اجراء مناوراتهم • وفى المساء ، تنير ميادين القتال القشعريرة فى أوصال قادة الجيوش • وهناك تختلط جثث الانجليز والفرنسيين والروس وكأنها تعض بعضها بعضا • لقد صاح اللورد « راجلان » العجوز الذى حضر معركة واترلو قائلا « لم أشهد قط شيئا مثل هذا » • ومع ذلك فسوف يمضى القوم الى أبعد من هذا ، اذ يعلن البعض أنه سوف يستخدم ضد المدينة المتعسة الوسائل « الجديدة » التى احتفظ بها بصفة « احتياطية » والتى تقشعر لها الأبدان • الإبادة ، هى الصيحة التى نطقها هذه الحرب • والخندق وحده يكلف ضحايا تقدر بمائة رجل كل يوم • أنهار من الدماء البشرية تسيل ، نهر من الدم فى ألما ، ونهر من الدم فى بالاكلافا ، ونهر من الدم فى اينكرمان • خمسة آلاف رجل قتلوا يوم ٢٠ سبتمبر ، وستة آلاف يوم ٢٥ أكتوبر ، وخمسة

(١) أى تحول الى جبر من سدة الاحراق - المترجم •

عشر ألفا يوم ٥ نوفمبر • وكل هذا انما هو بداية • جيوش ترسل
ونذوب • هذا جميل • هيا ، أرسلوا غيرها • ويردد لوى بونابرت للجنرال
السابق كاتروبير تلك الكلمة السخيفة التي قالها فيليب الرابع لسبينولا :
أيها المركيز ، استول على بريدا • كانت سباستينول بالأمس جرحا ،
فأصبحت اليوم قرحة • وستكون في الغد سرطانا ، وهذا السرطان
سيلتهم فرنسا وانجلترا وتركيا وروسيا • هذى هي أوروبا الملوك •
يأيها المستقبل ، متى تعطينا أوروبا الشعوب ؟

• • أوصل الحديث • •

على البواخر ، بعد كل عملية ، سحنات من الجرحى تثير الرعب •
أذكر لكم الأرقام التي أعرفها فقط ، وأنا لا أعرف أكثر من عشر الحقيقة •
أربعمائة جريح على السفينة « باناما » ، وأربعمائة وتسعة وأربعون على
« كولومبو » التي كانت تقطر ناقلتين محملتين أيضا بالجرحى ، ولا أعرف
عدد من كان بهما ، وأربعمائة وسبعون على « فولكان » ، وألف وخمسمائة
على « كانجورو » • يجرح الجندي في القصر ، وتضمد جراحه في
القسطنطينية • مائتا فرسخ في البحر ، ثمانية أيام بين الجرح والتضميد •
وفي الطريق ، أثناء العبور ، تصبح الجروح المهمة مخيفة • أما الذين
بترت أطرافهم ونقلوا دون اسعاف ودون مساعدة ، فانهم يكذبون بصورة
بشعة بعضهم فوق بعض ، ويرون ديدان الأرض ، تلك الحشرات التي تعيش
في الفبور ، وهي نخرج من سيقانهم المهشمة وضلوعهم الغائرة ، وجماجمهم
المشروخة ، وبطونهم المبقورة ، ويتعفنون تحت هذه التكدسات البشعة
قبل أن يموتوا بين معاير بواخر نقل المصابين الموبوءة التي هي مقابر عامة
سأسعة ملأى بالأحياء الذين تأكلهم الديدان (وهنا يتوقف فيكتور هوجو)
— أنا لا أبالغ بالمرة — هاكم الصحف الانجليزية ، الصحف الوزارية ،
اقرأها بأنفسكم (يلوح الخطيب بربطة من الجرائد) • نعم ، أؤكد أنه
لا توجد أية اسعافات • أربعة من الجراحين على ظهر السفينة « فولكان » ،
وأربعة جراحين على « كولومبو » في مقابل تسعمائة وتسعة عشر شخصا
يحتضر ! أما الأتراك ، فان جروحهم لا تضمد على الإطلاق ، فهم تحت رحمة
الأقدار • أعلم أنني رجل نظري فحسب ، ومن ساربي الدماء ، ولكنني أفضل
أن يكون عندي عدد أقل من صناديق الأوسمة المقدسة في معسكر بولوني ،
وعدد أكبر من الأطباء في معسكر القرم •

• • ولنواصل الحديث • •

رد الفعل في أوروبا وانجلترا وفرنسا رهيب • الافلاسات تنهال ،
والمبادلات كلها تنتوقف ، والتجارة تحتضر ، والصناعة تموت • حماقات

الحرب تستعرض نفسها ، والغنائم تقدم كشوفها • فإذا حسينا ما أنفق
فى حملة البلطيق وحدها ، وجدنا أن كل واحد من الألفى أسير روسي.
الذين جىء بهم من بومارسوند قد كلف فرنسا وانجلترا ثلاثمائة وستة
وثلاثين ألف فرنك • البؤس فى فرنسا ، فالفلاح يبيع بقرته ليسدد
الضريبة ، ويعطى ابنه ليغذى الحرب - ابنه ، لحمه ! وأنتم تعرفون اسم
هذا اللحم ، لقد عمده العم • وكل نظام من أنظمة الحكم ينظر الى الانسان
من وجهته الخاصة • فالجمهورية نقول « لحم الشعب » • والامبراطورية
تقول « لحم للمدفع » - والمجاعة تكمل البؤس • ولما كان القتال يجرى
ضد الروسيا ، فانه لم يعد ثمة قمح يأتى من أوديسا ، ويشخ الخبز •
وما حدث فى بوزانسكى ينتشر فى الطبقات الشعبية ، ويلقى بشراره
هنا وهناك •

وفى بولونيا يتير الجوع شغبا يقمعه رجال الشرطة • وفى سان
بريوك تشد النسوة شغورهن ويشققن أكياس الحبوب بالمقصات • ضرائب.
تجبى فوق ضرائب ، قروض فوق قروض •

ويجنده مائة وأربعون ألف شخص هذا العام فقط ، كبداية ، وتغوص
الملايين وراء الفرق العسكرية وتغرق الميزانية مع الأساطيل • هذا هو
الموقف •

كل هذا ثمرة ٢ ديسمبر •

أما نحن المنفيين الذين تدمى قلوبنا بكل جراح الوطن ، وبكل الآلام
البشرية ، فانا نفكر فى تلك الحالة التى يرثى لها بمزيد من الضيق
والعذاب •

كل هذا ثمرة ٢ ديسمبر ، أؤكد لكم ذلك ، وأكرره ، وأنادى به ،
ليعلمه الجميع ، ولا ينساه أحد بعد الآن ، ولقد أوضحته والوقائع فى
يدى ، وانه أمر لا نزاع فيه ، سوف يحكيه التاريخ ، وأتحدى أى انسان
أن ينكره •

لو انتزعتم المؤامرة المسماة بمسألة الأماكن المقدسة ، وانتزعتم
المفتاح ، والرغبة فى التكريس ، والهدية المطلوب تقديمها للبابا ، لو
انتزعتم حكومة ٢ ديسمبر ، وانتزعتم السيد بونابرت نفسه ، فلن تكون
هناك حرب الشرق •

نعم ، لقد أهينت تلك الأساطيل وحقرت ، وهى أبدع الأساطيل
الموجودة فى العالم • نعم ، لقد أبيت الخيالة الانجليزية الشجاعة • نعم ،
أولئك الاسكتلنديون الشهب ، أسود الجبل ، نعم ، جنودنا الزواويون ،

وفرساينا المغاربة (السباهيون) ، وجنودنا فى فانسين ، وكناينا
 الافريقية البديعة التى ليس لها نظير ، كل هؤلاء قد ضربوا بالسيوف
 والبلطات وأبيدوا عن آخرهم . نعم ، كل تلك الشعوب البريئة ، ونحن
 أخوة لها ، اذ ليس ثمة غرباء بالنسبة الينا ، قد سحقتم . نعم ، هذا
 الجنرال العجوز كانكارت ، وهذا الكابتن تولان الشاب ، فخر الرداء
 الانجليزى الرسمى ، قد ضحى بهم ، بين الكثيرين غيرهم . نعم ، الاحتفاء
 الذى انزعته المدافع الرئاسية وبعترتها ، تبدل من العليق فى بالاكلافا أو
 ترتطم بحواطط سياستبول . نعم ، فى الليل ، بولول ميادين القتال
 الملائى بالمحتضرين كما تولول الوحوش الضارية . نعم ، القمر يضىء
 مستودع الجثث الرهيب فى اينكرمان حيث يتجول بعض النسوة وفى
 أيديهن المصابيح ، هنا وهناك بين الموتى ، يبحثن عن أخوتهن أو
 أزواجهن ، تماما كما فعل أولئك النسوة الأخريات اللواتى كن منذ سنوات
 ثلاث ، فى ليلة ٤ ديسمبر ينظرن الواحدة بعد الأخرى فى جثث سارح
 مونمارتر . نعم هذه الكوارث تجتاح أوروبا ، وهذا الدم ، كل هذا الدم
 يسيل فى القرم . نعم ، هؤلاء الأرامل يبيكين ، وهؤلاء الأمهات يلوين
 الأذرع - كل ذلك لأن السيد بونابرت ، سفاح باريس ، قد نزعته به
 أهواؤه الى أن يطلب البركة والتكريس على يدى السيد فاستناى ،
 خائق روما !

والآن ، فلنتفكر لحظة ، فالأمر يستحق التفكير .

حقا ، اذا كان هناك بين الفرق العسكرية الفرنسية الباسلة التى
 تقاتل جنباً الى جنب مع الجيش الانجليزى الشجاع أمام سياستبول ضد
 القوة الروسية بأسرها ، وبين المحاربين الأبطال عدد من هؤلاء الجنود
 الأذال الذين ساقهم قواد مفضوحون فى ديسمبر ١٨٥١ فطاعوا أوامر
 الغدر المفجعة ، اذا كان الأمر كذلك فان الدموع تنسكب فى مآقينا ،
 وترتج أنوار قلوبنا الفرنسية الهرمة ، فهؤلاء أولاد الفلاحين ، وأولاد
 العمال . ونصيح طالبين الرحمة ، ونقول : كانوا ثمالى ، وعميانا ، وجهلة ،
 لا يعرفون ما يعملون ، وترفع الأيدي الى السماء وتتضرع الى الله من أجل
 هؤلاء النعماء . الجندى هو الطفل ، تجعل الحماسة منه بطلا ، وقد
 تجعل الطاعة السلبية منه لصاً أتيماً . فان كان بطلا ، سلبه الغير مجده ،
 وان كان لصاً فليأخذ غيره أيضاً خطيئته . نعم ، أمام القصاص الغامض
 الذى بدأ ينفذ ، رحماك يا الهى بالجنود ، أما القادة ، فلينفذ فيهم
 قصاصك ، ولننفذ ارادتك .

نعم ، أيها المنفيون ، فلنترك الأمر للقاضى يبت فيه . وانظروا !
 ذكرنكم منذ هنيهة بأن حرب الشرق من صنع حكومة ٢ ديسمبر ،

أنجزتها خطوة خطوة ، ونحولا بعد تحول حتى وصلت بها الى نتيجتها المنطقية ، وهى احراق أوروبا • فيا لهول الكفارة ! ان ٢ ديسمبر تدور حول نفسها ، وهى ذى يعود بعد أن قتلت رجالنا ، لتجهز على رجالها • كانت تسمى منذ سنوات ثلاث انقلابا سياسيا ، واغتالت بومان ، وهى اليوم تسمى حرب الشرف ، وتعلم سانت أرنو • الرصاصة التى قتلت « ديسوب » فى ليلة ٤ ديسمبر أمام حاجز « مونتورجى » بناء على أمر لورميل ، نرند فى الظلمات ، حسب قانون جبار مجهول ، فتصيب لورميل فى القرم • وليس لنا أن نهتم لهذا الأمر ، فتلك هى ومضات البرق المشعومة ، انها الشبح الذى يضرب ، انها الله •

العدالة ، نظرية • والعقاب صارم مثل أوقليدس (١) ، وللجريمة زوايا سقوط وزوايا انعكاس • ونحن الرجال نرتجف حين نلمح فى دجنة الأقدار الانسانية خطوط وأشكال هذه الهندسة الضخمة التى يسميها جمهور الناس « المصادفة » ويسميها المفكر « العناية الالهية » •

نقول بهذه المناسبة ، انه من العجيب ان هذا المفتاح عديم الفائدة • فالبايا يرى تردد النمسا ، بالاضافة الى أن نفسه تحدثه بلا شك بالسقوط الوسيك ، ومن ثم فانه يصير على التراجع أمام السيد بونابرت • أما السيد بونابرت فانه لا يريد أن يقع من السيد ماسناى الى السيد سيبور ، ويترتب على ذلك أنه لا يكرس ، ولن يكرس ، ذلك لأن العناية الالهية تضحك أثناء كل ذلك ضحكها الرهيبة •

هأنذا قد استعرضت الموقف أيها المواطنون • وفى الوقت الحاضر — وبهذا أريد أن أبهى الحديث ، وهو ما يعيدنى الى الموضوع الخاص بهذا الاجتماع المقرر — هذا الموقف الخطير بالنسبة الى الشعبين الكبيرين — لأن انجلترا تخاطر فيه بتجارها وبالشرق ، وفرنسا تخاطر فيه بشرفها وحياتها — هذا الموقف الرهيب ، كيف يتأتى الخروج منه ؟ لفرنسا وسيلة لذلك : أن تخلص نفسها ، وتطرد الكابوس ، وتزعزع الامبراطورية الجاثمة على صدرها ، وتعود لترتقى مدارج النصر ، والقوة ، والرفعة ، عن طريق الحرية • ولانجلترا وسيلة أخرى : أن تنتهى بما كان يجب عليها أن تبدأ به ، وألا تضرب القيصر فى كعب حذائه كما تفعل فى هذه اللحظة ، بل تضربه فى القلب ، أن تستنهض بولندا • وتذكرون أننى قدمت لانجلترا هذه النصيحة ، هنا ، فى هذا المكان نفسه ، فى هذا اليوم نفسه منذ سنة كاملة • وفى هذه المناسبة وصفتنى الصحف البريطانية

(١) عالم اعرفى فى الهندسة (٣٠٦ - ٢٨٣ قبل الميلاد) — مؤلف « العناصر »

الذى تشكل أساس الهندسة السطحية — المترجم •

التي تساند الوزارة الانجليزية بأننى « خطيب خيالى » وهاكم الأحداث.
 يؤيد كلامى . الحرب فى القرم تحمل القيصر على الابتسام ، أما الحرب
 فى بولندا فانها سوف تجعله يرتعد . ولكن هل الحرب فى بولندا ثورة ؟
 لا شك فى ذلك . فماذا يهم انجلترا ؟ ماذا يهم انجلترا العظيمة التليدة ؟
 انها لا تخشى الثورات لأن عندها الحرية . نعم ، ولكن السيد بونايرت
 يخشاهما لأنه الطغيان بعينه ، فهو لن يقبلها . ومن ثم تضحي انجلترا
 بجيوشها وأساطيلها وأموالها ومستقبلها ، وبالهند ، والشرق ومصادرها
 كلها من أجل السيد بونايرت ومن أجل خوفه الشخصى من الثورات .
 اكنت مخطئا عندما قلت هذا من شهرين ؟ الحلف مع السيد بونايرت
 ليس خسارة أدبية فحسب ، بالنسبة الى انجلترا ، انما هو كارثة .

ان الحلف مع السيد بونايرت هو الذى يسىء الى المصالح الانجليزية
 كلها فى حرب الشرق منذ سنة مضت . ولولا حلف السيد بونايرت
 لحصلت انجلترا اليوم على نجاح فى بولندا بدلا من الهزيمة وربما النكبة
 فى القرم .

مهما يكن من شئ فان الأمور لابد أن تنتهى الى اخواتها . والمواقف
 لها منطقها الذى ينتهى دائما بفرض كلمته الأخيرة . ان الحرب فى بولندا ،
 وهى أسلوب من الاعتداء ، قارى محض على حشد التعبير الشفاف الذى
 استخدمه مجلس الوزراء الانجليزى ، أصبحت من الآن شيئا حتميا لا مفر
 له . انها المستقبل العاجل . وفى هذه اللحظة التى أتحدث فيها ، يتحدث
 لورد بالمستون فى قصر التويلرى مع السيد بونايرت فى هذا الصدد .
 واليكهم كلمتى الأخيرة أيها المواطنون : ان الحرب فى بولندا هى الثورة
 فى أوروبا . آه فلينفذ القدر !

آه لتقع مصائب الدهر على رؤوس هؤلاء الرجال . هؤلاء الجلادين ،
 الطغاة ، الذين انتزعوا الكثير من الشعوب ، الشعوب النبيلة ،
 شعاراتها القومية . الشعارات ، لا بل الحياة . علة ذلك أيها المنفيون ،
 العلة التى لابد من ترديدها دوما لارهاب النذالات ، وبث روح الشجاعة ،
 أن الموت الظاهرى للشعوب ، مهما كان كثيبا ، ومهما بدا شديد البرودة
 كالنلج ، انما هو مرحلة تحول ، يستبطن سر تجسده جديد . بولندا فى
 الجذب ، ولكن فى يدها البرق . والمجر تحت الكفن ، ولكن فى قبضتها
 السيف ، وايطاليا فى القبر ، ولكن فى قلبها الشعلة ، وفرنسا فى الحفرة ،
 ولكن على جبينها النجم . وتدل الدلائل كلها يا أصدقائي ، على أنه فى
 الربيع القادم ، فى ساعة البعث - كما ان الصباح ساعة الصبح - سوف
 ترتجف الأرض كلها انهارا وغبطة ، حين تنهض هذه الجثث العظيمة فجأة.
 وتفتح للفور أجنحتها العريضة .

٧

أتارت كلمات فيكتور هوجو المشاعر فى البرلمان • ودعا أحد أعضاء الأغلبية ، وهو من المترددين على قصر التويلرى ، دعا الحكومة الانجليزية الى فض « النزاع الشخصى » بين السيد لوى بونايرت والسيد فيكتور هوجو • وشعر فيكتور هوجو بأنه من الضرورى أن يضع الامبراطور فى مكانه المناسب ، وأن يعيد الى السيد بونايرت الشعور بوضعه الحقيقية ، ومن نم نشر فى الصحف الانجليزية الآنية :

(تنبيه)

أنبه السيد بونايرت الى أنني أدرك تمام الادراك ماهية الأجهزة التى حركها والتى هى على سكاكته ، وأننى قرأت باهتمام الأشياء التى قيلت عنى فى الأيام الماضية فى البرلمان الانجليزى • لقد طردنى السيد بونايرت من فرنسا لأننى حملت السلاح ضد جريمته ، وهذا حقى كمواطن وواجبى كممثل للشعب ، وطاردنى من بلجيكا من أجل كتاب « نابليون الصغير » ، ولعله يطاردنى من انجلترا من أجل الاحتجاجات التى أبديتها فيها ، والتى أبدىها وسوف أوصل ابداءها ، وهذا شأن انجلترا أكثر مما هو شأنى . فالنقى لثالث مرة أمر هين • أما من ناحيتى ، فأمرىكا طيبة ، وإذا كانت تلائم السيد بونايرت ، فانها بالمثل تلائمنى • ولكنى أنبه السيد بونايرت الى أنه لن ينال منى شيئا ، أنا الذرة ، كما لن ينال شيئا من الحقيقة والعدالة وهما الاله ذاته • وأصرح لحكومة ٢ ديسمبر فى شخصه أن التكفير عن الذنب سوف يأتى ، وأننى سوف أعجل ساعة التكفير ، سواء فى فرنسا أو بلجيكا أو انجلترا أو أمريكا ، أو من أغوار القبر اذا كانت الأرواح تعيش فيها كما اعتقد وكما أؤكد • السيد بونايرت على حق ، فبينى وبينه فى الحقيقة « نزاع شخصى » ، ذلك النزاع الشخصى القديم بين القاضى على كرسيه ، والمتهم على مقعده •

(فيكتور هوجو)

(جيسى ، فى ٢٢ ديسمبر ١٨٥٤) •

١٨٥٥

الذكرى السنوية السابعة

ليوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨

٢٤ فبراير سنة ١٨٥٥

١

أيها المنفيون ..

لو كانت النورة التي بدأت في مثل هذا اليوم منذ سبع سنوات في دار بلدية باريس قد اتخذت طريقها الطبيعي ، ولم تتحول عن هدفها ، بعد أن اندلعت مباشرة ، ولو لم نغم الرجعية أولا ثم لوى بونا برت بعدها بهدم الجمهورية ، الرجعية بالدهاء والتسمم البطيء ، ولوى بونا برت بالتسليق في جنح الظلام ، والاقتحام والترصد والقتل ، ولو كانت الجمهورية منذ أيام فبراير اللامعة قد عرضت رايتها على الألب والراين ، وألقت على أوروبا باسم فرنسا صيحة الحرية ! وكانت هذه الصيحة كما تذكرون كافية في تلك الآونة لاستنهاض الشعوب كلها في القارة القديمة ، والاهواز على العروش كلها ، ولو كانت فرنسا ، وهي منكئة على سيف ١٧٩٢ قد بذلت عونها ، كما كان من واجبها أن تفعل لاطاليا والمجر وبولندا وبروسيا وألمانيا ، وباختصار لو كانت أوروبا الشعوب قد خلفت في عام ١٨٤٨ أوروبا الملوك ، لكان الموقف اليوم في القارة ، بعد سبع سنوات من النور والحرية كما يلي :

كنا حريين أن نشهد الآتي :

القارة كلها شعب واحد ، والقوميات تحيا حياتها الخاصة ضمن الحياة العامة المشتركة ، فتنتهي ايطاليا الى ايطاليا ، وبولندا الى بولندا ، والمجر الى المجر ، وتنتمي فرنسا الى أوروبا ، وأوروبا الى الجنس البشري .

لن يكون الراين نهرا ألمانيا ، ولا بحر البلطيق أو البحر الأسود بحيرات روسية ، ولا البحر المتوسط بحيرة فرنسية ، ولا البحر الأطلسي بحرا انجليزيا ، ولن نكون هناك مدافع في السويد أو جبل طارق أو الدردنيل . وسوف تكون الانهار حرة ، والمضايق حرة ، والمحيطات حرة .

١١٠

واذ تغدو المجموعة الأوروبية أمة واحدة ، فان ألمانيا ستكون بالنسبة الى فرنسا ، وفرنسا بالنسبة الى إيطاليا ، ما تكونه اليوم نورمانديا بالنسبة الى بيكارديا ، وبيكارديا بالنسبة الى اللورين . ولن تكون هناك حرب ، وبالمالى لن تكون تمّة جيوش . ومن الناحية المالية وحدها ، ستحصل أوروبا على ربح صاف قدره ٤ مليارات (١) . لن تكون تمّة حدود أو جمارك أو مكوس . وستكون هناك مبادلات حرة ، ومد وجزر هائل فى النقود والسلع ، وتتضاعف الصناعة والتجارة عشرين ضعفا ، وزيادة سنوية فى ثروة القارة تقدر بما لا يقل عن عشرة مليارات ، يضاف اليها أربعة مليارات تتوفر نتيجة لالغاء الجيوش وأكثر من مليارين من الأرباح الناجمة عن الغاء الوظائف الطفيلية فى القارة كلها ، بما فيها وظيفة الملك . يتكون من كل هذا فائض سنوى قدره ستة عشر مليارا للنهوض بالمسائل الاقتصادية ، وتمّة ميزانية للعمل ، وصندوق للقضاء على التماسية التى تستشرى فى مواطن البطالة وبين طبقات العمال الأجراء ، بميزانية تبلغ ستة عشر مليارا فى السنة . هيا ، احسبوا هذا الانتاج الضخم الذى يترتب على الرخاء . ولن أزيد على ذلك .

وثمة نقد قارى على قاعدتين ، قاعدة معدنية ، وقاعدة ورقية ، تستند الى رأس مال أوروبا كلها ، قوته المحركة هى النشاط الحر الذى يمارسه مائتا مليون من الرجال . هذا النقد ، نقد واحد ، سوف يحل محل كل أنواع النقد السخيفة فى الوقت الحاضر ، ويمتص كل أنواع النقود التى تحمل صور الأمراء ، وهى أشكال للتماسية ، وأسباب مختلفة للفاقة . ذلك لأن الاكثار من أنواع النقد ، فى حركة تداوله ، يؤدى الى مضاعفة الاحتكاك ، وتؤدى مضاعفة الاحتكاك الى اضعاف حركة التداول ، والتداول وحدة ، فى النقد ، وفى سواء من الأشياء .

وسوف يولد الاخاء التضامن . وسوف يكون المال العام ملكا لكل انسان ، وعمل كل انسان ضمانا للكافة .

حرية التنقل ، والمشاركة ، والتملك ، والتعليم ، والكلام ، والكتابة ، والنفكير ، والحب ، والعقيدة ، كل الحريات ، سوف تشكل حزمة حول المواطن ترعاه وتجعله فى حصن حصين .

ولن يقع اعتداء على أى انسان ، حتى ولو للصالح العام ، اذ ما الفائدة من ذلك ؟ فبقوة الأشياء وحدها ، وزيادة الضوء ، وتأثير نور النهار

(١) بالنسبة الى فرنسا ، لن تكون ثمة مفرات ملكية ، ولا هيئة كهنوت تحصل على رواب ، ولا هيئة هضاء غير قابلة للعزل ، ولا ادارة مركزية ، ولا جيش دائم ، وستجنى البلاد ربحا سنويا صافيا قدره ٨٠٠ مليون ، أى مليونين فى اليوم الواحد .

الوضاح الذى ينبثق فى أعقاب الظلال الملكية والكهنوتية ، سوف يصبح الهواه غير صالح لتنفس الرجل الذى يستخدم القوة ، رجل الغش والكذب ، والوحش الكاسر ، والمستغل ، والطفيل ، والعسكري الغشوم ، والمرايى ، والأرذال من رجال الدين ، وكل ما يطير فى أضواء الفسق بأجنحة الخفافيش . وسوف تمحى العقوبات القديمة مثل سائر الأمور القديمة . واذ تخدم الحرب ، فإن آلة الاعدام التى تشترك مع الحرب فى جذورها سوف نجمد وتختفى من نفسها . وسوف تتلاشى كل أشكال السلاح . وسوف يبلغ الأمر بالانسان الى الشك بأن المخلوق البشرى له القدرة ، أو الجراءة فى ازهاق النفس البشرية ، حتى فى الزمان الماضى . وسوف يكون فى معرض الصور الاتنوجرافية فى اللوفر مدافع هاون من طراز « بيكسانز » خلف الزجاج ، ومدفع لانكاستر خلف الزجاج ، وجيوتين خلف الزجاج ، ومشنقة تحت الزجاج ، وسوف يذهب الانسان الى المتحف ليرى من باب الفضول هذه الكائنات المتوحشة التى يمتلكها الانسان ، كما يذهب الى حظائر الحيوان ليتفرج على الوحوش التى خلقها الله .

سوف يقول البعض : هذى اذن مشنقة ، كما يقول البعض الآخر : هذا اذن نمر !

سوف نشهد فى كل مكان العقل الذى يفكر ، والذراع التى تعمل ، والمادة التى تطيع ، والآلة التى تخدم الانسان ، والتجارب الاجتماعية على نطاق واسع ، وكل الثمرات الرائعة التى ينتجها التقدم عن طريق التقدم ، والعلم فى نضاله مع الخلق ، ومصانع مفتوحة دوما ، ما على البؤس الا أن يدفع أبوابها ويدخلها فيصبح البؤس من ثمة عملا ، ومدارس مفتوحة دوما ، ما على الجهل الا أن يدفع أبوابها ويدخلها فيغدو نورا ومعرفة ، ودورا للتربية مجانية والزامية ، قدرات التلاميذ هى وحدها التى تعين فيها حدود التعليم ، وفيها يتلقى الطفل الفقير نفس الثقافة التى يتلقاها الطفل الغنى ، وانتخابات تعطى المرأة فيها صوتها أسوة بالرجل . ذلك لأن العالم القديم الذى انقضى كان يرى المرأة خليفة بالمسئوليات المدنية والتجارية والجنائية ، ويراهها جديرة بالسجن ، وكليشى (١) ، والليمان ، والحبس الانفرادى ، والمشنقة . أما نحن فانا نرى المرأة جديرة بالكرامة والحرية . العالم القديم يرى المرأة جديرة بالعبودية والموت ، ونحن نراها جديرة بالحياة . هو يعتبر المرأة شخصا عموميا أهلا للعانة والكد ، ونحن نعتبرها جديرة بالحق . انا لا نقول : الرجل روح فى المرتبة الأولى من الجودة ، والمرأة روح فى المرتبة الثانية

(١) سجن النساء فى حى كليشى بباريس - المترجم .

من الجوده • نحن نعلن أن المرأة ند لها ، ولها فوق ذلك احترامها • ايه لك أينها المرأة ، الأم ، الرميلة ، الأخت ، الفاصرة أيدا ، المستعبدة أيدا ، الضحية أيدا . التشهيدة أيدا ، سوف نرفعك • أعلم أن العالم القديم يسخر منا من أجل كل ذلك ، وحق المرأة الذي نطالب به هو الموضوع الرئيسي لضحكته وسروره • اعترض بعضهم حديثي ذات يوم في الجمعية الوطنية وصاح : انك تضحكنا على الأخص بموضوع النساء هذا • فأجبت قائلا : وأنتم نبكوننا على الأخص بموضوع النساء •

أواصل حديثي ، وأنهى هذه الصورة •

في ذروه هذا الجلال العالمي الشامل ، تترقى إنجلترا وفرنسا ، فهما الدولتان الكبريان في الحضارة الراهنة ، والأمتان الاصليتان في القرن التاسع عشر ، تيران للجنس البشري في مسيرته طريقى الحقيقة والامكان ، وبحملان شعلتين : الواقع ، والفكرة وسوف تتنافسان دون أن تضر احدهما بالآخرى أو تعزلهما • وإذا نظرنا في الحقيقة الى الأمور من العنقاء الفلسفية – وأذنوا الى بهذه العبارة الاعتراضية – لم نجد بينهما أى نفاذ سوى الرغبة فى السير الى ما بعد الحدود ، وقله الصبر على التقدم البعيد المدى ، ومنطق الذى يتقدم المسيرة ، والظما الى الآفاق ، والطموح الى التقدم غير المحدود الذى يشغل فرنسا كلها ، والذى ضايق أحيانا جارتها إنجلترا التى قنعت راضية بالنتائج التى حصلت عليها ، وراحت تركز فى هدوء الى الأمر الواقع • فرنسا هى خصم إنجلترا بالصورة التى نقول بها ان « الأحسن هو عدو الحسن » • واستمر •

فى المدينة القديمة ، مدينة ١٠ أغسطس ، و ٢٢ سبتمبر التى ينادى بها مدينة أوروبا « أوربس » (١) ، تنعقد جمعية ضخمة ، جمعية الولايات المتحدة الأوروبية ، المرجع الذى يقضى فى شئون الحضارة ، والنسبة انبثقت من الانتخاب العام الذى اشتركت فيه شعوب القارة كلها ، تتولى فى حضور هذا الموكل المهيب ، القاضى الفصل ، ويعون الصحافة العالمية الحرة ، معالجة وتنظيم كل مسائل الانسانية ، وتجعل من باريس فى مركز العالم ، بركاناً من النور •

أيها المواطنون . أقول لكم فى هذه المناسبة انى لا أومن بأبدية ما يسمونها اليوم « البرلمانات » • غير أن البرلمانات التى تتولد منها الحرية والوحدة معا ، تظل ضرورية حتى ذلك اليوم ، اليوم الذى لم يزل بعيدا ،

(١) اسم روما القديم ومعناه « المدينة » ومنه كلمة urbanism علم تخطيط

المدن – المترجم •

ولكنه قريب من المنسل الأعلى ، الذى تنفك عنده التعقيدات السياسية بنسب بسيط العمل الشامل العالمى ، ويزداد تطبيق شعار « أقل ما يمكن من الحكم » تطبيقا تاما ، وتختفى كل القوانين المصطنعة ، ولا نبغى سوى القوانين الطبيعية . عندئذ لن تكون نمّة جمعية خلاف جمعية المبتكرين والمخترعين التى نكتشف القانون وتنتشره ، ولكنها لا تصنعه ، جمعية الذكاء والفن والعلم ، تلك هى « معهد فرنسا » ، المعهد الذى تتغير معالمه وتشرق أنواره ، ويصير نتاج أسلوب آخر فى التسمية ، وتجربى فيه المداولات فى علانية وليس ثمة شك فى أن يصير المعهد ، على المدى الزمنى البعيد ، الجمعية (النيابية) الوحيدة فى المستقبل . وأضيف فى هذا السياق ، أن الشيء العجيب أن « المؤتمر الوطنى » هو الذى أنشأ معه

فرنسا .

وهكذا فانى أخص فى كلمات قليلة بضعة الخطوط التى أشرت اليها منذ هنيهة ، فى حين تعوزنى الكثير من التفاصيل ، ومن ثم ألقى اليكم بهذه الأفكار بسرعة وكيفما انفق ، ولا أصور شيئا الا تصويرا تقريبيا . فلو كانت نورة ١٨٤٨ قد عاشت وحملت ثمارها ، ولو كانت الجمهورية قد ظلت قائمة ، وتطورت كما يقضى منطق الأمور ، من جمهورية فرنسية الى جمهورية أوروبية ، وهو ما كان خليقا بأن يتم آنئذ بالتأكيد فى أقل من سنة ، دون أى اهتزاز أو تمزق ، مع هبوب ريح فبراير القوية . لو سارت الأمور على هذا النحو ، أيها المواطنون ، فماذا يا ترى تكون أوروبا اليوم ؟ أسرة واحدة ، الأم أخوات ، والانسان أخا للانسان ، ولن يكون ثمة فرنسى أو بروسى أو اسباني ، وانما يكون هناك أوروبى . وفى كل مكان نشاط ، وصفاء ، ورخاء ، وحياة . ولن يكون ثمة كفاح فى كل أنحاء القارة سوى كفاح الخير والجميل ، والعظيم ، والعدل ، والحقيقى ، والنافع ، فى سبيل تذليل العقبات والبحث عن المنل الأعلى . وذلك النصر الهائل الذى نسميه العمل ، فى كل مكان ، فى ذلك الضياء الشاسع الذى نسميه السلام .

وهكذا أيها المواطنون ، لو كانت النورة قد انتصرت ، لكان هذا هو بالاجمال والايجاز المنظر الذى تبدو فيه أوروبا الشعوب فى هذه الساعة . ولكن هذه الأمور لم تتحقق بالمرّة . ولحسن الحظ أعيد اقرار النظام . فماذا تشهد بدلا من كل هذا ؟

الشيء القائم فى اللحظة الراهنة ليس هو أوروبا الشعوب ، وانما هو أوروبا الملوك .

وماذا تفعل أوروبا الملوك ؟

انها تملك القوة ، وتستطيع أن تعمل ما نشاء ، والملوك أحرار لأنهم
 حنقوا الحرية • وأوروبا الملوك غنية ، تملك الملايين ، والمليارات ، وما عليها
 الا أن تفتح شرايين التسعوب ، فتنفجر منها الدماء والذهب • ماذا تصنع ؟
 هل تظهر مصاب الأنهار ؟ هل تختصر طريق الهند ؟ هل توصل المحيط
 الهادى بالمحيط الأطلسى ؟ هل بشق مضيق السويس ؟ هل نقطع مضيق
 بناما ؟ هل تلقى فى أعماق المحيط ذلك السلك الكهربى العجيب الذى
 يربط القارات بالفارات بالفكرة النى أصبحت كومىض البرق ، ذلك النسبج
 الهائل من الحياة العالمية الذى سوف يجعل من الكرة الأرضية قلبا ضخما
 ينبض بالفكر الانسانى ؟ فيم تنشغل أوروبا الملوك ؟ هل تنجز ، وهى
 سيده العالم ، شيئا من العمل العظيم المقدس من أجل التقدم والحضارة
 والانسانية ؟ فيم تنفق قوى القارة الجبارة التى تملكها ؟ ماذا تصنع ؟

أيها المواطنون ، انها تصنع حربا •

حربا من أجل من ؟

من أجلكم أيها الشعوب ؟

لا ، من أجلهم هم ، الملوك •

أية حرب ؟

حرب حقيرة فى أصلها : وأصلها مفتاح ، ورهيبة فى بدايتها :
 بالاكلافا ، ومروعة بخاتماتها : الهاوية •

حرب تبدأ بشىء مضحك ، وتنتهى بشىء فظيع •

أيها المنفيون ، لقد تحدثنا من قبل أكثر من مرة عن هذه الحرب ،
 وقدر علينا أن نواصل الحديث عنها زمنا طويلا ، وا أسفاه ، لا أفكر فى
 ذلك الا وفى القلب لوعة •

يا أيها الفرنسيون الذين تلتفون حولى ، كان لفرنسا جيش هو أول
 جيوش العالم ، جيش عجيب ، لا نظير له ، أتم تأهيله فى الحروب الكبرى
 خلال عشرين سنة فى أفريقيا ، جيش فى طبيعة الجنس البشرى ، صورة
 حية من نشيد المارسييز ، أبياته مرفوعة على حراب البنادق ، ويختلط
 بهبة ربح النورة ، فلم يكن عليه عندئذ الا أن يطلق أبواقه فتسقط فى
 اللحظة نفسها ، فى القارة كلها ، كل الصولجانات ، وكل القيود القديمة ،
 ترابا وهشيما • أين هو هذا الجيش ؟ ماذا أصبح ؟ لقد استولى عليه
 السيد بونابرت ، أيها المواطنون • فماذا صنع به ؟ لفه أول كل شىء فى
 أكفان جريمته ، وبعد ذلك بحث له عن قبر حتى وجد القرم ، ذلك لأن

هذا الرجل يدفعه ويعمبه ما في نفسه من طبيعة مشؤومة ، وغريزة المدمر
التخليقة بالعالم القديم ، والكائنة في روحه على غير علم منه .

أيها المنفيون ، حولوا أبصاركم لحظه واحدة من « كايين » حيث توجد
أبصار مقبرة ، وانظروا بعيدا الى الشرق ، فلكم فيه أخوة . هناك الجيش
الفرنسي والجيش الانجليزي .

ما هذا الخندق المفتوح أمام تلك المدينة النارية ؟ هذا الخندق الذي
فيه رجال يقضون الليل وقوفا ، فهم لا يستطيعون الرقاد ، لأنهم غارقون
في المياه حتى الركب ، ويرقد غيرهم ، ولكن في نصف متر من الوحل
الذي يغطيهم تماما ، فيضع كل منهم حجرا تحت رأسه ليرفعه خارج
الوحل ، وغيرهم راقدون ، ولكن في الثلج ، ويستيقظون في الغد وأقدامهم
متجمدة ، وغيرهم راقدون ، ولكن على الجليد ، ولن يستيقظوا أبدا ،
وغيرهم يسيرون حفاة الأقدام في جو بارد يبلغ عشر درجات ، لأنهم خلعوا
أحذيتهم ، ولم يبق عندهم قوة كافية ليلبسوها ثانية ، وغيرهم يغطيهم
جروح لا يضمدها أحد ، والجميع بلا مأوى ، ولا نار ، ولا غذاء قريبا ،
فليست هناك أية وسيلة للثقل ، وليس عليهم من الكساء سوى أسمال
مبيلة أصبحت قطعاً من جليد ، نفكك بهم الدوسنتاريا والنبفوس ، ويقتلهم
السريبر الذي ينامون فيه ، ويسمهم الماء الذي يشربونه ، ويزعجهم ويهد
قواهم هجمات المحاصرين الذين يخرجون لضربهم ، وتتفجر القنابل ،
وتوقظهم طلقات المدافع الرشاشة من غفوتهم وهم يحنضرون . ولا يكفون
عن القتال الا وهم ينازعون سكرات الموت . هذا الخندق الذي كدست فيه
بريطانيا ثلاثين ألف جندي في الوقت الحاضر ، وأرقدت فيه فرنسا في
يوم ١٧ ديسمبر ستة وأربعين ألفا وسبعمائة رجل - ولا أعلم الرقم التالي -
هذا الخندق الذي هلك فيه ثمانون ألف رجل في أقل من ثلاثة شهور ،
خندق سباستيول هذا هو مقبرة الجيشين . وقد كلف حفر هذا الخندق
الذي لم ينته العمل فيه بعد ثلاثة مليارات .

الحرب ، لحاء كبير يقبض أجره نمنا باهظا .

نعم ، لكي يتم حفر مقبرة الجيشين الانجليزى والفرنسى ، أنفقت
فرنسا وانجلترا في المجموع حتى الآن ثلاثة مليارات ، بما في ذلك رأس
مال السفن الحربية التي غرقت ، وكساد الصناعة والتجارة والائتمان .
ثلاثة مليارات ! بهذه المليارات الثلاثة كان يمكن انجاز شبكة السكك

(١) مدينة في القرم عند مصب نهر نسنرنايا - هرم عندها الجيش الروسى أمام
الجيش الفرنسية والانجليزية بعد معركة ضارية - المترجم .

الحديدية الانجليزية والعنسية ، وبناء النفق الأنوبى فى بحر المانتس ، وهو أحسن وسيلة للاتصال بين التسعين ، وأفضل من قبضة يدى لورد بالمسنون والسيد بونا بورت اللذين يبدوان لنا فوق الرؤوس ومعهما تلك الأسطورة النى نقول « مع حسن النية ! » • بهذه المليارات البلابة كان يمكن صرف مياه مروج فرنسا وانجلترا كلها ، وتزويد المدن والقرى والحقول كلها بالماء النقى ، وتطهير الأرض والانسان ، وغرس الأشجار والغابات فى جميع المنحدرات بالبلدين ، ومن تم يمكن درء الفيضانات ، وتربية الأسماك فى الأنهار كلها بحيث يمكن اعطاء القبر سمكه السالمون بسعر الرطل جزء من عشرين من الفرنك ، ومضاعفة عدد المصانع والمدارس ، واكتشاف طبقات الفحم والمعادن فى باطن الأرض واستغلالها ، ونزويد المقاطعات كلها بالمحاجر البخارية ، وبذر التقاوى فى ملايين الهكتارات من الاراضى البور ، ونحويل المجارى الى آبار من السباح ، ومنع القحط والمجاعات ، ووضع الخبز فى كل الأفواه ، وزيادة الانماج والاسهلاك والتداول عشرة أضعاف ، وزيادة الثروة مائة ضعف ! — من الأفضل الاستيلاء — أخطأت ، بل عدم الاستيلاء على سباسنيول !

بل من الأفضل استخدام هذه المليارات فى افناء هذه الجيوش !

والافلاس أفضل من الانتحار !

وعلى ذلك فالجيتسان يحتضران أمام القارة الى يرتجف • وفى هذه الأثناء ماذا يفعل « الامبراطور نابليون الثالث » ؟ هاأنذا أفنتج احدى جرائد الامبراطورية (ويفتح الخطيب جريدة) وأقرأ فيها : « يواصل الكرنفال احتفالانه ، وكلها أعياد وحفلات رقص • أما الحداد الذى اتخذ البلاط بمناسبة وفيات ملكات سردينية ، فانها سوف نتوقف لأربع وعشرين ساعة حتى لا تتعطل حفلة الرقص التى سوف تقام فى قصر النويلرى »

نعم ، هذا هو صوت الفرقة الموسيقية الذى نسمعه فى جناح « الساعة » •

نعم ، لقد سجلت صحيفة « المونيتور » الوصف التفصيلي لرفصة « الكادريى » التى « استترك فيها صاحبها الجلالة » • نعم ، الامبراطور يرقص ، فى حين تحلق عيوننا فى الظلمات ، وننظر ، وينظر معنا العالم المتحضر المرتجف ، الى سباسنيول ، بشر الهاوية ، ذلك الهرميل المظلم الذى نأبى اليه فرنسا وانجلترا ، هابان الفتاتان « ابنتا داناؤوس » (١) ذواتا الأعين الدموية ، تائبان الواحدة بعد الأخرى ، ممتعنى الوجه

(١) الدانائيد ، بنات داناؤوس : بقول الاسطورة ، ابن حمسون فاه ، فلن فى ايلند رفاهن أزواجهن ، فحكم عليهن بملء هرميل لا قاع له — وأصبح تعبير « هرميل الدانائيد » يطلق على القلب الذى لا تعرج رغبانه ، والمسرف الذى ينفق كل ما يصل الى يديه ، الخ • • المترجم •

منعوشتي الشعر ، تصبان في الهاوية كنوزهما وأطفالهما ، وتكرران العمل
دواما مرة بعدة مرة .

ومع ذلك فقد أعلن أن « الأمبراطور » سوف يسافر . يسافر الى
القرم ! أهذا ممكن ؟ ها هو الحياء يأنيه ، ويستنصر انفعال الجماهير .
ويعرضونه علينا وهو يلوح بسيف لودي (١) ناحيه سباستيويل ، وينقل
حذاء فاجرام (٢) ذا سبعة الفراسخ ، مع نرولون ، وباروس ناكيين
ومنعلقين بأطراف حلتته الردنجات الرمادية . ماذا يريد هذا الشاخص
الى الحرب أن يقول ! - أيها المواطنون ، اليكم بعض الذكريات . في
صباح الانقلاب ، عندما علم السيد بونايرت أن المعركة قد بدأت ، صاح
قائلا : سأذهب لأقاسم جنودي الشجعان المخاطر ! كان هناك على الأرجح
باروش أو ترولون يتباكيان . ولم يكن في الامكان متعه . وانطلق ،
واجتاز الشبانزيلييه والتويلري بين صفين ثلاثين من رماح البنادق .
وعندما خرج من التويلري ، دخل في شارع « ليشيل » ، وشارع ليشيل
هو شارع « بيلوري » ، ولا ريب أنه كان هناك في الزمان الماضي سلم
أو دمود يتسد اليه المجرمون . وفي هذا الشارع أبصر الحشد . ورأى
حركة التهديد التي يقوم بها الشعب . وصاح به أحد العمال : ليسقط
الخائن ! وشحب وجهه ، واستدار الى الحلف ، وعاد الى الايليزيه . عاينا
اذن الا ننفعل بسبب رحيله . فهو اذا رحل فان باب التويلري وكذا باب
الايليزيه سوف يبقيان مفتوحين خلفه . اذا رحل فانه لن يولى وجهه سطر
الحندق الذي يحتضر فيه الناس ، ولا شطر التفرقة التي يموتون فيها .
ذلك لأن أول طلقة مدفع تصيح فيه قائلة : ليسقط الخائن ، سوف تجعله
يعود القيقري . فلنلزم الهدوء . ان لوى بونايرت لن يتجاوز أبدا شارع
ليشيل ، سواء في باريس ، أو في القرم ، أو في التاريخ .
ثم انه اذا رحل ، فسوف تبقى عين التاريخ ثابتة على باريس .
فلمنتظر .

أيها المواطنون . عرضت عليكم اللوحة التي تمثل أوروبا اليوم ،
ووضعت الحدود على الصورة وحدتكم عما ستكون عليه أوروبا الجمهورية .
أما الأمبراطورية فانكم ترونها .

- واليكم موقف فرنسا ، في داخل هذا الموقف العام . أموال

(١) لودي - مدينة ايطالية على نهر أرا ، انتصر عندها بونايرت على السساوين في
عام ١٧٩٦ - المترجم .
(٢) فاجرام - قرية بالنمسا ، بالقرب من فيينا ، انتصر عندها نابليون الاول على
الارشيدين شارل (١٨٠٩) - المترجم .

الدولة مبددة . المستقبل منغل بالقروض ، الكمبيالات موفع عليها بامضاء « ٢ ديسمبر » و « لوى بونابرت » ، ومن ثم فهي عرضة للاحتجاج (البروتستو) ، النمسا وبروسيا أعداء خلف قناع التحالف ، اتحاد الملوك كامن ، ولكنه ظاهر للعيان ، أحلام التجزئة تعود ، مليون رجل على أهبة الانطلاق الى الراين عنده أول اشارة يبدئها قيصر روسيا ، جيش أفريقيا قد أبيض ، فماذا عساه تكون نقطة الارتكاز ؟ انجلترا : غرق أكيد .

ذلك هو الأفق المرعب الذى يقوم على طرفيه سُبُحان ، شبح جيش القرم ، وشبح الجمهورية فى المنفى .

يا حسرتاه ! فى جانب أحد هذين الشبحين طعنه خنجر الشبح الآخر ، ولكنه مع ذلك قد غفر له طعنته هذه .

نعم ، أوكد أن الموقف مفعج للغاية ، حتى لقد استشهد الهليج بالبرلمان فامر بأجراء تحقيق . ويبدو لأولئك الذين لا يؤمنون بمستقبل الشعوب المشمولة بالرعاية الربانية أن فرنسا سوف يهلك وأن انجلترا سوف تغرق .

ولنلخص .

الليل فى كل مكان . لم يعد فى فرنسا منبر ، ولا صحافه ، ولا كلمة . الروسية فوق بولندا ، والنمسا فوق المجر ، والنمسا فوق ميلانو ، والنمسا فوق فينيسيا ، وفرديناند على نابولى ، والبابا على روما . وبونابرت على باريس . وفى هذه الجلسة المثلقة فى الظلام ، تجرى مخاض الاعمال التى تجرى عادة فى الظلمات ، من اغتصاب ، وسلب ، ونهب . ونفى ، وضرب بالرصاص ، ومشاقق . وفى القرم حرب مخيفه ، جنس جيوش فوق جثث أمم : أوروبا كهف الذبائح . لا أعرف أى وهج مفعج سوف يضىء المستقبل . حصار ، مدن تحترق ، ضرب بالقنابل ، مجاعات . أوبئة ، افلاسات . وثمة بداية دعوة للهرب من أجل المصالح والأنانيات . وثمة حركات تمرد خفية بين الجنود فى انتظار صيحة المواطنين . أقول لكم انها حالة رهيبه ، فابحنوا عن مخرج لها . الاستيلاء عليها مهانة لا علاج لقد أنزلنا بأنفسنا الحزى والعار . ترى ماذا يحل بالشعوب التى تبقى على قيد الحياة ، تحت وطأة القباصرة الهائجين ؟ انها سوف تبكى حتى تسفح آخر قطرة من دمعها ، وسوف تدفع آخر فلس لديها ، وسوف تسفك دماءها الى آخر طفل لديها . نحن فى انجلترا ، فماذا نشهد حولنا ؟ نساء متشحات بالسواد فى كل مكان ، وأمهات وأخوات وبنات ينيحات وأرامل . أعد اذن الى هؤلاء النسوة ما يمكن من أجله ! انجلترا كلها تحت ثوب الكفن . وفى فرنسا حدادان كبيران : أحدهما الموت ،

والسبب أسوأ منه • وهو العار : مذبحه بالاكلاما ، وحمل الرقص في التويلرى •

أيها المنفيون ، لهذا الموقف اسم ، انه يسمى « المجتمع الذى نجا » • فلا ننسى هذا الموقف الذى يذكرنا به هذا الاسم ، ولنرجع أيضا الى الأصل • نعم ، هذا الموقف ، كل هذا الموقف ، يصدر عن « العمل الكبير » عمل ديسمبر • انه نتاج نقض اليمين فى ٢ ديسمبر ، ومجزرة ٤ منه • ولا نستطيع أن نقول عنه على الأقل انه ابن مجهول السبب ، فله أم ، هى الخيانة ، وله أب ، هو المذبحة • تأملوا هذين الشيئين اللذين يتلامسان فى الوقت الحاضر كما تتلامس اصبع يد العدالة الالهيه . كمين عام ١٨٥١ ، وكراتنة عام ١٨٥٥ ، نكبة باريس ، ونكبة أوروبا • بدأ السيد بونا برت من الأولى فوصل الى الثانية •

اننى أدرك تماما ما يقولونه لى ، أعلم أن السيد بونا برت يقول لى بنفسه وعن طريق صحفه : ليس فى فمك الا كلمة ٢ ديسمبر ! انك تردد دائما هذه الأسماء ! فأرد على ذلك قائلا : لأنك مازلت فى مكانك ! اننى ظلك •

هل هذا خطئى اذا كان ظل الجريمة نسبيا ؟

كلا ، وكلا ، وعلينا ألا نسكت ولا نمل ولا نتوقف • ولكن نحن أيضا حاضرين ، نحن الحق والعدالة والحقيقة • فوق رأس بونا برت الآن كفنان ، كفن الشعب ، وكفن الجيش ، فلنحركهما دون هوادة • وليسمع الناس دواما ، ولسمعوا خلال كل شيء ، أصواتنا فى أطراف الأفق ! وليكن عندنا تلك الرقابة المخيفة ، رقابة المحيط ، والاعصار ، والشتاء ، والعاصفة الهوجاء ، وكل فورات الطبيعة الهائلة •

وهكذا أيها المواطنون ، هناك معركة متناهية الشدة ، وإستنزاف لجميع قوى الحياة لا يتوقف ، وتدهور لا حدود له • تلك هى حال مجتمع الماضى التعس الذى ظن أنه قد نجا بالفعل حين رأى ذات يوم ذلك المفاس الذى استولى على مقاليد ، يعهد بالنظام الى شرطة المدينة ، وبالحمول والبلادة الى الجيزويت !

قال مجتمع الماضى ان الأمور فى أيدي أمينة • فما رأيه الآن ؟

يأتيها الشعوب ، هناك رجال عليهم اللعنة ، اذا وعدوا بالسلام ، أوفوا بالحرب ، واذا وعدوا بالأمن ، أوفوا بالمصائب ، واذا وعدوا بالرخاء ، أوفوا بالخراب ، واذا وعدوا بالمجد ، أوفوا بالعار ، واذا اتخذوا تاج شارلمان ، جعلوا تحتة جمجمة ايزيلان ، واذا أعادوا سببك وسام قبصر ، جعلوا

عليه صورة ماندران (١) ، وإذا أعادوا الأبراطورية ، فانما يعيدونها من عهد ١٨١٢ ، وإذا رفعوا النسر جعلوه أنوقا ، وإذا أطلقوا على شعب اسما ، كان هذا الاسم مزورا ، وإذا أدوا له قسما ، كان القسم زورا وبهتانا ، وإذا أعلنوا له عن موقعة اوسترليتز ، لم يكن اوسترلينز هذا حقيقيا ، وإذا منحوه قبيلة ، كانت قبلة يهوذا (الاسخربوطى) وإذا وهبوا له قنطرة للعبور من ضفة نهر الى ضفته الأخرى ، كانت تلك قنطرة بيريزينا (٢) .

آه ، ليس منا أيها المنفيون من لم يحزن ، فالأسى فى كل مكان ، والدناءة والبشاعة فى كل مكان ، ونضخم الفيسر انما هو تناقص النور . ولأن تدهور ذلك البلد العظيم ، الأبى الكريم ، انجلترا ، يحط من قدرى كإنسان ، أنا الذى أحدثكم الآن ، ولأننا نألم أسد الألم ونحس نسمع فى هذه اللحظة فرنسا وهى تسقط ، فيكون لسقوطها صوم شبيهه بالصوت الذى يحدثه سقوط النعش !

أنتم متكدرون ، ولكن عندكم شجاعة وإيمان . وحسنا يفعلون يا أصدقائى . تشجعوا أكثر من ذى قبل ! لقد قتلها لكم قبلا ، وادها لنزداد وضوحاً يوم بعد يوم ، لم يعد لفرنسا وانجلترا فى هذه اللحظة سوى طريق واحد للخلاص ، ذلك هو تحرير الشعوب ، ونهضة القوميات نهضة شاملة ، والثورة . أهداف سامية . والبديع أن الخلاص فى الوقت ذاته هو العدالة ، وفى هذا نتجلى العناية الالهية .

نعم ، فلنتذرع بالشجاعة أكثر من ذى قبل ! لقد صاح دانتون فى لحظة الخطر : الجرأة ، الجرأة ، ومزيد من الجرأة ! ولا بد فى المحنة من الصباح : الأمل ، الأمل ، ومزيد من الأمل !

أيها الأصدقاء ، سوف تشرق الجمهورية الكبرى عمسا قريب ، الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية الحرة ، فمن وظيفة الامبراطورية أن تعمل على احيائها ، كما أن من وظيفة الأيمل أن يعيد النهار وسوف يختفى رجال الشر والطغيان ، ولم يبق من زمانهم الا دقائق معدودات . انهم يقفون وظهورهم ناحية الجرف ونحن الذين فى داخل الهاوية ، نرى أعقابهم بارزة من حافتها العليا . أيها المنفيون ، انى أرى عندهم السم

(١) ماندران (الوى) - رئيس عصاة لصوص مشهور - ولد عام ١٧٢٤ - أعدم

على عجلة التعذيب - المترجم .

(٢) بيريزينا - نهر فى روسيا ، يصب فى نهر الدنيبر . اشهر بذكرى مؤلة ، ذكرى مرور الحرس الفرنسى من ٢٥ الى ٢٩ نوفمبر ١٨١٢ مهزوما بعد حملة روسيا - المترجم

الذى نربّه سمرط ، ونلّ الجلجنة الذى صلب عليه يسوع المسيح ، وأريحا التى هدها اليهود ، وأشهد حمامات الدم التى أراقها أمثال براسباس (١) . والجمرات الملتهبة التى مضغتها بورثسيا (٢) روجة بروتوس ، وأكوام حطب الحريق التى صاح عندها جان هس : سوف تولد البجعة (٣) . وأشهد هذه البحار التى تحبب بنا والتى عبرها أمثال كرسثوف كوليس ، وأشهد هذه الكواكب التى تعلو رؤوسنا والنّى استفسر عنها أمثال جاليليو . أيها المنفيون ، الحرية خالدة ! أيها المنفيون ، الحقيقة أبدية ! التقدم ، هو خطوة الاله نفسها .

وعلى ذلك فلتقر أعين الذين يبكون ، وليطمئن أولئك الذين يرتجفون ، وليس بيننا أحد منهم .

الانسانية لا تعرف الانتحار ، والله لا يعرف النزول عن الحق . كلا ، لن تبقى الشعوب فى الظلمات أبد الآباد ، تجهل الحالة الحاضرة فى العلم والفلسفة والفن والروح الانسانية ، وعيونها منبته فى بلائه على الطغيان الشبيه بميناء ساءة الأشباح التى يشير عقرباها السابان . السيف والصولجان ، الى منتصف الليل ، أبد الآبدى .

(١) عضو مجلس الشيوخ الرومانى ، تامر ضد نيرون ، وحكم عليه بالإعدام فى عام

٦٦ - المترجم .

(٢) يورنيا - ابنة كابون الانيكى ، انتحرت عندما علمت بموت زوجها بروتوس ،

أحد قتلة يوليوس قيصر (٤٢ ق م) - المترجم .

(٣) ينسب الى أسطوره ، يابى فيها الفارس المنفذ فى قارب نحره بجعة - المترجم .

خطاب الى لوى بوناپرت

٩ أبريل ١٨٥٥

٢

انتهت تلك الحرب المفجعة ، حرب القرم بقبلة منحتها الملكة فيكتوريا لامبراطور الفرنسيين وشخص لوى بوناپرت الى لندن للحصول على تلك القبلة . وأثار هذا الحدث نوعا من النشوة فى الحكومتين . فكانت الأعياد بعد المذابح ، ومثل هذه الأمور تتعاقب .

وكان الحفل فاخرا ، بل وكان كادلا من جميع الوجوه . وتدخل فيه الرجل المنفى . فعندما نزل « الامبراطور » فى دوفر طالع الهبات الآتية فى ملصقات على كل الجوائظ :

من فيكتور هوجو الى لوى بوناپرت

ما الذى أتى بك هاهنا ؟ على من تحقنه ؟ من الذى جئت لتهينه ؟ انجلترا فى شعبها أم فرنسا فى منفييها ؟ لقد دفنا منهم حتى الآن تسعة فى جيرسى وحدها . أهذا هو ما تريد أن تعرفه ؟ كان آخرهم يدعى فيليكس بونى ، فى التاسعة والعشرين من عمره . أيكفيك هذا ؟ أتريد أن ترى قبره ؟ أقول لك ، ماذا أتى بك هاهنا ؟ انجلترا التى لا يغل عنقها قيد ، وفرنسا المنفية ، وهذا الشعب الذى يتمتع بسيادته الذاتية ، وهذا النفى المقرون بازهاق الأرواح مع الهدوء ؛ كل هؤلاء لا شأن لهم بك . دع الحرية فى سلام ، دع المنفى فى هدوء .
لاتأت

ترى أية خدعة سوف تقدمها لهذه الأمة العظيمة الكريمة ؟ أية طعنة تفكر فى توجيهها للحرية الانجليزية ؟ هل تصل محملا بالوعود كما فعلت فى فرنسا عام ١٨٤٨ ؟ أم ستغير التمثيلية ؟ هل تضع يدك على قلبك فى مناسبة التحالف الانجليزى ، كما وضعتها فى مناسبة الجمهورية ؟ هل يحدث ذلك أيضا والرداء محكم الأزرار ، والشارة فوق الرداء ، ونبرة الصوت تلبى بالتأثر ، والعين دامعة ؟ أى يمين مقدسة

سوف تقسمها ؟ أى تأكيد بالاخلاص الأبدى ، وأى وعد صادق لا ينتهك ، وأى اشهداد ، وأى قسم مطبوع مع صورتك على النقود ، سوف تعمل على نرويجهنا هنا ، بامزيف عملات الشرف ؟ ماذا آيت به الى هذه الأرض ؟ هذى أرض توماس مورس ، وهامبرين ، وبرادشسو ، وشكسبير ، وميلتون ، ونيوتن ، ووات ، وبايرون ، وهى ليست بحاجة الى عينة من وحل شوارع مونمارتر . أنأتى طلبا لوسام ربطة الساق الانجليزية ؟ حقا ما أشجعك !

أقول لك لا نأت ، فلن نكون هنا فى مكانك اللائق بك . انك ترى أن هذا الشعب حر ، وترى جيدا أن هؤلاء الناس يغدون ويروحون ، يقرأون ويكتبون ، يستفهمون ويفكرون ، يصيحبون ويسكتون ، ويتنفسون كيفما يشاءون ، وهذا سئ لا يشبه أى شئ مما تعرفون . ومهما نظرت الى ياقات الثياب ، فانك لن تجد بها النبهة التى نصنع بها قبضات أيدي رجال الشرطة . حقا ، انك لن تكون فى دارك ، بل ستكون فى جو لا تستطيع أن تتنفس فيه . انت ترى انه لا توجد هنا كتائب من الانكشارية ، لا من انكشارية القساوسة ولا من انكشارية الجنود ؛ وترى أنه لا يوجد جواسيس ، وترى انه لا يوجد جيزويت ، وترى أن القضاة يحكمون بالعدل !

المنبر يتكلم ، والصحف تتكلم ، والضمير العام يتكلم . فى هذا البلد شمس ؟ وهأنت يائسر ترى أن الدنيا نهار ! فما الذى ستفعله هنا ؟

إذا أردت أن تعلم رأى هذا الشعب فيك ، فى غير موضوع الحلف ، فاقراء صحفه الحقيقية ، صحفه التى صدرت منذ سنتين . اتزور لندن وأنت فى حلة الامبراطور والجنرال ؟ لقد زارها غيرك ، وكانوا أباطرة مثلك ، بل وجنرالات ، زاروها قبلك واستقبلوا فيها بهتافات النصر المختلفة ، ولسوف تلقى فيها نفس الحفاوة . آتذهب الى ميدان ترافاجار؟ وتذهب الى ميدان واترلو ، وكورى واترلو ، وعمود واترلو ؟ لقد استقبل العملة والمشايخ فيها نيقولا . آتذهب الى حانة بيركنز ؟ لقد استقبل فيها العمال هايناو (١) .

هل تأتى لتتحدث الى انجلترا عن القمر ؟ انك لنمس فى هذا الخصوص فاجعة كبرى . لقد فتحت كارثة سباستيول جناح انجلترا

(١) يوليوس جاكوب دوهايناو - فيلد مارشال تمساوى ، اخضع الوره المحربة بقسوة (١٧٨٦ - ١٨٥٣) - المترجم .

بدرجة أعمق من فتحها جناح فرنسا . الجيش الفرنسى يحضر ،
والجيش الانجليزى ميت ؛ الأمر الذى لعله قد حمل أحد المؤرخين -
إذا سلمنا بما يقوله بعض الذين يعجبون بأعمالك العشوائية - حمله
على أن يبدى هذه الملاحظة : « اننا نأمل لو انزلو دون قصد منا . لقد أوقع
نابليون الثالث بانجلترا فى سنة واحدة من التحالف معها ، أضرارا
أشد مما أوقعه نابليون الأول بها فى حروب دامت خمس عشرة سنة
(وبهذه المناسبة ، لم يعد أصدقائك بقولون عن نابليون الأول :
« نابليون الكبير » . لماذا اذن ؟) »

نعم ، عندك نفر من هؤلاء المتملقين ، يا أمبراطور الصدفة ، ان هذه
المغامرة التى يسمونها من مقدراتك شئ غريب حقا . وان الكلمات
لتعوزنا ، ونقع فى هاوية من الدهول حين نفكر أنه ربما قد وصل بك
الأمر الى الاعتقاد بأنك شخصية هامة ، وأنتك ربما تأخذ هذه الفاجعة
الرهيبية مأخذ الجد ، وأنتك على الراجح تتصور أنك تبهر أوروبا بذلك
المنظر الذى سوف تتجلى فيه يوما أمام الشعب الانجليزى ، بالمشهد الذى
تمتله فى الوقت الحاضر ، صامتا ، هائلا ، كثيبا ، واقفا فى غمامتك ،
غمامة الآتام ، متوجا بنوع من الخزي الأمبراطورى الغامض ، وعلى
جبينك كل هذه الدعاوى الكالحة التى تختص بها الصواعق ، وتختص
بها ياسيدى أيضا محكمة الجنايات .

آه ! سوف تسمع هذه الأسماء الحقيقية الرهيبة . فاماذا أتيت
الى هنا ؟

أسمع ! اختر من بين أعضاء هذه الحكومة الذين يرجعون بك
لأسباب شتى ، أكثرهم حماسة ونشوة ، وأشداهم رهبة منك ؛ اختر
الانجليزى الذى يصيح بأقوى ما يمكن : ليحى الأمبراطور ! عمدة كان
أم وزيرا أم لورد ، ووجه اليه هذا السؤال البسيط : اذا حدث فى
هذا البلد أن رجلا فى يده السلطة ، بصفة من الصفات ، وليكن وزيرا
على سبيل المثال (وهذا ماكنته ياسيدى) قام ، بحجة أنه قد أقسم
يمين الولاء للدستور أمام الناس وأمام الله ، فأطبق على عنق انجلترا ،
ونسف البرلمان ، وقلب المنبر ، وألقى بأعضاء المجلس المتمتعين بالحصانة
فى سجون ميلبانك ، ونيرجيت ، وهدم وستمنستر ، وبدد أموال
الشعب وأنفقها على حرسه ، وطرد القضاة شر طردة ، وربط يدي العدالة
خلف ظهرها ، وكتم الصحافة ، ودمر المطابع ، وخنق الجرائد ، وغطى
لندن بالمدايع وحراب البنادق ، وأفرغ خزائن البنوك فى جيوب جنوده ،
واقترح المنازل ، وذبح الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، وجعل من

هابديارك حفرة تطلق منها البنادق ليلا ، وأطلق البنادق الرشاشة على
 حى « سينيه » و « ستراند » وشارع « ريجنت » ، وحى « تشيرنج
 كروس » وغيرها من أحياء لندن العشرين ، ومقاطعات إنجلترا العشرين ،
 وغطى الشوارع بجثث المارة ، وملأ مستودعات الجثث والجبانات بالموتى ،
 ونشر الظلام فى كل مكان ، والسكون فى كل مكان ، والموت فى كل
 مكان ؛ ومحا بكلمة واحدة ، وبضربة واحدة القانون ، والحرية ، والحق ،
 والأمة ، والنسمة ، والحياة ، فماذا عساه يصنع الشعب الانجليزى بهذا
 الرجل ؟ قبل أن تنتهى الجملة ، سوف ترون سلم المشنقة وهو يخرج
 من الأرض من تلقائه وينتصب أمامكم ! نعم ، المشنقة . ومهما كانت
 بشاعة الجرائم التى عدتها الآن ، فانى لا أخفى عليك - ولم أخفى ؟
 لا أخفى عليك أنى أنطق بهذه الكلمة والقلب منقبض ؟ ذلك لأن كلمة
 التقدم السامية التى اعترفنا بها نحن الديموقراطيين الاشتراكيين ،
 لم تعترف بها إنجلترا حتى اليوم ، فالحياة البشرية ، فى نظر هذا
 الشعب الجزيرى العظيم الذى توقف عند منتصف الطريق ، فى القرن
 التاسع عشر ، وعلى مسافة من قمة الحضارة ، لم تصبح بعد آمنة
 مطمئنة .

ولابد أن يكون الانسان فوق هذه الهضبة المرتفعة ، هضبة النفس
 والمحنة التى نحن فيها لكى يحيط بأفق الحقيقة كلها ، ويفهم أن الحياة
 البشرية كلها ، بل وحياتك أنت ياسيدى ، مقدسة .

على أن أصدقائك فى هذا البلد لا يعالجون المسائل التى تمسك على
 هذا النحو ، طبقا لمبدأ من المبادئ . فهم يفضلون أن يقتصروا على القول
 بأنه لم يكن أبدا ثمة انقلاب سياسى ، وأن هذا شئ غير صحيح ، وأنت
 لم تقسم أبدا أى يمين ، وأن ديسمبر لم يكن له أبدا وجود ، وأنه لم
 تسفك نقطة دم واحدة ، وأن سانت أرنو ، وايسبيناس ، وموبا شخص
 اسطورية ، وأنه لا يوجد منفزيون ، وأن لامبيسا (١) فى القمر ، وأننا
 انما نتظاهر بغير الحقيقة .

يقول الدهاة انه كان هناك فى الواقع شئ ما ، ولكننا نبالغ ، وأن
 الرجال الذين قتلوا لم يكونوا كلهم من ذوى الشعور البيضاء ، وأن النساء
 اللواتى قتلن لم يكن كلهن حوامل ، وأن طفل شارع ثيكتون ذا الأعوام
 السبعة كان فى الثامنة من عمره .

(١) لامبيسا : مقاطعة فى الجزائر ، كانت تستخدم كاصلاحية للمجرمين فى عهد
 الامبراطورية الثانية - المترجم .

أعود فأقول لاتأت الى هذا البلد .

وعليك فضلا عن ذلك أن تفكر في عاقبة الرعونة ، وفي الأمور التي
 تعرض لها الحكومة التي سنستقبلك في بلدها . كان لباريس فوراتان
 فجائية ، برهنت عليها في عام ١٧٨٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ . ماذا يضمن
 للحكومة البريطانية ، مع تقديره الحق للصدقة الفرنسية ، ماذا يضمن
 للحكومة البريطانية ، أن ثورة لن تنفجر في أعقابك ، وأن الديكور لن
 ينغير فجأة ، وأن معكر الأفراح القديم في ضاحية سانت إيطوان لن
 يستيقظ فجأة ويركل الأمبراطورية ، وأن الحكومة البريطانية ، تتسلم
 برقية كهربية ، فلا تجد في ضيافتها في سان جيمس ، صاحب الجلالة
 أمبراطور الفرنسيين ، المدعو الى الوليمة الملكية ، وانما تجد فجأة بدلا منه
 المتهم الفرنسي الجمهوري ، الممتقع الوجه ، المرتجف الأوصال ؟ لن تجد
 نابليون صاحب العمود التذكاري ، وانما نابليون المشنقة ؟

ولكن شرطتك يطمنونك . فالانقلاب يحتفظ في جعبته برئيس
 الشرطة العجوز فيدوك ، يبصر عن طريقه بواطن الأمور ، فهو بالنسبة
 اليه بمثابة الضمير . الشرطة مسئولة أمامك عن الشعب ، كما أن القس
 مسئول أمامك عن الله . ويتحدث اليك كل من السيد بيتري ، والسيد
 سيبور ، كل من جهته : فالسيد سيبور يؤكد أن ذلك الشعب من الرعا
 لم يعد له وجود . ويهمس السيد سيبور قائلا : أريد أن أرى الله يتحرك .
 وانت هادىء النفس . وتقول : لا عليك ، ان هؤلاء النظريين يحملون .
 انهم يريدون ارهابي بالغيلان . لم يعد هنا ثورة ، لقد حطمها « فيبو » ،
 وتستطيع حكومة الانقلاب أن تنام ملء جفنيها بفضل يقظة « باروش » (١) .
 والرعا والضواحي ، كل هؤلاء تحت نعال . لا أهمية لكل ذلك .

الحقيقة أن الأمر كذلك . ما أهمية التاريخ ؟ ما أهمية السلف ؟
 ما أهمية أن يكون هناك اليوم حكومة ٢ ديسمبر ، تتشبه بأوسترلitz ،
 وسباستيول معادلة لمارينجو (٢) ، ونابليون الكبير ، ونابليون آخر
 يتحرك تحت المجهر (المكروسكوب) ، وأن يكون عمنا هو عمنا حقا (٣) ،
 أو أنه ليس عمنا ، وأن يكون قد عاش أو مات ، وأن تكون انجلترا قد

(١) باروش - من وزراء نابليون الثالث - المترجم .

(٢) مارينجو - قرية إيطالية ، مشهورة بانتصار الفرنسيين بقيادة بوناپرت على
 النمساويين في ١٤ يولية ١٨٠٠ - المترجم .

(٣) نابليون الاول هو عم نابليون الثالث (لوى بوناپرت - امبراطور الفرنسيين
 الذي بقصده المؤلف بهذا الخطاب) - المترجم .

وضعت ولنجمون (١) فوق رأسه ، وهنسون لو (٢) على صدره ؟ ما أهمية كل ذلك ؟ لا أهمية لذلك • كل ذلك فى الماضى حديث افك وتشهير • اذا كنا صغيرين ، فهذا أمر لا يخص أحدا • الناس معجبون بنا • اليس كذلك يانرولون ؟ (٣) نعم يا مولاي • ليس هناك اليوم سوى مسألة واحدة : امبراطوريتنا • المهم هو شيء واحد : أن نسبت أنهم قد رسموا بنا ، وأن نفرض « محدث النعمة » على بيت « برنسويك » الملكى القديم ، وإزالة آثار كارثة القرم تحت ستار من الاحفالات فى انجلترا ، والابتهاج فى هذا النوب ، وتغطية طلقات المدافع الرسانسة بالألعاب النارية • وعرض حلتنا ، حلة الجنرال فى المكان الذى رأنا فيه الناس وعصا الشرطة فى يدنا ، وأن نكون فرحين ونرقص قليلا فى قصر بكنجهام • اذا سم ذلك ، تم كل شيء •

وعلى ذلك ، فلنسافر الى لندن ، فهذا على أية حال أفضل من السفر الى القرم ففى لندن سوف تتوالى طلقات المدافع بالبارود ، ونقام الحفلات خمسة عشر يوما ، فى لندن أعياد النصر ، ونزهات فى القصور الملكية • فى كارلتون هاوس ، وأوسبورن ، وجزيرة وايت ، وقصر وندسور حيث سريز لوى فيليب الذين يدين له بحياتك وبماله ، وحيث يتحدث إليك برج لانكاستر عن هنرى الأبله ، ويحدثك برج يورك عن ريتشارد القتال ثم المراسم الكبرى والصغرى للنهوض من الفراش ، وحفلات الرقص ، وباقات الورد ، والفرق الموسيقية تؤدى مقطوعة « احكمى يا بريطانيا » مع مقطوعة « الرحيل الى سوريا » ، وتريا مضيفة ، وقصور منيرة ، وخطب ، وهتافات الابتهاج • وتجد تفاصيل أحاديثك وآيات لطفك فى الصحف • شيء جميل • ولسوف تجد أننى أحسن صنعا اذ أخلط مقدما بهذه التفاصيل تفاصيل أخرى تأتي من موقع آخر من مواقع نصرك ، ذلك هو « كايين » فالمنفيون سياسيا - أولئك الرجال الذين لم يرتكبوا جريمة سوى أنهم كافحوا جريمتك ، أى أنهم أدوا واجبتهم ، وكانوا مواطنين صالحين وشجعانا - منضمون هناك (فى كايين) الى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، يشغلون ثمانى ساعات يوميا تحت ضربات عصى السجنائين ، وصرخاتهم المزعجة ، شأنهم شأن العبيد فى

(١) ولنجمون - قائد انجليزى (١٧٦٩ - ١٨٥٢) - هزم القوات الفرنسية فى البرتغال وأسانيا • وفى عام ١٨١٤ جاء الى سولت وبادر معركة تولوز • دوى فواده القوات المتحالفة ضد فرنسا عام ١٨١٥ ، ورجع معركة وانرلو - المترجم •

(٢) هينسون لو - حاكم جزيرة سانت هيلين خلال فترة نفى نابليون إليها - المترجم

(٣) ترولون - رئيس مجلس الشيوخ فى فرنسا فى عهد نابليون الثالث - المترجم •

الزمان الماضى ، مخلوقى الرؤس ، على أجسامهم اسمال بالية كتبت عليها الحروف الأولى من كلمتى « أشغال ساقية » أما أولئك الذين يريدون أن تكتب على أحذيتهم كلمة « سجين المراكب » بحروف غليظة ، فانهم يسرون حفاة • ويؤخذ منهم النقود التى ترسل اليهم • وإذا نسوا أن يخلعوا الطافية أمام أى واحد من جنودكم الذين يتلون حراستهم ، اعتبر ذلك منهم سلبوكا يستحق العقاب ، من قيود حديدية ، وسجن انفرادى ، وصوم ، وجوع ، او يربطونهم خمسة عشر يوما ، أربع ساعات كل يوم ، من الرقبة والصدر والأذرع والسيقان بحبال غليظة شدة الى وضمة • ويقضى فرار السيد بونار فى ٢٩ أغسطس بصفته حاكما لجويان ، بأنه مصرح للحراس بقتل المسجونين بحجة ما يسمونه « مخالفة تعليمات السجن » • مناح فظيع ، وسماء استوائية ، ومياه موبوءة ، وحمى وتيفوس ، وحنين الى الوطن • هناك يموتون - بنسبة خمسة وثلاثين لكل مائتين فى جزيرة سان جوزيف الصغيرة وحدها ، وتلقى الجثث فى البحر • وهكذا الحال يا سيدى •

أعرف أن أحاديث القبور هذه نحملك على الابتسام ، ولكنك تبتسم لها فى وجه من يكون بسبها • وأوافقك على أن ضحاياك ، واليتامى ، والأرامل الذين تتركهم بأعمالك ، والمقابر التى تفتحها ، كل ذلك موضوع مستهلك • وهذه الأكفان كلها تشير الى حبل المسنقة • وليس عندى جديد أقدمه لك • فماذا تريد ؟ أنت تقتل ، والناس يموتون • ولنحزم جميعا أمورنا ، فنقبل نحن الواقع ، وتقبل انت الصيحة نقاسى نحن من الجرائم ، وتقاسى أنت من الأشباح •

ثم انهم يطلبون منا هنا أن نصمت ، ويضيفون قائلين اننا نحن المنفيين ، اذا رفعنا أصواتنا فى هذه اللحظة ، أتحنا الفرصة الملائمة لالتقاء خارج البلاد • ولسوف يحسنون صنعا • من العدل أن نخرج من البلاد فى اللحظة التى تدخلها أنت •

وسوف يكون فى هذه الحال لون من المجد للمطرودين • والأمر منطقى من الوجهة السياسية • فاضطهاد المنفيين أفضل ترحيب يعمل للنافى ، ويمكن قراءة ذلك فى كتابات مكيافيل ، أو فى عينيك •

أرق ملاطفة يمكن أن تقدم للخائن هى اهانة المخدوعين • والبصقة على وجه المسيح ، بسمة فى نظر يهوذا •

فليفعلوا ما يشاءون •

الاضطهاد • فليكن •

وأعلم أنه مهما كان هذا الاضطهاد ، ومهما كان الشكل الذى يتخذه .
فانا سوف نستقبله بفخر وسرور ، وسوف نحياه فى الوقت الذى
يحيونك فيه . وليس هذا بشئ جديد . ففى كل مرة صاح فيها الناس :
سلام على قيصر ، أجاب صدى الصوت الآدمى قائلا : سلام أيها الالم

ومهما كان الاضطهاد ، فانه لن يبتزع من عيوننا ، ولا من أعين
التاريخ ، ذلك الشبح القبيح الذى صنعته ، ولن يمحو من أمام ناظرينا
مرأى حكومتك فى غداة الانقلاب ، وتلك الوليمة الكانوليكية العسكرية ،
وليمة تيجان الأساقفة وقلنسوات ضباط الجيش ، ذلك الجمع الخليط من
المدرسة الاكليريكية ومن تكتات الجنود فى لهو وقصف ، ذلك الهرج والمرج
من أصحاب الثياب الرسمية المشتوسة ، وأصحاب الثياب الكهنوتية
السكارى ، تلك الوليمة التى تضم الأساقفة وضباط الصف ، والتى لم
يعد من فيها يعرفون ما يصنعون ، فيها يسب « سيبور » الدين ، ويتوسل
« مانيان » ، ويقطع القس خبزه بالسيف ، ويسرب الجندى فى وعاء
القربان ، لن يمحو من أمام ناظرينا أغوار مصيرك ، وخبو جذوة هذه
الأمة العظيمة ، وانطفاء نور العالم ، وهذا الحزن ، وهذا الحداد ، وهذه
اليمن الزور الكبيرة ، ومونمارتر ، الجبل القائم على أفقك المشثوم ، والغمام
الثابت ، غمام الطلقات النارية فى « شآن دومارس » ، هناك آلات
الاعداد ، الجيوتين ، التى رفعت مثلثاتها السود فى عام ١٨٥٢ ، وهنا ،
تحت أقدامنا ، فى الظلام ، هذا المحيط الذى يحمل فى زبده جنت
ضحاياك فى كابين .

آه ! لعنة المستقبل هى أيضا بحر ، وذكراك ، جثة بشعة ، سوف
تقلب أبدا فى هذه الأمواج المظلمة !

آه ، أيها التعس ! ألدك فكرة عن مسئولية النفوس ؟ ما هو
غذك ، غذك على الأرض ، غذك فى القبر ؟ ماذا ينتظرك ؟ أتؤمن بالله ؟
من أنت ؟

ويعز على النوم أحيانا فى الليل - فسبات الوطن هو سهاد المنفى -
فأنظر الى الفلك السرمدى ، وجه العدالة الأبدية ، وألقى على الظلال
أسئلة عنك ، وأطلب الى ظلمات الاله رأيها فى ظلماتك ، وأرثى لك
يا سيدى ، فى سكون الأبدية الرهيب .

(فيكتور هوجو)

الطرد من جبرسي

٣

كان لوى بوناپرت فى هذه الأثناء ، يجرى فى السر بعض المناورات ، وذلك على أثر التحذير الذى قرأناه بعاليه . وحرك فى هذا الصدد شخصا من التكرات فى مجلس العموم يحمل اسما مشهورا ، ذلك هو السير روبرت بيل الذى استخدم اللهجة الجدية التى نقرها السياسة ، وخاصة فى انجلترا ، فى التشهير بفيكتور هوجو ، وهاتسبني (١) ، وكوسوث (٢) ، وقال عن فيكتور هوجو : « لهذا الانسان نوع من النزاع الشخصى بينه وبين الشخصية الجليلة التى انتخبها الشعب الفرنسى ملكا له » . ويبدو أن لفظة « الانسان » هى الكلمة المناسبة . وثمة شخص يدعى مسيو دو ريبوكور ، استخدم هذه الكلمة فيما بعد ، فى مايو ١٨٧١ ، ليطلب طرد فيكتور هوجو من بلجيكا ، واستخدمها السيد بوناپرت ليكنى بها عن ممثلى الشعب الذين نفاهم فى يناير ١٨٥٢ . وعندما أبلغ السيد « بيل » هذا فى تلك الجلسة التى انعقدت فى ١٣ ديسمبر ١٨٥٤ عن رسائل ونشرات فيكتور هوجو ، أعلن أنه يسأل وزراء الملكة عما اذا كانت هناك وسيلة لوضع حد لهذه الأعمال . وكانت بذرة الاضطهاد كامنة فى كلامه . ولم يهتم فيكتور هوجو بهذه الأشياء المختلفة ، واستمر فى أداء واجبه ، وحرك من فوق رأس الحكومة الانجليزية « رسالته الى لوى بوناپرت » التى قرأناها آنفا . واحتدم الغضب ، ونشط الحلف الانجليزى الفرنسى فجأة ، وقام شرطة باريس بتمزيق ملصقات المنفى

-
- (١) ماتسبن (جوزيبي) - (١٨٠٥ - ١٨٧٢) - وطنى ايطالى ، مؤسس جمعية سرية (ايطاليا الفتاة) ، استمر يحيك المؤامرات ، فى ايطاليا وسويسرا - نشر فى الكتب والمجلات مبادئ الثورة ، ونادى باقامة جمهورية ايطالية موحدة . المترجم .
- (٢) كوسوت (لويس) - (١٨٠٢ - ١٨٩٤) - بطل وثائى هنغارى ، لعب دورا خطيرا فى الثورة الهنغارية ، مارس ١٨٤٨ - صار فى أبريل ١٨٤٩ رئيسا للجمهورية الهنغارية الجديدة - فرال تركيا حينما طبقت القوات النمساوية والروسية على هنغاريا - وقضى بقية حياته فى المنفى - المترجم .

من فوق حوائط لندن . ومع ذلك ارتأى للحكومة الانجليزية أنه من الأصوب انتظار فرصة أخرى . ولم تلبث أن سبحت هذه الفرصة ، فقد نشرت في لندن رسالة بليغة ، طريفة ، سافرة موجهة الى الملكة ، وعليها توقيع فليكس بيان ، ونقلتها في جيسى جريدة « لوم » (الانسان) - (انظر كتاب « رجال المنفى ») . وحدث الانفجار على اثر ذلك . وأبعد من جيسى بأمر الحكومة الانجليزية ثلاثة من المنفيين : رييرول ، محرر صحيفة « لوم » ، والكولونيل بياننشيانى ، وتوماس . وتدخل فيكتور هوجو ، ورفع صوته دفاعا عنهم .

(بيان)

أبعد من جيسى ثلاثة من المنفيين ، رييرول ، الكاتب البليغ الشجاع ، وبياننشيانى ممثل الشعب الايطالى الشهم ، وتوماس ، سجين مون سان ميشيل الشجاع .

العمل خطير ، فماذا هناك على ما يبدو ؟ الحكومة الانجليزية . وماذا هناك فى الباطن ؟ الشرطة الفرنسية . يد فوسيه تستطيع أن ترتدى قفاز كاستيلريا ، وهذا العمل يثبت ذلك .

لقد تدخلت حكومة الانقلاب فى الحريات الانجليزية . وانتهت انجلترا فى هذا الخصوص الى أن تنفى المنفيين . وخطوة أخرى تصير انجلترا بعدها من تدابير الامبراطورية الفرنسية ، وتصبح جيسى مقاطعة تابعة لمركز كوتانس .

ورحل أصدقاؤنا ، ونفذ أمر الاقصاء .

وسوف يقدر المستقبل هذا العمل ، ونحن انما نقف على تسجيله . اما أعمال العنف التى وقعت على أشخاصنا فانها تجعلنا على الابتسام والسخرية ، بغض النظر عن الحق المعتدى عليه .

الثورة الفرنسية مستمرة ، والجمهورية الفرنسية هى الحق ، والمستقبل أمر محتوم . ما أهمية كل ما عدا ذلك ؟ ثم ما هو هذا الاقصاء ؟ حلية أخرى تضاف الى النفي ، ثقب آخر فى العلم .

فقط ، ليس هناك شبهة فى المسألة .

واليكم ما نقوله ، نحن منفيى فرنسا ، لكم يا حكومة انجلترا . السيد بونابرت ، « حليفكم الوفى القوى » ، لا وجود له شرعى ، سوى أنه متهم بجريمة الخيانة العظمى .

فمنذ أربع سنين والسيد بونايرت تحت رحمة أمر بالضبط والاحضار موقع عليه من السادة أردوان رئيس المحكمة العليا ، والقضاة ديلا بال ، وياتاى ، ومورو (من السين) ، وكوش ، والى جانبهم توقيع رينوار النائب العام (١) .

لقد أقسم السيد بونايرت بصفته موظفا يمين الاخلاص للجمهورية ، وحنث فى يمينه .

وأقسم السيد بونايرت يمين الاخلاص للدستور ، وهدم الدستور . وانتكح السيد بونايرت كل القوانين ، وهو الأمين على القوانين كلها . وسجن السيد بونايرت ممثلى الشعب المتمتعين بالحصانة . وطرد القضاة .

واقترف السيد بونايرت ، ليفلت من أمر القبض والاحضار ما يقترفه الأشرار للافلات من الشرطة ، فقتل .

وضرب السيد بونايرت بالسيف والمدفع الرشاش ، وأعدم ، وذبح بالنهار ، وأطلق الرصاص بالليل .

وأعدم السيد بونايرت بالجيوين كوينينييه ، وسيراس ، وسارليه المتهمين بتقديم المساعدة العسكرية فى تنفيذ أمر القبض والاحضار .

ورشا السيد بونايرت الجنود ، ورشا الموظفين ، ورشا القضاة . وسرق السيد بونايرت أموال لوى فيليب الذى يدين له بحياته .

وحجز السيد بونايرت على الأموال ونهبها وصادرها ، وأرهب الضمائر ، وهدم الأسر ونفى السيد بونايرت ، وأبعد ، وطرد ، وأقصى فى أفريقيا وفى كاين ، وأرسل الى المنفى أربعين ألف مواطن ، من بينهم الموقعون على هذا التصريح .

(١) حكم

بمقتضى المادة ٦٨ من الدستور .

تعلن محكمة العدل العليا .

أن لوى نابليون بونايرت متهم بجريمة الخيانة العظمى .

وتدهو هيئة المحلفين الوطنية الى محاكمته دون امهال ، وتكلف السيد المستشار

رينوار بمهام النيابة العمومية لدى المحكمة العليا .

صدر فى باريس فى ديسمبر ١٨٥١ .

امضاء

أردوان ، رئيسا ، ديلا بال ، باتالى ، مورو (من السين)

وكوشى (قضاة)

الحيانة العظمى ، اليمين الزور ، الحنث في اليمين ، رشوة الموظفين ،
الحجر على المواطنين ، النهب ، السرقة ، القتل ، كل أولئك جرائم نصت
عليها كل القوانين ، لدى كل الشعوب ، تعاقب عليها انجلترا بالاعدام
شنتا ، وتعاقب عليها فرنسا بالليمان ، في حين ألغت الجمهورية عقوبة
الاعدام .

فمحكمة الجنايات تنتظر السيد بونابرت .

ويقول له التاريخ ، منذ اليوم : قف ، أيها المتهم .

والامبراطور المجرم هو جلاد الشعب الفرنسي ، وحليف الحكومة
الانجليزية هذا ما نقوله .

وهذا ما قلناه بالأمس ، وقالته معنا الصحافة الانجليزية برمنها ،
وما سوف نقوله في الغد . ويقول معنا الخلف بالاجماع .

هذا ما سنقوله على الدوام ، نحن الذين لا نملك سوى روح واحدة .
هي الحقيقة ، وكلمة واحدة ، هي العدالة .

والآن فلتطردونا !

(فيكتور هوجو)

جيرسي في ١٧ أكتوبر ١٨٥٥

وأضيف الى توقيع فيكتور هوجو ثلاثة وثلاثون توقيعاً من المنفيين ،
هي : الكولونيل شاندور تيليكي ، أ . بوفيه ، بونيه دو فيدييه ، هينييه
دوكيلر أرسين هاييس ، البير باربيو ، روميلاك ، محام ، أ . س .
فيسنر ، ضابط نمساوي سابق ، دكتور جورنييه ، شارل هوجو ،
ج . ب . أمييل (من أربيچ) فرانسوا فيكتور هوجو ، ف . تافيري ،
نيوفيل جيران ، فرانسوا زيشون ، بنجامان كولان ، ادوار كولييه ،
كوزيل ف . فانسان ، أ . بياسيكي ، جوزيب رانكان ، لوفيفر ،
دكتور باربييه ، طبيب ، ه . بريفرو ، محكوم عليه بالاعدام في
انقلاب ، ديسمبر (أليه) دكتور فرانك ، منفي ألماني ، بابوفسكي
وزينو ، زفيتوسلافسكي ، منفيان بولنديان ، ادوار بيقي منفي إيطالي ،
فوميرتو ، الأب فوميرتو ، الابن ، شاردينال ، بويار ، دكتور دوفيل .

والفقرة التالية منقولة من كتاب « رجال المنفى » لشارل هوجو :

في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ أكتوبر ١٨٥٥ ، تقدم ثلاثة

أنشخاص من دار « مارين يرأس » وطلبوا التحدث الى السيد فيكتور هوجو وابنيه .

وسأل السيد فيكتور هوجو أول الثلاثة قائلا : « من لي الشرف بمحادثته ؟ » .

— أنا ضابط شرطة سان كليمان يا سيد فيكتور هوجو ، مكلف من قبل صاحب السعادة حاكم جيرسي بأن أخطركم بأنه بموجب الأمر الملكي، لم يعد بوسعكم الإقامة فى هذه الجزيرة . وعليكم مغادرتها من الآن حتى يوم ٢ نوفمبر المقبل . والباعث لهذا الاجراء الذى اتخذه بشأنكم هو توقيعكم بأسفل « البيان » الذى أعلن فى شوارع سان هيليه ، ونشر فى صحيفة « لوم » .

— حسن يا سيدى .

وأبلغ ضابط الشرطة بعد هذا نفس الاخطار بنفس الصيغة السبدين شارل هوجو ، وفرانسوا فيكتور هوجو اللذين ردا عليه كما رد فيكتور هوجو .

وسأل السيد فيكتور هوجو الضابط عما اذا كان فى استطاعته ان يترك له نسخة من أمر الحكومة الانجليزية . ولما أجاب السيد لينيفيو بالنفى ، وصرح بأن هذا الشئ غير متبع ، قال له السيد فيكتور هوجو : — « أرى أننا نحن المنفيين نوقع وننشر ما نكتبه وأن الحكومة الانجليزية تخفى ما تكتبه » .

وبعد أن أدى الضابط ومساعداه مأموريتهم جلسوا .

وواصل فيكتور هوجو الحديث فقال : « من الضروري أيها السادة أن تعرفوا مرمى العمل الذى أديتموه منذ هنيهة بقدر من اللباقة وبأسلوب يسرنى أن أقر باتساقه التام . ولست أحملكم أنتم مسئولية هذا العمل ، ولا أريد أن أسالكم رأيكم فيه ، وأنا واثق أنكم فى وجدانكم حانقون ومتكبدون بسبب ما كلفتمكم السلطة العسكرية أدائه اليوم » .

وبقى الضباط الثلاثة ساكنين مطأطئى الرؤوس .

واسترسل فيكتور هوجو :

— « لا أريد أن أعرف شعوركم ، فسبوتكم يحدثنى عنه بالقدر الكافى . ان بين ضمائر الشرفاء قنطرة تنتقل من طريقها الأفكار دون حاجة الى أن تخرج من القم . ومع ذلك أكرر لكم القول بأنه لا بد من

أن تقدرُوا جيداً كنهه العمل الذى نظنُون أنكم قد أجبرتُم على المساعدة فى تنفيذهِ . سيدى ضابط شرطة سان كليمان ، أنت عضو فى مجلس طبقات الأمة عن هذه الجزيرة . وقد انتخبك مواطنوك بطريق الاقتراع الحر . أنت ممثل شعب جيرسى . فما قولك إذا بعث الحاكم العسكرى جنوده ذات ليلة للقبض عليك وأنت فى فراشك ، وألقى بك فى السجن ، وحطم بين يديك النفويض الذى عهد بك اليك ، وعاملك ، أنت ممثل الشعب كما لو كنت شر العباد ؟ ما قولك إذا صنع الشئ نفسه مع كل واحد من زملائك ؟ وليس هذا كل شئ . اننى أفرض انه اراء هذا الانتهاك للقانون اجتمع قضاة بلاطكم الملكى ، وأصدروا حكماً يفضى بأن الحاكم متهم بجريمة الخيانة العظمى ، وعندئذ أرسل الحاكم شزيمة من الجنود قاموا بطرد القضاة من كراسيهم وسط مداولاهم الرسمية . وأفترض أيضاً أنه أزاء هذه الاعتداءات يجتمع مواطنوا جزيرتكم الشرفاء فى الشوارع ، ويحملون السلاح ، ويقيمون الحواجز ، ويباشرون المقاومة بالقوة باسم القانون ، وعندئذ تقوم حامية الحصن بناء على أمر الحاكم بضربهم بالبنادق الرشاشة . وأفترض أكثر من ذلك أنه ذبح النساء والأطفال والعجائز والمارة المسالمن العزل من السلاح طوال يوم كامل ، وأنه حطم أبواب المنازل بطلقات المدافع ، واخترق الحوانيت برصاص البنادق ، وقتل السكان وهم تحت أسرتههم بطعنات من حراب البنادق . لو فعل حاكم جيرسى كل هذا ، فما قولكم ؟

وأُنصت ضابط شرطة سان كليمان الى هذا الكلام فى سكون عميق وارتباك واضح . واستمر صامتا بعد السؤال الذى وجه اليه . وكرر فيكتور هوجو سؤاله : « ما قولك يا سيدى ؟ أجب » .
فأجاب السيد لينيبفو : أقول ان الحاكم يكون عندئذ مخطئاً .

— عفوا يا سيدى ، فلنتفاهم فى مدلول الكلمات . تقابلنى فى الشارع ، وتحيينى ، وأنا لا أحييك . وتدخل منزلك تقول : « السيد فيكتور هوجو لم يرد تحيتى فهو مخطئ » عظيم . ونمة طفل يخنق أمه ، فهل تكتفى بأن تقول انه أخطأ كلا ، ستقول انه مجرم . عظيم . وأنا أسألك : ألا يعتبر الرجل الذى يقتل الحرية ، ويذبح شعباً ، قاتلاً لأهله ؟ ألا يعتبر مرتكباً جناية ؟ أجب .

فقال الضابط :

— نعم يا سيدى أنه يرتكب جناية .
— أسجل اجابتك يا سيدى الضابط وأستمر . عندما اعتدوا عليك وأنت تؤدى مهمتك التى وكلت لأدائها كممثل للشعب ، وطردت من

مقر عملك وسجنك ثم نفيت ، اعتكمت في بلد يعتقد أنه حر ويتبعني بذلك . وكان أول عمل تؤديه هناك أن تفضح الجريمة وتعلق على الحوائط الحكم الذي أصدرته محكمتك والذي يقرر أن الحاكم متهم بالخيانة العظمى . وكان أول ما فعله أن تنبئ كل الذين يحيطون بك ، والعالم بأسره لو استطعت ، بنبا الجريمة القضيعة التي رحت ضجيتها أنت وأسررتك وحريرتك وحقوقك ووطنك . الست بهذا العمل يا سيدي الضابط ، تستخدم حقك ؟ بل انى أذهب الى أبعد من هذا فأقول : الست تؤدي واجبك ؟

وحاول الضابط أن يتحاشى الإجابة على هذا السؤال الجديد ، فتمم يقول انه لم يأت ليناقد قرار السلطة العليا ، وانما هو قد أتى فقط لتبليغ القرار .

والج فيكتور هوو قائلا :

— « اننا نصنع في هذه اللحظة يا سيدي صفحة من صفحات التاريخ يوما من الأيام . أجب اذن . الست تستخدم حقك ، وتؤدي واجبك ، عندما تحتج على الجريمة ؟

— نعم يا سيدي .

— ما رأيك اذن في الحكومة التي ترسل اليك من أجل أدائك هذا الواجب المقدس ، أمرا بمغادرة البلد ، على يد ضابط يفعل معك ما تفعله معي اليوم ؟ ما رأيك في الحكومة التي تطردك ، أنت المنفي ، وتبعدك أنت ممثل الشعب بسبب أدائك واجبك ؟ الا تعتقد أن هذه الحكومة قد انحطت الى أدنى مدارج الخزي ؟ غير أنني أقنع في هذه النقطة يا سيدي بسكونك . أنتم هنا ثلاثة رجال شرفاء وأنا أعلم ، دون أن نتكلموا ما تجيب به الآن ضمائرهم » .

وغامر أحد مساعدي الضابط ببدء ملاحظة في استحياء :

— سيدي فيكتور هوو ، في بيانك شيء آخر خلاف جرائم الأباطور .

— أنت مخطئ يا سيدي ، وحتى أقنعك بذلك ، اقرأ لك البيان . وتلا فيكتور هوو البيان ، وجعل يتوقف عند كل فقرة ويسأل الضباط الذين كانوا يستمعون اليه قائلا : أكان من حقنا أن نقول هذا ؟

فقال الضابط :

— ولكنك تعارض في طرد أصدقائك .

فأجاب فيكتور هوو :

— اننى أعارض فيه جهازا . ولكن ليس من حقى أن أقول ذلك ؟

الا تمتد حرية الصحافة فتشمل اباحة انتقاد أى إجراء تعسفى تقوم به السلطة ؟

فقال الضابط : بالتأكيد . بالتأكيد .

— وقد أتيتم لإبلاغى أمر الطرد بسبب هذا البيان ، هذا البيان الذى تقرون بأنه من واجبي عمله ، وتسلمون بأنه لا يتضمن أية عبارة تتخطى حدود حريتكم المحلية ، وأنكم خليقون بعمله لو كنتم فى مكانى ؟ فقال أحد الضباطين المساعدين : انه من أجل خطاب فيليكس بيات .

فاسترجع فيكتور هوجو مخاطبا الضابط : « معذرة ، ألم تقل لى اننى يجب أن أغادر الجزيرة بسبب توقيعى أسفل هذا البيان ؟ » .

وأخرج الضابط من جيبه مظروف الحاكم وفتحه وقال :

— بالفعل أنت مطرود بسبب البيان وحده ، لا لشيء آخر .

— اننى أثبت هذا وأسجله أمام الموجودين هنا .

وقال الضابط للسيد فيكتور هوجو :

— هل لى أن أسألك يا سيدى عن اليوم الذى تعتزم مغادرة الجزيرة

فيه ؟

وأتى فيكتور هوجو بحركة وقال : لماذا ؟ هل هناك إجراءات شكلية

لا بد أن تجريها ؟ هل أنت فى حاجة الى أن تثبت أن أمر الطرد قد تم

تبليغه على أفضل الوجوه وأكملها ؟

فأجاب الضابط :

— سيدى ، اذا كنت أرغب فى معرفة وقت رحيلك ، فانما لكى

أحضر فى ذلك اليوم لأقدم لك احتراماتى .

(فقال فيكتور هوجو) :

— لا أعرف الآن اليوم الذى سوف أرحل فيه . ولكن اطمئنوا فانى

لن أترى حتى انتهاء المهلة . واذا استطعت أن أرحل فى ربع ساعة

فسوف أفعل . اننى أتعتل مغادرة جيرسى ، فالأرض التى لم يعد فيها

شرف انما تحرق قدمى .

واردف فيكتور هوجو قائلا :

— والآن يا سيدى الضابط ، لك أن تنصرف . وسوف تقدم تقريراً

عن تنفيذ مهمتك لرئيسك الحاكم العسكرى الذى سوف يقدم عنه تقريراً

لرئيسه . وهى الحكومة الانجليزية التى سوف تقدم عنه تقريراً لرئيسها

السيد بونايرت .

وفى يوم ٢ نوفمبر ١٨٥٥ غادر فيكتور هوجو جيرسى ، وذهب

الى جيرنسى . وفى هذه الأثناء تحركت مشاعر الشعب الانجليزى الحر .

وجرت اجتماعات في كل أنحاء بريطانيا العظمى ، واستاءت الأمة من طرد المنفيين من جيرسي ، فوجهت لوماً شديداً للحكومة . واحتججت انجلترا عن طريق لندن كما احتججت اسكتلندا في جلاسجو . وشكر فيكتور هوجو الشعب الانجليزي .

جيرنسي ، أوتفيل هاوس في ٢٥ نوفمبر ١٨٥٥

الى الانجليز

مواطني الأعزاء في الوطن الأوروبي الكبير .

تسلمت من يدى أخينا في الايمان ، الأخ الشجاع هارنى ، الرسالة التى تكرمت بتوجيهها الى باسم لجنتم ، وباسم اجتماع نيوكاسل وأشكركم من أجلها ، كما أشكر أصدقاءكم ، باسمى واسم زملائي في الكفاح والنفي والتشريد .

كان من المستحيل ألا يثير طرد المنفيين من جيرسي استياء عاماً في انجلترا . فانجلترا أمة كريمة عظيمة تنبض فيها قوى التقدم الحية كلها ، وتدرك أن الحرية هي النور . ولكن ما جرى في جيرسي هو تجربة في خفاء الليل وغارة الظلمات ، وهجمة بالسلاح شنها الطغيان ضد دستور بريطانيا العظمى الحر القديم ، وانقلاب سياسى أوقعته الامبراطورية بوقاحة في قلب انجلترا . لقد تمت عملية الابعاد في ٢ نوفمبر ، وهذا خطأ في التوقيت ، اذ كان الواجب أن تتم في يوم ٢ ديسمبر .

رجائي أن تبلغوا أصدقائي أعضاء اللجنة وأصدقاءكم في الاجتماع تأثروا الشديد بمظاهرتهم الحماسية النبيلة . ومن شأن هذه الأعمال أن تنذر وتوقف بعض حكامكم الذين يفكرون في هذه الساعة أن يوجهوا الضربة الأخيرة للشرف الانجليزي القديم عن طريق قانون الأجانب المخزى .

ان مظاهرات ، مثل مظاهراتكم والمظاهرات التى جرت في لندن ، وتلك التى يجرى الترتيب والاعداد لها في جلاسجو تثبت الحلف وتقويه وتدعمه ، لا الحلف الباطل الكاذب المشبوم ، المقع برماد مجلس الوزراء الانجليزي الحاضر ورماد الامبراطورية البونا برتية ، وانما الحلف الحقيقى الضرورى ، الأبدى ، حلف شعب انجلترا الحر ، وشعب فرنسا الحر .

وتقبلوا مع جيزيل الشكر وأسمى معانى الاخاء القلبي .

(فيكتور هوجو)

١٨٥٦

١

فى يوم ٢٥ مايو ١٨٥٦ ، حين بدأ فيكتور هوجو يستقر فى منفاه الجديد فى جبرنسى ، تلقى من مانسى الذى كان وقتئذ فى لندن هذين السطرين :

« أسألكم كلمة لاطاليا • انها تميل فى هذه اللحظة ناحية الملوك •
نبهوها وقوموها • »

(ج : مانسىنى)

الى ايطاليا

أيها الايطاليون ، هذا الذى يتحدث اليكم أخ مجهول ، ولكنه مخلص •
احترزوا مما يبدو أن المؤتمرات ومجالس الوزراء والدبلوماسيات تعده
لكم فى هذه اللحظة • لقد تحركت ايطاليا • وبجلى فيها دلائل التيقظ
وصارت تزعج وتقلق الملوك الذين بدأ لهم من الضرورى تنويمها للحال •
احترسوا ، انهم لا يريدون تهدئتهم ، فالتهدئة لا تكون الا باحقاق الحق ،
انما هم يريدون أن تستغرقوا فى سباتكم ، أن تموتوا • ومن ثم كانت
القمحاخ • فحاذروا ومهما كان المظهر الخارجى ، لا تشردوا عن الحقيقة •
الدبلوماسية هى الليل • ان ما يعال لكم انما يدبر ضدكم •

ماذا ! تنظيمات ، اصلاحات ادارية ، عفو شامل ، العفو عن بطولتكم ،
شئ من التحرر الدينى ، قليل من حرية الرأى • مجموعة من قوانين نابليون ،
الديمقراطية البونايرتية ، الخطاب القديم الموجه الى « ادجار نبى » وقد
أعيد كتابته بالمداد الأحمر بدم باريس باليد التى قتلت روما ! هذا هو
ما يقدمه لكم الأمراء ! وأنتم تعيرونهم الآذان ! وتقولون : لنقنع بهذا ،
وتقبلون ، وتلقون السلاح ! وتؤجلون هذه الثورة المظلمة الجليلة الكامنة
فى قلوبكم ، والتى تسطع فى عيونكم ! أهذا شئ ممكن ؟

سوف تنقش فجأة وفى وقت واحد بالنسبة للكافة ، وأنه اذا كان الغد لنا فهو لكم ، وأنه فى اليوم الذى تظهر فيه فرنسا للعالم تظهر ايطاليا أيضا .

نعم ، أى من الشعبين ينهض أولا ، سوف يعمل على انهاض الشعب الآخر . نحن ، بتعبير أفضل ، شعب واحد ونوع بشرى واحد . أنتم الجمهورية الرومانية ، ونحن الجمهورية الفرنسية ، تسرى فينا نسمة حياة واحدة . ولا نستطيع نحن الفرنسيين أن نتوارى عن اشعاع ايطاليا كما أنكم أيها الايطاليون لا تستطيعون أن تتواروا عن اشعاع فرنسا . بيننا وبينكم ذلك التضامن الانسانى العميق الذى سوف تتولد منه الوحدة الشاملة وقت الكفاح ، والتآلف بعد النصر . أيها الايطاليون ، سوف يشهد المستقبل اتحاد أمم القارة الأوروبية ، كاخوات جليلات ، كل واحدة منهن متوجه بالحرية التى تتمتع بها سائر الأمم واخاء الأوطان فى داخل الوحدة الجمهورية العظمى .

لا تحولوا أنظاركم لحظة واحدة عن هذا المستقبل الرائع ، فالحل الأكبر قريب ، ولا تقبلوا أن يجرى لكم حل منفرد . احتقروا ما يعرضه الأمراء من التقدم بخطوات بطيئة متتابة على هامش الحياة ، فنحن فى زمن الوثبات الهائلة التى نسميها ثورات . والشعوب تفقد أجيالا طويلة ثم تستعيدوها فى ساعة واحدة . والاختصاص ، بالنسبة الى الحرية وفى نهر النيل ، هو الاغراق .

ليكن عندنا ايمان ، لا نريد أواسط الأمور ، ولا مهادنات ، ولا حلولاً وسطى ، ولا أنصاف انتصارات . كيف ! أنقبل التنازلات بينما الحق معنا ، ونقبل معونة الأمراء ، بينما معونة الشعوب معنا ! فى هذا الضعف من التقدم نوع من التنازل . لا . لنطمح فى العلاء ، ولنفكر تفكيراً صائباً ، ولنسير سيرا مستقيماً . ولم تعد الأشياء التقريبية تكفي . ولنسوف يتم كل شئ ، يتم بخطوة واحدة وفى يوم واحد ، وومضة واحدة ، وصاعقة واحدة . ولنكن مؤمنين .

وعندما تدق ساعة الانهيار ، تلقى الثورة على أوروبا ، فجأة ،

وفى خط رأسى بقانونها الالهى ، دون اعداد ، ودون تحول ، شعاعها
الوهاب العجيب الذى يبهز الأبصار ، شعاع الحرية والحماسة والنور ،
فلا يترك للعالم القديم من الوقت الا ما يسمح له بالسقوط .
فلا تقبلوا شيئا من العالم القديم . انه ميت . وأيدى الجنت باردة ،
فليس لديها ما تعطيه .

اخوانى ، عندما يكون الانسان من الجنس الايطالى القديم ، تجرى
فى عروقه كل أجيال التاريخ الرائعة ، ودم الحضارة ، وعندما لا يكون
الانسان مهجنا أو مفسود الأصل ، وعندما يكون قد استطاع أن يجده ،
فى اليوم الذى أراده ، كل مستويات الماضى العظيمة ، وعندما يكون قد
بذل المجهود الذى لا ينسى فى الجمعية التأسيسية ، والحكومة الثلاثية ،
وعندما يكون قد أثبت بالأمس - وعام ١٨٤٩ انما هو الأمس - أنه جدير
بروما ، عندما يكون الانسان فى مثل ما أنتم فيه ، فانه يشعر ، باختصار ،
أنه يملك كل شيء فى داخل نفسه ، ويقول لنفسه انه يحمل خلاصة فى
يده ومصيره فى ارادته ، ويزدري عروض الأمراء ، ولا يرضى أن يأخذ
أى شيء من أولئك الذين يجب أن يسترد منهم كل شيء .

وتذكروا فضلا عن ذلك ما على الأيدى الملكية والكنهوتية من بقع
الوحد ونقط الدم .

تذكروا ألوان التعذيب والتقتيل والجرائم ، وكل صفوف الشهداء
، والضحايا ، والضرب بالعصى علنا أو فى السجن ، والمحاكم العسكرية ،
ومحاكم الأساقفة ، ومحكمة البابا الاستشارية المقدسة فى روما ، ومحاكم
نابولى الكبرى ، ومنصبات الاعدام فى ميلانو ، وأنكونا ، ولوجو ،
وسينيغال ، وايمولا ، وفائنزا ، وفيرارا ، والمقصلة ؛ وآلة ضغط
الشرايين ، والمشنقة ، ومائة وسبعين عملية اعدام بالرصاص فى ثلاث
سنوات باسم البابا فى مدينة واحدة هى بولونيا ، ثم حصن أوربان ،
وقصر سانت آنج ، وايسكيا ، وبويريو التى لم تجد وسيلة للتخفيف
من آلام المسجونين سوى تغيير موضع ربط السلاسل فى أجسامهم ،
والحكام الذين لم يعودوا يعرفون عدد المنفيين ، والليمانات ، والسجون
الانفرادية الضيقة ، والسجون السفلية المظلمة والقبور .

ثم تذكروا برنامجكم الرومانى العظيم الفاخر ، وكونوا له أوفياء ،
ففيه الخلاص ، وفيه الأمان وليكن ماثلا أمام بصيرتكم تلك الكلمة القبيحة
التي قالتها الدبلوماسية : ايطاليا ليست أمة ، ولكنها تعبير جغرافى .

ولا تجعلوا لكم سوى فكرة واحدة ، أن تعيشوا فى دياركم حياة
خاصة بكم . أن تكونوا ايطاليا . ورددوا فى قرارة نفوسكم دون انقطاع

هذا الأمر الرهيب : طالما لم تكن إيطاليا سعبا ، فان الايطالى لن يكون رجلا .

أيها الايطاليون ، الساعة قادمة ، وأقول تمجيذا لكم انها قادمة على أيديكم . انكم اليوم مصدر قلق كبير لعروش القارة الأوروبية . إيطاليا هي البقعة التي يتصاعد منها أكبر قدر من الأدخنة الكبريتية في أوروبا في الوقت الحاضر .

نعم ، لم يبق لسلطان الوحوش والطغاة ، كبارا وصغارا سوى لحظات قلائل ، ونحن في أواخر عهدهم . تذكروا جيدا أنكم أبناء هذه الأرض المهيأة للخير ، المبيدة للشر ، التي يلقي عليها عملاقا الفكر الانساني ميكيلانج ودانتى ظلالهما : ميكيلانج عن حساب الآخرة ، ودانتى عن عقاب الدنيا .

حافظوا على رسالتكم السامية ، كاملة ، طاهرة .

لا تقبلوا لأنفسكم التجزئة أو النقصان . لا نوم ، ولا خدر . ولا خمول ، ولا أفيون ، ولا هذنة . تحركوا ، نحركوا ، تحركوا ! واجب الجميع ، واجبكم وواجبنا ، هو التحرك اليوم ، والثورة في الغد .

رسالتكم هادئة من جهة ، وبائية للحضارة من جهة أخرى ، وفي وقت واحد . ومن المستحيل الا تتم . لا يداخلكم ريب في أن العناية الالهية سوف تخرج إيطاليا من هذه الظلمة عظيمة وقوية ، سعيدة وحررة . انكم تحملون في نفوسكم الثورة التي سوف تبطلع الماضي ، والبعث الذي سوف ينشئ المستقبل . وهناك في الوقت نفسه ، على جبين إيطاليا المهييب الذي نلمحه خلال الظلمات ، ومضات الحريق الحمراء ، وأضواء الفجر احتقروا اذن ما يبدو أن البعض يستعد لتقديمه اليكم . حاذروا ، وآمنوا ، واحذروا من الملوك ، وتوكلوا على الله .

(فيكتور هوجو)

(جرنيسي في ٢٦ مايو ١٨٥٦)

اليونان

الى السيد أندريه ريجوبولوسى

نسلمت بمزيد التأثير جريدكم الممتارة ، وأشكركم على ذلك من أعماق قلبى ، وانى أطلع جريدكم باهتمام شديد .

واصلوا العمل المقدس الذى أنتم من صانعيه البواسل • اعملوا فى سبيل وحدة الشعوب • اليوم يجب أن تحلق روح أوروبا وتحل فى النفوس محل روح القوميات القديمة • ومن واجب أمجد الأمم ، كاليونان وايطاليا وفرنسا أن تكون قدوة لغيرها غير أنه يجب عليها أولا وقبل كل شئ أن تجد نفسها • وأن تنتمى الى نفسها • يجب على اليونان أن تنتهى من اجلاء تركيا ، وعلى ايطاليا أن تهز النمسا ، وعلى فرنسا أن تمزق الأمبراطورية • وعندما تخرج هذه الشعوب العظيمة من أكفانها ، سوف تصبح قاتلة : الوحدة ! أوروبا ! الانسانية !

ذلك هو المستقبل • وسوف يكون صوت اليونان من أقوى الأصوات وضوحا للأسماع وأمالكم من الرجال خليقون بأن يجعلوا صوتها مسموعا • لقد كافحت منذ بضع سنوات مع أوائل المكافحين من أجل تحرير اليونان، وأشكركم لأنكم تذكرون هذا •

لقد حملت اليونان وايطاليا وفرنسا الشعلة ، كل منها بدوره • وعليها الآن ، فى القرن التاسع عشر العظيم أن تسلمها الى أوروبا ، مع احتفاظها باشعاعها • ولنصبح بالتدريج ، شعوبا وأفرادا ، أقل أنانية ، وأقوى رجولة وإنسانية • نادوا : لتحى فرنسا ! فى حين أنادى أنا : لتحى اليونان !

أهنتك يا مواطن اسخيلوس وبيريكليلس ، يا من ناضلت فى سبيل المبادئ الانسانية • انه لشيء بديع أن ينتمى الانسان لبلد النور وأن يحمل فيه علم الحرية •

وأصافحك من كل قلبى •

فيكتور هوغو

جيرنسي فى ٢٥ أغسطس ١٨٥٦

١٨٥٩

١

العفو الشامل

وانقضت السنون • وفي ختام ثمانى سنوات ، ارتأى للمجرم أنه من المناسب الافراج عن الأبرياء ، ومن ثم عفا القاتل عن قتلاه ، وأحس الجلاذ بالحاجة الى العفو عن ضحاياه ، فأصدر قرارا بعودة المنفيين الى فرنسا • ورد فيكتور هوجو على قرار العفو الشامل •

(بيان)

لم يكن أحد ينتظر منى أن أخصص لحظة واحدة فى الاهتمام بهذا الشيء الذى يسمونه العفو الشامل •

والواجب فى الموقف الحالى لفرنسا ، حسب رأيى ، هو الاحتجاج المطلق الدائم الذى لا يلين •

ولما كنت مخلصا للعهد الذى اتخذته مع ضميرى ، فانى سوف أقاسم الحرية منفاها حتى النهاية • وسأعود ، عندما تعود الحرية •

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٨ أغسطس ١٨٥٩

٢

جون براون

فى هذه الأثناء ، كانت دولة ديموقراطية أخرى على وشك ان ترتكب
هى أيضا جريمة وبلغ أوروبا نبأ الحكم بادانة جون براون ، وتأثر منه
فيكتور هوجو . وفى ٢ ديسمبر ١٨٥٩ ، فى تلك الذكرى السنوية التى
استحضرت فى مخيلته كل صور الواجب وضروراته ، وجه الخطاب الذى
نقرأه أدناه الى أمريكا عن طريق كل الصحف الحرة فى أوروبا .

الى الولايات المتحدة الأمريكية

عندما يفكر الانسان فى الولايات المتحدة الامريكية ، تسبق فى
الذاكرة صورة مهيبه ، صورة واشنطنجتون .

واليكم ما يحدث فى هذه اللحظة فى ذاك الوطن ، وطن
واشنطنجتون .

فى ولايات الجنوب عبيد ، الأمر الذى يثير حفيظة الضمير المنطقى
الظاهر لدى ولايات الشمال ، باعتباره اشد صنوف اللامعقولات بشاعة .
وهناك رجل أبيض ، حر ، يدعى جون براون ، أراد أن يخلص هؤلاء
العبيد حقاً ، اذا كانت الثورة واجبا مقدسا ، فانما هى كذلك ضد الرق .
وأراد جون براون أن يبدأ مهمة الخلاص هذه بتحرير العبيد فى ولاية
فيرجينيا . وأطلق لهؤلاء الناس ، لهؤلاء الأخوة ، صيحة التحرير ، وهو
الرجل الورع المتدين ، المتقشف ، المؤمن بالانجيل . ولم يستجب العبيد
الذين أنهلكم الرق ، فالعبودية تؤدى الى صمم النفس . وناضل جون
براون الذى أهمله الناس ، ناضل ومعه حفنة من الرجال الأبطال .

وانهال الرصاص على بدنه ، وسقط ولداه الصغيران شهيدين طاهرين الى جانبه . وقبض عليه . هذا هو ما يسمونه قضية « هاربرز فيري » .

وبعد أن قبض على جون براون ، حوكم ومعه أربعة من أنصاره : ستيفنز ، وكوب ، وجرين ، وكويلاندز .

فكيف كانت تلك القضية ؟ لننتحدث عنها في كلمتين :

كان جون براون ممددا على سرير من الجلد ، وبجسده سبه جروح لم تلتئم ، رصاصة في ذراعه ، وأخرى في خصرته ، وانتان في رأسه . وأنتان في صدره ، يسمع بصعوبة ، ودماؤه تنزف خلال فراسه . وشبهها والديه الميتين الى جواره . وزملاؤه الأربعة المبهمون معه مجروحون وممددون بجانبه : سنيفز وفي جسمه أربع طعنات بالسيف . و « العدالة » متعجلة ، فلا تغير هذه الأمور أى اهتمام . ونية مدع عام يسمى « هنتر » يريد أن يتصرف بسرعة ، وقاض يدعى باركر يوافق على ذلك . المداولات تبتر ، والمهل كلها ترفض ، والمستندات المزورة أو المشوهة تقدم ، وشهود النفي يبعدون ، والدفاع يعطل ، ومدفعان رشاشان معثان في فناء المحكمة ، وأمر صادر للسجانين بإطلاق الرصاص على المبهمين اذا حاول البعض خطفهم ، ومداولة تستمر أربعين دقيقة ، وثلاثة أحكام بالاعدام . وأؤكد بشرفى أن مثل هذا الشئ لم يحدث أبدا في تركيا ، وإنما حدث في أمريكا .

مثل هذه الأمور لا تحدث في العالم المتحضر دون عقاب . فالضмир العالمى عين مفتوحة . ولاشك أن قضية شارلستان وهنتر وباركر والمخلفون الذين يمتلكون عبيدا ، وكل سكان فيرجينيا ، يفكرون في ذلك فهناك من يراهم .

وأنظار أوروبا مثبتة في هذه اللحظة على أمريكا .

وكان من المفروض ، بعد الحكم بالاعدام على جون براون أن ينفذ فيه الحكم يوم ٢ ديسمبر (هذا اليوم نفسه) .

ويصل نبأ في هذه اللحظة ، يقول أنه قد تقرر تأجيل التنفيذ ، فيعتمد يوم ١٦ . والفترة قصيرة . فهل هناك الى ذلك الحين ، وقت لا بلاغ صيحة الرحمة الى اسماع الناس ؟

مهما يكن من الأمر ، فالواجب رفع الصوت .

وقد يتقرر تأجيل ثان في أعقاب الأول . ان أمريكا أرض نبيلة .

• والتشعور الانساني يستنقظ بسرعة فى بلد حر • ونحن نأمل أن ينقذ براون •

فاذا حدث خلاف ذلك ، اذا مات جون براون فى ١٦ ديسمبر على منصة الاعدام ، كان ذلك أمرا رهيبا •

ونحن نعلن جهارا (فالملوك يمضون ، والشعوب تأتي ، ومن واجبنا أن نخبر الشعوب بالحقيقة) ، نعلن أن جلاد براون لن يكون المدعى العام هنر ولا القاضى باركر ، ولا الحاكم وايز ، ولا ولاية فرجينيا الصغيرة ، واما سيكون - واني لارتعد حين أقول ذلك وأفكر فيه - ستكون الجمهورية الأمريكية العظيمة بأسرها •

وازاء مثل هذه الكارثة ، كلما ارداد حب الانسان لهذه الجمهورية، ويوفيره لها ، واعجابه بها ، ازداد انقباض قلبه • ولا يليق بولاية واحدة ان تلتطخ بالعار سائر الولايات • ولا بد بداهة ، فى هذه المسألة من تدخل فيديرالى ، والا أصبح الاتحاد مشاركا فى الائم ، مادامت هناك جريمة سترتكب وفى الامكان منعها • ومهما كان سخط الولايات الشمالية الكريمة ، فان ولايات الجنوب تشركها فى العار الذى يقترب بمثل هذا الاعدام ، ونحن جميعا ، مهما كنا نحن الذين ننمى الى وطن مشترك ، هو رمز الديمقراطية ، نشعر بأن هذا الأمر قد مسنا ، وأنا أصبحنا بنوع ما معرضين للخطر • فاذا أقيمت المشنقة فى ١٦ ديسمبر ، فان اتحاد العالم الجديد العظيم ، أمام التاريخ الذى لا يمكن نشوبه ، سوف يضيف من اليوم ، الى كل تضامنااته المقدسة ، تضامنا دمويا ، وسوف تكون أنشودة جبل مشنقة جون براون هى رباط الحزمة الضوئية التى تشع من هذه الجمهورية البهية •

وهذا الرباط قاتل •

وعندما نفكر فيما حاول براون ، ذلك المحرر ، جندي المسيح ، ونفكر فى أنه سيموت ، ويموت مشنوقا بأيدي الجمهورية الأمريكية ، نجد أن الجريمة سوف تتخذ أبعاد الأمة التى تقتربها • وعندما نقول لأنفسنا ان هذه الأمة هى فخر الجنس البشرى ، وأنها كفرنسا وانجلترا وألمانيا ، عضو من أعضاء الحضارة ، بل وانها تفوق أوروبا أحيانا فى بعض الأعمال الجليلة الجريئة فى ميدان التقدم ، وانها قمة عالم بأسره ، تحمل على جنبها نور الحرية الشاسع ، عندئذ يتأكد لنا أن جون براون لن يموت اذ أننا نترجع مذعورين أمام مثل هذا الجرم الكبير الذى يرتكبه مثل هذا الشعب العظيم •

وقتل براون ، من وجهة النظر السياسية خطأ لا يمكن اصلاحه .
سوف يسبب للاتحاد (الامريكى) صدعا خفيا ينتهى بانفصامه . وقد يكون
من المحتمل أن يؤدى اعدام براون الى تدعيم الروى فى فيرجينيا ، ولكن
من المؤكد أنه سوف يززع الديموقراطية الأمريكية كلها . انكم تنقذون
عاركم ، ولكنكم تقتلون مجدكم .

ويبدو ، من وجهة النظر الأخلاقية ، أن قسما من نور الانسانية
سوف يحتجب ، وأن فكرة العدل والظلم سوف تصبح قائمة حالكة فى
اليوم الذى نشهد فيه اعدام « الخلاص » بأيدى « الحرية » .

أما أنا ، ولست سوى درة ، ولكنى أملك . كسائر الناس . ضمير
الانسانية كلها ، فانى أركع ، والدموع ملء عيني أمام العلم ذى النجوم ،
علم الدنيا الجديدة ، وأنوسل بيدين مضمومتين ، وباحترام بنوى عميق
الى تلك الجمهورية الأمريكية المجيدة أن نتغيا سلامه قانون الاخلاق ،
وتنقذ جون براون ، وتهدم منصة الاعدام التى تهدد باعدامه فى ١٦
ديسمبر ، والا نسمح بارتكاب جريمة قتل الانسان لأخيه الانسان .
تحت أنظارها ، بل وأقول وأنا أرتجف : بخطئها تقريبا .

نعم ، فلتعلم امريكا ، ولنتأمل ، أن هناك سيئا أظن من قتل قابيل
أخاه هابيل . هذا هو واشنطنجتون يقفل سبارتاكوس (١) .

فيكتور هوجو

اوثفيل هاوس فى ٢ ديسمبر ١٨٥٩

شنىق جون براون . وألف له فيكتور هوجو هذه العبارة . لنكتب
على قبره : Pro Christo Sicut Christus كالمسيح ، ومن أجل
المسيح وبموت جون براون ، تتحقق نبوءة فيكتور هوجو . فبعد انقضاء
سنتين على النبوءة التى قرأناها بعاليه ، « انفصم » الاتحاد الأمريكى ،
وانفجرت الحرب الفظيعة بين الجنوبيين وبين الشماليين .

(١) زعيم العبيد الدين ناروا ضد روما ، قتل فى عام ٧١ ق.م بعد أن صمد سنتين
فى وجه القوات العسكرية - المترجم .

١٨٦٠

١

العودة الى جيرسي

فى يوم ١٨ يونيه ١٨٦٠ ، سوهده نىء غريب فى جيرسى ، اذ عطيب الحواطط كلها بملصقات كتبت عليها عبارة : « وصل فيكتور هوجو » لقد طردت جيرسي فيكتور هوجو منذ خمس سنوات . أما اليوم فقد خرج سكان جيرسي عن بكرة أبيهم ، فى أبهى ثيابهم يحيون فيكتور هوجو فى شوارع سان هيليبه .

واليكم ما حدث

كان ذلك ابان حمله « الألف » الرائعة التى بهرت أوروبا . وليس فى الساريخ فترات توقف ، فمحررو الشعوب يتعاقبون ويتشابهون ، ولكن أقدارهم تختلف . فبعد جون براون يأتى جاريبالدى . والمطلوب مساعدة جاريبالدى فى مشروعه العظيم . ونظم فى انجلترا اكتوبر عام على نطاق واسع . وفكرت جيرسي فى فيكتور هوجو ، واعنقد الناس أن كلمة منه خليفة بأن تدفع عجلة الاكتتاب . وأصبحت الجزيرة كلها الآن خجلى من الطرد الذى تم فى عام ١٨٥٥ . وأتى وفد على رأسه السيدان فيليب أسبلين ، ودير بيشاير الى فيكتور هوجو ومعه دعوة موقع عليها بامضاء خمسمائة من أعيان جيرسي يرجونه فيها العودة الى الجزيرة ، والتحدث من أجل جاريبالدى . وفى ١٨ يونيه ١٨٦٠ عاد فيكتور هوجو الى جيرسي ووسط حشد كبير من جمهور متأثر ، ألقى الحديث الذى نقرأ فيما يلى :

أيها السادة

هأنذا استجيب لندائكم . اننى أذهب الى مكان يقام فيه منبر يدعونى الله من أجل الحرية ، فتلك فطرتى ، وأقول الحق ، هذا واجبى (هتافات - اسمعوا ، اسمعوا !) .

ها هي الخفيفة : انه من غير المسموح لاي انسان أن يتهاون في الأمور الكبرى التي نجرى في هذه الآونة ، وأنه يلزم للعمل الجليل الذي يستهدف الخلاص العام الشامل والذي ابندأ اليوم مجهود الجميع . ومشاركه الجميع . ومعاونه الجميع . وأنه لا يجوز لأذن أن نغلق . ولا اقلب أن يصمت ، وانه في كل مكان ترتفع فيه صيحة الشعوب كلها . يجب أن يردد صدى هذه الصيحات في صدور الناس كلهم ، وإن على كل انسان لا يملك غير فلس واحد ، أن يقدمه لحررى الشعوب ، وأن على كل انسان لا يملك سوى حجر واحد أن يلقيه على الطغاة (تصفيق) .

فليتحرك البعض . وليتكلم البعض الآخر وليعمل الجميع ! نعم ، هيا الى العمل جميعا ! الريح تهب . وليكن نتيجع الناس للأبطال بهجه للنفوس ! ولتحمز وجوه الناس حماسا وكأنها السعير المتهب . وعلى الدين لا يقاتلون بالسيف ان يقاتلوا بالفكرة ! ولا يبقى ذكاء خاملا ، ولا يبقى عقل متعطلا ! وليشعر أولئك الذين يناضلون أن الجميع ينظرون اليهم ويحبونهم ويعضدونهم ! وليكن حول ذلك الرجل الباسل الواقف هناك في بالرمو نار فوق كل جمال صقلية ونور فوق كل قمم أوروبا .

لقد نطقت منذ هنيهة بكلمة « الطغاة » فهل بالغت في قولى ؟ هل نلبت حكومة نابولى ؟

لندع الكلام . واليكم الوقائع .

انتبهوا . ان ما سأقوله شئ من التاريخ الحى ، ونستطيع أن نقول أنه من التاريخ الدامى (هتاف : اسمعوا !) .

مملكة نابولى - التي نهتم بأمرها في هذه اللحظة - ليس بها سوى هيئة واحدة . هي هيئة الشرطة ، فكل مقاطعة بها « لجنة الضرب بالعصا » وهناك شرطيان: أجوسا ، ومانيسكالكو ، يحكمان تحت امرة الملك . أجوسا يضرب نابولى بالعصا ومانيسكالكو يضرب صقلية . ولكن العصا ليست الا اسلوبا تركيا ، أما هذه الحكومة فانها تملك فوق ذلك اسلوب محاكم التنفيس والنعذيب . اسمعوا . هناك سرطى يدعى برونو . يربط المتهمين ورءوسهم بين سيقانهم حتى يعترفوا . وشرطى آخر اسمه بونتييلو يجلسهم على مشواة ويشعل نارا تحتها . وهذا ما يسمونه « الكرسي المتهب » . وشرطى آخر اسمه لويجى مانيسكالكو ، من أقارب الرئيس . اخترع آلة يدخلون فيها ذراع المحكوم عليه ، ثم يديرون لولبا . فينسحق العضو . ويسمى هذا الشئ « الآلة الملائكية » . وشرطى آخر يعلق الرجل بذراعيه من حلقتين على حدار ، ومن قدمه على الجدار المقابل ، وبعد ذلك يقفز

فوق الرجل ويفسحه • وهناك الأصعاد التي سحق أصابع اليد • وهناك آلة الضغط على الرأس ، وهي عبارة عن دائرة من حديد تضغط بواسطة مسمار لولبي (قلاووظ) ، فنحفظ العينان ونبرزان من المحاجر • ويفر بعض المحكومين عليهم أحيانا • فتمة رجل يدعى كازيميرو أرسبمانو ، هرب ، فقبض على زوجه وأولاده وبناته وأجلسوا مكانه على « الكرسي المتهب » • وبجوار راس « زافيرانا » ساطيء مهجور ، وإلى هذا الشاطيء احضر بعض الشرطة أكياسا بداخلها رجال ، وجعلوا يغطسون الكبس تحت الماء ، ويففونه هكذا حتى يكف عن الحركة ، ثم يخرجون الكيس ويقولون للمخلوق الموجود بداخله : اعترف ! فاذا رفض أعادوا نغطيسه • وعلى هذا المحومات جيوفاني فنيبا من مسينا • وفي موزيال ، انهم شيخ مسن وابنته بميولهما الوطنية ، فمات الشيخ مجلودا بالسوط ، أما ابنته وكانت حبلى ، فانها جلدت وهي عارية حتى ماتت • سادتي ، هناك شباب فى العشرين من عمره ، هو الذى يقترب هذه الأفعال • هذا الشاب اسمه فرانسوا السانى • وهذا الأمر بجرى فى بلد تيبير (١) (هتافات) أهذا شيء ممكن ؟ انه حقيقى والتاريخ ؟ عام ١٨٦٠ ، السنة التى نحن فيها • أضربوا الى ذلك ، حادث الأمس ، فقد دكت بالبرمو بالفنابل ، وغرقت فى الدماء ، وقتل سكانها - وأضيفوا ذلك العرف الرهيب ، عرف اباداة المدن ، الذى يبدو انه هوس مسعور فى أسرة من الأسر ، وأنه سوف يغير فى التاريخ بصورة قبيحة ، اسم تلك السلالة الملكية من « بوربون » الى « بومبا » (هتافات) • نعم ، شباب فى العشرين ، الذى يرتكب كل هذه الأعمال المشثوة • سادتي ، أعترف بأننى أشعر بشفقة سديدة كلما فكرت فى هذا الملك الصغير المتعس • بالظلمات ! هذا التعس بقتل ويعذب ، وهو فى السن الذى يحب فيها الانسان ، ويؤمن ، ويأمل • هاكم مايعمله القانون الالهى بنفس شقية • فالقانون الالهى يستبدل بكل الشوائل الكريمة فى الشبيبة والبداية ، أهوال الشبيخوخة والنهائية ، ويجعل العرف الدموى قييدا على الأمير والشعب ، ويكس على عاتق المرتقى الجديد للعرش تأثيرات الأسرة • ويالها من أشياء رهبة ! فلو نزعنم أجربيين (٢) من نيرون ، وسملختم كاترين دى.

(١) ثانى امراطور رومانى - بولى الحكم عام ١٤ ميلادية - كان كفئا وبارعا ولكنه فاس ، ويرتاب فى الناس - المترجم •

(٢) أم نيرون • كانت على درجة كبره من الدهاء والطموح ، ولا ضمير لها • تزوجت لثالث مرة الامراطور كلوديوس ، وجعلته ننسى ولدها ، ثم سمته ، وأقام مكانه على العرش ابنها نيرون • ولكن نيرون لم يحمل طوبلا سيطرتها وفوذها ، فقتلها بيد احد وادة الجيش - المترجم •

ميديسيس (١) (دى مدينى) من شارل التاسع ، لما كان هناك على الاربع شارل التاسع ، ولا نرون . وفى نفس اللحظة التى يقبض فيها وريث القانون الالهى على صولجان الملك ، يرى مصاصى الدماء أجوسا ومايسكالكو مقبلين عليه . والتاريخ يعرف هدين الشخصين اللذين يطلق عليهما أيضا اسمى نارسيس وباللاس ، أو فيلروا وباسيليه . ويسولى هذان الشبحان على الطفل المسكين المنوج . ويؤكد له « التعذيب » أنه مو الحكومة ، وتعلن له « عموبة الضرب بالعصا » أنها السلطة ، وتقول له الشرطة : اننى آتية من عل . ويظهره على الجهة التى خرج منها . ويذكرونه بأبى جده فيرديناند الاول الذى قام : العالم يحكمه ثلاثة بدأ أسمائهم بحرف ف : فيستا ، وفارينا ، وفوركا (٢) ، وبجده فراسوا الاول ، رجل الكائن ووالده فيرديناند الثانى ، رجل المدافع الرساسه . فهل يريد أن ينكر آباءه ؟ ويبتون له أنه يجب أن يكون سرسا بحكم الوفاء البنوى ، فيطيع ؟ ويذهله ما فى السلطة المطلقة من حمول وعطلة . فهناك على هذه الصورة أطفال بشعون . وعلى هذا النحو ، وبصورة حمبة مع الأسف ، يواصل الملوك الشبان ضروب الاستبداد القديمة (حركة استنكار متصلة) .

لا بد من تخليص هذا الشعب ، بل أكاد أقول انه لابد من تخليص هذا الملك . لقد تكفل جاريبالدى بذلك (هنافات استحسان) .

جاريبالدى . من هو جاريبالدى هذا ؟ انه رجل ، لا أكثر من ذلك . ولكنه رجل بكل ما فى الكلمة من معان سامية . رجل الحرية ، رجل الانسانية ، « فير » (الرجل كامل الرجولة) كما يقول مواطنه فيرجيل .

معه جيش ؟ كلا حفنة من المتطوعين . ألدیه ذخيرة حربية ؟ كلا بالمره . بارود ؟ بضعة براميل . مدافع ؟ نعم ، مدافع الأعداء . ما هى قوته اذن ؟ ما الذى يجعله ينتصر ؟ ما الذى معه ؟ روح الشعب . انه يمشى ، ويجرى . مسيرة سحابة من لهب . والنفر القليل من رجاله يصعقون الكتائب . فى أسلحته الضعيفة سحر ، ورصاص غدارته يصمد أمام كرات المدافع . الثورة معه . ومن حين لآخر ، فى هرج المعركة

(١) ولدت فى فلورسا (١٥١٩ - ١٥٨٩) روجه هرى الثانى ، والده فراسوا الثانى وشارل التاسع وهنرى الثالث ، سياسية فديرة وانما قاسية . حاولت أن تحكم مع اقامة التوازن بين البروتستانت والكاثوليك خلال الحروب الدينية . كان لها المصب الاكر فى مذبة سانت بارتليمى - المترجم .

(٢) العدد ، والدقيق ، والمدراه (المستقة) - المترجم .

والدحان والبرق ، يظهر حلمه الالهه ، وكأنه أحد أبطال هوميروس
(هناك) .

ومهما كانت ضراوة المقاومة ، فان هذه الحرب مدهشة ببساطتها .
انها هجوم رجل واحد على مملكة ، وافراد جماعته يتوثبون حوله . النساء
ينقين اليه بالزهور ، والرجال يقاثلون وهم ينشدون ، وجيش الملك يفر .
كل هذه المقاومة عمل بطولى حساس . انها عمل ساطع ، خلاب ورائع .
مل هجوم النحل .

عجبوا لهذه الخطوات اللائاة . واني لأنبأ بأنه ما من خطوة منها
تجيب في آجال المستقبل المحيوة . هناك باليرمو بعد مارسالا ، ومبسينا
بعد باليرمو ، وديبولى بعد ميسينا ، وروما بعد نابولى ، وفيبسينا بعد
روما . وكل سىء بعد فينيسيا (بصيفى حماسى) .

سادنى ، الله هو هنير الزلزال الذى يرج صقليه السى تشهد اليوم
فوقها سعة الوطنية والايمان والحرية والشرف والبطولة . وهى تنهيج
وبوره يحجب سناها بريق (بركان) اطنا .

نعم ، هذا لابد أن يكون ، وانه لشيء رائع أن تصدر هذه العبرة الى
العالم من أرض الفورانات البركانية (هتافات استحسان) .

آه ، ما أجمله من شعب عندما تحين الساعة ! وما أبدع هذا اللفظ .
وهذه السورة ، وهذا الاغضاء عن المصالح الدنيئة والجواب المنحطه في
نفس الانسان ، وهؤلاء النسوة اللواتى يدفعن أزواجهن ويقاثلن بأنفسهن
وهؤلاء الأمهات اللواتى يصحن في أولادهن قائلات : اذهبوا ! وتلك
الفرحة ، فرحة الاندفاع طلبا للسلاح ، والتنفس والوجود . وهذه
الصيحة الصادرة من الجميع ، وهذا الضوء الفسيح عند الأفق ! لم يعد
أحد يفكر في الاثراء ، أو الذهب . أو البطون ، أو المنع . أو البلاده
التي تسود حفلات القصف والخلاعة . الناس خجلون . ومتشامخون .
يرفعون الهمامات . وهذا المحصا المترفع على الرؤوس يستفز الطغاة .
صفوف الهمجة تتلاشى ، وضروب الطغيان تتهاوى ، والضماير ترفض
ألوان العبودية . وأصحاب البارثينون (البونابون) يزعمون أصحاب
الهلل (الأتراك) . وتنصب المنبرقا (١) جادة في ضوء الشمس وحربتها
في يدها . وتنفتح القبور ، وينادى الناس بعضهم على بعض ، من قبر الى
قبر . ابعثوا الموتى ، انه لشيء أقوى من الحياة ، انه التاليه . آه ! انها

(١) ابنة حوبيتر (سيد الارباب في أساطير اليونان) ، الهة الحكمة والعنون - المترجم .

لخفقته قلب الهية • وينعزى الأبطال القدامى المغلوبون على أمرهم ، وتمتلىء
عيون الفلاسفة المنفعين بالدموع عندما يغضب من انحط قدره ، وينهض
من سقط . وتظهر الأمجاد الرائلة ، يظهر من جديد رائعة مرعبة . وعندما
تعود استنابول فتصبح بيزنطة . وتعود سبيتينلاه فتصبح أثينا ، ونعود
روما فتصبح روما ! (هتافات مضاعفة) •

ونحن جميعا ، أيا كما • نصفق بأيدينا لاطاليا • فلنمجد تلك
الأرض ذات الانباجات العظيمة ، الأم الحلوب • فى مثل هذه الأمم تبدو
بعض العفائد المجردة مرئية واقعة • أنها أمم عذراء من حيث الشرف ،
وأمهات من حيث التقدم •

أنتم يا من سستمعون الى ، هل ننصرون هذا المنظر الرائع ، منظر
اطاليا الحرة ؟ حرة ! حرة من خليج تارنت الى بحيرات سان مارك ، فأنا
أؤكد لك يا مانين (١) فى قبرك ، أن فينيسيا سوف تشارك فى هذا
الاحتفال ! قولوا ، هل تتصورون هذا المنظر الذى سوف يكون فى الغد
حقيفة واقعة ؟ انتهى • لقد تلاشى كل ما كان كذبا ووهما ورمادا ولبلا •
اطاليا كائنه • ايطاليا هى ايطاليا • وحيثما وجد مصطلح جغرافى وحدت
أمة • وحيثما وجدت حنة وحدت روح • وحيثما وجد طبف • يوجد ملاك
هلاك الشعوب الهائل ، الحرية واقفا مبسوط الجناحين • لقد استبقت
اطاليا ، المنة العظيمة • انظروا اليها ، انها تنهض وتبتسم للجنس
البشرى ، وتقول للميونان : انا ابنتك • وتقول لفرنسا : أنا أمك • ويلتف
حولها شعراؤها وخطبائها وفنانوها وفلاسفتها ، وكل هؤلاء الناصحين
الهادين للبشرية ، وكل آباء المعرفة العالمية ، وكل أعضاء السيناتو عبر
القرون • والى يمينها والى يسارها ذانكم الرجلان العظيمان الرهيبان :
دانتي وميكبلانج • آه ، ما دامت السياسة تحب هذه الكلمات ، فإن فى
ذلك أجل المنجزات • ياله من نصر ! ياله من فعل ! ما أفخم تلك الظاهرة ،
ظاهرة الوحدة التى تجتاز فى ومضة واحدة تلك المجموعة الرائعة من
المدن الشقيقة : ميلانو وتورينو وجنوا وفلورنسا وبولونيا وبزا وسيننا
وفيرونا وبارما وبالبرمو وميسينا ونابولي وفينيسيا وروما ! وتهب ايطاليا
واقفة وتسير قدما - Patuit dea « انتشرت الآلهة » وتسبط ، وتنقل
الى التقدم العالمى كله الحمى العظيمة البهيجة التى تتميز بها عبقريتها •
وسوف تتكهرب أوروبا بهذا البريق العجيب • ولن تكون النشوة فى أعين
الشعوب ، والضياء الساطع على الجباه ، والفرح • والانبهار بسبب هذا

(١) مانين (دابيل) - (١٨٠٤ - ١٨٥٧) - وطنى ايطالى ، ولد فى البندقية ،
وصار رئيسا لجمهوريةها ، فى عام ١٨٤٨ ، من ألد أعداء السيطرة النسبوية - المترجم •

النور الجديد على الأرض بأقل سدة مما لو ظهر نجم جديد في السماء .
(مرحى مرحى !) *

سادتى ، اذا أردنا أن نحيط علما بما يجرى اعداده ، وبما يجرى
فى الوقت نفسه ، كان علينا الا ننسى أبدا أن جاريبالدى رجل اليوم ،
ورجل الغد ، هو أيضا رجل الأمس ، فقد كان جندى الجمهورية الرومانية
قبل أن يكون جندى الوحدة الايطالية . وفى أعيننا وأعين كل من يدرك
التعرجات الضرورية التى يتخذها التقدم وهو ماض صوب هدفه ، وبدرك
بقلبات الفكرة التى تتطور حتى نعود الى الظهور ، نجد أن عام ١٨٦٠ هو
استمرار لعام ١٨٤٩ (ضجة) *

ما أعظم محررى الشعوب ، فلينبعهم فى انصاراتهم هتاف الشعوب
لهم اقرارا بفضيلهم ! بالأمس كانت الدموع ، واليوم نسيب المجد لله . والله
قادر على عادة نوازن الأمور على هذا النحو . انهار « جون براون » فى
أمريكا ، ولكن جاريبالدى ينتصر فى أوروبا . والانسانبة التى أسست
أمام مشنقة شارلستانون المخزية ، تقرأ عينا أمام سيف كاتا لافيمى البراق
(مرحى !) *

اخوانى فى الانسانية ، هذى ساعة الفرح والعناق ، فلندع جانبا
كل الفروق الطفيفة الشاذة ، والخلافات السياسية ، وهى هينة فى هذه
اللحظة . ولنثبت انظارنا فقط فى هذه الدقيقة القدسية التى نمر بها ،
على هذا العمل المقدس ، الهدف المهيى ، وهذا الشفق الفسيح الذى يغطى
الأمم المتحررة ، ولمتزج أرواحنا كلها فى تلك الصيحة الهائلة الجديرة
بالجنس البشرى وبالسما : لتحنى الحرية ! نعم ، ما دامت أمريكا مع
الأسف تحافظ على العبودية بصورة مفجعة ، وتميل ناحية الظلام . فعلى
أوروبا أن تضى أنوارها نعم ، انا نهيب بحضارة القارة القديمة التى الغت
الخرافة بفضل فولتير ، والرق بفضل فيلبرفورس ، وآلة التعذيب بفضل
بيكاريا ، تلك الحضارة الكبرى ، نهيب بها أن تظهر من جديد فى اشعاعها
الذى لن ينطفىء بعد الآن ، وأن ترفع فوق الناس الشعلات الثلاث ،
فرنسا وانجلترا وايطاليا (هتافات) *

سادتى ، كلمة أخرى . لن نترك صقلية هذه قبل أن نلقى عليها
نظرة أخيرة . ونختم الحديث .

ما هى النتيجة الاجمالية لهذه الأعمال البطولية الباهرة ؟ ماذا يخلص
من كل هذا ؟ قانون أخلاقى ، قانون مهيب . واليكم هذا القانون .

آه ، فلتنقر أعين المعذبين ، وليطمئن المقيدون بالأغلال . وكل ما يجرى فى هذه اللحظة أمر منطقي . نعم ، الأمل فى كل أرجاء العالم ! فليأمل رقيق الأرض فى روسيا (الموجيك) ، والفلاح ، والعامل الكادح ، والمنبؤ ، والزنجى المبيع ، والابيض المضطهد ، ليأمل الجمع . السلاسل شبكة ، متماسكة . اذا انكسرت سلسلة منها ، انفكت الشبكة . ومن ثم كان تضامن الطغيان . فالباأخ للسلطان بأكثر مما يظن . وأكرر العول بأن الأمر قد انتهى . آه ، ما أجمل القوة فى الأشياء ، فى الخلاص قوة بموق فوه البشر . والحرية هوه الهية تجذب اليها الأنبياء ، والقوة التى لا تقاوم تكمن فى أساس النورات . والتقدم ليس الا ظاهرة من ظواهر الجاذبية ، فمن ذا الذى يستطيع عرقلته ؟ بمجرد أن تندفع عجلة التقدم ، يبدأ عمل القوة التى لا تقهر . يأيها الطغاة ، اتحدواكم أن توقفوا الحجر الذى يهوى من عال ، أو السبل الجارف ، أو الانهيار الثلجى ، اتحدواكم أن توقفوا ايطاليا ، أو ثورة ١٧٨٩ ، أو الدنيا التى عمرها الله بالنور (تصفيق حماسى) .

تنبأ فيكتور هوجو ، فى شأن جون براون بالحرب الاهلية الأمريكية ، وتنبأ فى شأن جاريبالدى بالوحدة الايطالية ، ونحقت هاتان النبوءتان .

وبعد الاجتماع أقيمت وليمة اختتمت بتناول نخب فيكتور هو جو ، فأجاب فيكتور هو جو قائلا :

سادتى ،

ما دمت واقفا ، فاسمحوا لى ألا أجلس . اننى أشعر بحاجة الى أن اشكر فى الحال الرجل الملهم الطيب القلب الذى سمعناه منذ هنيهة . ولن أقول سوى كلمات قليلة ، فالأحاسيس العميقة توجز الكلام بطبيعتها ، والقلوب المتأثرة فصيحة بانفعالها وحده . حسن . اننى شديد التأثر .

وأفضل وسيلة لشكركم أن أقول لكم اننى احب جيرسى . قلت ذلك لكم بالأمس ، وسمعتموه فى الاجتماع . وقرأتموه فى الصحف ، وأكرره اليوم . ولكنى أتحدث الى قلب شعب ، وفى أذنه . والأمم كالنساء لا تمل من سماع عبارة : أحبك . لقد غادرت جيرسى وأنا آسف ، وهانذا أعود اليها وأنا سعيد . وثمة شئ عجيب وبديع يميز محررى الشعوب : ذلك أنهم يذهبون فى تحريرهم أحيانا الى مدى أبعد مما كانوا يأملون . لقد ضرب جاريبالدى ضربتين بحجر واحد دون أن يدري ، فأخرج آل بوربون من صقلية ، وأعادنى الى جيرسى .

ان هتافاتكم ومقاطعاتكم الودية لحدينى لتؤثر فى نفسى فى هذه اللحظة لدرجة أننى لا أجد الكلمات التى يجب أن أقولها لكم . ولا أعرف كيف أجيب على مثل هذا الترحيب الشامل الباسم بصورة رائعة من كل النواحي ، وعلى مثل هذا القدر الكبير من الهنافات ومظاهر العطف والمودة . وأكاد أقول لكم : رفقا بى ، أنتم جميعا ضد انسان واحد . هناك وحش خرافى يتراءى لى فى هذه اللحظة عظيم الموهبة ، وانى لأحسد هذا الوحش الذى يسمى برياريه^(١) ، ولكم أتمنى أن يكون لى مثله مائة ذراع لأصافحكم مائة مرة .

سأقول لكم ما أحبه فى جيرسيى . اننى أحب كل ما فيها . احب هذا المناخ المعتدل فى الصيف والشتاء ، وهذه الأزهار التى تتجلى دائما كأنها فى فصل الربيع ، وهذه الأشجار النورمانديه . والصخور البريمنية ، والسماء التى تذكرنى بفرنسا ، والبحر الذى يذكرنى بباريس . أحب هذا الشعب الذى يعمل ويكافح ، وكل اولئك الناس الطيبين الذين نقابلهم فى كل لحظة فى سوارعكم وحقولكم ، والذين تتشكل سيماهم من الحرية الانجليزية ، والرقعة الفرنسية التى هى أيضا حرية .

عندما وصلت ها هنا منذ سمانية أعوام ، بعد خروجى من أعجب الصراعات السياسية فى هذا القرن ، وأنا الغريق الذى كنت أنشد أنضج من كارثة ديسمبر ، ومرتبعا من تلك العاصفة ، أسعت الرأس من تلك الزوبعة ، هل تعلمون ماذا وجدت فى جيرسيى ؟ وجدت نسبنا قدسيا ساميا ، غير متوقع ، وجدت السلام . نعم لقد تم اقتراح اكبر جريمه سياسية فى العصر الحديد : ذلك الاعتداء الشنيع ، خلق الحرية فى بلد النور ، فى قلب فرنسا مع الأسف ! لقد ناضلت ذلك الاستعباد استعباد رجل واحد لشعب واحد . واضطربت فى نفسى كل تلك المعركة المرتجة ، من أعلى رأسى الى أخمص قدمى . وكنت ساخطا ، مذهولا . لاهنا . ولكن جيرسيى هدأت نفسى . وأعيد القول اننى وجدت السلام والراحة ، وهدهوءا عميقا فى هذه الطبيعة الرقيقة فى ريفكم ، فى هذه الدعة اللطيفة التى يتصف بها مزارعوكم ، فى تلك الوديان والأماكن المنقطعة ، وتلك الليالى التى تبدو فوق البحر وكأنها أغزر نجوما . وذلك المحيط المضطرب أبد الآباد ، الذى يبدو وكأنه ينبض تبضا مباشرا

(١) برياريه : مارد اسطورى ، ابن السماء والأرض ، له خمسون رأسا ومائة ذراع .

أغمره نسيم فى البحر ، وقيدته جوينر بالأعلال بحب الاطسا ، عقابا له على سرده ، وبطلق الاسم اغويا ومحازيا على كل انسان أو جماعة تذلل جهودا مضاعفة . المترجم

نحت السمة الربانية • وهكذا فمع شببي بالغضبة المقدسة ضد الجريمه ، أحسست بالفصاء الشاسع يمزج بهذا الغضب رحابته الصافية الهادئة ، ومن ثم سكن ما كان يهدر في نفسى • نعم ، أسكر جبرسى ، وأسكركم • لقد أحسست بطيبه الانسان تحب سعوف دياركم ، وفي مدنكم ، وأحسست بالطيبة الالهية في حقولكم وفوف بحوركم • آه • لن أنسى ما حبيت تلك السكينة الجليلة التى انزلتها الطبيعة على نفسى في أيام النفى الأولى • ونستطيع ان نقول اليوم ، ولن تمنعنا كرامتنا من هذا الاعتراف • ولن يكذبى فيه اى واحد من زملائى في المنفى ، نقول اننا تألمنا جميعا عندما عادرنا جبرسى • ان لنا كلها فيها جذورا عائرة ، فثمة عروق من قلوبنا قد نفذت في تربتك وانغرزت فيها • وكان انتزاعنا منها مؤلما لنا • وأحببنا جميعا جبرسى • أحبها البعض منا لانه كان سعيدا بها ، وأحبها البعض الآخر لأنه كان تعسا بها • فالعذاب رباط لا يقل قوة وعمقا عن البهجة • والانسان قد يتسعر مع الأسف بمثل هذه الآلام في الأرض التى يلجأ اليها ، حتى لبصبح من المستحيل عليه أن ينفصل عنها ، حتى لو تيسر له العودة الى الوطن • واليكم شيئا رأيته بالأمس ، وطراً على ذهنى في هذه اللحظة • ان هذا الاجماع مهيب واليف في وقت واحد ، وما سوف اقله لكم يلائم هذه الطبيعة المزدوجة • وبالأمس ذهبت مع بعض الأصدقاء الأعزاء لزيارة هذه الجزيرة ، والعودة الى رؤية الأماكن التى بحبها ، والمتنزهات التى كنا نفضلها فيما مضى ، والمناظر الطبيعية التى بقيت في ذاكرتنا وكأنها خيالات مرئية • وعند عودتنا ، بقيت فكرة كان لابد لنا أن نحققها ، فقد أردنا أن نختم زيارتنا بها هو الختام : بالجبانة •

وأوقفا العربية التى كانت نلنا أمام حقل سان جان الذى يضم الكثير من أهلنا أتعرفون الشيء الذى أثار الرعدة في أوصالنا لحظة وصولنا ؟ أتعرفون ما ريناه ؟ كانت هناك امرأة ، أو بالأحرى شبكلا آدميا في ملءة سوداء ممددة على الأرض أكثر منها راكعة أو ساجدة ، بل ومتهالوية بصورة ما على قبر من العبور • وبقينا جامدين صامتين وأصابنا على أفواهنا أمام هذا الألم المهيّب • وبعد أن صلت المرأة ، نهضت وقطفت وردة من أعشاب المقبرة وأخفنها في قلبها • عند هذا عرفناها • عرفنا هذا الوجه الشاحب وهاتين العينين اللتين لا ينفع فيهما أى عزاء ، وتلك الشعور البهيس • انها أم ، أم أحد المنفيين ، أم فيليب فور ، الشاب الكريم الذى مات منذ أربع سنوات • هذه الأم تأتى كل يوم الى هذا المكان ، مهما كانت حالة الجو • منذ أربع سنوات وهذه الأم تركع على هذا الحجر وتقبله • حاولوا اذن أن تنتزعوها منه • أشيروا لها الى فرنسا ، نعم فرنسا ذاتها ! لا أهمية لذلك عند هذه الأم • قولوا لها : « ليس هنا

بملك ، هل يصدقكم • قولوا لها « لم تولدى هنا » ، وسوف نرد عليكم
مائلة : « هيا مات والدى » • وسوف نسكنون أمام هذه الاحابة ، لأن وطن
الام هو قبر طفايا •

وهكذا أيها السادة ، قد يحب الانسان أرضا ما ، يحبها بلحمه
ودمه وروحه • ان ارواحنا قد امتزجت بهذه الأرض ، ففيها أصدقاؤنا
الذين ماتوا • واعلموا أنه لبس هناك أرض أجنبية ، فالأرض في كل
مكان هي ام الانسان ، أمه الحنون • الصلبة العميقة • دار الانسان هي
كل مكان أحب فيه أو بكى ، أو قاسى ، انها كل هذه الأماكن •

سادتى ، انى أجيب على النخب الذى قدم الى بنخب لجيرسى ،
وانسرب من أجل جبرى ورخانها ، وراثها ، وصلاحتها ، وتوسعها الصناعى
والمجارى ، وأكثر من ذلك من أجل سمائها النقاوى والمعنوى •

هناك سبنان يجعلان الشعوب عظيمة رائعه ، هذان التينيان هما
الحرية وكرم الضيافة • وكان كرم الضيافة فخار الأمم القديمة ، أما
الحرية فانها فخار الامم الحديثة • وجبرى تملك هذين التاجين ،
ما يحفظ بهما •

لتحفظ بهما الى الأبد ! ويجمل بنا أن نتحدث بدءاً ذى بدء عن
الحرية • عليكم أن يحرسوا بغيره على حريتهم • لا تسمحوا لأى كائن
من كان أن يجرد على المساس بها • هذه الجزيرة هي أرض الجمال
والسعادة والاستقلال • ولستم فيها لتعيشوا وتستمتعوا فحسب ،
وانما أنتم فيها لكى تؤدوا واجبكم • وسوف يتكفل الله بالحفاظ عليها
جميلة ، ويتكفل نساؤكم بالحفاظ عليها سعيدة • أما أنتم أيها الرجال
فعليناكم أن تحافظوا عليها حرة •

أما كرم ضيافتكم ، فحافظوا عليها هي الأخرى بنفس ورعة •
وسبب الامم الكريمة المضيافة عن سائر الأمم بلون من البهاء الجليل
المفر ، وهي قدوة حسنة لغيرها من الامم • ولا تكتفى هذه الأمم ، فى
حركة الشعوب الشاسعة الصاخبة باكرام الضيوف ، وانما تباشر التربة
فوق ذلك • وكرم الضيافة بين الأمم بداية للأخاء بين الناس • والأخاء بين
الناس هو فى ذاته هدف • كونوا أبدا كراما لضيوفكم ، ولتكن هذه
الشيخة المقدسة ، كرم الضيافة ، شرفا دائما لهذه الجزيرة • واسمحوا لى
بان أقرن بها فى هذا الصدد شبققتها جيرنسى ، وأرخبيل المانش كله •
تلك الأرض ملجأ عظيم ، لا من حيث اتساعها ، وانما من حيث عدد
اللاجئين من جميع الأحزاب والأوطان اللذين آوتهم واستهم منذ قرون

ثلاثة • آه ، ليس ثمه شئ فى العالم ابدع من الملجأ ! كونوا ملجأ •
استمروا فى الاحتفاء بكل من يأتى اليكم • كونوا الأرحبيل المبارك
المنقذ • لقد جعلكم الله هاهنا لتفتحوا لغوركم لكل السفن التى تقذفها
العاصفة ، وقلوبكم لكل الرجال الذين يصيبهم ضربة القدر •

وليس هناك حدود لهذه الضيافة القدسية • لاتجادلوا من ياتيكم ،
استقبلوه دون أن تختبروه • وكل من يتعذب فهو جدير بالضيافة ، وتلك
من سمات العظمة فى كرم الضيافة • ونحن الموجودين هنا ، كل المنفيين
من فرنسا ، لم نؤذ أحدا ، وقد دافعنا عن حقوق بلادنا وقوانينها ووفينا
بالتزامات الوكالة عن الشعب ، وانصتنا الى صوت ضميرنا ، ونحن نقاسى
من أجل ما هو عدل وما هو حق • لقد رحبتم بنا ، وهذا شئ طيب •
ولكن لابد أن تتوقعوا غيرنا من الغرقى • وإذا كان للأخيار مصائبهم ،
فللمذنبين مزالقهم المهلكة • ولبس ارتكاب الانسان شرا سببا فى أن
ينتصر على الدوام • اسمعوا هذا : اذا أتاكم فى أى وقت نفر من المهزومين
فى قضايا جائرة ، فعليكم أن ترحبوا بهم كما ترحبون بنا • والتعس
هو أحد أشكال الحق القدسية • واستمعوا الى هذا جيدا : اننى لا استثنى
أحدا من هؤلاء المهزومين المحتمل قدومهم • وقد يحدث ذات يوم -
فالأحداث فى يد الله ، ويد الله لا تفرغ - قد يحدث أن يكون من بين
أولئك الذين تلقى بهم العواصف الشديدة أو نوبات مد البحر العالبة
على شواطئكم ، ذلك الذى نفانا نحن الموجودين هنا ، وقد طرد بدوره
وأصبح تعسا • عندئذ كونوا به رحماء كما كنتم معنا طيبين • فاذا دق
بابكم ، افتحوه وقلوا له : « أولئك الذين نفيتهم من قبل هم الذين طلبوا
الينا أن نرحب بكم فى هذا الملجأ » •

٢

نشرت صحيفة « البروجريه » فى « بورت أوبرانس » الخطاب
التالى الذى حرره فيكتور هوجو للسيد هيرتيلو رئيس تحرير هذه
الصحيفة ، ردا على عبارات الشكر التى وجهها اليه السيد هيرتيلو دفاعا
عن جون براون •

أوتفيل هاوس فى ٣١ مارس ١٨٦٠ ••

أنت يا سيدى أنموذج نبيل لهذا النوع البشرى الأسود الذى اضطهد
وأهمل أمدا طويلا • هناك شعلة واحدة فى نفس الانسان ، فى جميع
بقاع الأرض ، والسمود أمثالك برهان على هذه الحقيقة • هل كان هناك أكثر

من آدم واحد ؟ فى استطاعة أنصار المذهب الطبيعى أن يناقشوا هذه المسألة • ولكن النابت أنه لا يوجد غير اله واحد •

وطالما لا يوجد سوى أب واحد ، فنحن كلنا أخوة • ومن أجل هذه الحقيقة مات جون براون • وأنا أكافح من أجلها ، وأنتم تشكروننى على ذلك ، وليس فى مقدورى أن أعبر لكم عن مقدار نأثرى بكلماتكم البديعة •

لا يوجد على الأرض بيض وسود ، وإنما بها أرواح • وأنت روح من هذه الأرواح • والأرواح كلها أمام الله بيضاء •

انى أحب بلدكم ، وجنسكم ، وحرثكم ، وثوركم ، وجمهوريتكم • والنفوس الحرة ترتاح فى هذه الساعة الى جزيرتكم البديعة • لقد ضربت منذ قليل مثلاً عظيماً حين حطمت الاستبداد •

وسوف تساعدنا على تحطيم الرق ، فيختفى الاستعباد بجميع أشكاله • وليس ما قتلته ولايات الجنوب هو جون براون ، وإنما هى قتلت الرق •

ويمكن أن نعتبر الاتحاد الأمريكى منحلاً من الآن ، رغم ما تقوله عنه الرسالة المخزية التى أرسلها الرئيس بوكاتان ، وانى لأسف على ذلك أسفا عميقا ، ولكنه أمر أصبح منذ اليوم محتوما • هناك بين الشمال والجنوب مشنقة جون براون • ولم يعد التضامن ممكنا • ومثل هذه الجريمة لا يتحملها طرفان •

واصلوا التنديد بهذه الجريمة ، وواصلوا دعم ثورتكم الباسلة • تابعوا عملكم ، أنتم ومواطنوكم الأفاضل • ان هايتى (١) الآن نور ساطع وانه لشيء جميل أن نرى بين مشاعل التقدم التى تضىء طريق الناس ، بشعلا تحمله يد زنجى •

أخوك

فيكتور هوجو

(١) جزيرة من جزر الانسل الكبرى ، تقع شرقى كوبا ، تنقسم الى دولتين مستقلتين : جمهورية هايتى ، وجمهورية دومينيكا - المترجم •

حملة الصين ١٨٦١

الى كابتن بتلر

اوتفيل هاوس في ٢٥ نوفمبر ١٨٦١

سألتني يا سيدي رأيي في حملة الصين . انك نرى هذه الحملة بدبعة ومشرفة ، ومن طيب خلقك أنك تقدر شعوري في هذا الصدد بعض التقدير . ومن رأيك أن حملة الصين التي انتظمت تحت رايتي الملكة فيكتور والامبراطور نابليون مجده تنقاسمه فرنسا وانجلترا ، وتريد أن تعرف مدى تأييدي لهذا النصر الانجائيزي الفرنسي وما دمت تريد أن تعرف رأيي ، فالك رأيي :

كان في أحد أركان العالم ، أعجوبة من أعاجيب الدنيا . وكانت هذه الأعجوبة تسمى « قصر الصيف » .

للفن مبداءان : الفكرة التي تتيح الفن الأوروبي ، والخيال الذي يتيح الفن الشرقي . وقصر الصيف بالنسبة الى الفن الخيالي يماثل البارتينيون بالنسبة الى الفن المثالي .

وفي هذا القصر كل ما يمكن أن يولده خيال شعب متفوق من الناحية الانسانية . لم يكن ، كالبارتينيون عملا نادرا لا نظير له ، وانما كان شيئا من قبيل النموذج الهائل للخيال ، اذا أمكن أن يكون للخيال نموذج . تصور بناء لبس في الامكان وصفه ، شيئا تشبيهها بعمارة قمرية . هذا الشيء هو قصر الصيف . لو شيدت حلما بالرخام وحجر اليشم والبرونز والخزف ، وأقامت له هيكلا من خشب الأرز ، وغطيته بالأحجار الكريمة ، وكسوته بالحريز ، وجعلت له هنا محرابا ، وهناك جناحا للحريم ، وفي موضع آخر قلعة ، ووضعت فيه آلهة ووحوشا ، ثم صقلته وطلبته بالمينا والذهب ، وزينتته ، وعهدت الى بعض المهندسين الذين هم أيضا شعراء بأن يبنوا الألف حلم وحلم في الألف ليلة وأصفت الى ذلك حداثق وأحواضا ونافورات من الماء والزبد والبجع والطاووس ، قصارى القول لو افترضت شيئا كالكهف اللاء الذي شيدته

خيال الانسان فى صورة معبد وقصر ، لكن هذا البناء الأخرى • افتضى انشاؤه عملا طويلا اضطلع به جيلان من الناس • لقد سبقت القرون هذا البناء الذى يضارع مدينه فى ضخامته • ولكن لمن شيد ؟ للشعوب • ذلك لأن ما يصنعه الزمن يملكه الانسان • ويعرف الفنانون والشعراء والفلاسفة قصر الصيف • نحدث عنه فولير • وفديما قالوا : البارنينون فى اليونان ، والاهرامات فى مصر • والكوليزيه فى روما ، ونوتردام فى باريس ، وقصر الصبب فى الشرف • يراه الانسان فى الأحلام ، اذا لم يره بالعين • أنه نحة فنية ، من نوع مجهول ، يلمحه الانسان عن بعد فيما ينسبه الشفى • وكأنه صورة لحضارة آسيا على أفق حضارة أوروبا • لقد اختلفت هذه الأعجوبة •

فدات يوم دخل لسان فى قصر الصيف ، فنهبه أحدهما ، واشعل النانى الحريق فيه • وقد يبدو النصر لصا من اللصوص • لقد اشترك المنتصران فى تخريب قصر الصيف بخربا شاملا • ويختلط بكل هذا اسم « الجين » (١) الذى يذكرنا بالبارنينون بصورة هدامة • وما صنع فى البارنينون ، صنع منله فى قصر الصيف ، وانما بصورة أم وأبرع بحيث لم يترك به شئ • ولا يمكن أن تعادل كنوز كاتدرائياتنا مجتمعة هذا المتحف الهائل الفخم ، منحف الشرف • ولم يكن به نحة فنية رائعة فحسب ، وانما كان به أيضا أكدا من المصوغات • عمل رائع ، وغنيمة كبيرة • لقد ملأ أحد المنتصرين جيوبه ، ولما رآه المنتصر النانى وهو يفعل ذلك ملأ هو أيضا خزائنه • وعادا الى أوروبا يضحكان وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر • تلك هى قصة اللصين •

أننا نحن الأوروبيين المتمدنون ، أما الصينيون فهم فى نظرنا الهمجيون • وهذا هو ما فعلته المدنية بالهمجين •

وأمام التاريخ ، سوف يسمى أحد اللصين فرنسا ، والآخر انجلترا • ولكن أحتج ، واشكر لأنك اتحت لى هذه الفرصة • ان جرائم القادة لا تتم بخطأ الرعية • والحكومات أحيانا لصوص ؟ أما الشعوب فليست كذلك بالمرّة •

(١) الجين ستوماس بروس ، كونت ديلجين (١٧٦٦ - ١٨٤١) دبلوماسى وعالم آثار اسكتلندى انتزع من مبنى الأكرديول بأثينا مجموعة السائل والقطع الرحامة فى مبنى البارنينون ، وتعرف هذه المجموعة باسمه - المترجم •

لقد وضعت الأمبراطورية الفرنسية نصف هذا النصف في جيوبها،
وهي اليوم تعرض ، بلون من السداجة الشبيهة بسداجة المالك ، تعرض
نصف قصر الصيف القديمة الفاخرة • واني آمل أن تعيد فرنسا هذه
العنائم الى الصين المسلوبة ، حين يتم خلاص فرنسا وتطهيرها •

وحتى ذلك الحين ، أؤكد ان هناك سرفه ، وهناك لصين •

ذلك هو يا سيدى مدى تأييدى لحملة الصين •

فيكتور هوجو

المحكوم عليهم بالاعدام فى شارلوا

نسبت عنه صحف بلجيكية الى فيكتور هوجو أشعارا موجهة الى ملك
البلجيكيين يلتمس بها العفو عن تسعة من المحكوم عليهم بالاعدام فى
شارلوا ؛ ومن ثم حرر فيكتور هوجو فى هذا الصدد الخطاب التالى •
أوتفيل هاوس فى ٢١ يناير ١٨٦٢ •

سيلى

اننى أعيش فى وحدة • ويستغرقنى العمل بصفة خاصة منذ
شهرين ، وهو عمل عاجل ، لدرجة أننى لم أعد أعرف شيئا مما يجرى
فى الخارج •

واليوم آتانى أحد الأصدقاء بصحف تحوى أشعارا جميلة تتضمن
التماسا بالعفو عن تسعة من المحكوم عليهم بالاعدام • ورأيت توقيعى
بأسفل هذه الأشعار •

هذه الأشعار ليست أشعارى •

وأيا كان مؤلف هذه الأشعار فانى أشكره •

فعندما يتعلق الأمر بانقاذ رهوس آدمية ، أرى من الخير أن يستخدم
الناس اسمى ، بل ويسميئوا استخدامى •

وأضيف الى هذا أنه يبدو لى من المستحيل تقريبا أن يسئ أحد
استخدام اسمى فى مثل هذه القضية • ولا ريب أن الغاية هنا تبرر
الواسطة •

ومع ذلك فليسسمح لى المؤلف أن أهنته على هذه الأشعار التى أكرر
القول انها تبدو لى جميلة للغاية •

وأقرن بهذا الشكر الأول الذى أقدمه اليه شكرا ثانيا ، لأنه
أحاطنى علما بهذه القضية المجزنة ، قضية شارلوا • وأعتبر هذه

الاشعار نداء موجها الى ، واسلوبا لدعوى الى رفع صوته ، اذ يعرض على أنظارى الجهود التى بذلتها فى ظروف أخرى مماثلة ، وأشكره على هذا التكليف الكريم .

وانى استجيب لندائه ، وأنضم اليه لنحاول أن نجنب بلجيكا سقوط رءوس تسعة على منصة الاعدام . لقد خاطب هو الملك ، وأنا فليل المعرفة بالمدوك ، ومن ثم فانى أنوجه الى الأمة .

وقضية هينو (١) هذه ، بالنسبة الى بلجيكا ، والسفدم ، مناسبة من المناسبات التى تخرج فيها الشعوب اما صغيرة واما عظيمة .

انى أنوسل الى الأمة البلجيكية أن نكون عظمية . ومن البدهى أن فى مقدورها ان تمنح تشغيل هذه المقصلة البشعة ذات الأطواق التسعة فى الميدان العام . وليس بمه حكومة نساوم هذه الضغوط الفكرية القسرية فى سبيل الرحمة . ولا بد أن تنجح الإرادة الاولى لآى شعب الى الاستغناء عن آلة الاعدام . هناك من يقول : ارادة الشعب من ارادة الله . وفى مقدوركم أيها البلجيكيون أن تجعلوا المل يقول : ما يريد الله ، يريد الشعب .

انا نجناز فى هذه اللحظة اسوا فترة فى القرن التاسع عشر . فمئذ عشر سنوات ، والحضارة تتراجع نراجعا واضحا : فينيسيا مكبلت بالاغلال ، والمجر مضغوط عليها . وبولندا معذبة ، وعقوبة الاعدام فى كل مكان . للملكيات قادة عسكريون مثل هايناو (٢) ، وللجمهوريات أمثال تالافيرو . لقد رفعت عقوبة الاعدام الى مرتبة « الحجة الأخيرة » Vltine ratio الأجناس والألوان والأحزاب تواجه بعضها بعضا بهذه العقوبة ، وتستخدمها كما لو كانت ردا مقنعا ، ويستخدمها البيض ضد الزنوج ، ويستخدمها الزنوج كرد فعل مفجع ضد البيض .

الحكومة الاسبانية نعدم الجمهوريين بالرصاص ، والحكومة الايطالية نعدم الملكيين بالرصاص . وروما نعدم رجلا بريئا . ويظهر القاتل الحقيقى ويعلن عن اسمه ويعترض على التنفيذ بلا جدوى ، فقد سبق السيف النذل ، فالجلاد لا يرجع فى عمل أداه ، وأوروبا تؤمن بعقوبة الاعدام وتتمسك بها . وأمريكا تتقاتل بسببها ومن أجلها . آلة الاعدام صديفة

(١) مناطعه فى بلجيكا - المترجم .

(٢) جواو-س حاكوب دوماساو (١٧٨٦ - ١٨٥٣) - فيلد مارشال نساوى - أحمد

نفسوه الثورة المحررة - المترجم .

الرق ، والمستنعة تلفي ظلالها على حرب الإبادة بين الاخوة في الولايات المتحدة .

ولم يحدث ابدا ان كان بين أمريكا وأوروبا من هذا السوازي ، ولم نتفاهما من قبل يمثل هذه الدرجة . انهما مختلفتان في كل شيء ، فيما عدا هذه المسألة ، مسألة القتل . وهكذا ينفي العالمان في موضوع عقوبة الاعدام . فعقوبة الاعدام بسود الدنيا . ونمة ضرب من القانون الالهي . قانون البلطة . يصدر عن الانجيل للكاتوليك الرومان ، وعن التوراة لأهالي فيرجينيا البروستانت . وقد سيده « بين » Penn بالفكرة (١) فوس نصر منالي كفنطره نربط العالمين . ولابد أن نوضع اليوم منصة الاعدام على هذا القوس .

- وعلى هذا الاعتبار . فإن أمام بلجيكا فرصة رائعة .
- لابد لتسعب يملك الحرية أن يملك أيضا الإرادة .

المنبر الحر . والصحافة الحرة ينسكلان ببيان الرأي الكامل . ليتحدث الرأي ، فالمحظة حاسمة . وفي الظروف التي نمر بها ، تستطيع بلجيكا ، وهي التسعب الصغير الذي لا يكاد يكون له وجود . تستطيع إذا ارادت ، بالغائها عقوبة الاعدام ، أن تصبح زعيمة الأمم .

وأؤكد القول ان هذه فرصة رائعة . فمن الواضح أنه اذا لم تكن هناك آلة لاعدام مجرمي « هينو » ، فلن تكون نمة آلة اعدام لأى انسان كان ، وأن المصلحة لن تنبت في أرض بلجيكا الحرة ؛ ولن نكون ميادينكم العامة بعد ذلك عرضة لظهور هذا الشبح المشؤم . ويقضى منطق الأشياء الحاسم بأن عقوبة الاعدام الملغاة عندكم اليوم الغاء فعليا ، سوف تكون ملغاة في الغد قانونيا .

وانه لشيء رائع أن يعطى التسعب الصغير درسا للتسعب الكبيرة ، فيكون من أجل هذا وحده أعظم منها . وانه لشيء رائع ، أما تكافؤ الضامات بصورة كريهة ، وفي وجود الهمجية العلية المنتكسة ، أن نضطلع بلجيكا بدور الدولة الكبيرة في مجال الحضارة . ونبهر الجنس البشري فجأة بالنور الحقيقي ، وذلك بأن تعلن في الظروف التي يتفجر فيها جلال المبدأ على أحسن الوجوه ، لا بمناسبة خلاف ثوري أو ديني ، ولا بمناسبة وجود عدو سياسى ، وانما بمناسبة وجود تسعة من المساكين

(١) ولهم بن - عضو في جماعة اللوبكر الاخليز - ومى جماعة تعمل على التعريب بن الشعوب والعناصر والدبابات (١٦٤٤ - ١٧١٨) - الترجم .

غير الجديرين بأية رحمة خلاف رحمة الفلاسفة ، تعلن في هذه الظروف
حصانة الحياة البشرية ، ونرد نهائيا الى دياجير الليل تلك العقوبة
البشعة ، عقوبة الاعدام التي تفخر بأنها أقامت على وجه الأرض صليبين ،
صليب يسوع المسيح في العالم القديم ، وصليب جون براون في العالم
الجديد .

على بلجيكا الكريمة أن تتأمل في ذلك . انها هي الخسارة بسبب
آلة الاعدام في شارلروا ، وعندما تضع الفلسفة والتاريخ حضارة من
الحضارات على كفتي ميزان ، فان الرؤوس المقطوعة تنقل الكفة المضادة
لهذه الحضارة .

اننى أؤدى واجبا بنحري هذا الخطاب ، فكن ياسيدى عوننا لى ،
وأعزنى دعايتك من أجل هذه المصلحة الجلية المؤلة .

فيكتور هوجو

نشر هذا الخطاب في الصحف الانجليزية والبلجيكية ، وتأجل تنفيذ
الحكم ، وأُنقذت سبعة رؤوس من التسعة .

أرمغان باربيس

فى عام ١٨٣٩ حكم على باربيس بالاعدام • وأرسل فيكتور هوجو
الى الملك لوى فيليب الأشعار الأربعة المعروفة ، وأنقذ حياة باربيس •
والخطابان التاليان يتصلان بهذا الموضوع •

الى فيكتور هوجو

أيها المواطن العزيز المجيد :

لابد أنك تتصور أن المحكوم عليه بالاعدام الذى تحدثت عنه فى
العدد السابع من كتاب « البؤساء » انسان مجرور • لقد انقضت ثلاثة
وعشرون عاما وهو مدين لك بهذا المعروف ! ومع ذلك فلم يقل لك
شيئا •

سامحه ! سامحنى !

لقد آليت على نفسى مرارا وأنا فى سجنى قبل شهر فبراير ، أن
أسرع الى لقاءك اذا أعيدت الى حريى • ولكنها كانت أحلام الشباب !
وأتى ذلك اليوم القيت فيه بنفسى ، كقشة مهشمة فى دوامة عام
١٨٤٨ • ولم استطع أن أعمل شيئا مما كنت أستهى عمله بحرارة •
ومن ذاك الحين - وأرجو المعذرة أيها المواطن العزيز فى هذه الكلمة التى
سأقولها - كان جلال موهبتك يقف على الدوام حائلا دون ابداء فكرى •

كنت فخورا فى ساعة الخطر أن أرى نفسى محميا بشعاع من
شعلتك ، ولم يكن بوسعى أن أموت طالما كنت تدافع عني • ولم يكن

فى مقدورى أن أنبت أنتى جدير بذراعك التى امتدت فوقى • ولكن لكل انسان قدره المكتوب ؛ ولم يكن كل الذين أنقذهم أخيل أبطالا •

وقد أصبحت الآن شيخا • ومنذ سنة وأنا فى حالة صحية سيئة • وكثيرا ما اعتقدت بأن قلبى أو رأسى سينفجر • ولكنى أهنيء نفسى لسلامتى رغم آلامى ، اذ وجدت فى نفسى الجرأة ، يتأثير « معروفك » (١) الجديد ، لأن أشكرك على معروفك القديم •

ومادمت قد نحدثت ، فشكرا وألف شكر من أجل قضيتنا المقدسة ومن أجل فرنسا • للكتاب الذى ألفته منذ قليل •

أقول : فرنسا ، لأنه يبدو لى أن هذا الوطن العزيز ، وطن جان دارك ووطن النورة ، هو وحده القادر على أن ينجب قلبك وعبقريتك • لقد وضعت ، أنت الابن السعيد البار ، على جبين أمك الوضاح اكليل جديد من أكاليل المجده !

مع خالص المودة •
١٠ باريس

لاهاى فى ١٠ يولية ١٨٦٢ •

الى ارمان باريس

اوتفيل هاوس فى ١٥ يولية ١٨٦٢ •

أخى فى النفى :

رجل مثلك ، كان جندى التقدم وشهيد ، ضحى فى سبيل القضية المقدسة ، قضية الديمقراطية والانسانية بنروته وشبابه وحقه فى السعادة وحرية ، وارتضى من أجل خدمة المثل الأعلى كل أشكال الصراع ، وكل ألوان المحن ، والافتراء والاضطهاد والاقصاء ، وسنوات السجن الطويلة ، وسنوات النفى الطويلة ، وأسلم قياده للغير بسبب اخلاصه ، حتى انتهت به المسيرة تحت سكين المقصلة ؛ عندما يكون رجل مثلك قد فعل كل هذا ، فان الناس كلهم يكونون مدينين له ، أما هو فلا يدين

(١) انظر « البؤساء » الكتاب الاول (العدد الرابع من طبعتنا) وفيه خط بحث كلمة « معروف » الواردة فى خطاب باريس •

لأى مخلوق بأى شيء • ومن وهب كل ما يملك للنوع الانساني ، أصبح
بريء الذمة حبال الجميع •

من المستحيل عليك أن تكون جاحدا لأى انسان • وأرى اليوم
بوضوح أننى لو لم أفعل منذ ثلاث وعشرين سنة ما تتفضل بشكرى
عليه ، لكنت أنا الجاحد لك •

وانى لأشعر بأن كل ما فعلته للشعب انما هو خدمة قدمتها
لشخصى •

لقد أديت واجبا لا مفر منه ، فى الوقت الذى بذكرنى به • وإذا
كان الحظ قد أسعدنى فى ذلك الحين بأن أسدد لك قليلا من الدين العام ،
فان تلك اللحظة لا تعد شيئا بالنسبة الى حياتك كلها ، ومازلنا نحن
جميعا مدينين •

ومنوبتى ، اذا سلمنا بأنى استحق أية مشوبة ، كانت فى عملى
نفسه • ومع ذلك فانى أقبل بحنو العبارات النبيلة التى أرسلتها الى ؛
وقد أثر فى نفسى تأثيرا عميقا عرفانك السامى بالجميل •

اننى أرد عليك وأنا منفعل بما جاء فى خطابك • وذلك الشماع
الذى يأتى من وحدتك الى وحدتى ، شئ جميل • الى اللقاء القريب فى هذه
الأرض أو فى خارجها ، وأحيى روحك العظيمة •

فيكتور هوجو

البؤساء

١٦ سبتمبر ١٨٦٢

بعد أن نشر كتاب « البؤساء » ، ذهب فيكتور هوجو الى بروكسل .
وأدب له الناشران السيدان لأكروا ، وفيربوكهوفن وليمة ، كانت فرصة
للقاء الكتاب المشهورين من جميع البلاد (انظر مذكراتنا) . وأجاب
فيكتور هوجو ، وحوله الكثير من كرام الرجال ، وبعضهم على درجة كبيرة
من ذبوع الصيت ، على تحيات هذه النفوس النبيلة بكلمات نطالها فيما
يلي . ويذكر أولئك الذين حضروا هذا الحفل الرصين الجميل الذي أقيم
من أجل أحد المنفيين أن فيكتور هوجو لم يستطع أن يحبس دموعه في
اللحظة التي طرأت فيها على ذهنه ذكرى اسبرومونتي (١) .

سادتي :

لا يمكن أن أعبر عن مقدار تأثري ، فأرجو المعذرة اذا كانت الكلمات
تعوزني .

واذا لم يكن من واجبي سوى أن أرد على خطاب عمدة بروكسل
المبجل ، كانت مهمتي هذه بسيطة ، فليس علي ، لأعجل هذا الحاكم
المحبوب بجداره ، وهذه المدينة النبيلة المضيفة ، الا أن أكرر كل ما يتردد
على الأفواه ؛ ويكفيني لذلك أن أكون صدى لها . ولكن كيف لي أن أشكر

(١) اسبرومونتي - مرتفعات جرانيتية ناطاليا (واسمها الآن كالابريا) . وفي عام
١٨٦٢ أصابت عندها قوات فيكتور إيمانويل جاريبالدي واسرته ، المترجم .

الأصوات الأخرى الفصيحة الودودة التي خاطبتني ؟ فالى جانب هذين الناشرين اللذين يرجع اليهما الفضل فى تلك الفكرة المثمرة ، ففكرة المكتبة الدولية ، وهى نوع من الرباط الاعدادى بين الشعوب ، أرى أنه قد اجتمع هاهنا سياسيون ، وفلاسفة ، وكتاب مبرزون ، فخير الآداب ، وفخرة القارة المتحضرة ، وانى لأشعر بالحيرة والارتباك اذ أجد نفسى مركزا لحفل العباقرة هذا ، وأرى هذا القدر الكبير من التكريم يوجه الى شخصى ، فى حين أننى لست سوى ضمير يرتضى الواجب ، وقلب يرتضى التضحية .

ان شكر هذه المدينة فى شخص عمدها أمر بسيط ؛ ولكنى أقول ثانية كىف يتأتى لى أن اشكركم جميعا ؟ كيف لى أن أصافحكم جميعا بيد واحدة ؟ ومع ذلك فالطريقة أيضا بسيطة ، فأنتم جميعا ، الموجودين هنا ، كتابا كنتم أم صحافيين ، ناشرين أم طابعين ، سياسيين أم مفكرين ، ما الذى تمثلونه ؟ كل طاقات الذكاء ، وكل أشكال الدعاية ، أنتم فريق الروح ، أنتم العضو الجديد فى المجتمع الجديد ، أنتم الصحافة . اننى اشرب نخب الصحافة !

الى الصحافة لدى كل الشعوب ! الى الصحافة الحرة ، الى الصحافة القوية المجيدة الحصبة !

أيها السادة ، الصحافة هى ضياء العالم الاجتماعى ، وفى كل ما هو ضياء ، يوجد قبس من الحكمة الالهية .

الفكر شىء أكثر من الحق ، انه روح الانسان نفسها . وكل من يعرقل الفكر انما يعتدى على الانسان نفسه . والقانون يعتبر الكتابة والطبع والنشر نظائر ؛ انها دوائر تتسع باستمرار ، دوائر الذكاء الفعال ، انها موجات الفكر الرنانة .

والصحافة هى أوسع كل دوائر الروح الانسانية هذه واشعاعاتها وقطر دائرة الصحافة هى نفس قطر دائرة الحضارة .

وكل نقص فى حرية الصحافة يقابله نقص فى الحضارة . ويمكن القول انه حيثما احتجبت الصحافة الحرة ، انقطع غذاء الجنس البشرى . سادتى ، ان رسالة عصرنا الحاضر هى تغيير أسس المجتمع القديمة ، وخلق النظام الحق ، واستبدال الحقائق الواقعية فى كل مكان بالأوهام . وفى انتقال القواعد الاجتماعية هذه ، وهى المهمة الضخمة التى يضطلع بها

هذا الجيل . لا يوجد شيء يستطيع أن يقاوم الصحافة التي تستخدم قوتها الجاذبة على المذهب الكاثوليكي ، والنزعة الحربية ، والحكم المطلق ، وعلى أسس التكتلات الواقعية والفكرية صلابة ومقاومة .

الصحافة هي القوة . لماذا ؟ لأنها العغل المفكر .

إنها البوق الحى الذى يوظف الشعوب ، ويعلم بصوت مرتفع عن سيادة القانون . وهى لا تهتم بالبلبل الا لكى تبعث الفجر ، ونخمن قدوم النهار وتحذر العالم . والشئ الغريب مع ذلك أنها تكون أحيانا هدفا للتحذير ، كالبومة التى توبخ الديك على صباحه .

نعم ، الصحافة مضطهدة فى بعض البلاد . هل هى عبد رقيق ؟ لا . صحافة مستعبدة ! هذا تزواج فى الكلمات ، لا وجود له فى الواقع .

وهناك فضلا عن ذلك أسلوبان كبيران للرق ، أسلوب سبارتاكوس ، وأسلوب ابيكتيت (١) . الأول حطم أغلاله ، أما الثانى فانه حقق روحه . فاذا لم يستطع الكاتب المقيد بالأغلال أن يلجأ الى الأسلوب الأول ، بقى له استخدام الأسلوب الثانى .

لا ، مهما فعل الطغاة ، فليس ثمة استعباد للروح ! وأشهد على ذلك كل الرجال الأحرار الذين يستمعون الى ، وهذا ما قلته لى أخيرا ياسيد بيليتان بعبارات بديعة ، فضلا عن أنك وكثيرين غيرك قد أثبتوا ذلك بالمنزل الطيب الذى قدمتموه .

سادتى ، فى هذا القرن ، لا سلام من غير حرية الصحافة ، وإنما ضلال عن سواء السبيل ، وغرق ، وكوارث فى كل مكان .

هناك اليوم مسائل معينة . هى مشاكل هذا القرن ، قائمة أمامنا ، لا نستطيع أن نتجنبها ؛ وليس ثمة حل وسط بشأنها ، فلا مفر من

(١) فيلسوف رومى (من مدرسة زنون) من القرن الأول الميلادى . كان فى روما عبدا لاسافورديت معوق لبيرون . جمعت أحاديثه فى كتاب واحد ، وهى عن المذهب الروافى . يحكى أن سيده كان سيدد السوء ، فعذب ذات يوم بأن اوى سافه فى آلة التعذيب فقال له ابيكتيت « سوف بكسر ساقي » . ولما تم ذلك اكتفى بأن يقول له « ألم أمل لك ذلك ؟ » - المترجم .

الاحتمال انهم بها أو الاحتماء بها . والمجتمع يسير من هذه الناحية بصورة حذرية ، لا تقاوم . هذه المسائل هي موضوع الكتاب المؤثر المؤلف الذى جرى الحديث عنه منذ هنيهة بعبارات رائعة . هذه المسائل هي : الفاقة ، والتطفل ، وانماج الثورة وتوزيعها . والنقد ، والائتمان . والفساد ، والأجر . وزوال طبقة الكادحين (البروليتاريا) . وتناقص العقوبات بالتدريج ، والبؤس ، والدعارة ، وحق المرأة الذى يرفع نصف الجنس البشرى هؤلاء من وضعهن كفاصرات ، وحق الطفل الذى يعننى - وأقول يقتضى - التعليم المجانى الالزامى ، وحق الروح الذى يتضمن حرية الدين . ومع الصحافة الحرة ، تجد هذه المشاكل نورا يعلوها ، وتصير قابلة للتناول ، ويمكن رؤية أغوارها ومناقضها ، ويمكن لقائوها والنفاذ فيها . فاذا ما تم تناولها والنفاذ فيها ؛ أى تم حلها ، فانها سوف تنقذ العالم . ومن غير صحافة ، ليل مدلهم . وكل هذه المشاكل مخيفة فى الوقت الحاضر ، لا ينبىئ الانسان منها سوى منحدراتها ، وقد لا يتبين مدخلا لها . ومن المحتمل أن يغرق المجتمع فيها . فالفساد اذا انطفأ ، أصبح الميناء صخرة الهلاك .

سادتى ، ليس هناك احتمال للخطأ مع الصحافة الحرة ، ولا ذبذبة ، ولا نلمس فى المسيرة البشرية . الصحافة هي الاصح المرشدة وسط هذه المناكبات الاجتماعية ، ومفترقات الطرق المظلمة . سيروا نحو المل الأعلى ، والعدالة ، والحقيقة ؛ ولا يكفى السير وحده ، وانما لابد من السير الى الامام . فى أى اتجاه تسيرون ؟ تلك هي المسألة برمتها . الظاهر بالحركة ليس بالمرّة هو انجاز التقدم . التظاهر بالحركة دون التقدم أمر يلائم الطاعة السلبية . وتحريك الأقدام فى حفرة بالأرض تحريكا متواصلا آليا ، أمر لا يليق بالجنس البشرى . ليكون لنا هدف ، ولنعرف الى أين نسير ، ولنجعل ثمة تناسبا بين الجهد والنتيجة ، ولتكن فى كل خطوة نخطوها فكرة ، ولتتصل كل خطوة اتصالا منطقيا بالخطوة التى تليها ، وليأت الحل بعد الفكرة ، والنصر بعد الحق . لا خطوة الى الوراء . التردد فى الحركة يكشف عن فراغ فى العقل . وليس ثمة ما هو أتعس من ارادة الشئ وعدم ارادته فى وقت واحد . الانسان الذى يتردد ويتقهقر ويتريث لا يفكر . أما أنا ، فاني لا أقبل سياسة من غير رأس مفكر ، كما لا أتصور ايطاليا من غير روما .

وما دمت قد نطقت بهذه الكلمة ، كلمة روما ، فاسمحوا لى بأن أقطع حديثى ، وأن أمضى بفكرى الذى تحول لحظة عن اتجاهه ، صوب ذلك الرجل الباسل الراقده هناك على فراش الألم . لا ريب فى أنه على صواب حين يبتسم ، فالمجد والحق معه . ومما يربك النفس ويرهقها

أنه يوجد في إيطاليا ، إيطاليا النبيلة المجيدة ، أو قد وجد بها ، رجال
يسلون السيف ضد هذا الرجل الذي هو الفضيلة بعينها . ألم يتعرف
هؤلاء الايطاليون على الشخصية الرومانية في شخص هذا الانسان ؟

ويقول هؤلاء الرجال عن أنفسهم انهم رجال إيطاليا ، ويعلمون
أنها مظفرة ، ولا يدركون أنها مذبوحة . آه ، انها لمغامرة كتيبة ، ولسوف
يتراجع التاريخ حانقا أمام هذا النصر البشع الذي يتم بقتل جاريبالدى
حتى لا يكون ثمة روما !

ان القلب ليشتعل غيظا ، فلندع ذلك .

سادتى ، من هو نصير الوطنى ؟ الصحافة . من هو مفزعة الجبان
والخائن ؟ الصحافة .

أعلم أن الصحافة مكروهة ، وهذا سبب كبير يدعو الى محبتها .
وكل ضروب الظلم والتعصب والخرافات تشكرو من الصحافة وتهينها
وتسبها بقدر ما تستطيع . وأذكر منشورا بابويا مشهورا ، ظلت بعض
كلماته البارزة راسخة في ذهني . في هذا المنشور لأحد البابوات ، وهو
معاصرنا البابا جريجوار السادس عشر ، عدو جيله - وهذا من بعض
مساوىء البابوات - وفي ذهنه دائما فكرة التنين القديم ، ووحش سفر
الرؤيا ؛ نقول ، في هذا المنشور نعت البابا الصحافة بلغته اللاتينية ،
لغة رهبان كامالدول (١) بأنها *Gula ichca, ealigo, impetus immaniscun*
Streptitu harrendo حنجرة ملتعبة ، ضباب مظلم ، اندفاع شرس مع جلبة
مخيفة .

وأنا لا أعارض شيئا من هذا ، فالصورة صادقة . فوهة لهب ،
دخان ، سرعة معجزة ، صوت هائل . نعم ، أنها القاطرة التي تمر !
تلك هي الصحافة ، القاطرة الهائلة القدسية ، قاطرة التقدم . الى أين
تمضى ؟ الى أين تجر الحضارة خلفها ؟ الى أين تحمل هذه القاطرة القوية
الشعوب ؟ النفق طويل ومظلم ومخيف ؛ اذ يمكن القول بان الجنس
البشرى لم يزل تحت الأرض ، تلفه المادة وتسحقه ؛ وتشكل عليه الخرافات
والمعتقدات وضروب الجور والاستبداد عقدا سميكا ، وفوقه ظلمات
كثيفة ! ومنذ وجد الانسان ، والتاريخ كله تاريخ سفلى ، تحت الأرض ،
لا يلمح المرء في أى مكان فيه الشعاع الربانى . ولكن هناك منذ القرن
التاسع عشر ، بعد الثورة الفرنسية ، أملا وبقينا . هناك أمامنا ، على
بعد ، نقطة مصيئة ظاهرة ؛ تكبر لحظة بعد لحظة ، فهي المستقبل ، وهي

(١) رهبان وراهبات ، أقامهم في كاما لدولى (فى توسكانيا بإيطاليا) القديس
رؤموند فى أوائل القرن الحادى عشر - المترجم .

الانجاز ، نهاية التعاسة ، وفجر الأفراح ؛ هي كنعان (١) ! انها أرض المستقبل التي لن يجد الإنسان فيها حوله سوى أخوة ، ولن يجد فونه سوى السماء • فلتتشجع القاطرة المقدسة ! ولتشجع الفكر والعلم والفلسفة ، ولتشجع الصحافة ، ولتشجعن جميعا ، أينها الأرواح ! الساعة تقترب ، تلك الساعة التي سوف تخرج فيها البشرية ، خروجها السامى فى النور الباهر ، بعد أن تكون قد تخلصت فى النهاية من ذلك النفق المظلم الذى امتد عبر ستة آلاف سنة ، تخرج مذهولة لتجد نفسها فجأة وجها لوجه مع شمس المنزل الأعلى •

سادتى ، كلمة أخرى ، وأرجو من سماحتكم أن تعتبروها شخصية •

اننى سعيد بوجودى بينكم ، وأشكر الله الذى أنعم على بهذه الساعة الجميلة فى حياتى القاسية • وسوف أعود غدا الى الظلام • ولكنى رايتكم وتحذث اليكم ، وسمعت أصواتكم ، وصافحتكم • وسوف أحمل كل ذلك معى فى عزلتى •

وأنتم يا أصدقائى من فرنسا - وسوف يجد أصدقائى الآخرون الموجودون هنا أن من الطبيعى أن أوجه اليكم كلمتى الأخيرة - لقد شهدتم منذ أحد عشر عاما انسانا يغادر فرنسا وهو فى طور الشباب ؛ وتشهدونه الآن شيخا مسنا • تغير لون الشعر ، ولم يتغير القلب • واشكركم لتذكركم الغائب ، ولحضوركم • وتقبلوا أعظم مشاعر الحنان - أنتم أيضا ، الأصغر منى سنا ، والذين أعترز بأسمائهم عن بعد ، ولكن أراهم هنا لأول مرة • ويخيل الى أننى استنشق بينكم هواء الوطن ، وأن كلا منكم قد أتانى بشئ قليل من فرنسا ، وأننى أرى شيئا خارجا من أرواحكم المتجمعة حولى ، شيئا أخاذا وجليلا ، يشبه النور ، هو بسمه الوطن •

اننى أشرب نخب الصحافة ! نخب سلطائها ومجدها وقوتها ! وحريتها فى بلجيكا والمانيا وسويسرا وإيطاليا وأسبانيا وإنجلترا وأمريكا ، وخلاصها فى سائر أنحاء العالم •

(١) ابن حام ، سلف الكنعانيين - اسم أعطاه الاسرائيليون لفلسطين قبل الاستيلاء عليها ، فكانت الأرض الموعودة لهم من قبل الله ، ونهاية تنقلاتهم بعد مغادرتهم لمصر • الموسوعة العربية الميسرة •

مأدبة الأطفال الى الناشر كاستيل

أوتفيل هاوس ، فى ٥ أكتوبر ١٨٦٢

عزيزى السيد كاستيل

وقع تحت انظارك ، بعامل الصدفة ، بعض تجارب الرسوم التى أجريتها بيدي ، فى ساعات كنت أقضيها فى تأمل شبيه بالذهول ، بما كان فى ريشتى من بقايا حبر ، وذلك على بعض هوامش أو اغلفة المخطوطات ، وتبدى رغبتك فى نشر هذه الأشياء ، ويبدى الحفار البارع السيد بول شينى استعداداه لعمل صور منها مطابقة للأصل ، وتطلبون موافقتى . ومهما كانت موهبة السيد بول شينى الجميلة ، فانى أخشى أن هذه المخطوط المبعثرة التى أجرتها الريشة على الورق فى غير حذق بيد رجل عنده مشاغل أخرى ، ليست بالمرّة رسوما بمعنى الكلمة لمجرد الادعاء بأنها رسوم . ومع ذلك تصر على نشرها . وأنا أوافق . هذه الموافقة لشيء ربما كان يدعو الى الضحك والسخرية ، تحتاج الى تفسير . اليك اذن الأسباب :

أقمت منذ قليل فى دارى بجيرنسي جمعية أخوية عملية ، أردت أن أنميها وأعمل بصفة خاصة على توسيع نطاقها . انها عمل زهيد لا يستحق أن أتكلّم عنه ؛ وجبة أسبوعية للأطفال المعوزين . وفى كل أسبوع تشرفتى بعض الأمهات الفقيرات بالحضور بأطفالهن لتناول طعام الغداء بمنزلى . وكان عندي فى البداية ثمانية من هؤلاء الأطفال ، ثم خمسة عشر ؛ وعندي الآن اثنان وعشرون طفلا (١) . ويتغذى هؤلاء الأطفال معا ، ويختلطون بعضهم ببعض ، فمنهم كاثوليك وبروتستانت وانجليز

(١) زاد هذا العدد فيما بعد حتى بلغ الأربعين .

وفرنسيون وايرلانديون ، لا تميز بينهم بسبب الدين أو الوطن • أدعوهم الى الضحك والسرور وأقول لهم : كونوا أحرارا • ويسنهلون الوجبة ويخمنونها بالشكر لله ، بصبارة بسيطة بعيدة عن الصيغ الدينية التي قد تؤثر في مداركهم • وأنولى خدمتهم مع زوجتي وابنتي وزوجة أخي وأولادى وخدمى • ويأكل الأطفال لحما وبشربون نبيذا ، وهذان شيان ضروريان للأطفال • وبعد ذلك يلعبون ويذهبون الى المدرسة • ويأتى أحيانا بعض الفسائسة الكاثوليك والبروتستانت ومعهم بعض ذوى الفكر الحر وبعض المنفيين من الديمقراطيين ليشهدوا هذه الرليمة المتواضعة ، فلا الحظ على أى واحد منهم أنه قد استاء • وأوجز القول • ولكن يبدو لى أننى قلت ما يكفى لايضاح أن هذه الفكرة ، فكرة تقديم الأسر الفقيرة داخل الأسر الأكثر يسارا ، فى سهولة ومساواة ، فكرة يغذيها رجال أفضل منى ، وعلى الأخص قلوب النساء ، فكرة قد لا تكون رديئة ، وأعقد أنها عملية وخليقة بأن تعطى ثمارا طيبة ، ولذلك أتحدث عنها حتى يقتدى بها من يشاء ، ومن يكون قادرا على تنفيذها • وليس هذا من قبيل الصدقة ولكنه من قبيل الأخوة • وهذا الضرب من دخول الأسر الفقيرة فى أسرنا يعود علينا بالفائدة كما يفيدها ، وهو بداية للتضامن ، ومحرك للصيغة الديمقراطية المقدسة : الحرية والمساواة والاخاء • ويدفعها أمامنا • انه الانحاد بنسنا وبين اخواننا الأقل منا حظا • نحن نتعلم أن نقوم على خدمتهم وهم يتعلمون أن يحبونا •

وأعتقد يا سيدي أننى عندما أفكر فى هذا العمل الصغير أستطيع أن أضحي بشيء من عزه نفسى فأصرح لك بالنشر الذى ترجوه • وسوف يسهم عائدا هذا النشر فى تكوين رأس مال لأطفالى الصغار الفقراء • ها هو ذا الشتاء • قد أقبل ، ولن يضيرنى فى شيء أن أمنح تياجا لأولئك الذين يرتدون أسمالا بالية ، وأحذية لأولئك الذين يسبسون بأقدام عارية • ولنسوف يكون نشرك لرسومى عوناً لى فى ذلك ، وتشجعنى هذه المعونة على التصريح لك بالنشر • واعترف بأننى لم أكن أتصور بالمرة أن رسومى ، كما تفضلت بتسميتها كذلك ، خلية بأن تجذب انتباه ناشر خبير ممالك وفنان مثل السيد بو شبنى • فلتتحقق رغبتكما • ولنسوف تستخلص الرسوم كل ما تستطيع استخلاصه من هذا النشر العريض الذى لم تكن مهياة له بالمرة • وسيكون للنقد حق على هذه الرسوم ، حق ارتجف من وطأته • وهأنذا أتركها تحت رحمته • وإنى لوأثى دوماً أن أطفالى الصغار الأغراا الفقراء سوف يجدونها حسنة للغاية • أنشر اذن هذه الرسوم يا سيد كاستيل ، وتقبل كل ما أتمناه لك من نجاح •

فيكتور هوجو

جنيف وعقوبة الاعدام

فى الأشهر الأخيرة من عام ١٨٦٢ ، راجعت جمهورية جنيف دستورها • وعرضت مسألة عقوبة الاعدام • وأبقى التصويت الأول على آلة الاعدام ، وكان لزاما اجراء تصويت ثان • وفكر الجمهوريون التقدميون فى جنيف فى فيكتور هوجو ، فكتب له السيد بوسست ، أحد أعضاء الكنيسة البروسنتانية ، وصاحب الكتب من المؤلفات القيمة خطابا نطالع فيما يلى سطورہ الأخيرة •

« صوتت الجمعية التأسيسية فى جنيف مؤيدة الالبقاء على عقوبة الاعدام بثلاثة وأربعين صوتا ضد خمسة أصوات • ولكن لابد أن تعرض هذه المسألة ثانية عما قريب فتناقش من جديد • فإذا كان بوسعك أن تتدخل فى المسألة ببضع كلمات من عندك ، كان ذلك عونا كبيرا وقوة جديدة لنا ، فهى ليست مجرد مسألة اقليمية أو اتحادية ، وإنما هى مسألة اجتماعية وإنسانية ، كل ضروب التدخل فيها مشروعة • فلا بد من عظماء الرجال فى الأمور العظام • ومناقشاتنا فى حاجة الى عبقرية • تنير لها السبيل • وسوف تكون المساعدة التى تأتينا من تلك الصخرة التى تتجه اليها الكثير من الأنظار عونا كبيرا لنا أجمعين » •

وصل هذا الخطاب الى فيكتور هوجو فى يوم ١٦ نوفمبر • وفى يوم ١٧ منه أجاب قائلا :

أوتفيل هاوس ، فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٢

سييدى :

أحسننت صنعا ؛ انتم فى حاجة الى المعونة ، وتخاطبوننى فى ذلك ، وأنا أشكركم • تنادوننى وأنا أبادر بتلبية النداء • ما الأمر ؟ هانذا • جنيف على مشارف أزمة من تلك الأزمات الطبيعية التى تسجل

التغيرات فى الأطوار بالنسبة الى الأمم والأفراد • انتم بسبيل مراجعة دستوركم ، وأنتم تحكمون بلادكم بأنفسكم ، أنتم سادة ، وأحرار • أنتم جمهورية • وسوف نعملون عملا جسيما ، سوف تعدلون ميثاقكم الاجتماعى ، وتدرسون موقفكم من التقدم والحضارة ، وتنقاهمون فيمما بينكم بشأن المسائل المشتركة • وسوف يفتح باب المناقشة ، ويظهر من بين المسائل المدرجة فى جدول الأعمال أخطر المسائل قاطبة ، مسألة حصانة الحياة البشرية •

تلك هى عقوبة الاعداد •

والأسفاه ! متى تكف عن التدرج والسقوط على المجتمع الانسانى ، من أعلى تلك الصخرة الكالحة ، صخرة سيسيف (١) تلك الكتلة من الحقد والطغيان والظلام والجهل والظلم ، والتي يسمونها القصاص ؟ متى يستبدل بكلمة العقاب كلمة التعليم ؟ متى يدرك الناس أن المذنب انسان جاهل ؟ الثأر ، العين بالعين والسن بالسن ، والشر بالشر ، هذا هو بالتقريب قانوننا • متى يكف الثأر عن ذلك الجهد القديم الذى يبذله حين يعطينا العوض باسم القصاص ؟ أظن أنه يخدعنا ؟ لا فرق بينه وبين الغدر حين يسمى نفسه « المصلحة العليا للدولة » ، ولا بينه وبين قتل الانسان لأخيه الانسان حين يرتدى الزى العسكرى ويسمى نفسه « الحرب » • وعبنا حاسول « دى ميستر » (٢) أن يزين دراكون (٣) ويموهه ، فالبلاغة الدموية لا طائل من ورائها ، اذ هى لا تستطيع أن تخفى التشوه الواقعى الذى تداريه • والسفسطائيون أشخاص يموهون الحقائق ولكن دون فائدة • الظالم يبقى ظالما ، والقبيح يظل قبيحا • من الكلمات ما هى أقنعة ، ولكننا نستطيع أن نلمح ظلال الشر خلال ثقبها •

متى اذن ينطبق القانون على الحق ؟ متى تتوافق العدالة البشرية مع العدالة الالهية ؟ متى يفهم أولئك الذين يقرأون التوراة أن قابيل قد خلص بحياته ؟ متى يفهم أولئك الذين يقرأون الانجيل صلب المسيح ؟

(١) كائن اسطورى ، مرهوب الجانب بسبب قوته وما يقترفه من ضروب السلب والنهب • حكم عليه بعد موته أن يدحرج فى الجحيم حجرا كبيرا على قمة جبل ، فيقع الحجر من الجبل أبد الآباد • « وصخرة سيسيف » تعبير ينصرف معناه الى العمل الشاق الذى لا يتوقف أبدا - المترجم •

(٢) جوزيف دى ميستر (١٧٥٤ - ١٨٢١) كاتب فرنسى ، اشتغل بالسياسة ، وكان قهرا لملاده فى سردنيا وبطرسبرج - المترجم •

(٣) دراكون - كبير القضاة ، ومشرع فى أثينا • كانت قوانينه شديدة القسوة حتى قيل انها قد كُتبت بالدماء ، وجرت قسوته هذه محرى الأمثال - المترجم •

متى ينصت الناس الى الصوت العدى القوى الذى يرتفع من أغوار الجبال
فى ظلماتنا قائلا « لا تقتل أبدا ! » • منى يدرك أولئك الذين يعيشون
فى هذه الدنيا ، من قاض وقس وسحب وملك أن هناك من هو غريب ؟
جمهوريات بها عبيد ، ملكيات لها جنود ، مجتمعات بها جلادون ، القوة
فى كل مكان ، أما الحق فليس له مكان • تعسا لكم يا سادة العالم
البائسين ، يا ديدان العلل ، وثعابين الغرور •

وتتاح للنقد فرصة يستطيع فيها أن يخطو خطوة الى الامام • « وف
تناقش جنيف مسألة عقوبة الاعدام ، ومن تم حررت خطابك يا سيدي
تطلب منى فيه أن أتدخل فى النقاش وأستترك فيه ، وأقول كلمتى •
وأخشى أنك تبالح فى اعتقادك ببنائية كلمة واجبه عزاء ككلمتى • فمن
عساى أكون ؟ وماذا بوسعى أن أفعل ؟ ها قد انقضت سنون طويلة منذ
عام ١٨٢٨ ، وأنا أكافح ، بقوى الانسان الواهية ضد ذلك الشئ الهائل
المتناقض البشع ، ضد عقوبة الاعدام التى تتشكل من قدر كاف من
العدالة لارضاء جمهور الناس ، وقدر كاف من الظلم لافزاع الرجل
المفكر • وهناك آخرون غيرى فعلوا أكثر وأحسن مما فعلت • كل ما هنالك
أن عقوبة الاعدام قد تخلت عن بعض ميادينها ، واعتراها الشعور بالجزى
فى باريس وسط كل ذلك الضياء • وفقد الجيوش ثقتهم بذاته ، ولم
يتنازل مع ذلك عن مركزه • ولما طرد من ميدان « جريف » ظهر عند
بوابة « سان جاك » ، ولما طرد من بوابة سان جاك ، ظهر فى ميدان
« روكيت » • انه يتقهقر ، ولكنه مع ذلك باقى •

وما دمت تطلب يا سيدي مساعدتى ، فاني مدين لك بها • ولكن
لا تبالح فى تصور أهمية نصيبي فى انجاح هذا العمل اذا كتب له
النجاح • وأكرر لك القول اننى منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أحسول
أن أقاوم الاعدام فى المبادئ العامة • لقد نددت دون هوادة بذلك الضرب
من التعدى الذى يقتصره القانون الديوى على القانون الساسوى •
واستشرت الضمير العالمى ، وهاجمت ذلك الجور بالمنطق ، وبالشفقة التى
هى اسمى ألوان المنطق • وناضلت اجمالا وتفصيلا تلك العقوبة العمياء
المفرطة التى تقتل ، فكنت أحيانا أعالج الفكرة العامة محاولا أن أصيب
هذا العمل وأجرحه فى مبدئه ، وجاهدا أن أهدم آلة الاعدام برمته والى
غير رجعة ، وليس آلة معينة بالذات ؛ وفى أحيان أخرى اكتفى بنسالة
معينة وأتغيا انقاذ حياة انسان واحد • ونجحت أحيانا ، ولكنى فشلت
فى أكثر الأحيان • وأخلصت بعض النفوس النبيلة لهذه المهمة • ومنذ
أقل من عشرة شهور ، نجحت الصحافة البلجيكية فى انقاذ سبعة رؤوس

بين تسعة من المحكوم عليهم بالاعدام في شارلروا ، انظر المساعدة القرينة التي قدمتها الى تلك الصحافة عنه تدخل في صالح مدّعاء الناس .

لقد هدم كتاب القرن الثامن عشر عقوبة التعذيب . ولا شك عندي في أن كتاب القرن التاسع عشر سوف يهدمون عقوبة الاعدام . لقد نجحوا في فرنسا من قبل في محو عقوبة قطع اليد والحرق بالحديد المحمي بالنار ، والقضاء الموت المدني ، واقترحوا تلك الوسيلة الوقنيه الرائعة ، وسيلة الظروف المخففة . قال النائب سالفيرت : « نحن ندين لبعض الكذب القبيحة ككتاب « اليوم الأخير في حياصة محكوم عليه بالاعدام » بإدخال ذلك الأسلوب المفقوت . أسلوب الظروف المخففة . والحقيقة أن الظروف المخففة هي بداية إلغاء عقوبة الاعدام . وظروف المخففة في القانون كالاسفين في سجر البلوط . فلنتناول المطرقة الالبيه وننق بها على الاسفين دون هوادة ، دقائق الحقيقه القويه ، فلسوف ينشدخ النطع .

واعترف بأن هذا العمل سوف يتم ببطء ، ومع ذلك فعلينا ان نقطط . فجهودنا لن تكون دائما عديمه الفائدة ، حتى في التماسيل الدقيقه . ذكرتكم منذ هنيهة بواقعة شارلروا ، وهأنذا أذكر لكم واقعة أخرى . فمئذ ثمانية أعوام ، أى فى عام ١٨٥٤ ، حكم فى جيرنسى على رجل يدعى « تابز » بالاعدام شنقا . وتدخلت ، ووقع ستمائة شخص من أعيان الجزيرة على التماس بالفعو . وشنق الرجل . والآن اسمعوا . وصلت الى أمريكا بعض الصحف الأوروبية التي تحوى الخطاب الذى حررته لأهالى جيرنسى لمنع تنفيذ حكم الاعدام ، وصلت فى الوقت المناسب لكى يعاد نشر هذا الخطاب بصورة مجددة فى الصحف الأمريكية ، اذ سوف يشنق فى كوبيك رجل يدعى جوليان . واعتبر شعب كندا الخطاب الذى كتبته لشعب جيرنسى كأنه موجه اليه — أى الى شعب كندا — وبمشبته الله أنقذ هذا الخطاب « جوليان » الذى لم يكن يقصده أصلا ، لا تابز الذى كان محررا من أجله . لماذا أذكر هذه الوقائع ؟ لأنها تبرهن على ضرورة الثبات والاصرار . ولكن وأسفاه ، فان آلة الاعدام تصر هي الأخرى على البقاء .

ولم تزل احصائيات الجيوتين والمشنقة تحتفظ بمستوياتها الفظيعة . ولم تنقص أرقام القتل الشرعى فى أى بلد . بل لقد حدثت نكسة منسدة عشر سنوات ، عندما ضعفت المشاعر الخلقية ، فاستردت عقوبة الاعدام خطورتها . وانتم أيها الشعب ، شهدتم فى مدينتكم جنيف وحدها آلتى جيوتين أقيمتا فى غضون ثمانية عشر شهرا . حقا ، لماذا لا يعسلم

« ايلسى » بعد أن أعدم « فارى » ؟ فى أسبانيا آلة ضغط الشرايين ؛ وفى روسيا الاعداد ضربا بالعصى ؛ وفى روما ، تستبشع الكنيسة سفك الدماء ، ومن ثم تزهد أرواح المحكوم عليهم بالاعداد اغتياالا أما فى انجلترا التى تحكمها امرأة ، فانها شنت امرأة .

هذا الأمر لا يمنع العقوبات القديمة من اطلاق الأصوات القوية ، والاحتجاج بأن الناس يفترضون عليها ، ومن التظاهر ببراءتها . الناس يكسرون من الحديث عنها ، وهذا شيء مخيف . لقد كانت دائما وديعة ورقية . انها تصنع قوانين تبدو فى ظاهرها قاسية ، ولكنها لا تستطيع تطبيقها . هى التى أرسلت جان فالجان الى الليمان من أجل قطعة خبز سرقتها ! ما أعجب ذلك ! حقا ، انها أرسلت الى الاشغال الشاقة المؤبدة فى عام ١٨١٦ النوار الجائعين فى مقاطعة السوم ، وفى عام ١٨٤٦ يالأسف ، ان أولئك الذين يعتبرون على سبيل جان فالجان فى الليمان ينسون جيوتين بوزانسيه .

كانت نظرة القانون الى الجوع على الدوام نظرة عكسية . لقد تحدثت منذ هنيهة عن عقوبات التعذيب الملغاة . عظيم ! ولكن لم يزل التعذيب قائما فى عام ١٨٤٩ . أين ؟ فى الصين ؟ لا ، بل فى سويسرا . فى بلدك يا سيدى . فى أكتوبر ١٨٤٩ ، فى مدينة « زوج » (١) ، أراد قاضى التحقيق أن يحمل لصا سرق قطعة جبن على الاعتراف بجرمه (سرقة مادة غذائية . الجوع أيضا !) ، واللص فتاة تدعى ماتيلد فيلدمبرج ، فضغط على ابهاميها فى مكبس ، ورفع التعسة الى السقف بواسطة بكرة وحبل مربوط بالمكبس ، وهكذا أصبحت معلقة من ابهاميها ، وجعل مساعد الجلاد يضربها بالعصا . وفى عام ١٨٦٢ كان التعذيب بالسياط لم يزل مطبقا فى جيرنسى . وفى الصيف الماضى جلد رجل يدعى « تورود » فى الخمسين من عمره ؛ وكان هو أيضا جائعا ، فأصبح لصا .

لا ، علينا الا نياس ، ولنشعل الثورة ، ثورة الفلاسفة للتخفيف من قسوة القوانين . لننقص العقوبات ، ونزيد التعليم . ولنقدر الخطوات التى يجب أن نأخذها من واقع الخطوات التى اتخذت من قبل ! ما أجل الظروف المخففة ! انها كانت خليقة بأن تمنع حدوث ما سوف أقصه عليكم الآن .

كنت مارا بميدان « دار القضاء » بباريس ظهر يوم من أيام صيف عام ١٨١٨ أو ١٨١٩ ، فوجدت حشدا من الناس حول عمود من الخشب . واقتربت . كان هناك مخلوق بشرى ، امرأة شابة ، فتاة ، مربوطة الى

(١) مدينة فى سويسرا - المترجم .

العمود بسلسلة حديدية تطوق عنقها ، ولافتة معلقة من رأسها • وأمامها عند قدميها موقف مصلى فحم منقد وقطعة من حديد بيد خشبية ، مغمورة في الجمر ، والحديد يزداد احمرارا ، وجمهور الناس يظهرون الرضا • كانت المرأة مدانة بذلك الجرم الذى يسميه القضاء « سرقة خدم المسارل » ، ويسمى بأسلوب مجازى « رقصة أذن السلة » (١) • وفجأة دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، فصعد رجل على المنصة خلف المرأة دون أن تراه • ولاحظت أن صدار المرأة الصوفى الخشن كان به من الحلف شق مضموم بشرائط مبرومة • وفك الرجل الترائط بسرعة ، وفتح الصدر ، وعرى ظهر المرأة حتى الخاصة ، وأمسك الحديدية الموضوعة في الموقد وضغطها بشدة وعمق على الكتف العارى • واختفى الحديد ويد الجلاذ عن الأنظار فى دخان أبيض • ولم تزل الصرخة الفزعنة التى أطلقتها المسرعة المعذبة تدوى فى أذنى رغم انقضاء أكثر من أربعين سنة ، وسوف تبقى فى نفسى أبد الآباد • كانت المرأة سارقة ، ولكنى اعتبرتها شهيدة • وبرحت ذاك المكان وأنا وقتئذ فى السادسة عشرة ، وقد صح عزى على أن أناهض ما حييت مساوىء القانون •

ومن أسوأ هذه الأعمال عقوبة الاعدام • وكم شهدنا منها ، حتى فى القرن الحاضر ، بل وفى المحاكم العادية ، وبسبب جنح عادية ! وفى ٢٠ أبريل ١٨٤٩ ، أعدم فى بريستول فتاة تدعى سارة توماس فى السابعة عشرة لأنها فى لحظة غضب قتلت سيدتها التى كانت تضربها ، فضربتها بقطعة من حطب • وكانت المحكوم عليها لا تريد أن تموت ، ومن ثم كان لابد أن يجرها سبعة من الرجال الى المشنقة • وشنقت قسرا • وفى اللحظة التى عقدت فيها الأنشودة على عنقها ، سألها الجلاذ عما اذا كان لديها كلام تبث به الى والدها ، فكفت عن عويلها لتقول له : نعم ، قولوا له انى أحبه • وفى مطلع هذا القرن ، فى عهد جورج الثالث ، حكم فى لندن بالاعدام على ثلاثة أطفال من طبقة لابسى الخرق ، بتهمة السرقة • وذكرت صحيفة « نيوجيت كالندر » أن أكبرهم لم يكن يبلغ وقتئذ الرابعة عشرة • وشنق الأطفال الثلاثة •

ماذا يرى الناس اذن فى القتل ؟ كيف ! أيمتنع على القتل وأنا فى الزى العادى ، ويباح لى القتل وأنا فى ثوب القضاء ! عداة القضاء مثل الثوب الكهنوتى الذى كان يلبسه ريشليو ، تبيح كل شيء ! آه ، أرجوكم ، لا تأخذوا بثأرى ، وأقول لكم ان هذا قتل ، وقتل • هل قتل الانسان

(١) تمير فرسى يقصد به ما يفعله بعض خدم البوت من الحصول من مخدوميههم على مبالغ تزيد عما أنفقوه فى شراء حاجيات المنزل - المترجم •

مباح في غير حالة الدفاع الشرعي بأضيق معانيه (اذ انه بمجرد أن يستقطب المعتدى عليك جريحا ، يصير من واجبك أن تنفذه) ! هل الناس الذي يحرّم على الفرد يباح للجمهور ؟ هاكم الجلال . قابل من طراز هيجس ، انه القاتل الرسمي ، المرخص له ، الموظف ، الأجير ، المكلف بالدول في أيام معينه ، الذي يشتغل في علانية ويقتل في وضوح النهار ، رئيس خدم « أخشاب العدالة » عدة له ، ونشبت له صفة قابل الدولة ! القاتل الموظف ، القاتل الذي يتخذ القانون مقرا له ، القاتل باسم الجيوش ! انه يملك تفويض ونفويضكم في الصل . يخنق ويدبح . ثم يصير على كنف المجتمع ويعول له : أنا أعمل من أجلك ، فادفع لي أجرى . انه العامل بحكم القانون ، القاتل الذي تقررت مهمته ، مهمة القتل . بأمر المشرع ، وداول المحلفون بشأنها ، وأصدر القاضي حكمه بها . وأمن القس عليها ، وفام الجندى بحراستها ، وراح الشعب ينمرج عايتها . انه القاتل الذي يحظى أحيانا بعطف القتل . لقد ناقشت ، أنا الذي أحاطبكم ، هذه المسألة مع معكوم عليه بالاعدام يدعى ماركيز . كان من مؤيدي فكرة عقوبة الاعدام ، كما ناقشت هذه المسألة أيضا قبل قضية مسهورة بسنتين ، مع أحد رجال القضاء ويدعى « بيست » كان من أنصار العقوبات المحلة بالشرف ، فلتفكر الحضارة في أنها مسئولة عن عمل الجلال . آه ! تمقتون القتل حتى تقتلوا القاتل . أما أنا فأكره القتل لدرجة أنى أمتنعكم من أن تصيروا قتلة . الناس كلهم ضد فرد واحد ، والقدرة الاجتماعية متركزة في الجيوتين ، وقوة الجماعة مستخدمة لازهاق روح انسان ، ما أبشع كل هذا ! قتل الانسان انسانا آخر ، بل يرهيب الفكر ، أما قتل الناس جميعا انسانا واحدا فانه عمل يفزعه .

أمن الضروري أن أكرر لكم دوما ما أقول ؟ كان هذا الرجل في حاجة الى كل ما تبقى له من العمر ليتعرف الى نفسه ، ويقومها ، ويتخلص من المسؤولية التي تنقل روحه . ولكنكم تمنحونه بضع دقائق ! بأى حق ؟ كيف تجرأون على أن تتحملوا مسؤولية هذا العمل الرهيب الذي يجتنب مختلف ظواهر التوبة والندم ؟ أتدركون ماهية هذه المسؤولية التي تاعنونها ، والتي تنقلب ضدكم فتصبح مسئوليتكم أنتم ؟ أنكم ندميون أكثر من مجرد نذل انسان . انكم تقبلون ضميرا .

بأى حق تجعلون الله قاضيا قبل الساعة ؟ أية صنعة تبرر لكم رفع القضية أمامه ؟ هل هذا القضاء درجة من درجات قصائدكم " هل تضعون معكم معكم مع المحكمة الالهية في مسنوى واحد ؟ هناك اجسالاتان : فاما أنكم مؤمنون بالله أو غير مؤمنين . فان كنتم مؤمنين ، كيف تجرؤون على أن تلقوا بروح خالدة الى عالم الأبدية ؟ وان كنتم غير مؤمنين ، كيف تجرؤون على أن تلقوا بكائن حى الى العدم ؟

«سناك فقيه من فقهاء القانون الجنائي ، أجرى التفرقة الآتية :
» من الخطأ أن نقول : اعدام ، وإنما يجب أن نقول : اصلاح * المجتمع
لا يقتل وإنما يجهت * ونحن قوم علمانيون ، ومن ثم لا نفهم هذه الأمور
الدقيقة .

الناس ينطقون كلمة العدالة ! آه ، تلك الفكرة الجليلة الموقرة بين
كل الفكر ذلك السوازن الفائق ، تلك الاستقامة المتصلة بأغوار الأمور ،
ذلك الوسواس الخفى الذى يغترف من المنل العليا ، تلك الاستقامة المطلقة
المختلطة بالرجفة ازاء الضخامة الأبدية الفاعرة امامنا ، تلك الحشمة
الطاهرة التى لا تحيز ولا تحايى ، تلك الموازنة التى تشمل ما لا وزن
له ، ذلك المفهوم الذى يتركب من الأشياء كلها ، ذلك التسامى بالحكمة
الممتزجة بالرافة ، ذلك الفحص الذى تجريه عين الاله للأفعال البشرية ،
تلك الطيبة الصارمة ، ذلك الشعاع الساطع الذى ينبثق من الضمير
العالمى ، ذلك التجرد ، تجرد المطلق الذى يقدو واقعا دنيويا ، ذلك
المراى . مرأى الحق ، ذلك الوميض ، وميض الأبدية الذى يتجلى للانسان :
تلك هى العدالة ! تلك البصيرة المقدسة - بصيرة الحق التى تحدد
وجودها رحمة المقادير النسبية للخير والشر ، والتى ننير وجدان الانسان
فتجعلها فى تلك اللحظة الها ، ذلك الشيء الكامل الذى يتناسب بحكم
قانونه مع اللانهاية ، ذلك الجوهر السماوى الذى جعلت منه الوثنية الهة *
وجعلت منه المسيحية كبير الملائكة ، تلك الصورة الشاسعة التى تضع
قدميها على قلب الانسان وجناحيها فى النجوم ، ذلك « اليونجفراو » (١)
للفضائل الانسانية ، تلك الذروة ، ذروة الروح ، تلك العذراء * يالاله
الطيب ، الاله السرمدى ، أمن الممكن أن نتصوره واقفا على الجيوتين ؟
أمن المستطاع أن نتصوره وهو يعقد سيور « طبلية » المشنقة على مابض
انسان عرس ؟ أفى المستطاع أن نتخيله وهو يفك بأصابه النورانية
الخيطل البشع الذى يشبه سكنى المقصلة ؟ ونتخيله وهو يكرس الجلاد ،
ذلك الخادم الرهيب ويحط من قدره فى آن واحد ؟ ونتخيله وهو
معروض ومبسوط وملصق بيد مثبت المصنقات على العمود المشين الذى
يشبه اليه المجرمون ؟ أممكن أن نتمثله محبوسا يتنقل فى تلك الحقيبة
الليلية . حقيبة الجلاد « كالكرافت » التى اختلط فيها مع الجوارب
والقمصان الجبل الذى شنى به بالأمس بعضهم وسوف يشنى به فى
الغد غيرهم .

وطالما وجدت عقوبة الاعدام ، فان الانسان سوف يشعر بالبرودة
حين يدخل فى محكمة الجنايات فيجدها كثيية مظلمة .

(١) قمة عالية فى سويسرا - المترجم .

حدث في بلجيكا ، فى شهر يناير الماضى ، أثناء مناقشات شارلوا - ونذكر فى هذه المناسبة أنه قد انضج خلالها من بعض المعلومات التى كشف عنها شخص يدعى « راييه » أن اثنين من الذين أعدموا بالجيونين فى السنوات الماضية ويدعيان جوتال وكوبك كانا على ما يحتمل بريئين (ويا له من احتمال !) - نقول انه حدث خلال هذه المناقشات ، وازاء الكثير من الجرائم المتولدة من أعمال العنف التى تنسب الى الجهل ، ان ظن أحد المحامين أن من واجبه وفى مقدوره أن يثبت ضرورة التعليم المجانى الالزامى . ولكن النائب العام قاطعه وقال له ساخرا : ايها المحامى ، لسنا هنا فى مجلس النواب . كلا يا سيدى النائب العام ، بل هنا القبر .

ولعقوبة الاعدام صنفان من الأنصار : فبعضهم يفسرها ، وبعضهم يطبقها ، وبتعريف آخر أولئك الذين يتناولون النظرية ، وأولئك الذين يتكلمون بالتطبيق . ولكن النظر والتطبيق لا يتفقان ، فهما يتعارضان بصورة عجيبة . وليس عليكم ، لكى تهدموا عقوبة الاعدام الا أن تفتحوا باب المناقشة بين النظر والتطبيق . والأجدر أن تستمعوا الى أولئك الذين يريدون الاعدام ، لماذا يريدونه ؟ هل ذلك لأن الاعدام عبرة للناس ؟ نقول النظرية ، نعم أما التطبيق فيقول لا ، ومن ثم فهو يخفى منصة الاعدام بقدر ما يستطيع ، ويهدم مونفوكون (١) ، ويلغى المنادى العام ، ويتجنب أمام السوق ، ويقيم آلتة فى منتصف الليل ، وينجز عمله فى وقت السمر . وفى بعض البلاد ، فى أمريكا وروسيا يشنق الناس وتقطع رؤوسهم فى غير علانية . فهل ذلك لأن عقوبة الاعدام عادلة ؟ يقول النظرى نعم ، فالمذنب ينال جزاءه ويقول العلمى لا . ذلك لأنه لا بأس من أن يعاقب الرجل ويعدم ، ولكن من تكون هذه المرأة ؟ انها أرملة . ومن هؤلاء الأطفال ؟ انهم أيتام . لقد ترك الميت كل هؤلاء وراءه ، ترك أرملة ويناى ، أى أن هؤلاء قد وقع بهم القصاص فى حين انهم أبرياء أين عدالتكم ؟ ولكن اذا لم تكن عقوبة الاعدام عادلة ، فهل ياترى نافعة ؟ يقول النظرى نعم فالجنة الهامدة تبعث فى نفوسنا الهدوء . ويقول العلمى لا لأن تلك الجنة تخلف لك أسرة تجعلها تحت وصايتك : أسرة بلا أب ولا خبز . وها هى الأرملة تبيع عرضها لتعيش ، وها هم الأيتام يسرقون لياكلوا .

كان دومولار الذى سرق فى سن الخامسة يتيما ، من أب أعدم بالجيونين .

(١) موقع كان فيما مضى خارج اسوار باريس ، وفيه مشنقة مشهورة شيدت فى القرن الثالث عشر - المترجم .

لقد تلقيت منذ بضعة شهور اهانة شديدة لانى تجاسرت على القول بأن فى هذه الحالة طرفا مخفقا .

من الجلى أن عقوبة الاعدام ليست عبرة ولا هى عادلة أو نافعة ما هى اذن ؟ انها « أنا من أنا » Sum qui Sum ان علتها كائنة فى ذاتها . ولكن عجباً ، الجيوتين للجيوتين ، كالفن للفن ! ولنجعل ما قلنا .

هكذا المسائل كلها تدور دون استثناء حول عقوبة الاعدام ، المسألة الاجتماعية ، والمسألة الأخلاقية ، والمسألة الفلسفية ، والمسألة الدينية . ترى هل ألتمت بهذه المسألة الأخيرة بنوع خاص ؟ هذه المسألة البعيدة الأغوار ؟ أم ، اننى الح فى هذه النقطة . هل فكرتم فى ذلك ، أنتم الذين تريدون الموت ؟ هل تأملتكم فى هذه السقطة المفاجئة التى تهوى بحياة بشرية فى اللانهاية ، سقطة غير متوقعة فى الأغوار ، تقع على غير موعد ، مفاجأة رهيبية تحدث سرا ؟ أنكم تضعون هناك قسا ، ولكن القس يرتجف مثلما يرتجف المحكوم عليه بالاعدام . انه أيضا لا يعلم شيئا . تطمئنون السواد بالظلام .

ألم تملوا اذن على المجهول ؟ كيف تجسرون على أن تلقوا فيه بشيء ما ؟ ما أن تظهر آلة الاعدام على قارعة الطريق فى احدى مدننا ، حتى تضطرب فى الظلمات التى تلف هذه النقطة الرهيبة خلجة هائلة تبدأ من ميدانكم ، ميدان « جريف » ولا تتوقف الا أمام الله . وهذا التعدى يدهش الليل . تنفيذ عقوبة الاعدام ، انما هى يله المجتمع التى تمسك برجل فوق الهاوية ، ثم تنفتح اليه وتلقيه فيها . ويسقط الرجل . أما المفكر الذى يدرك بعض ظواهر العالم المجهول ، فانه يستشعر ارتجاف الظلمة العجيبة . ايه لكم أيها الناس ، ماذا فعلتم ؟ من ذا الذى يعرف اذن رعشات الظلام ؟ الى أين تذهب الروح ؟ ماذا تعلمون عن ذلك ؟

بالقرب من باريس حقل بشع يسمى « كلامار » ، موضع القبور اللعينة ، لقاء المحكوم عليهم بالاعدام . ليس به هيكل عظمى واحد معه الراس . الا أن المجتمع البشرى ينام هادئا الى جوار ذلك . لا يعنينا فى شيء وجود جبانات على سطح الأرض ، من صنع الله ، والله أعلم بالحكمة فى ذلك . ولكن هل يستطيع الانسان أن يفكر فى هذا الشيء دون أن يرتعب ، يفكر فى جبانة من صنع الانسان ؟

لا ، خليك بنا أن نردد هذه الصيحة : لا مشنقة بعد اليوم ! الموت للموت !

اننا نعرف على الرجل المفكر بنوع من الاحترام العاظم الذى يمكنه
للحياة . وأعلم تمام العلم أن الفلاسفة بهم مس من جنون - ترى من
يحدثون عليه ؟ الواقع أنهم يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ! ويقولون
انها حداد الانسانية . حداد ! فليمضوا اذن ليشهدوا جمهور الناس وهم
يكون حول المشنقة ! فليرجعوا اذن الى الواقع ! اننا نجد الضحكة فى
الموضع الذى يؤكدون فيه قيام الحداد . هؤلاء الناس يحلقون مع
السحاب ، يحجون بالوحشية والهمجية لان الناس ينسمون رجلا أو
يقطعون رأس رجل من وقت الى آخر . يالهم من حالمين ! ايعكرون فى
محو عقوبة الاعدام ؟ هل فى الامكان أن يتصور الانسان شيئا أشد
سرفا من هذا ؟ عجباً ! ان يكون ثمة مشنقة ، ولا حرب ! ان يقتل
انسان بعد اليوم ! أسألكم ، هل فى هذا شيء من الصواب ! من عساه
يخلصنا من الفلاسفة ؟ متى نتخلص من الأساليب والنظريات
والمستحيلات والحماقات ؟ ولكنى أسألكم باسم من تصدر هذه الحماقات ،
باسم التقدم ؟ ضدى كلمة جوفاء . باسم المل الأعلى ؟ انها كلمة طنانة .
لا جلال بعد اليوم ! ولكن الام يؤول أمورنا ؟ مجتمع تخلو قوانينه من
الموت ! يالها من أوهام ! ياللعيشة من خيالات ! من هم كل أولئك الذين
يقعون بالاصلاحات ؟ انهم شعراء ، فلننتحرز من الشعراء . الجنس
البشرى ليس فى حاجة الى هوميروس وانما هو فى حاجة الى السيد
فولتيريون .

ولعله من الجيب ان نشهد مجتمعنا وحضارة يتولى قيادتهما
ايسخولوس ، وسوفوكليس ، واشعيا (١) ، وأيوب ، وفيثاغورس ،
وبندار ، وبلوت ، ولوكريس ، وفيرجيل ، وجوفينال ، ودانتى
وسيرفانتس ، وشكسبير ، وميلتون ، وكورينى وموليير ، وفولتير . انه
لأمر يثير الضحك والسخرية . وسوف يهتفه عندئذ كل الرجال الجادين
الرصينين ، ويهزون أكتافهم ازدراء ، سواء منهم فى ذلك جون بول
أو برودوم . وسوف تخلط الامور ونعم الفوضى . والخير اليقن
فى ذلك نجدة فى الدوائر المختلفة ، سواء دور البورصة أو دوائر النواب
العموميين وعلى أية حال ، فانكم سوف تناقشون يا سيدى من جديد هذه
المسألة الضخمة ، مسألة القتل الشرعى ! تشجعوا ، ولا تتهاونوا ،
وليمض أهل الخير قدما فى طريق النجاح .

ليس هناك شعب صغير . قلت هذا فى بلجيكا منذ بضعة

(١) أول الأنبياء اليهود الأربعة الكبار ، فى القرن الثامن قبل المسيح . مؤلف « كتاب

اشعيا » - المترجم .

نسيهور في صدد المحكوم عليه بالاعدام في سارلروا ، واسمحوا لي
بسرديده اليوم في سويسرا . لا نفاس عظمة الشعب بعدد أفراده ،
كما لا نفاس عظمة الرجل بطول فامته . المقياس الوحيد هو كمية
الذكاء والفضيلة . من يضرب مثلا عظيما فهو انسان عظيم . وسوف
نغدو الائم الصغيرة أما عظيمه في اليوم الذي تمارس فيه ، الى جانب
الشعوب القوية عددا . الشاسعة الاقاليم ، التي تنشب بالمعصبات
والمزاعم الباطلة ، وتوغل في الأحقاد ، وتمادي في الحرب والاسترقاق
والموت ، تمارس الأخوة في هدوء وفخار ، وتمقت السلاح ، وتلغى آلة
الاعدام ، وتجدد التقدم ، وتبتسم في صفاء ، كصفاء السماء . لا جدوى
من الكلمات اذا لم تكن وراءها الأفكار الجمهورية لا تكفي ، انما لا بد
ايضا من الحرية ؟ والديموقراطية لا تكفي ، وانما لا بد ايضا من
الانسانية . الشعب يجب أن يكون انسانا ، والانسان روحا . من الغريب
أن نتقدم جنيف في اللحظة التي تنفهر فيها أوروبا . فلتتأمل سويسرا
في هذا ، لتفكر جمهوريتكم الصغيرة النبيلة في جمهورية تواجه الملكيات
بعقوبة الاعدام وقد ألغيت ، ولتسوف يكون هذا أمرا مدهشا . وسوف
يكون أمرا عظيما أن نبعث العدواة القديمة النافعة بين جنيف وروما في
مظهر جديد ، وأن يعرض على أنظار العالم المتحضر وتأملانه روما مع
البابوية من جهة ، البابوية التي تقضي بالادانة والاعدام ، وروما مع
حنيف ، بانجيلها الذي يعفو ويغفر ، من جهة أخرى .

أيأ شعب جنيف . مدينتكم على بحيرة من بحيرات جنة عدن ، فأنتم
في مكان مبارك ، تحف بكم كل روائع الخليقة . ان عادة التأمل في
الجمال تكشف عن الحق وتفرض بعض الواجبات . ولا بد أن الحضارة
متناسقة كالطبيعة . استشيروا كل هذه الآيات الرؤف وآمنوا بسمائكم
البهية ، فالرحمة تنزل من السماء الزرقاء . أبطلوا آلة الاعدام . لا تكونوا
جاحدين . وحاشا لله أن يقال ان الانسان يقدم الجيوتين لله حمدا
وشكرا لذاته العلية في ذلك الركن الرائع من أركان الأرض الذي يكشف
الاله فيه للانسان عن الجلال والقدسية اللتين تتجليان في الألب
والآرف (١) والرون واللمون (٢) الأزرق ، « ومون بلال » في هالة
من شعاع الشمس .

وعلى الرغم من السرعة التي أجاب بها فيكتور هوجو ، فان المداولة
التي جرت في لجنة الدستور كانت أسرع منها ، وعندما وصل خطاب

(١) نهر صغير في سويسرا .

(٢) بحيرة حنيف - المترجم .

فيكتور هوجو كان عمل اللجنة قد انتهى . وأبقى مشروع الدستور على عقوبة الاعدام . ولم يقنط فيكتور هوجو لأن الشعب لم يعط صوته بعد ، ومن ثم لم تكن المسألة قد انتهت . وعلى ذلك كتب فيكتور هوجو الى السيد بوسيت الرسالة التالية :

أوتفيل هاوس في ٢٩ نوفمبر ١٨٦٢ .

سيدي .

وصلك الخطاب الذي تشرفت بإرساله اليك في يوم ١٧ من نوفمبر - على ما أظن - في يوم ١٩ أو ٢٠ منه . وفي غداة اليوم نفسه الذي حررت فيه رسالتي تلك ، عرضت أمام محكمة جنايات السوم قضائية « دوازجاردان » التي ألقت الأضواء على بعض الأحداث الطارئة المخيفه الملازمة لعقوبة الاعدام ، فضلا عن انها جعلت الحاجة الملحة الى مراجعة قانون العقوبات على نطاق واسع أمرا ملموسا . أما الوقائع البشعة فان من شأنها أن تؤيد ضرورة اجراء التعديلات .

طالعت اليوم ، ٢٩ نوفمبر ، في جريدة « لاپريس » هذه السطور التي كتبت في بيرن بتاريخ ٢٤ نوفمبر :

« نشرتم الخطاب الموجه من السيد فيكتور هوجو الى السيد بوسيت في جنيف بشأن عقوبة الاعدام . وجاء نشر هذا الخطاب متأخرا بعض الشيء ، فقد أنهت الجمعية التأسيسية في جنيف أعمالها منذ خمسة عشر يوما ، ولم يحقق الدستور الذي وضعته أمانى الشاعرين ، لأنه لم يبلغ عقوبة الاعدام ، حتى بالنسبة الى الجرائم السياسية » .

كلا ، لم يفت الأوان بعد

عندما كتبت رسالتي ، كنت أخاطب الشعب الذي يقرر ، أكثر مما كنت أخاطب اللجنة الدستورية .

وبعد بضعة أيام ، في اليوم السابع من شهر ديسمبر ، سوف يعرض الدستور على الشعب ليقول فيه كلمته ؛ ومن ثم فلم يزل هناك بعض الوقت .

الدستور الذي يتضمن ، في القرن التاسع عشر ، قدرا من عقوبة الاعدام ، ليس جديرا بجمهورية . ومن يقول « جمهورية » ، يعنى صراحة « حضارة » . وإذا رفض شعب جنيف المشروع الذي سيعرض عليه ، ومن

حقه ، بل من واجبه أن يرفضه ، فانه يؤدي بذلك عملا من تلك الأعمال العظيمة التي نحمل طابع السيادة والعدالة في وقت واحد *

وعسى أن تجدوا فائدة من نشر هذا الخطاب

وأقدم لك ياسيدي من جديد أسمى آيات التقدير والمودة *

فيكتور هوجو

ونشر الخطاب ، وأعطى الشعب صوته ، ورفض مشروع الدستور . وبعد أيام قلائل استلم فيكتور هوجو هذا الخطاب :

« انتصرنا ، ورفض دستور المحافظين . لقد أثمر خطابك الذي نشرته كل الصحف وحاربه الكاثوليك ، وطبع منه السيد بوسنت ألف نسخة ، وطبع منه الراديكاليون أربعة آلاف نسخة ؛ وجعل منه الراديكاليون وعلى رأسهم السيد جيمس فازي سلاحا للكفاح . وكان رأي الأحرار الالغاء كرايك . وكان تفوقك تاما . وهناك بعض الراديكاليين الذين كانوا مترددين قبلا ، منهم السيد هيروا الذي يعتبر أنه هو الذي أيد تنفيذ حكمي الاعدام في فاري وايلسي . والمجلس الكبير الذي رفض العفو عن هذين الشخصيين كان كله من الراديكاليين . »

ومع ذلك فان الراديكاليين اجمالا قوم تقدميون . والآن وقد جمعوا كلمتهم ضد عقوبة الاعدام ، فانهم لن ينكصوا على أعقابهم . ويعتبر الناس هنا الغاء آلة الاعدام أمرا مؤكدا ، والفضل في ذلك يعود اليك ياسيدي . واني لآمل أن نفوز أيضا بتقدم آخر كبير ، هو انفصال الكنيسة عن الدولة .

« لست ياسيدي أكثر من رجل مغمور ، ولكنني سعيد . وأهنتكم كما أهني نفسي . ويشرفنا الأثر العظيم الذي خلفه خطابك . ولا يمكن لوطن السيد دو سيللون أن يصم أذنيه عن صوت فيكتور هوجو . »

« معذرة لهذا الخطاب الذي كتب على عجل ، وتفضل بقبول عميق

احترامي » *

١٠ جاويه (من بونويل)

قضية دواز

الى السيد محرر جريدة « نان »

سيسى

أرجو ياسيسى أن تتفضل بقبول تبرعى فى الاكتاب الذى نظم من أجل دواز . على أنه لاينبغى الاقتصار على جمع المال ، فهذه حالة لهاها أسوأ من حالة « ليزورك » التى قضى فيها فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، اذ انتزع الاعتراف من فم امرأة حبلى ، بواسطة الخنق ، واستخدام الصخرة التى يشد بها المسجونون ، مما أدى الى جنون المرأة وقتل الجنين الذى كان فى أحشائها ، قتلا « شرعيا » بشعا ، نتيجة للتعذيب الذى وقع بها ، ثم كان سلوك قاضى التحقيق ورئيس المحكمة والنائبين العموميين ، وادانة البريئة . وعندما ثبتت براءتها بعد أن أهينت أمام محكمة الجنايات باسم العدالة ، كان لزاما أن تخر العدالة على ركبتهها أمام البريئة . . كل ذلك مسألة لا يحدى فيها النقود .

الاكتاب شئ طيب وهفيد ومحمود بالتأكيد . وانما لابد من تعويض اسمى من ذلك . لقد أصيب المجتمع بضرر أشد مما وقع على روزالى دواز . والاهانة التى لحقت بالمدينة بالغلة العمق . أما تلك التى لحقتها الاهانة الكبرى فهى العدالة .

فليكن الاكتاب ، ولكنه يبدو لى أن على وزراء العدل وثقيبي المحامين السابقين أن يفعلوا شيئا آخر . أما من ناحيتى ، فعلى واجب لن أقصر فى أدائه .

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس في ٢ ديسمبر ١٨٦٢

لم يصنع أحد الى النداء الذي وجهه فيكتور هوجو * وصدق من قال ان المنفى يحيا بالأوهام * لقد أخطأ فيكتور هوجو حين اعتقد أن وزراء العدل ونقيبي المحامين سوف يباشرون هذه القضية بأنفسهم * ولم يتخذ أى إجراء قضائي في أعقاب الحقائق الرهيبة التي تكشف عنها فضيحة دواز * ثم انه ليس في ذلك أى شيء غير طبيعي : فالعدالة لم تباشر أبدا * دعوى ضد العدالة *

ولنوضح هنا ، من باب التذكير ، كيف عوملت روزالي دوار * ومن المفيد أن نضع هذه التفاصيل تحت أنظار المفكرين * فالمفكرون يسمفون المشرعين * والضوء الذي يسطع أولا في الضمائر ، يتجلى بعد ذلك في القوانين *

اتهمت روزالي دوار بقتل والدها مارين دواز استنادا الى قرائن شديدة الغموض * ولم تحتل روزالي دواز هذا الانهام بصبر * ففي كل مرة استجوبت فيها كانت تنور ، الأمر الذي كان يصدى وقار القضاة * وفقدت المتهممة رزانها وأفلت زمامها حسبا قيل في محضر الاتهام ، واضطرم غيظها حتى كانت تبدو هائجة مجنونة * وما أن يكف الناس عن اتهامها حتى تهدأ نفسها وتغدو صامتة جامدة من شدة الازهاق * قال عنها شاهد : كانت تبدو كقديسة قدت من حجر *

أرادت « العدالة » أن تعترف روزالي دواز بقتل أبيها * ولكي يحصلوا منها على هذا الاعتراف ، وضعوها في زنزانة طولها ثمانية أقدام وعرضها سبعة وارتفاعها سبعة (١) * وكانت هذه الحجرة مغلقة بباب مزدوج * ولم يكن ثمة نور أو هواء ، اللهم الا ما كان يمر خلال فريجة « في سعة قالب الطوب » (٢) مثقوبة في الباب ، تفتح في قاعة داخلية بالسجن * وكانت أرضية الحجرة مرصوفة ببلاطات مربعة ، ولم يكن بها أى مقعد ، فكانت السجينة مضطرة الى الوقوف أو الرقاد على البلاط *

(١) الطول ٢٥ مترا والعرض ٢١٥ مترا والارتفاع ٢٤ مترا (حسب شهادة كبير السجنين) *

(٢) سأل النائب العام كبير السجنين :

— هل كان في تلك الحجرة نور بشكل ما ؟

كبير السجنين : نعم يا سيدي النائب العام ، كانت هناك فتحة باتساع قالب

الطوب *

وفى المساء ، تعطى فراشا من قش يؤخذ منها فى الصباح • وفى أحد
الأركان سطن للغائط • ولم يكن نخرج أبدا ، لم تخرج الا مرتين فى
سنة أساييع • وكانوا يلبسونها أحيانا صدار المجانين (١) • وكانت حاملا •
ولما شعرت بالجنين يتحرك اعترفت • وحكم عليها بالأشغال الشاقة
المؤبدة • ومات الطفل •
كانت بريئة •

وهاكم فقرة من فقرات الاستجواب الذى أجرى بعد أن ثبتت
براءتها • كانوا مع ذلك يوجهون الخطاب اليها باعتبارها مذنبه :
س - ولكننا لاندري مع ذلك ماهى وسائل الاكراه التى استخدمت
ضدك ؟

ج - قالوا لى : اعترفى والا فانك سوف تبقي فى الحب المظلم الذى
وضعت فيه ، ولم يكن لى فيه شئ حتى الهواء •
س - أى أنهم وضعوك فى السجن الانفرادى • وهذا من حق الفاضى ومن
واجبه ، وقد تمسكت باعترافك خمسة أساييع بعد خروجك من
السجن الانفرادى •

ج - « بانفعال » - ايه ، بلا شك ، لم أكن أريد العودة الى السجن
الانفرادى •

النائب العام : ولكنك لم توضعى فى الزنزانة ؟

ج - أوه ! لا أعلم • ولكنى أعلم أنه كان هناك بابان بثقب ، ولا هواء •
النائب العام : لم تكونى مفضولة عن قاعة المسجونين العمومية
الا بباب واحد •

الرئيس : هل كنت تخرجين الى النور ؟

ج - لم أخرج فى المدة كلها سوى مرتين •
س - لأنك لم تطلبى ذلك ؟

ج - عفوا : عفوا ، انى لم أطلب شيئا غير ذلك • قالوا لى : قولى الحقيقة ،
وسوف تخرجين •

(١) سأل الدفاع كبير السجانين قائلا : ألم تلبس صدار المحانين يومى بيلتين ،
كبير السجانين • نعم ، لأنها أرادت أن تنتحر •

س - (النائب العام) : لا تخطى الأمور ، ألم تكونى تخرجين مرنين كل يوم ؟

ج - لم أخرج سوى مرنين خلال ستة أسابيع أو سبعة .

س - (الرئيس) : ولكن ألم تطلبى الخروج ؟

ج - طلبت أشياء كثيرة ولم أذل شيئاً على الإطلاق . وكان الكاتب المنتدب يقول لى دائماً : اعترفى وسوف تخرجين .

س - هل زارك الطبيب ؟

ج - لم أره سوى مرتين خلال شهرين ، فى المرة الأولى فصد دمه ، وفى المرة الناسة أمر بخروجه .

س - كم يوماً انقضت بعد خروجك من السجن الانفرادى وقبل أن تلدى ؟

ج - أربعة أسابيع .

س - هل فقدت طفلك ؟

ج - نعم (تبكى) . عاش ولدى أربعة وعشرين يوماً . كيف كان فى مقدره أن يعيش ؟ لم أكن أنام أبداً فى الزنزانة (تبكى) .

قرار محكمة النقض

بتاريخ ٩ أكتوبر ١٨٦٢

« المحكمة »

« نقرر عدم ملاءمة أحكام محكمة الجنايات التى أدانت بتهمة اغتيال دارتن دوار :

أولاً : روزالى دوار ، زوجة جاردان (بالاشغال الساقطة المؤبدة) .

ثانياً : فانها لمن ، وفبرهام (للواقعة نفسها) .

ونقول منذ اليوم ، بأن فى عزم فيكتور هوجو أن يعود الى قضية دواز فى كتاب بعنوان « ملف عقوبة الاعدام » . وسوف تأخذ العدالة مجراها .

١٨٦٣ - صراع الأم

٩

الى الجيش الروسى

ثارت بولندا العنيدة ، عناد الحق • وسحقها الجيش الروسى •
وكتب ألكسندر هيرزن محرر صحيفة «كولوكون» الشجاع الى فيكتور هوجو
العبارة الآتية :

« النجدة أيها الأخ الأكبر ! قل كلمة الحضارة »

ونشر فيكتور هوجو فى الصحف الأوروبية الحرة ندا الى الجيش
الروسى نطالعه فيما يلى :

أيها الجنود الروس ، كونوا بشرا كما كنتم

هذا المجد متاح لكم فى هذه اللحظة ، فتلقوه

اسمعوا طالما كانت هناك فسحة من الوقت :

إذا واصلتم هذه الحرب الوحشية ، إذا كنتم أنتم أيها الضباط ذوى
القلوب النبيلة ، تخشون أن ننور فيكم رغبة جامحة قد بلفى بكم فى
سبييريا ، وأنتم أيها الجنود ، يا من كنتم فيما مضى رقيق الأرض فأصبحتم
اليوم عبيدا ، وانتزعتكم بشدة من بين أمهاتكم وخطيباتكم وأسركم ، وصرتكم
معرضين للجلد بالسباط والمعاملة السيئة والتغذية الرديئة ، مقضيا عليكم
بالخدمة العسكرية سنين طويلة ولأجل غير محدود - والخدمة العسكرية
فى روسيا أشد قوة من الأشغال الشاقة فى البلاد الأخرى - إذا جعلتم من
أنفسكم أنتم الضحايا ، أعداء للضحايا ، إذا كنتم فى هذه اللحظة المقدسة
التي تنهض فيها بولندا الموقرة ، اللحظة السامية التي تخيرون فيها بين
بترسبورج حيث الطاغية ووارسو حيث الحرية ، إذا أنكرتم واجبكم ،
الواجب الأوحش ، واجب الاخاء فى هذه المعركة الحاسمة ، إذا وحدتم ضد
البولنديين مصالحكم ومصالح قيصر ، جلادهم وجلادكم ، إذا لم تكونوا

انتم المفهورين قد استخلصتم من الطغيان درسا سوى بأيد الطاغى ،
 اذا كنتم نصنعون العار لأنفسكم من تعسكم ، اذا كنتم أنتم الذين تحملون
 الحسام بأيديكم ، تضعون فى خدمة الاسبنداد ذلك الغول الثقيل
 الوطأة ، الضعيف النفس ، الذى يسحقكم جميعا ، روسا كنتم أم بولنديين ،
 تضعون فى خدمة قوتكم الغاشمة المخدوعة ، اذا كنتم تعسفون بئذاله
 استنادا الى تفوق السلاح والعدد هؤلاء الأهالى الأبطال اليائسين الذين
 يطالبون بأولى الحقوق ، حق الوطن ، بدلا من أن تستديروا وتجاهروا
 جزار الأمم ، اذا كنتم فى صميم القرن التاسع عشر تجهزون على بولندا ،
 اذا كنتم تفعلون كل ذلك يا رجال الجيش الروسى ، فانكم سوف تهوون
 الى مستوى أحط من مستوى العصابات فى أمريكا الجنوبية ، الأمر الذى
 يبدو مستحيلا ، وتثيرون لعنة العالم المتحضر عليكم ! جرائم القوة هى
 مع ذلك ولم تزل جرائم ، والرعب العام هو عقوبة من العقوبات .

أيها الجنود الروس ، استلهموا البولنديين ، ولا تحاربوهم .

ان ما أمامكم هى بولندا ، ليس هو العدو ، وانما هو القدوة .

فكتور هوغو

١٨٦٢ هـ اوس فى ١١ فبراير ١٨٦٢

٢

جاريبالدى
الى فيكتور هوجو

كابريرا فى أغسطس ١٨٦٣
صديقى العزيز

أنا فى حاجة الى مليون بندقية اخرى اللاي طالب . وانى لعلى نهد من
أنك سوف تساعدنى فى جمع الأموال اللازمة . وسوف نوضع النقود
بأيدي السيد ادريانو ليجارى ، أمين صندوقنا .

الخلاص
ج . جاريبالدى

الى الجنرال جاريبالدى

أونفيل هاوس ، جبرنسى ، فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٣
عزيزى جاريبالدى

كنت غائبا ، ولذلك تأخرت فى استلام خطابك ، وسوف يصلنا
جوابى متأخرا تجد تبرعى طى هذا الخطاب .

ولامراء فى أنك تستطيع الاعتماد على شخصى الضعيف ، وعلى
القليل الذى فى قدرتى أن أفعله ، وسوف أنهز أول فرصة لأرفع صوتى .
مادمت تجد فائدة فى ذلك .

لا بد لك من ملايين السواعد ، وملايين القلوب ، وملايين النفوس ،
تلزمك ثورة الشعوب الكبرى ، وهى لامحالة قادمة .

صديقك
فيكتور هوجو

٣

حرب المكسيك

كانت الأمبراطورية الأولى نستحق كل ضروب القسوة من التاريخ ، ومع ذلك فإنها صنعت المجد . أما الأمبراطورية الثانية فإنها صنعت العار واضطربت حرب المكسيك ، وهي اعتداء غاشم على شعب حر . وقاومت المكسيك ، وعملت معاملة عسكرية . وكان الهجوم على « بوييلا » جريمة فى داخل تلك الجريمة . كانت عملية من عمليات دك المدن ، تزرى بقضية عادلة ، وتتم شناعة حرب جائرة . ودافعت بوييلا دفاعا بطوليا ، ودأبت طول مدة الحصار على اصدار جريدة مطبوعة من عمودين ، أحدهما بالفرنسية والثانى بالاسبانية . وكانت كل أعداد هذه الجريدة تبدأ بصفحة عن « نابليرون الصغير » . وهكذا كان محاربو بوييلا يفسرون لجيش الأمبراطورية ماهية الأمبراطور . وتضمنت الجريدة نداء لفيككتور هوجو (١) ، أجاب عليه قائلا .

أيا رجال بوييلا ،

أنتم على حق فى اعتقادكم بأنى معكم .

ليست فرنسا هي التي تحاربكم ، إنما هي الأمبراطورية . انى معكم بالتأكد . ونحن قائمون ضد الأمبراطورية ، أنتم من جانبكم ، وأنا من جانبى ، أنتم فى الوطن وأنا فى المنفى .

قاتلوا ، ناضلوا ، كونوا رهيبيين . واذا اعتقدتم بأن فى اسمى بعض الفائدة ، فلكم أن تستخدموه . ولتكن الحرية قذيفتكم ، صوبوها الى رأس ذلك الرجل . هناك علمان مثلثا الألوان ، علم الجمهورية المثلث

(١) وهذا نص النداء :

اسمعوا يا جمود الطاعة : معنا افضل الفرنسيين . عندكم نابليون وعندنا فيكتور هوجو .

وعلم الأمباطوريه المنلت • ليس الذى يعاديكم هو العلم الأول ، انما هو الثانى •

بطالع على العلم الأول عبارة : الحرية ، المساواة ، الاخاء •

ونطالع على الثانى : طولون ، ١٨ برومير - ٢ ديسمبر • طولون •

اسمع الصبيحة النى ترسانونها الى ، وبودى لو وقفت حائلا بينكم وبين جنودنا ، ولكن من عساي آكون ؟ شبح • يا حسرتاه ! جنودنا ليسوا مذنبين فى هذه الحرب التى فرض عليهم كما فرضت عليكم • وقضى عليهم بالربع من اضرارها وهم كارهون لها • أما القواعد التاريخيه فانها تقضى بتلب الجنرالات ونبرئة الجيوش • والجيوش أمجاد عشواء ، قوات انزع منها الصمير • الاضطهاد الذى يوقعه جيشى بالشعوب ، انما يبدأ باستعباد الجبتى نفسه • هؤلاء الغزاة مكبلون بالأصفاد • والجندى الذى يستعبد الناس انما يستعبد نفسه فى المقام الأول • ولم تعد الجيوش ، بعد أحداث ١٨ برومير و ٢ ديسمبر سوى أشباح الأمة •

أيا رجال المكسيك الشجعان ، قاوموا •

الجمهورية معكم ، ترفع فوق رؤوسكم علم فرنسا الذى يضم قوس قزح ، وكذا علم أمريكا الذى يضم النجوم • عليكم بالأمل • مقاومكم البطولية تعتمد على القانون ، وتتمتع بذلك اليقين الكبير ، بالعدالة •

الاعتداء على الجمهورية المكسيكية هو استمرار للاعتداء على الجمهورية الفرنسية • الكمين يكمل كميننا آخر • وانى أمل أن تفشل الأمباطورية فى محاولتها المزرية ، وأن تنتصروا أنتم • وفى جميع الأحوال ؛ منتصرين كنم أو منهزمين ، ستظل فرنسا أختكم ، أختا لمجدكم كما هى أخت لتعسكم • أما من جهتى ، فما دمتم تستفيدون باسمى ، فانى أكرر لكم القول بأنى معكم ، ولسوف آتيكم بأخوتى ، أخوة المواطن ان كنتم منصورين ، وأخوتى ، أخوة المنفى ، ان كنتم منكسرين •

فبكتور هوجو

١٨٦٤

١

ذكرى شكسبير المئوية

باريس فى ١١ أبريل ١٨٦٤

من لجنة شكسبير الى فيكتور هوجو

أيها الأستاذ العزيز الذائع الصيت

انعقد اجتماع من الكتاب والمؤلفين والفنانين المسرحيين وممثلى جميع المهن الحرة بقصد تنظيم احتفال بباريس فى يوم ٢٣ من أبريل لمناسبة ذكرى مرور ثلاثمائة سنة على مولد شكسبير .

وتم اختيار أعضاء لجنة شكسبير الفرنسية وهم :

السادة : أوجست باربييه ، وبارى ، وشارل باتاى (من الكونسرفاتوار) وهكتور بيرليوز ، والكسندر دوما ، وجول فافر ، وجورج صاند ، وجول جانان ، ونيوفيل جوتييه ، وفرنسوا فيكتور هوجو ، وليجوفيه ، وليتريه ، وبول موريس ، وميشليه ، وأوجين بيليتان ، ورينيه (من الكوميدي فرانسيز) . والسكرتاريون : السادة لوران بيشا ، وليكونت دوليل ، وفيليسيان مالفىي ، وبول دوسان فيكتور ، وتوريه .

وجعلت الرئاسة لكم بالاجتماع ، فهى من حق الشاعر الكبير والمواطن العظيم .

وانا على ثقة من أنكم سوف تنضمون الينا بصورة تضى على هذا الحفل مغزاه الاكمل .

مندوبو اللجنة

لوران بيشا

هنرى روشسفور

لوى أوليباك

أوجست فاكيرى

أ . فالنى

الى لجنة ذكرى شكسبير

أوتفيل هاوس فى ١٦ أبريل ١٨٦٤

سأدتى

يبدو لخاطرى كما لو كنت عائدا الى فرنسا . ان شعورى بأنى
بينكم انما يعادل وجودى بها . تدعوننى ، فتخرج روحى اليكم .

أنتم أيها الفرنسيين تضربون مثلا رائعا بتمجيدكم لشكسبير .
انكم نضعونه على مستوى مفاخركم القومية ، وتؤاخون بينه وبين مولير
الذى تقرنونه به ، وبين فولتير الذى نضمونه اليه . وفى حين تجعل
انجلترا من جاريبالدى مواطنا لمدينة لندن ، تجعلون أنتم من شكسبير
مواطنا لجمهورية الأدب الفرنسى . ذلك لأن شكسبير ينتمى فى الواقع
اليكم ، فأنتم تحبون كل ما فى هذا الرجل ، أولا لأنه انسان . وأنتم
تنوجون فى شخصه الممثل الذى قاسى ، والفيلسوف الذى ناضل ،
والشاعر الذى انتصر . وهتافاتكم له تكرم فى حياته الارادة ، وفى
عبقريته المقدرة ، وفى فنه الادراك ، وفى مسرحه الانسانية .

أنتم على صواب ، وهذا حق . الحضارة تصفق لهذا الحفل النبيل .
أنتم الشعراء تمجدون الشعر ، أنتم المفكرين تمجدون الفاسفة ،
أنتم الفنانين تمجدون الفن . أنتم أكبر من هذا ، أنتم فرنسا تحيي
انجلترا . هذا هو العناق السامى ، عناق الأخت لأختها ، عناق الأمة التى
أنجبت « فانسان دوبول » (أى فرنسا) للأمة التى أنجبت ويلبرفورس (١)
(أى انجلترا) ؛ عناق باريس حيث المساواة للندن حيث الحرية .
ويترتب التبادل على هذا العناق ، فتعطى احدهما ما تملكه الى الأخرى .

تحييتكم باسم فرنسا لانجلترا فى شخص رجلها العظيم شىء بديع .
ولكنكم تفعلون أكثر من ذلك . انكم تتخطون الحدود الجغرافية ، فلم
يعد ثمة فرنسى ولا انجليزى . أنتم اخوة لرحل عبقرى تحتفلون به .
انكم تحتفلون بهذه الكرة الأرضية ، تهنئون الأرض التى شهدت مولد
شكسبير فى مثل هذا اليوم من ثلاثمائة سنة . أنتم تكرسون ذلك المبدأ

(١) ولهم ويلبرفورس ، من رجال السياسة الانجليز (١٧٥٩ - ١٨٣٣) . اشتهر

بجهلاته التى شنها على الرق - المترجم .

السامي ، مبدأ كلبة وجود الأرواح ، ومنه ننبع وحدة الحضارة ، وننزعون
الأنانية من قلوب القوميات • فكوريني لا يخصنا وحدنا ، وميليتون
لا يخصهم وحدهم • وانما الجميع للجميع • الأرض كلها وطن للمكاء •
نأخذون النوابع كلهم فتعطونهم كل الشعوب • وتنزعون الحواجز
الحائلة بين الشعراء وبذلك ننزعونها من بين الناس ، وتمزجون الأمجاد
بعضها ببعض وبذلك تشرعون في إزالة الحدود ! فياله من مزيج مقدس !
ويا له من يوم عظيم !

هوميروس ، دانتي ، شكسبير ، مولير ، فولتير ، كل لا ينجح
النوع البشري بأجمعه يمتلك الرجال العظام ، والروائع تجعل على
المشاع ، تلك هي الخطوة الأولى ، تتبعها الخطوات الباقية •

هذا هو العمل الذي سوف تستهلون به ، عمل لا وطن له ،
انساني ، تضامني ، أخوي ، مجرد من أي تعصب قومي ، أعلى من كل
الحدود المحلية • فرنسا تتبنى أوروبا ، وأوروبا تتبنى الدنيا كلها
بصورة رائعة • ومن مثل هذا الحفل ينبع عمل حضاري •

كان عليكم أن تختاروا لرئاسة هذا الاجتماع التذكاري ، بين أكبر
الشخصيات الذائعة الصيت • وتزخر الأسماء الشهيرة الشائعة بينكم ،
وتلمع قائمتكم بها • وتتجمع التجسيدات اللامعة في الفن والمسرح والقصة
والتاريخ والشعر والفلسفة والبلاغة في هذا الحفل المهيّب حول قاعدة
نمثال شكسبير • ولكن كانت لديكم بلا شك فكرة اعطاء الاحتفال بهذا
العيد السنوي طبيعته الخارجية ، وأن يجري هذا الحفل خارج الحدود
كلها ، بل وفيما وراء الحدود ، ومن ثم كان يلزمكم للرئاسة رجل قائم
في هذا الإطار الاستثنائي ، فرنسي خارج فرنسا ، غائب وحاضر في
وقت واحد ، له قدم في انجلترا وقلب في باريس ، شيء كهمة الوصل
التي يمكن أن توجد على المسافة المرغوبة ، وتكون قادرة بنوع ما على أن
تضع يدي الأمتين العظيمتين الواحدة في الأخرى • ومن تدابير الأقدار
أن كان هذا الوضع هو وضعي • واني لأدين باختياركم المجيد لشخصي
لهذه الصدف السعيدة في الوقت الحاضر •

أشكركم ، وأقدم لكم هذا النخب : « الى شكسبير والى انجلترا ،
الى النجاح التام ، نجاح رجال الفكر العظام ، الى وحدة الشعوب في
التقدم والمثل العليا » •

فيكتور هوجو

وشعرت حكومة بونابرت بالقلق من ناحية الاحتفال بعيد شكسبير
ورأت ضرورة منه •

شوارع « بلوا » القديمة وبيوتها

الى السيد أ . كربوا

اوتفيل هاوس فى ١٧ أبريل ١٨٦٤

أشكرك ياسيدى ، لقد جعلتنى أعيش فى الماضى . ففى يوم ١٧ أبريل ١٨٢٥ ، فى منزل هذا اليوم من تسع وثلاثين سنة (واسمح لى بأن أسجل هذا التوافق الصغير المحبب الى نفسى) وصلت الى بلوا فى الصباح قادما من باريس . كنت قد أمضيت الليل فى عربة البريد . وماذا عساي أفعل فى عربة البريد ؟ نظمت أشعار « النبالة » (١) . وعندما انجزت البيتين الأخيرين ، ولم يكن الصبح قد انبلج بعد ، جعلت أتأمل فى ضوء الصباح مرور أبقار منطقة أورليان على جانبى العربة وهى فادمة من باريس ، حتى نمت . وأيقظنى صوت السائق وهو يصيح بى : هاهى ذى بلوا ! وفتحت عيني ، وأبصرت مئات النوافذ فى وقت واحد ، وحشدا مشوشا من البيوت وقباب الأجراس وقصرا ، وفوق التل أكليليا من الدوح (٢) ، وصفا من واجهات المباني الحادة الأركان ذات الجمالونات الحجرية على ضفة الماء . مدينة قديمة على شكل مدرج مستدير ، منتشرة بصورة عفوية على بروجات فوق سطح مائل . انها شبيهة بجيرنسى التى أقطن بها اليوم ، فيما عدا أن المحيط هاهنا أكثر رحابة من نهر المزار هناك ، وليس له قنطرة توصل الى الضفة الأخرى .

وكانت الشمس تشرق على مدينة باوا .

وبعد ربع ساعة ، كنت فى شارع « لوفوا » أمام المنزل رقم ٧٣ . وطرقت بابا صغيرا يؤدى الى حديقة ، وجاء رجل يشتغل بالحديقة ففتحت الباب . كان أبى .

(١) النبال ، هو رامى النبال ، أى السهام - المترجم .

(٢) جمع دوحه ، وهى الشجرة العظيمة - المترجم .

وفى المساء ، أخذنى أبى الى أعلى الرابية التى تشرف على بينه وفيها شجرة جاستون • وشهدت من عل ، وللمرة النانية ، المدينة التى رايتها فى الصباح • كان هذا المنظر ، رغم صرامته أشد فتنة من سابقه • كانت المدينة قد بدت لناظرى فى الصباح بذلك التشويش الرائع وبذلك اللون من المفاجأة اللذين يتجلمان مع الصبح ، أما فى المساء فقد هدأت فيها الخطوط • وعلى الرغم من أن الدنيا لم تنزل نهائيا ، فقد بدأت فى الجو غامضية من كآبة ، وراحت ظلال الغسق تضعف من حدة أطراف سقوف المنازل • وثمة ومضات شموع قليلة جعلت تحل محل ضياء الشفق المتألمة المتكسرة على زجاج النوافذ • وطراً على الأسكال الجانبية للأشياء ذلك التغير الغامض الذى يحدث مع المساء • وزالت صلابة الأشكال ، وحلت محلها الأقواس • وكان هناك مزيد من الأكواع وقليل من الزوايا • وجعلت أنظر ، والنفس متأثرة ، تكاد تدوب رقة بفعل الطبيعة ، وفى الجو نسمة صيف غامضة • وبدأت المدينة لناظرى متناسقة ، لا كما بدت فى الصباح بهيجة وفاتنة فى غير نظام • كانت مجزأة الى أقسام فى مجموعات بدية متوازنة ، والمستويات تتسع وتنسبط ، والطوابق يرتفع أحدها عن الآخر بصورة هادئة متوافقة • فهناك الكاتدرائية والكنيسة الأسقفية وكنيسة سان نيقولا السوداء ، والقصر ، وهو حصن فى الوقت نفسه ، والوديان الضيقة المتداخلة فى المدينة ، والمرتفعات الصاعدة ، والمنحدرات الهابطة ، وعليها البيوت المتسلقة من ناحية ، والمنحدرة من ناحية أخرى ، والكوبرى ومسلته ، ونهر اللوار الجميل المتعرج ، ومجموعات أشجار الحور المنتظمة فى خطوط مستقيمة ، وقصر شامبور الذى يبدو عند الأفق بأبراجه الصغيرة الداغلة ، والغابات التى يخترقها ذلك الطريق العتيق المسمى بالقناطر الرومانية والذى يحدد المجرى القديم لنهر اللوار • كل هذه المجموعة كانت عظيمة حلوة • وكان أبى يحب هذه المدينة •

انك اليوم تعيد الى خاطرى ذكرى هذه المدينة • وبفضلك أجد نفسى فى بلوا • نقوشك المحفورة الشرون ترينى المدينة المألوفة ، لا مدينة القصور والكنائس وانما مدينة البيرون (١) • نحن معك فى الشارع ، ومعك ندخل فى الدار الخربة • وثمة أبنية قديمة متداعية ، كالمسكن الخشبي المنحوت بشوارع (سان لوبان) ، وفندق دينس ديبون الذى يعلوه برج بسلم ذى كوات جانبية مرتبة كالسلم الحلزوني لكنيسة سان جيل ، ومنزل شارع « هوت » (أى الشارع العلوى) ، والرواق

(١) « شوارع بلوا القديمة وبيوتها » ، نقوش محفورة على المسادن ، من ابداع

ذى العفد المنخفض فى شوارع سير دوبلوا ، تعرض بدائع الخيال الغوطى كلها ، ورقه عصر النهضة كلها ، بالإضافة الى مائى الخرائب من شاعرية . ورب دار خربة قد تكون جميلة كالجوهرة . ولا أروع من عجوز متوقدة الذكاء ذات قلب حنون . والكثير من البيوت اللطيفة التى نقشتها بيدها ، هى أشبه سىء بمنزل هذه العجوز . وان الانسان ليسعد بالتعرف عليها . ومن كان مبلى صديقا لها ، فانه يفرح اذ يراها ثانيه . وكم من أشياء نحكيها لكم هذه النقوش ، وما أحلى أحاديث الزمان الماضى ! أنظروا على سبيل المثال هذا المنزل الأنيق الرقيق فى شارع الصاغة (ديزورفيقر) ، ما أشبهه بخلوة أليفة . ما أسعدنا وسط كل هذا الجمال والأناقة . أنك لتعرفنا بهذه الأشياء كلها ، فنقوشك انما هى لوحات فنية حقة ، ونصاوير فوتوغرافية صادقة ، فيها حرية الفن العظيم . ولوحة شارع سيمونتون تحفة فنية . ولقد صعدت درجات القصر الكبيرة مع هؤلاء الفلاحين الطيبين ، فلاحى سولونى الذين صورتهم . أما المنزل ذو التماثيل الصغيرة فى شارع « يبير دوبلوا » فانه شبيه بصورة المنزل البديعة ، منزل « الموسيقيين من ويموث » . واسترجعت ذكرى كل شيء . فهذا برج « دراجان » (البرج الفضى) ، وهذا هو الجمالون القاتم المرتفع ، فى ركن شارعى فيوليت وسان لوبان ، وهذا دار « دوجيز » ، ودار « شيفيرنى » ، ودار « ساردينى » بعقوده المقوسة على شكل يد السلة ، ودار « لوى » بعقوده الأنيقة التى ترجع الى عصر شارل التسامن ؛ وهذى درجات « سان لوى » التى تؤدى الى الكاتدرائية ، وهذا شارع « سيرمون » وفى نهايته معالم كنيسة سان نيقولا الرومانية الطراز ، وهذا هو البرج ذو الجوانب المقطوعة المسمى « منبر الملكة آن » . وكان خلف هذا البرج الحديقة التى كان لويس الثانى عشر يتنزه فيها على ظهر بغلته الصغيرة وهو مصاب بداء النقرس . وكان للويس الثانى عشر ، مثلما كان لهنرى الرابع بعض الصفات المحببة . لقد ارتكب الكثير من الحماقات ولكنه كان مع ذلك ملكا طيب القلب ، القى فى نهر الرون الدعاوى التى أقيمت ضد أهالى مقاطعة « فود » بسويسرا . ويكفيه فخرا أن يكون أبا لتلك المنجمة الهيجونوت الباسلة « رينيه دوبريتانى » التى أبدت شجاعة فائقة فى مذبحة سان بارتيليمى (١) ، ونخوة فى مؤتارجيس . قضى ثلاث سنوات من شبابه فى برج « بروج » وعانى السجن فى القفص الحديدى . هذا الأمر الذى كان خليقا بأن يجعل من غيره انسانا شريرا جعل منه رجلا

(١) مذبحة بدأت فى باريس فى ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ ضد البروتستانت الفرنسيين دبرتها كاترين دى ميديشى بالاشتراك مع دوق انجو ودوق جين والملك شارل التاسع ، وامنت المذبحة الى خارج باريس وأدت الى استئفاف الحروب الدينية - المترجم .

طبيب القلب • ودخل جنوا منتصرا ، وعلى درعه خلية نحل مذهبه ، وهذا الشعار *non utitur acutis* « لا نستعمل حد السيف » وكان مع طبيبه سمجعا • وفى « اينباديل » قال له أحد رجال حاشيته « انك تعرض نفسك لخطر ياسيدى » فرد عليه قائلا : « ضح نفسك خلفى » • وهو أيضا الذى قال « الملك الطيب ملك شحيح • انى أفضل أن أكون أضحية أم أن أكون حاشيتى من أن أكون تقيلا فى أعين الشعب » ومما قاله : « أقبح حيوان تراه العين وهو يمر ، مدع عام يحمل حافظة أوراقه » • وكان يمفت القضية المولعين بادانة المتهمين ، والذين يجتهدون فى نضجهم الأخطاء ، ونضيق الخناق على المتهم ، فكان يقول عنهم : « انهم كالاسكافى الذى يشد الجلد بأسنانه ليطيئه » • ومات من فرط حبه لزوجته ، كما حدث فيما بعد لفرانسوا الثانى ، اذ راح كل منهما ضحية رقيقة للملكة اسمها « ماري » • وكان زواجه قصير الأمد • ففى يوم أول يناير عام ١٥١٥ ، بعد انقضاء ثلاثة وثمانين يوما ، أو بالأحرى ثلاث وثمانين ليلة على زفافه ، أسلم لويس الثانى عشر الروح • ولما كان هذا اليوم يوافق رأس السنة الميلادية ، فانه قال لزوجته : « يا حبيبتى الصغيرة ، أقدم لك موتى هدية رأس السنة » وقبلت الهدية ، مناصفة مع الدوق دو براندون •

والشبح الآخر الذى يشرف على بلوا ممقوت بقدر ما كان لويس الثانى عشر محبوبا • ذلك هو « جاستون » الذى تجرى فى عروقه دماء آل بوربون ممتزجة بدماء آل ميديتشي سادة فرنسا فى القرن السادس عشر ، الخائن الغادر ، الحفيظ الروح ، الذى قال فى مناسبة القبض على لونجفيل ، وكونتى ، وكونديه ، « ياله من فح محكم ! صاد فى دفعة واحدة ثعابا وقردا وأسدا ! » • وهو فضولى ، فنان ، جامع تحف ، مولع بالأوسمة والمصوغات وأوعية الحلوى المزخرفة ، يقضى فترات الصباح فى الفرجة باعجاب على غطاء صندوق من العاج ، فى حين يقوم بعضهم بقطع رأس صديق من أصدقائه كان هو قد أوقعه بالغدر والخيانة •

كل هذه الصور ، وكذا صور هنرى الثالث ودوق دوجيز وغيرهما ، بما فيهم « بيري دابلوا » الذى له الفخر فى ان يكون أول من ابتدع عبارة « استحالة المادة ، أى القربان ، الى لحم المسيح ودمه » • كل هؤلاء رأيتهم ياسيدى عندما تصفحت مجموعتك الثمينة التى تسترجع ذكريات التاريخ فى غير نظام ولا ترتيب • وتوقفت طويلا عند صورته الخاصة بنافورة لويس الثانى عشر • لقد صورتها كما شهدتها أنا من قبل ، ناضرة ورابعة رغم قدمها • انها من أحسن لوحاتك • وأعتقد أن لوحتك الشاملة لمدينة « روان » التى أبدعتها أمام دار أمبواز تمثل

بالفعل ما كانت عليه فى زمانى ، انك تتمتع بموهبة رفيعة صادقة .
وبتلك النظرة التى تدرك الأسلوب ، واللمسة الثابتة القوية النشيطة ،
والكثير من الفطنة فى استخدام المنقاش ، والكثير من البساطة والبراءة ،
ونلك الموهبة النادرة ، موهبة النور فى الظلال . وما يدهشنى ويخلب
لبى فى نقوشك هو النور الساطع والبهجة والمظهر الباسم ، وفرحة
الاستهلال التى تتجلى فى روعة الصباح . وتمة لوحات تبدو وكأنها
مغمورة فى نور الفجر . تلك هى بالفعل « بلوا » مدينتى المحبوبة ،
المشرقة . ذلك لأن أول تأثير وقع فى نفسى عند وصولى إليها لم يزل
مطبوعا بها . « وبلوا » فى ناظرى مدينة ساطعة الأنوار ، لا أراها الا فى
الشمس المشرقة . تلك هى بعض تأثيرات الشباب والوطن .

استرسلت طويلا فى حديثى اليك ياسيدى لأنك أتلفت صدرى ،
وأصبحت موطن أضعف من نفسى ، ولمست الركن المقدس من ذكرياتى .
انى أعانى فى بعض الأحيان مشاعر حزينة مرة ، ولكنك منحتنى بعض
المشاعر الحزينة الرقيقة . والحزن الرقيق انما هو لون من السرور .
وانى لشاكر لك هذا الجميل وسعيد بأن أجده هذه المدينة مصونة
محفوظة ، لم يحل لونها الا قليلا جدا ، ولم تزل على الحال التى شهدتها
عليها منذ أربعين سنة خلت ، هذه المدينة التى تشدنى إليها تلك البكرة
الخفية من الخيوط الروحية التى يستحيل قطعها ، « بلوا » التى
شهدتنى يافعا ، « بلوا » التى تعرفنى شوارعها ، وأجبنى بيت من
بيوتها ، والتى تنزهت فيها منذ قليل فى صحبتك وأنا أبحث عن
شعرات أبى البيض ، فأجد شعرى أنا الأبيض .
وأصافحك ياسيدى . .

(فيكتور هوجز)

١٨٦٥ - ماهية الموت

١

اميل دوبيترون
جبانة « المستقلين » في جيرنسي
١٩ يناير ١٨٦٥

انشغلنا أسبوعين بأختين ، فزوجنا احدهما ، وها نحن أولاء ندفن
الأخرى . وهكذا يكون اضطراب الحياة الدائم . فلنحن الهامات أيها
الاخوان أمام القدر القاسى . لنحنها وفى نفوسنا أمل . خلقت عيوننا
لا لتبكي فحسب وانما لتبصر . وخلقت قلوبنا لا لتتألم فحسب وانما
لتؤمن . الايمان بوجود آخر انما ينبثق من ملكة الحب . وعلينا الا ننسى
فى غمار هذه الحياة القلقة التى تجد سكينتها فى الحب ، أن القلب
هو . موطن الايمان . الابن يعمل على لقاء أبيه ، والأم لا تسلم بفقد
طهاها أبدا . عظمة الانسان فى أنه ينكر العدم .

القلب لا يستطيع أن يخطئ . الجسد حلم فهو يتلانى . لو كانت
تلك الغشبية هى نهاية الانسان لكانت خليقة بأن تجرد وجودنا من كل
نصديق . نحن لا نقنع بذلك الدخان الذى هو المادة ، ولكننا فى حاجة
الى اليقين . وكل من يحب يعلم ويشعر بأنه لا توجد ركائز للانسان على
سطح الأرض .

الحب هو الحياة فيما بعد الحياة . ومن غير هذا الايمان ، لا يمكن
أن توجد ملكة عميقة فى القلب ، ويصير الحب الذى هو غاية الانسان
عذابا له ، ويستحيل هذا الفردوس جحيما . لا ، ولنقل جهارا ان
الخليقة المحبة تتطلب الخليقة الخالدة . والقلب فى حاجة الى
الروح .

فى هذا الثابت قلب ، وهذا القلب حى ، وهو فى هذه اللحظة
ينصت الى ما أقول .

كانت اميل دوبيترون موضع فخار أسرة متدينة مبهلة . كان
أصدقائها وأقاربها يغنون بجمالها ويحتفلون ببسمتها . كانت زهرة

البهجة المفتحة في المنزل ، محاطه منذ المهد بكل ألوان الحنان ، وسيت
هانئة • وكما كانت تلتقي السعادة . فانها كانت تهبها للناس • وكما
كانت محبوبة ، كانت محبة • لقد قضت نحبها منذ قليل •

الى أين ذهبت ؟ الى الطلام ؟ لا ، بل نحن الذين في الظلام ، أما هي
فانها في نور الفجر • انها في الأشعة الساطعة ، في الحقيقة ، في الواقع
في الجزاء • هؤلاء المتوفيات الصغيرات اللواتي لم يفترفن انما في الحياة ،
هن نزيلات القبر العزيزات ، نرفع رؤوسهن في رقة خارج الحفرة متجهته
نحو أكليل غامض • لقد مضت اميلي دويينرون الى العالم الأخرى باسمه
عن الصفاء الأسمى الذي يكمل الموجودات البريئة • مضت وهي زهرة
العمر ، صوب الأبدية • مضت وهي الجمال ، صوب المنزل الأعلى ، مضت
وهي الأهل صوب اليقين ، مضت وهي الحب صوب اللانهاية : مضت
وهي الدرة صوب المحيط • مضت وهي الروح الى ربها •

اذهبي أينها الروح •

معجزة هذا الرحيل السماوى العظيم الذى نسميه الموت هي أن
اولئك الذين يرحلون لا يتعدون أبدا • انهم فى عالم من الضياء ، ولكنهم
حاضرون فى عالمنا ، عالم الظلمات ، شهودا رفقاء • انهم فى العلياء
ولكنهم قريبون • أوه ، مهما تكونوا أنتم الذين شهدتم كائنا عزيزا لديكم
نخفى فى طيات القبر ، لا تظنوا أنه هجركم • هو موجود على الدوام ،
موجود الى جواركم أكثر من أى وقت مضى • جمال الموت فى الحضور ،
الحضور الذى لا يمكن التعبير عنه ، حضور الأرواح المحبوبة التى تبتسم
لعيوننا الدامية • اختفى الكائن الذى نبكيه ، ولكنه لم يرحل • لم نعد
نلمح محياه الرقيق ، ولكننا نشعر أننا تحت جناحه • الموتى هم الحفايا ،
ولكنهم ليسوا بالغائبين •

لكن عادلين مع الموت ولا نكون أبدا جاحدين له • ليس الموت كما
يقال عنه كميننا وانهيارا • من الخطأ أن نعتقد أن كل شيء يضمع فى هذه
الظلمة ، ظلمة الحفرة الفاعرة • هنا تظهر الأشياء كلها • القبر المكان
الذى تعاد فيه الأشياء الى أصولها • هنا تلتحق الروح باللانهاية وتسترد
كمالها المطلق ، وتسترد ملكيتها لكامل طبيعتها الغامضة • لقد تحررت
من الجسد والحاجة والعبء الثقيل والقدر • الموت هو أعظم صنوف
الحرية ، وهو كذلك أعظم ضروب التقدم • الموت هو صعود كل من عاش
الى الطبقة العليا • انه الصعود الباهر المقدس • وكل انسان ينال ثمة

نساءه • وكل شيء بنثير سمانه في الضوء وبواسطة الضوء • فمن كان
اسينا فقط على الارض يصير جميلا ، ومن كان جميلا فحسب يصير ساميا ،
ومن كان ساميا فقط يصبح طيبا •

والآن ، ما عله وجودى هنا ، انا الذى أنحذب ؟ ما الذى أنيت به
الى هذه الحفرة ؟ بأى حق أنيت لأخاطب الموت ؟ من أكون ؟ لا شيء كلا ،
بل أنا مخطئ ، فانى شيء ما • انا منفى • نفيت بالأمس قسرا ، وأنا
اليوم معى برغبى • المنفى اسان مهزوم ، مفرى عليه ، مضطهد ،
معجروح بيد القدر • محروم من الوطن • المنفى انسان برىء يرزح تحت
وطأة لعنة من اللعنات • ولا بد أن بركته طيبة ، فأنا أبارك هذه
المقبرة •

انى أبارك هذه المخلوقة النبيلة اللطيفة الراقدة فى هذه الحفرة •
فى الصحراء يلتقى الانسان بالواحات : وفى المنفى يلتقى بأرواح • كانت
اميلي دوبتيرون روحا من الأرواح الناتئة التى قابلناها • لقد جئت لأوفى
لها بدين المنفى الذى ينقبل العزاء فى وفاتها ، أباركها فى الأعماق
المظلمة • وباسم الكروب التى اشرقت عليها بأنوارها الرقيقة ، باسم
صروف الدهر التى انتهت بالنسبة اليها ، والتى لم تزل باقية معنا ،
باسم كل ما كانت ترجوه فيما مضى وكل ما نالته اليوم ، باسم كل ما
أحبته ، باسم كل هؤلاء أبارك هذه المتوفاة • أباركها فى جمالها وشبابها
ورقتها وحياتها ومماتها • أبارك أيتها الفتاة الصغيرة فى ثوبك الجنازى
الأبيض ، فى دارك التى تركتها موحشة ، فى نعشك الذى ملأته أمك
بالزهور وسيماء الاله بالنجوم •

٢

تمثال بيكاريا (١)

شكّلت لجنة فى ايطاليا لاقامة أثر تذكارى لبيكاريا • ودعى فيكتور هوجو للاشتراك فى هذه اللجنة •

أوتفيل هاوس فى ٤ مارس ١٨٦٥

أوافق ساكرا

وسوف أشعر بالفخار حين أرى اسمى بين الأسماء الرفيعة الشأن التى تشكّل لجنة الأثر التذكارى لبيكاريا •

البلد الذى سوف يقام فيه مثل هذا الاثر بلد سعيد ومبارك ، فعقوبة الأعدام لم يعد لها وجود فى حضرة تمثال بيكاريا •

أهنئ ايطاليا •

واقامة تمثال بيكاريا هو الغاء لآلة الأعدام •

فاذا ما ظهرت آلة الأعدام بعد اقامة التمثال ، كان حريا بالتمثال أن يخفى فى باطن الأرض •

(فيكتور هوجو)

(١) فيلسوف ايطالى ، وعالم فى الجريمة ، ولد بميلانو (١٧٣٨ - ١٧٩٤) مؤلف كتاب مسهور فى « الحرائم والعنونات » ، جددت مادته قانون العقوبات وحققه - المترجم •

الذكرى المئوية لدانتى

اونفيل هاوس فى اول مايو ١٨٦٥

سيدى حاكم مدينة فلورنسا . .

كان لخطابك الموقر أثر عميق فى نفسى . لقد دعوتمنى الى حفل نبيل ، وريد لجننتكم الوطنية أن يسمع صوتى فى هذا الحفل المهيّب . واليوم تؤكد ايطاليا ذاتها أمام العالم لأمرين ، لأنها تحقق وحدتها ولأنها تمجد ساعرها . الوحدة حياة الشعب . وايطاليا الموحدة هي ايطاليا الحقة . الاتحاد ولادة . ويبدو ان ايطاليا حين اختارت هذه الذكرى المئوية للاحتفال بوحدتها أرادت أن تولد فى اليوم نفسه الذى ولد فيه دانسى . تريد هذه الأمة أن يكون لها نفس تاريخ هذا الرجل . ما ابدع هذا !

الواقع أن ايطاليا تتجسد فى شخص دانسى اليجيبرى ، فهى منله داسلة ، مفكرة رفيعة ، عظيمة ، أهل للقتال وللتفكير . وهى مثله تدمج الشعر والفلسفة فى تركيب عميق . وهى مثله تنشد الحرية . وهو مثلها يملك العظمة التى يجعلها فى حياته ، والجمال الذى يجعله فى أعماله . وتختلط ايطاليا ودانتى فى لون من التداخل المتبادل الذى يحقق شخصيتهما ، ويتلا كل منهما فى الآخر . ايطاليا جليّة القدر ، ودانسى دائع الصبب . للآثنين قلب واحد وإرادة واحدة وقدر واحد . ايطاليا تشبه دانسى من حيث القدرة الخفية التى يتمتع بها كل منهما فى المهن . هى ملكة وهو عبقرى . كانت مثله منفية ، وهو مثلها متوج .

هى مثله خارجة من الجحيم (١) . المجد لهذا الخروج المشرق !

(١) يسير الكاتب هنا الى جحيم دانسى الوارد فى كتابه المسهور « الكوميديا الالهية » .
وفيه يكلم دانسى عن سبع دوائر فى الجحيم يدبرها الانسان - المرحوم .

وا حسراباه ! لقد خبرت (ايطاليا) الدوائر السبع واحملت وجازت
التقسيم المشؤوم . كانت شبحا ، وكانت تعبيرا جغرافيا ! واليوم أصبحت
بحق ايطاليا . هي ايطاليا ، كما أن فرنسا هي فرنسا ، وانجلترا هي
انجلترا . لقد بعثت حية وتألقت وتسليحت وابتعدت عن الماضي الغامض
المفجع . وبدأت ارتقاءها نحو المستقبل . وانه لنىء طيب وجميل أن
نتذكر فى هذه الساعة المشرفة ، فى ذروة انصارها وتقدمها وفى شمس
الحضارة والمجد ، نتذكر تلك الليلة الليلية التى كان فيها داني سعلتها
المنصبة .

ان عرفان الشعوب العظيمة بفضل الرجال العظام مثل يقتدى به .
لا ، انا لا نسمح بالقول بأن الشعوب جاحدة للأفضال . ففى لحظة من
اللحظات كان هناك رجل يمثل ضمير أمه . فعندما تمجد الأمة هذا الرجل
فأنها تبرهن على صدق ضميرها ، فكأنها تستشهد على ذلك بروحها . ايها
الايطاليون ، أحبوا مدائنكم الشهيرة الرائعة ، وحافظوا عليها وبجلوها .
وكرموا دانتى . كانت مدائنكم هي الوطن ، أما دانتى فكان الروح .

سنة قرون قام عليها مجد دانتى . والقرون هي الوجوه التى تتطور
عليها الحضارة . ومع كل قرن ينبثق بنوع ما صنف آخر من البشر ،
وفى الامكان القول بأن خلود اليجيرى قد تأكدت مرات بفضل سنه
أجيال جديدة من الجنس البشرى . وسوف تواصل الأجيال القادمة دعم
هذا المجد .

وعاشت ايطاليا فى شخص البجيرى ، رجل النور . ورائت
غشية طويلة ثقيلة على ايطاليا ، غشية أصاب العالم خلالها حذر وبرود .
ولكن ايطاليا عاشت . أقول أكثر من ذلك ان ايطاليا تألقت حتى فى هذه
الظلة . كانت ايطاليا فى تابوتها ، ولكنها لم تكن ممتة . كان لها من
دلائل الحياة الشعر والأدب والعلم والصروح الأثرية والاكتشافات
والروائع الأدبية والفنية . ما أبهى الأنوار التى سطعت على الفن ، من
دانتى الى ميكيلانج ! ما أوسع المنفذ المزدوج فى الأرض وفى السماء ،
فمنحة فى الأرض كريسنوف كولومب ، وفتحة فى السماء جاليليو . هي
ايطاليا الميته التى صنعت هذه المعجزات . آه ! انها كانت حية بالتأكيد !
كانت تحنق بأنوارها من أعماق جدتها . ايطاليا قبر اتبلج منه
نور الفجر .

ايطاليا المجهدة ، المصفدة بالآغال ، الدامية . المدفونة . ايطاليا
هذه علمت الدنيا . كانت هكمة القم . ولكنها عرفت وسيلة تنحى
بها خلال روحها .

لقد شوشت نيات امها لتقدم خدماتها للحضارة • وأيا كنا ،
نحن الذين نقرأ نكنب ، فنحن نبجلك أينها الأم ! نحن رومانيون مع
« جوفينال » (١) وفلورنسيون مع « دانتي » •

ومن بدائع ايطاليا أنها ارض الرواد الأوائل • ويشهد الانسان فى
رحابها ، فى كل عصور تاريخها ، بدايات عظيمة • وهى تتكفل دون
هوادة بوضع التصميمات العظيمة للتقدم الحضارى • فليباركها الله من
أجل هذه المبادرة المقدسة ! انها حوارية وفنانة • وهى تمقت الهمجية •
وسانت أول من نشر الأضواء على ألوان الشطط فى العقاب فى الأرض ،
وفيما وراء الحياة • هى التى أطلقت ، فى مناسبتين صيحة الانذار ضد
ضروب التعذيب ، ضد الشيطان ، تم ضد فاريناس • Farinace
وهناك رباط وتيق بين « الكوميديا الالهية » التى كشفت عن العقيدة
وبين « بحث فى الجرائم والعقوبات » الذى كشف عن القانون • وايطاليا
تمقت الأذى ، فهى لا تحكم بالادانة ولا بالتعذيب • لقد حاربت الوحش
فى صورتيه ، صورة الجحيم ، وصورة آلة الاعدام • أما دانتي فقد
تكفل بالمعركة الأولى ، وأما بيكاربا فقد تكفل بالسابعة •

كان دانتي رائدا من نواح أخرى • لقد زرع فى القرن الثالث عشر
الفكرة التى أثرت فى القرن التاسع عشر • كان يعلم أنه لا يجوز أن
يكون هناك أى قصور فى القانون والعدالة من ناحية التنفيذ ، ويعلم أن
ناموس النمو من النواميس الالهية ، ويريد الوحدة لاطاليا • وأحلام
العظماء تنبت فى مستقبل الأيام • وتدور أحلام المفكرين طبقا لما يجب
أن يكون •

والوحدة التى نادى بها جيرار جروت وروسلان لألمانيا ، وأرادها
دانتي لاطاليا ، ليست هى حياة الأمم فحسب ، وإنما هى هدف
الانسانية • وحيثما تزول الانقسامات ، ويتلاشى الأذى والشر • سوف
يختفى الرق من أمريكا • لماذا ؟ لأن الوحدة سوف تولد من جديد •
وتميل الحرب الى الخمود فى أوربا • لماذا ؟ لأن الوحدة تنزع الى التكون •
وانه لتواز مدهش بين انحسار الكوارث وبين سيادة الانسانية الموحدة •

ان مثل هذا الاحتفال المهيب لهُو مظهر رائع • انه عيد الناس
كافة تحتفل به أمة من أجل أحد العباقر • مثل هذا العيد تحتفل به

(١) شاعر ايطالى هجاء ، كانت أسفاره الهجائية الساخرة مفعمة بالحرارة والسخط
على دثائل روما • ولد حوالى عام ١٢٩٥ ميلادية وتوفى عام ١٣٢٥ - المترجم •

ألمانيا من أجل سيلر ، وانجلترا من أجل شكسبير ، وإيطاليا من أجل
دانتي . وتشترك أوروبا في الاحتفال ، وهذا هو أسمى آيات الوحدة .
فكل أمة تعطي غيرها من الأمم بعضا من رجالها العظام . وتتشكل وحدة
الشعوب مع خطوط الاخاء بين العباقة .

وسوف يسير التقدم بخطى متزايدة في هذا الطريق الذي هو
طريق النور . وعلى هذا النحو سوف نصل ، خطوة خطوة ، دون رجعة ،
الى الانجازات الكبرى ، وسوف نمضي ، نحن الأبناء المتفرجين ، في
طريق الاتحاد . وهكذا سوف نصل جميعا بقوة الأشياء وحدها وسلطان
الأفكار وحده الى المودة والسلام والانسجام . لن يكون هناك أجنب
وسوف تكون الأرض كلها وطننا للجميع . تلك هي الحقيقة العليا وذلك
هو الانجاز الضروري . وحدة الانسان من وحدة الاله .
وانى لأسارك بعاطفة الأبناء في عيد ايطاليا .

(فيكتور هوجر)

٤

مؤتمر الطلبة

انعقد مؤتمر للطلبة في بلجيكا ، ودعى فيكتور هوجو لحضوره .
بروكسل في ٢٣ أكتوبر ١٨٦٥ .

وصلتني دعوتكم الكريمة في لحظة رحيلي الى جيرنسي . ويؤسفني
ألا أستطيع حضور اجتماعكم النبيل المثير للمشاعر . وقد خطا مؤتمركم
الطلابي خطوة كريمة . وأنتم تسرون قدما مع اتجاه جيلكم ، وتبرهنون
على نشاطكم وتحرككم ، وهذا شيء جميل .

بالاخوان بين المدارس . تعلنون عن الاخاء بين الشعوب ، وتحققون
اليوم ما نحلم به نحن للغد . ومن غيركم أنتم الشباب خليق بأن يكون
الطلبة ؟

اتحاد الأمم ، تلك الغاية العظيمة التي يقصدها المفكرون والفلاسفة
والتي لم تزل بعيدة المنال ، هذا الاتحاد أصبح منذ هذه اللحظة مرثيا
في أشخاصكم . واني لأهتف لعميلكم الاتنلافي ، ولهذا السلام الانساني
الذي تم ابرامه بين أطفالنا ، وأحب في الشباب ، مشابته
للمستقبل .

لقب انفتح باب أمامكم ، وعلى هذا الباب نطالع عبارة : السلام
والحرية ! فلتمروا منه ، ولتكونوا أول المارين ، وأنتم أهل لذلك .
هذا الباب هو قوس نصر التقدم .
وأنا معكم من أعماق نفسي .

(فيكتور هوجو)

١٨٦٦

١

الحرية

أونفيل هاوس في ١٩ مارس ١٨٦٦ :

الى السيد / كليمان دوفرنوا (١) .

سيدي :

رحبت بكتابي « عمال البحر » فى عبارات رائعة ملؤها الود
والفخار ، فأشكرك .

أنت صاحب القريحة الوقادة والضمير الثابت ، أنت أحد أفراد
جماعة باسلة تتبع قادة قوية . أنتم ترفعون العلم الأبدى ، وتطلقون
الصيحة الأبدية ، وتطالبون بالحق الأبدى : بالحرية !

الحرية ، هى ما تنعطش اليه اليوم المدارك والضمائر تعطشا
شديدا . الحرية تنتمى الى كل الأحزاب ، فهى الأسلوب الحيوى للفكر .
كل نفس تريد الحرية ، مثلما تريد حدقة العين النور . لذلك اتجهت
الجماهير كلها اليك منذ اليوم الأول .

وأنا منك ، أريد الحرية ، وأقاسمها المنفى فى هذه اللحظة .
كتبت : سأعود فى اليوم الذى تعود فيه الحرية . اننى أنتظر الحرية
بصبر شخصى كبير ، وقلق وطنى كبير .

فرنسا بلا حرية ، لم تزل هى الالهة وانما من غير روح . والفارق
بينى وبينك هو أننى رجل ثورى ، الثورة فى رأى مستمرة .

التقدم ينتابه فتور بشرى ، ومن ثم فهو فى حاجة الى هزة كل
ألفين أو ثلاثة آلاف سنة . لا بد له من Ovid divinum « شئ الهى »

(١) كاتب وسياسى فرسى (١٨٣٦ - ١٨٧٩) - وزير فى الامبراطورية النمساوية -

المترجم .

• دفعة جديدة ، سببه ابتدائية • وعلى قدر ما نخبرنا به ذاكرة الشعوب
• هي التاريخ ، كان رد فعل أوروبا ضد آسيا ، رد الفعل الذي نغنى
• به هومبروس ، هو الرجة الأولى ، وكانت المسيحية الرجة الثانية ،
• أما الثالثة فكانت الثورة الفرنسية •

لكل ثورة طبيعة مزدوجة نتعرف عليها من خلالها ، فهي تشكيل
من وراء هدم ، ولا يسنى إرادة إحدى الطبيعيتين دون الأخرى ، ويتميز
الرجل السورى بقبوله هابين الطبيعيتين •

• السورات لا تخلق شيئا ، إنما هي انعجار طاقات حرارية كامنة •
انها تخرج عن نطاق الانسان ذلك الحدث الداخلى الأبدى الذى أصبح
حروجه أمرا ضروريا ، وموضوعه موضوع العصور فى حياة الانسانية •
والثورات تستخلص هذا الحدث • ونحن نزن هذا الحدث أمرا جديدا
لأننا لا نراه ، وكنا نستشعره من قبل • وهو لو كان حدثا جديدا لكان
جائزا • وليس ثمة جديد فى الحق • أما العنصر الذى يظهر فى صورة
مبدأ فهو ذلك الفرخ الرائع الذى نخرجه الثورات • والحق الخفى
يتكشف فيصير حقا عاما ، وينتقل من حالة مشوشة الى حالة واضحة
محددة • كان مستكنا فانفجر • كان شعورا فأصبح حقيقة واقعة •

هذه البساطة الفائقة هي من خصائص أعمال التقدم ذات
السيادة •

أما الهزتان الكبيرتان الاخيرتان فى مجال التقدم فقد أثارنا الحقيقتين
الاسانيتين الكبيرتين وأقاماهما الى الأبد فوق المجتمعات المتطورة :
المسيحية وقد استخلصت المساواة ، والثورة الفرنسية وقد استخلصت
الحرية •

وأيضا انعدمت هاتان الحقيقتان ، انعدمت الحياة • الحياة ، أن
يكون الناس كافة اخوانا ، وأن يكونوا أحرارا • هاكم الحركتين اللتين
تتنفس بهما المدينة •

المساواة والحرية هما شهيق الجنس البشرى وزفيره • وما دام
الامر كذلك فانه من الغريب أن نسمع محاجة فى « الحريات التبعية »
و « الحريات الضرورية » •

يقول بعضهم : سوف تتنفسون عندما تستطيعون •

ويقول آخر : سوف تتنفسون عندما تريدون •

« الحريات » عبارة لا معنى لها • أما « الحرية » فهي ذات معنى •
انها تشترك مع الله في نفي الجمع • هي أيضا نقول
« أنا هو أنا » •

ارفع اذن علمك عاليا • صيحتك « الحرية » هي الصيحة التي
نخلق الحضارة ، هي صيحة الانسان الكبرى التي نقول للشئ كن
فبكون • انها النداء العميق الغامض الذي سوف يشرق بعده النجم •
النجم وراء الأفق ، يسمع صيحتك ، فتشجع !

معدرة لهذا الزاهد اذا ما خرج لحظة من هدوئه حين أثارته عباراتك
الفصيحة الخطيرة وكلمتك القوية الجامعة للشملى • وهأنذا أبادر
بالرجوع الى ما كنت فيه من سكينه • ولكن اسمح لى قبل ذلك يا سيدى
أن أصفحك •

(فيكتور هوجر)

المحكوم عليه بالاعدام فى جيرسى برادلى

خطاب لصدىق

بروكسل فى ٢٧ يولية ١٨٦٦ :

انا مسافر ، وانت كذلك . ولست أعرف الى أى عنوان ارسل لك خطابى . نرى هل يصل اليك ؟ ومع ذلك فقد وصلنى خطابك ، ولكن لم يصلنى أية صحيفة من الصحف التى حدثتنى عنها . تطلب الى أن اتدخل ، ولكن لا أعرف أول حرف فى هذه القضية المحزنة . قضية برادلى . نم ماذا عساى أقول ، مع الأسف ! برادلى شىء لا قيمة له ، يضيع عذابه فى عذاب العالم الكبير . والمدينة تقاسى فى هذه اللحظة على آلة التعذيب . ففى انجلترا أعيد تنفيذ الاعدام رميا بالرصاص ، وفى روسيا يزاولون التعذيب . وفى ألمانيا نشط اللصوص وقطاع الطرق . وفى فرنسا انحطت المدارك السياسية والأدبية والفلسفية . والمقصلة الفرنسية تنافس المشنقة الانجليزية .

أصبح التقدم فى كل مكان مجالا للجدل . الحرية فى كل مكان متعطلة ، والمتل العليا فى كل مكان مهينة . وفى كل مكان تنجح الرجعية بمسمياتها المختلفة ، من قبيل النظام الثام ، والذوق الحسن ، والحصافة ، والقوانين الجيدة ، الخ كلمات كلها أكاذيب .

كانت جيرسى ، الجزيرة الصغيرة ، فى طليعة الشعوب الكبيرة ، حرة ، شريفة ، ذكية ، عطوف . ويبدو أنها حين رأت الدنيا تتقهقر ، اعتزمت هى أيضا أن تتقهقر . لقد أطاحت باريس برأس فيليب ، وسوف تقوم جيرسى بشنق برادلى : منافسة فى الاتجاه المضاد للتقدم .

لقد أكدت جيرسى التقدم ، وهى الآن سوف تؤكد الرجعة .

يوم ١١ أغسطس ، يوم عيد في الجزيرة • سوف شقيق رجل
في هذا اليوم •

وتصر جيرسي على أن تؤدي دورها الريحى ، أسوة بملك بروسيا
أو امبراطور الروس • يالك من دن صغير مسكين من أركان
الأرض !

يا للكفر بالله الذى معك الكبر من أجل هذا البلد الجميل !
يا لنكران هذه الطبيعة ! سمع الصافية الكريمة ! مشقة فى جيرسى !
جدير بالعبد أن يكون . حتما !

اننى أحب جيرسي ، ولذلك فأنا حزين •

لك أن تنشر خطابى هذا اذا شئت • اليوم ، الأشياء كلها تسعى
لإطفاء النور • ومع ذلك فعلينا ألا نأس • واذا كان الحاضر أصم ،
فعلينا أن نلقى الى المستقبل الذى ينتظرنا باحتجاجات الحق والانسانية
ضد الظلام الرهيب •

(فيكتور هوجر)

كريت

صبيحة بلغتنى من أثينا :

نداء جاءنى من مدينة فيدياس ومن ايسخولوس ، وأصوات منطلق
باسمى .

من أنا حتى أستحق مثل هذا الشرف ؟ لا شيء ، رجل مهروم .
من ذا الذى يخاطبنى ؟ قوم منتصرون . نعم أيها الكانديون (١) ،
الابطال المتهورون اليوم . سوف تنتصرون فى الغد . اثبتوا وصابروا .
سوف تنتصرون حتى ولو كنتم تختنقون . فى احتجاج المحتضر قوة .
انه النداء فى حضرة الله الذى يكسر ٠٠٠ ماذا ؟ يكسر شوكة الملوك .

كل هذه القوى الجبارة المعادية لكم ، وتلك التحالفات النى تضم
القوى العشواء والآراء المتصلبة ، والطواغى المسلحة العتقة ، من صفاتها
الرئيسية أنها قد تفرق بسهولة بيئة .

السفينة الملكية القديمة ، على مؤخرتها تاج البابوات ، وفى مقدمتها
العمامة ، قد تسرب ماء البحر فى داخلها انها تفرق فى هذه اللحظة فى
المكسيك والنمسا واسبانيا وهانوفر وساكس وروما وغيرها . نعم ،
اثبتوا صابروا .

لا يمكن أن تنهزموا .

الثورة التى تخمد لا تمحو مبدءا .

ليس هناك أمر واقع . وانما هناك الحق فحسب . الأحداث
لا تنتهى أبدا ، وانما الحق هو الذى ينجزها مرة بعد مرة . الحق .

(١) أهالى جزيرة كريت المسماة أيضا « كانديا » ، واسم عاصمتها أيضا كانديا -

الترجم .

لا بنغمر ، فأمواج الأحداث تمر من فوقه ، ولكنه يظهر من تحتها .
بولندا الغارقة تعوم فتطفو . هاكم أربعة وتسعين عاما والسياسة
الأوروبية تحمل هذه الجثة (جثة بولندا) ، والشعوب تبصر هذه الروح
وهي بطفو فوق النوائع .

أيا شعب كريت ، أنت أيضا روح .

أيا يوناني كانديا ، الحق في صفكم ، والمنطق السليم معكم ،
وما يتعلل به الباشا في كريت لا يقره العقل . وما يصدق مع إيطاليا
يصدق بالمثل مع اليونان . ولا يمكن رد فينيسيا الى الأولى دون أن ترد
كريت الى الثانية . والمبدأ الواحد لا يمكن أن يصدق من ناحية ويكذب
من ناحية أخرى . وما هو هناك فجر لا يمكن أن يكون هنا قبر .

والى أن يحين الأوان ، تسيل الدماء ، وتتركها أوروبا تسيل وتعتاد
ذلك . واليوم يوم السلطان ، انه يبيد إحدى القوميات .

هل ثمة قانون الهى تركى ، يبجله القانون الالهى المسيحى ؟
القتل والسرقة والاعتصاب تنقض فى هذه اللحظة على كانديا كما انقضت
منذ ستة شهور على ألمانيا . والشئ الذى يمتنع على شيدر هانز يتاح
للسياسة . يقال عن الانسان الذى يضع السيف فى جنبه ويتفرج على
المذابح فى هدوء انه من رجال السياسة . ويبدو أن الدين مهتم بأن
يذبح الأتراك كانديا فى هدوء ، وأن المجتمع سوف يتزلزل كيانه اذا لم
تخترق السيوف أجسام الأطفال بين سكارينتو وسيتير . ان نهب
المحاصيل واحراق القرى شئ مفيد . والباعث الذى يفسر عمليات الابداء
هذه ويجعلها مقبولة ومحتملة هو باعث يعلو على مداركنا . ويدهشنا
بالمثل ما جرى فى ألمانيا هذا الصيف . ومن الأمور المبهنة لأولئك الناس
الذين أحالهم النفى أغبياء بلداء ، وأنا منهم ، ألا يفهموا البتة الأسباب
العظيمة التى يبدها القتلة الحاليون .

ومهما كان الأمر فقد طرحت المسألة الكريتية منذ اليوم على
بساط البحث . ولسوف تحل هذه المسألة أسوة بجميع مسائل هذا
القرن ، بالتحريير .

البيكم ما ندين به نحن الفرنسيين لوالدتيننا ، اليونان وإيطاليا :
أن تكتمل سيادة كل منهما ، وتصير أثينا على رأس الأولى وروما على
رأس الثانية .

انه دين سوف توفيه به فرنسا • وانه واجب سوف يؤديه
فرنسا •

متى ؟

اثبتوا وثابروا •

أوتفيل هاوس في ٢ ديسمبر ١٨٦٦ •

(فيكتور هوجر)

١٨٦٧

١

كريت

من شعب كريت الى فيكتور هوجو

أومالوس (حى سيلوينا) بكريت فى ١٦ يناير ١٨٦٧

هبت علينا نفحة من روحك القوية فجفقت دموعنا • وقلنا لأطفالنا :
هناك وراء البحار شعوب كريمة وقوية تنشده العدالة وسوف يحطم
أغلالنا •

فأذا هلكنا فى المعركة ، وتركناكم يتامى شاردين فى الجبال مع
أمهاتكم الجائعات ، فان هذه الشعوب سوف تتبنناكم ، ولن تقاسوا أى
عذاب بعد ذلك •

ومع ذلك فقد تطلعنا عبثا ناحية الغرب • ومن الغرب لم نصلها
أية نجدة • وقال لنا أولادنا : لقد خدعتمونا - وجاء خطايك ، أمن عندنا
من أحسن الجيوش • ذلك لأنه يؤكد حقنا •

لقد قمنا بنورتنا لأننا نعرف حقنا •

ولم تكن نطمح ، نحن الجبليين المساكين المسلمين تسليما هزيلا ،
أن ننتصر وحدنا على هاتين الأمبراطوريتين الكبيرتين المتحالفتين ضدنا :
مصر وتركيا •

ولكننا أردنا أن نلجأ الى رأى العام الذى قيل لنا انه السيد الوحيد
على العالم فى الوقت الحاضر ، نلجأ الى النفوس الكبيرة التى تقود هذا
الرأى • مثلك •

وبفضل الاكتشافات العلمية ، أصبحت القوة المادية اليوم ملك
الخصارة •

كانت أوروبا منذ أربعة قرون عاجزة أمام البرابرة • أما اليوم فانه
تملى عليهم القوانين • لذلك فانه لن يكون ثمة اضطهاد للانسانية اذا شاءت
أوروبا الا يكون اضطهاد •

لماذا اذن تبقى أوروبا على أحد الباشموات على مرأى من النمساوي،
الاطالنية في وسط البحر المتوسط ، على بعد ثلاثين ساعة من فرنسا ..
هذا ما حدث في الزمان الماضي الذي كان فيه الأراك يحاصرون تارنتو
في ايطاليا ، وفيينا في المانيا !

لقد ألغى رق الجنس الأسود في أمريكا . بيد أن عبودينا أكثر
بشاعة وأسد وطأة مما كانت عليه عبودية الزوج . ورعم المواثيق كلها ،
فان التركي هو دائما سيد أسد قسوة من أى مواطن أمريكي في الولايات
المتحدة .

واذا أتيج لك أن تعرف تاريخ كل أسرة عندنا كما يعرف تاريخ
بلدنا الشمس ، فانك سوف تشهد النفي والاضطهاد والموت ، نشهد الأب
وقد ذبحته سيوف طغائنا ، والأم وقد انتزعت من بين أطفالها الصغار
لترزح في أشد ضروب العبودية اذلالا للنفس ، والأخوات وقد تلونن .
والاخوة وقد جرحن أو قتلن .

ولن نقول لأولئك الذين يتركوننا نقاسى كل تلك المقاساة .
ويستطيعون انقاذنا سوى العبارة الآتية : أنتم لا تعرفون اذن الحقيقة ؟

عندما أنزلت بارجتان احدهما انجليزية والثانية روسية في ميناء
بيريه . بعض أسرنا ، كان هناك بعض الأجانب . وشهد هؤلاء الأجانب
أننا لم تكن مبالغين في وصف آلامنا .

أنت نور أيها الشاعر . وانا نناشدك أن تنير أذهان أولئك الذين
يجهلوننا ، وأولئك الذين حذرهم بعض الرجالين من قضيتنا المقدسة .
أيها الشاعر ، تقول لغتنا الجميلة انك خالق ، خالق الشعوب .
كالمرتلين الأقدمين .

وباغانيك الفاخرة في كتاب « شرقيات » بذلت جهدا عظيما في خلق
الشعب اليوناني الحديث .
هيا ! نجز عملك .

انك تدعونا بالمنتصرين ، وسوف ننتصر بفضلك .
باسم الشعب الكريتي ، وبثفويض من ضباط البلد ،

حكماء مقاطعة كانيه الرابع
ج زيبراكاس

اوتفيل هاوس فى ١٧ فبراير ١٨٦٧

كتبت هذه السطور استجابة لامر حاء من عل ، من وسط الغمه .

وهذا ثانى نداء وجهته اليونان الى .

وصلنى خطاب ، خرج من معسكر البائرين يحمل تاريخا من أوما لوس
بحى سيدوينا ، مصطبغ بدم الشهداء . مكتوب بين الأطلال والمونى ،
بين الشرف والحرية . فى هذا الخطاب صيغه أمرة تشوبها سمة بطولية .
وعنوان الخطاب : « من شعب كريت الى فيكتور هوجو » ، ويقول لى :
واصل ما بدأتة .

وها أنذا أسنمر ، وما دامت كانديا التى نلتفت أنفاسها الاخرة
نريدنى أن أتكلم ، فأنا أعاود الحديث .

ويحمل الخطاب توقيع زيمبرا كاكيس .

زيمبرا كاكيس هو بطل هذه النورة الكاندية التى كان زيريسدانى
حائنها .

تتخذ الشعوب فى بعض ساعات البطولة والشهامة أجساد الجنود
الذين هم فى الوقت نفسه أرواح ، فمنهم واشينجنون وبوتزاريس
وجاريبالدى .

وكما نار جون براون من أجل السود . وجاريبالدى من أجل
ايطاليا . يتور زيمبرا كاكيس من أجل كريت .

فاذا واصل زيمبرا كاكيس الجهاد حتى النهاية ، وسوف يفعل ،
سواء هلك مثل جون براون ، أو انتصر مثل جاريبالدى . فانه سوف
يكون رجلا عظيما .

أتريدون أن تعرفوا موقف كريت فى الوقت الحاضر ؟ اليكم بعض
الحقائق .

الثورة لم تمت . لقد استردوا فيها السهول ، ولكنها احتفظت
بالجبال .

انها لم تزل حية ، تنادى ونصبح مستغيتة .

لماذا تارت كريت ؟ لأن الله جعلها أجمل بلاد الدنيا ، وخلق الأتراك
أتعس الخلاق ، لأن عندها حاصلات وليس لها تجارة ، عندها مدن ليس
بها طرق ، وقرى ليس بها دروب ، عندها موانى ليس بها أرصفة .

وانهار ليس عليها قناطر ، وأطفال بلا مدارس ، وحقوق بلا قوايين .
وشمس بلا ضياء . وقد نشر الأتراك عليها أجنحة الليل .

نارت كريت لأنها يونانية وليست تركية ، لأن الأجنبي بها
لا يحتمل ، لأن الطاغية ممقوت اذا كان من جنس المضطهد ، أما اذا لم
يكن كذلك فهو بشع ، لأنه لا يمكن أن يكون هناك سيد يتكلم رطانة
بربرية في بلد ايتييارك ومينوس ، لأنك با فرنسا سوف نتورين !

نارت كريت ، وخيرا صنعت .

ما الذى نتج من هذه السورة ؟ سوف أخبركم . أربع معارك لغاية
يوم ٣ يناير ، منها انتصارات ثلاثة : أبوكورونا ، وفافيه ، وكاستل
سيلينو ، وكارثة مشهورة : أركاديون ! وقد شققت الثورة الجزيرة
قسمين ، فأصبح نصفها للأتراك والنصف الآخر لليونانيين . وهناك خط
للعمليات الحربية يمتد عن طريق سكيغو وروكولى ، من كيساموس الى
لاسيثى ، بل والى جيرابيترا . ومنذ ستة أسابيع لم يعد للأتراك المريدس
سوى بضعة نقاط على الساحل ، والسفح الغربى لجبال بسيلورينى حيث
أميليرسا . وفى تلك اللحظة كان خليقا بأصبح أوروبا المرفوعة ان تنقذ
كانديا . ولكن أوروبا لم يكن لديها وقت لذلك . كان هناك زفاف فى
تلك اللحظة ، وكانت أوروبا تتفرج على الحفل الراقص .

يعرف الناس كلمة أركاديون ، ولكنهم يعرفون القليل عن الحقيقة .
واليكم التفاصيل الدقيقة المجهولة تقريبا . فى أركاديون ، وهى دير جبل
ايدا ، أسسه هيراكليوس ، هاجم سنة عشر ألف تركى مائة وسبعة
وتسعين رجلا وثلاثمائة وثلاث وأربعين امرأة وأطفالهم . وكان مع الأتراك
سنة وعشرون مدفعا ، ومدفعا حصار ، ومع اليونانيين مائتان وأربعون
بنديقية . واستمرت المعركة يومين وليلتين . واخترق جدران الدير ألف
ومائتا كرة حديدية من كرات المدافع . وانهار جدار منها . ودخل
الأتراك ، وواصل اليونانيون المعركة ، ولم تعد مائة وخمسون بنديقية
صالحة للاستعمال ، واستمر القتال فى الحجرات الصغيرة والسلالم ست
ساعات . وكان فى الفناء ألفا جثة . وحشود الأتراك المنتصرين تملأ
الدير . ولم يبق غير قاعة محصنة بالمتاريس ، بها مخزن البارود .
وفى هذه القاعة ، بالقرب من المذبح ، وسط جماعة من الأطفال والأمهات ،
رجل فى الثمانين من العمر ، هو الراهب جابرييل ، يصلى . وفى الخارج
يقتل الأتراك الآباء والأزواج . ولكن خلاص النساء والأطفال من القتل
من شأنه أن يلقي بهم فى مهاوى الشقاء والتعس فى حريم الأتراك .
وكان الباب الذى انهالت عليه دقات القفوس على وشك الانهيار

والسقوط . وناول الشيخ المسن من فوق المدبح سمعدانا ، ونظر الى هؤلاء الأطفال والنسوة وأمال الشمعدان فوق البارود ، وحلص الجميع . ووقع انفجار رهيب ، انقذ المنهزمين ، وانقلب النزاع الأخير نصرا . وباد هذا الدير البطولي الذى قاتل كما تقاتل القلاع الحصينة . باد كالبركان .

ليست يسارا أعظم بطولة . وليست ميسولونجى (١) أعظم سنا من أركاديون .

بلك هى الوقائع ، فماذا تفعل الحكومات التى يقال عنها متحضرة ؟ ماذا سطر ؟ انها تتهاشم قائلة : صبرا ، فنحن نتفاوض .

نتفاوضون ؟ وفى هذه الأثناء نقتلع أشجار الزيتون والقسطل (٢) . وهدم طواحين الزيت ، وبحرق القرى والمحاصيل . ونرسل مجموعات كاملة من السكان الى الجبال ليموتوا فيها من الجوع والبرد . ويذبح الأزرار . ويشنق الشيوخ . ونسج جندي تركى يبصر طفلا طريحا على الأرض ، فيدس فى فتحتى أنفه سمعة مشتعلة ليستنشق من وفاته . وعلى هذا النحو استيقظ فى أركاديون خمسة من الجرحى فذبخوا لغورهم .

تقولون صبرا ! وفى هذه الأثناء يدخل الأتراك قرية مورنييس التى لم يبق فيها سوى النساء والأطفال . وعندما يخرجون منها ، لا تشهد العين سوى كومة من الخرائب منهارة على كومة من الجثث الآدمية . كبيرة وصغيرة .

والرأى العام ؟ ماذا يفعل ؟ ماذا يقول ؟ لا شئ . انه يشيخ بوجهه الى الساحة الأخرى . ماذا تريدون ؟ عيب هذه الفواجع أنها لا تساير العادات الشائعة .

يا للأسف !

وننتهى السياسة الصبور التى تنتهجها الحكومات الى نتيجتين : امتناع العدالة عن اليونان ، وامتناع الرحمة عن الجنس البشرى . أيها الملوك ، كلمة واحدة سوف تنقذ هذا الشعب . لقد أسرعت أوروبا فقالت كلمتها . هيا قولوا هذه الكلمة . فيم نفعلكم ان لم يكن فى هذا الخصوص ؟

(١) مدينة فى اليونان على البحر الايوني ، اشتهرت بالدفاع الطويل الذى مضى به سراريس للاتراك فى عام ١٨٢٢ . ١٨٢٥ ، ومات فيها الساعر الانجليزى برون - المترجم .
(٢) أبو فروه - المترجم

ولكن لا ، انكم تصمتون ، وتريدون أن يصمت الجميع .

الحديث عن كريت محظور ، وهذى هى الخطة المرسومة . وهناك ست
أو سبع دول كبرى تنأمر ضد شعب صغير . ترى ما عساها تكون هذه
المؤامرة ؟ انها أشد المؤامرات خسة ونذالة ، مؤامرة السكوت .

ولكن الرعد فقيض السكوت . والرعد يأتى من العلواء ويسمى فى
لغة السياسة : النورة .

(فيكتور هوجز ،

الغينانيون (١)

بعد كريت ، نتجه ايرلندا نحو ذلك المقيم فى جيرنسى . فيكتب اليه نساء الغينانيين المحكوم عليهم . ومن ثم حرر فيكتور هوجو تلك الرسالة الى انجلترا .

الى انجلترا

الكرب والعمه فى دبلن . الأحكام تتعاقب ، وقرارات العفو عن المحكوم عليهم لا تصل وثمة خطاب بين أيدينا يقول : « . . . سوف ننصب المشنقة ، فتبدأ نشاطها بالجنرال بيرك ، وبعده الكابتن مكافرتي ، والكابتن ماكليور ، ثم ثلاثة آخرون ، كيلى وجويس وكولينين . . . لم يبق أمامنا دقيقة واحدة نضيعها . . . نساء وفتيات يتوسلن اليك . . . نرى هل يصلك خطابنا فى الوقت المناسب ؟ . . . » نقرأ هذا الخطاب ولا نصدق ما يحويه . يقال لنا : المشنقة مستعدة ، فتجيب : هذا مستحيل . لم يجر العرف على اعدام مرتكبى الجرائم السياسية ، فضلا عن أن عقوبة الاعدام مكروهة حتى للجرائم العادية . لا ، المشنقة السياسية لا يمكن أن يكون لها وجود فى انجلترا . لم تهلك انجلترا لكوسوت (٢) لتقيم هى مشانق مثل مشانق هنغاريا ، ولم تمجد انجلترا جاريبالدى لتعود الى مثل مشانق صقلية . ترى ما معنى الهتافات التى تطلقها لندن وساوثمبتون؟ ألقوا اذن كل لجانكم البولندية واليونانية والايطالية ، وكونوا مثل

(١) الميانية حركة سياسيه ثوريه انتظم فى ايرلندا عام ١٨٦١ بفصد بحريها .
السيطرة الانجليزية وامتد نشاطها الى امريكا - المرحم .
(٢) لويس كوسوت (١٨٠٢ - ١٨٩٤) بطل وناظر هنغارى ، زعيم ثوره عام ١٩٤٨
فى هنغاريا . احبر رئيسا للحكوم فى ابريل ١٨٤٩ - وحيما اطبقت القوات المساوية
والروسه على هنغاريا ومعبع الثورة فر الى تركيا ووضى بعه حياته منفيا عن البلاد . ومات
فى ايطاليا - المترجم .

اسبانيا • كلا ، لن نعدم انجلترا ايرلندا فى عام ١٨٦٧ مثلما فعلت اليزابيث عندما قطعت رأس مارى ستيوارت •

فالقرن التاسع عشر حى يرزق •

هل يشنق بريك ! مستحيل • هل تحاكون نالافرو فى قنله جون براون ، وشاكون فى قتله لوبير • وجيفرار فى قتله ديلاورم الصغير ، وفرديناند فى قتله بيزاكان ؟

عجبا ! أبعد الثورة الانجليزية ، والبورة الفرنسية ، وفى العصر العظيم الذى نحن فيه ، عصر النور ، لم يقل أحد شيئا ولم يفكر أحد فى شيء ، ولم يتم الاعلان عن أى شيء ، أو انجاز أى شيء منذ أربعين سنة •

عجبا ، أتحدث مثل هذه الأشياء فى حضورنا ، ونحن أكثر من متفرجين ، بل نحن شهود عيان ! عجبا ، أما زالت العقوبات القديمة الوحشية قائمة ! عجبا . أما زالت مثل هذه الأحكام تصدر حتى هذه الساعة : « فى يوم كذا ، بتاريخ كذا سوف نجر على الحصار فى المكان الذى سنعدم فيه ، ثم يقطع جسدك أربع قطع تترك نحت نصف صاحب الجلالة الذى سيأمر بما يتبع بشأنها حسب ما يتراءى له » عجبا ! فى ذات صباح من شهر مايو أو يونية ، اليوم أو غدا ، سوف تولى بدا رجل بالحيال ويغطى رأسه بطاقيّة سوداء ويشنق ويخنق حتى تفيض روحه ، لأنه ذو عقيدة سياسية أو وطنية ، ولأنه ناضل من أجل هذه العقيدة وانهزم ! لا ! لست انت انجلترا التى نفعلن هذا !

انك تمنازين على فرنسا فى الوقت الحاضر من حيث أنك أمة حرة • أما فرنسا التى تضارع انجلترا فى عظمتها فانها ليست الآن سيده نفسها ، وفى هذه الحال اذلال شديد لها ، ومن أجل هذا تزهين وتتفاخرين • ولكن حذار : قد يتقهقر الانسان قرنا كاملا فى يوم واحد • واثبت يا انجلترا ترتدين الى الوراء ، الى المسنقة السياسية ! اذن أقيمى تمثالا لجيفريز (١) •

وفى هذه الأبناء سوف نقيم نحن تمثالا لعولير •

هل فكرتم فى ذلك ؟ عجبا ! عندكم سريدان وفوكس اللذان وضعنا

(١) حامل الأحكام (وزير العدل) فى انجلترا فى عهد سارل السابى وحاك الثانى حلب لنفسه كراهية الشعب بسبب الاحكام الجائرة القاسية التى أصدرها - المترجم •

أسس البلاغة البرلمانية ، وهوارد الذي زاد في تهوية السجون وخففه العقوبات ، وولبرفوردس الذي ألغى الرق ، ورولاندهل الذي نشط حركة البريد ، وكوبدن الذي خلق حرية التجارة . لقد دفعتهم العالم الى الاستعمار ، ومددتهم أول خط (كابل) تلغرافى عبر المحيطات . أنتم الذين نضجتم كل النضج فى عالم السياسة ، وتمارسون الحقوق الوطنية العظيمة بكل أشكالها ممارسة رائعة . عندكم حرية الصحافة ، وحرية الخطابة ، وحرية العقيدة ، وحرية تكوين الجمعيات ، وحرية الصناعة ، وحرية السكن ، والحرية الشخصية . وسوف تصلون عن طريق الاصلاح الى الانتخاب العام ، أنتم بلد التصويت ، وقائمة الناخبين ، والاجتماع . أنتم الشعب القوى صاحب قانون « احضار المتهم الى قاعة المحكمة » (١) . بديع ، أضيفوا اذن الى كل هذه العظمة شيئا آخر . أضيفوا « بريك المشنوف » . أنتم أعظم الشعوب الحرة ، وبسبب هذا بالذات تصبحون أصغرها .

لا يعلم الانسان مدى التخريب الذى نسبته قطرة من العار فى داخل المجده والفخار . فبعد أن كنتم الأوائل تصبحون الأخيرين ! ما هذا الطموح المعكوس ؟ ما هذا التعطش الى الانخراط ؟ لن تعرف القارة الأوروبية بريطانيا العظمى المهينة صانعة التقدم أمام هذه المشائق الجديدة بجنون جورج الثالث . ولسوف شيع الأمم بوجهها عن هذا العمل المنافى للمدنية . ومن عساه يقترب هذا العمل ؟ انجلترا ! يا لها من مفاجأة مفاجئة ، ودهشة تبعت على الأسى . ما أبشعها شمس يخرج منها الليل فجأة !

لا ، لا ، ثم لا ! أقول لكم ثانية أنكم لستم انجلترا التى تفعل هذا . أنتم انجلترا مرشدة الأمم الى التقدم والعمل والمبادأة والحقيقة والحق والعقل والعدالة وجلال الحرية ! أنتم انجلترا التى تعرض علينا صورة الحياة ، لا شبح الموت .

أوروبا تدعوكم الى الواجب .

ان الدفاع عن هؤلاء المحكوم عليهم ، انما هو مبادرة الى نجدة ايرلندا ، وهو أيضا مبادرة الى نجدة انجلترا . فالأولى معرضة للخطر من ناحية حقها ، والثانية من ناحية مجدها .

لن نقام المشانق أبدا • ولن يموت ماكليور ومافرنى وكيلى وجويس.
وكولينان • أيتها الزوجات والبنات اللوانى كتبن خطابا لرجل منفى ،
لا حاجة بكن الى تفصيل النياب السود • انظرن فى طمأنينه الى أطفالكن
النائمى فى مهودهن • انجلترا يحكمها امرأة تلبس توب الحداد • الأمم
لن نيتم أطفالا ، والأرملة لن تجعل النساء أرامل •

(فيكتور هوجر)

اوتفيل هاوس فى ٢٨ مايو ١٨٦٧

وكان لهذا الكلام أثره فى النفوس ، فلم يعدم الغينيانيون

الامبراطور ماكسيميليان

الى رئيس جمهورية المكسيك

- حواريز ، لقد أصبحت ندا لجون براون .
- وأمريكا الحالية لها بطلان . جون براون ، وأنت جون براون الذى انفضى الرق على يديه ، وأنت الذى عاشت الحرية بفضلك .
- لقد خلصت المكسيك بفضل مبدأ ورجل . أما المبدأ فهو الجمهورية ، وأما الرجل فهو أنت .
- ثم ان مصير الاعتداءات الملكية كلها الى الفشل .
- وكل حركة لاغتصاب السلطة تبدأ من مدينة بوييلا وتنتهى فى مدينة كويرينارو .

انقضت أوروبا على أمريكا فى عام ١٨٦٣ . وهجمت ملكيتان على ديموقراطيتكم ، هجمت احدهما بأمير ، وهجمت الثانية بجيش . وأتى الجيش بالأمير . وعندئذ شهد العالم هذا المنظر : من ناحية ، جيش أعظم جيوش أوروبا حنكة ودربة ، يستند الى أسطول قوى فى البحر بقدر ما هو قوى فى البر ، تموله فرنسا ، جيش مستعد دائما ، تحت قيادة قديرة ، مظفر فى أفريقيا والقرم وإيطاليا والصين ، شديد التعصب لرايته . يمتلك جيادا ومدافع ومؤونة وذخائر حربية بكميات هائلة ، ومن ناحية أخرى : حواريز . من ناحية ، إمبراطوريتان ، ومن ناحية أخرى رجل واحد ، رجل معه حفنة من الرجال . رجل مطارذ من بلد الى بلد ، ومن حلة الى حلة ، ومن غابة الى غابة ، يترصده رصاص المحاليس العسكرية المزدولة ، مطارذ ، متسكع ، مرتد الى الكهوف وكأنه حيوان متوحش ، محصور فى الصحراء ، رصدت جائزة لمن يقبض عليه ،

جنرالاته نفر من البائسين ، وجنوده من أصحاب السياب الرنة المهلهلة .
لا مال معه ولا خبز ولا بارود ولا مدفع ، يتخذ من الادغال قلاعاً .
الاغتصاب هنا يسمى عملاً مشروعاً ، والحق هناك يسمى لصووية .
الاغتصاب ، وعلى رأسه خوذة ، وفي يده حسام الأميراطور ، يحييه
الأساقفة ، يدفع أمامه ويحرف خلفه جميع الفرق العسكرية . أما الحق فهو
وحيد وعار . أنت الحق ، وقد قبلت النزال .

واستمرت المعركة ، معركة فرد واحد ضد الجميع ، خمس سنوات .
ولما أعوزك الرجال ، اتخذت من الأشياء قذائف . كان الجو الشديد الفسوة
عونا لك ، وشمسك تابعة لك . اتخذت للدفاع عنك البحيرات التي
يستحيل عبورها ، والجنادل التي تموج بالتماسيح ، والمستنقعات الملأى
بالحيات والنباتات السامة والحمى الصفراء المنتشرة في المناطق الحارة ،
والقفار المالحة ، والرمال الشاسعة التي لا ماء فيها ولا عشب ، والتي نموت
فيها الخيول من الجوع والعطش ، وهضبة « أناهوك » . الكبيرة الصارمة
الحصينة بتجردها ككافيم قشتالة (باسبانيا) ، والسهول ذات الوهاد التي
ترجها الهزات البركانية ، من كولياما الى نيفادو دي تولوكا . واسنعت
بحدودك الطبيعية ، سلاسل جبال الأند (الكورديليير) الوعرة ، والسدود
البارزلية العالية ، وصخور البورفير (١) الضخمة . لقد أضربت حرب
الجبابرة ، فاتخذت من الجبال عدتك للقتال .

وذاث يوم ، بعد انصرام أعوام خمسة في دخان و تراب وعمى ، نددت
الغمامة ، ورأينا الامبراطوريتين صريعتين ، ولم يعد ثمة أثر للملكية ولا
للجيش ، وصار الاغتصاب الفاجر أطلالاً خربة ، وفوق هذا الدمار رجل
واقف هو فواريز ، والى جانب هذا الرجل ، الحرية .

لقد فعلت هذا يا خواريز ، وانه لعمل عظيم . وبقي عليك أن تعمل
عملاً أعظم .

اسمع أيها المواطن ، رئيس جمهورية المكسيك .

لقد جدلت الملكيات تحت وطأة الديمقراطية ، وأريتهم قوتها ،
والآن أرهم جمالها . أعرض الشفق بعد الصواعق ، أعرض الجمهورية التي
تبقي على حياة الناس بعد حكم القياصرة الذي يذبحهم . أعرض الشعب
الذي يحكم على الملكيات المغتصبة المدمرة ، ويعدل في حكمه . أظهر المدنية
للمهيج والمبادئ للطغاة . أشعر الملوك بالذلة والهوان أمام أنوار الشعب
الساطرة ، وأقضى عليهم بالرفقة والحنان .

(١) البورفير نوع الرخام الشديد الصلابة ، لونه أحمر أو أخضر ، ومبرقش -

المبادئ تتدعم خاصة بحمايتنا لأعدائنا • وعظمه المبادئ في الغاصي والتجاهل • الناس لا أسماء لهم أمام المبادئ ، انما هم « الانسان » فحسب • والمبادئ لا تعرف الا نفسها ، فهي في سدا جثها السامية لا تعرف سوى أن الحياة البشرية مصونة من كل اعتداء •

ايه لك أيتها الحقيقة الموقرة في عدم نحيزها ! يا لجمال الحق من غير تمييز ، الحق الذي لا يهمه غير أن يكون حقا •

من أهم الأشياء أن ننبد أسلوب العنف هذا ، أسلوب القتال ، خاصة أمام أولئك الجديريين بأن يموتوا بحكم الشرع • ان أبدع انقلاب يقع لآلة الاعداد ، هو الانقلاب الذي ينم أمام المحكوم عليه •

ضع مبدأ ينقذ هذا الذي اعمدى على المبادئ ، ويكون له فيه السعادة ، كما يكون له فيه الحزى والعار ! وليركن الى الحق ، هذا الذي يضطهد الحق • فاذا جردته من حصانته الكاذبة ، حصانته الملكية ، كشفت عن الحصانة الحقيقية ، الحصانة الانسانية • وانه ليذهل حين يرى أنه قد كرس أمبراطورا من وجه غير وجهه الأمبراطوري • ليعلم هذا الأمير الذي لم يشعر بانسانيته أن في شخصه تعاسة ، تعاسة الأمير ، وفيه جلالة ، جلال الانسان •

لم تسنح أبدا فرصة رائعة مثل هذه الفرصة • أيجرو أحد أن يصرع بيريزوفسكي في وجود ماكسيمليان السليم المعافى ؟ لقد أراد الأول أن يقتل ملكا ، وأراد الثاني أن يقتل أمة •

أي خواريز ، فلتخط بالمدينة هذه الخطوة الهائلة ، أي خواريز ، الخ عقوبة الاعداد من على وجه الأرض •

وليشهد العالم هذه المعجزة : الجمهورية وفي قبضتها قاتلها الامبراطور • وفي اللحظة التي تهم فيها بسحقه ، تدرك أنه انسان ، فتخلي سبيله وتقول له : أنت من الشعب مثل غيرك ، فاذهب !

هناك يا خواريز ، سيكون ثاني نصر لك • كان انتصارك الأول على الاغتصاب نصرا مبينا ، أما انتصارك الثاني ، بالتسامح مع المعتصب ، فسوف يكون نصرا ساميا •

نعم ، هؤلاء الملوك الذين غصت سجونهم بالنزلاء ، وتلطخت ما عندهم من آلات الاعداد بدماء القتلى ، ملوك المشائق والمنافى (١)

(١) جمع مسمى - المترجم •

والمعاقل وفيافى سيبريا ، هؤلاء الذين يملكون بولندا ، وأولئك الذين بيدهم هافانا ، وكريت ، أولئك الأمراء الذى بنصاع لهم القضاة ، والقضاة الذين يطيعهم الجلادون ، والجلادون الذين يمتثلهم الموت ، وهؤلاء الأباطرة الذين يقطعون رؤوس الناس بسهولة ، بين هؤلاء كلهم كيف يمكن الابقاء على رأس امبراطور .

اكتشفوا عن قانون النور ، فوق مجموعات القوانين الملكية كلها حيث قطرات الدم تتساقط ، ولبنصر وسط أظھر صفحة من صفحات الكتاب المقدس أصبح الجمهورية موضوعة على هذا الأمر الالهى الذى يقول : « لا تقتل ... » .

هذه الكلمات الثلاث تتضمن الواجب .

والواجب سنؤديه .

سوف يخلص المغتصب . أما المحرر فانه لم يسلم مع الأسف ! فمئذ ثمانية أعوام ، فى الثانى من ديسمبر عام ١٨٥٩ ، تحدثت باسم الديمقراطية ، وطالبت الولايات المتحدة بحياة جون براون ، ولكن لم أستطع انقاذ حياته . واليوم أطالب المكسيك بحياة ماكسيميليان . فهل يا ترى أحصل عليها ؟ نعم ، وربما قد تم خلاصها فى هذه اللحظة .

ان ماكسيميليان يدين بحياته لخواريز

وقد يقول بعضهم : والعقاب !

العقاب ، ها هو :

سوف يعيش ماكسيميليان « بموجب العفو الصادر من الجمهورية »

أوتفيل هاوس فى ٢٠ يونية ١٨٦٧

(فيكتور هوجر)

حرر هذا الخطاب وأرسل فى ٢٠ يونية ١٨٦٧ . وفى اللحظة نفسها ، أى فى الوقت الذى كان فيه فيكتور هوجر يكتب هذا الخطاب ، جرى فى باريس العرض الأول لاعادة مسرحية « هيرنانى » . ونشرت الصحف الانجليزية والبلجيكية الخطاب الموجه الى خواريز فى يوم ٢١ يونية . وفى الوقت نفسه أرسلت برقية من لندن عن طريق سفارة النمسا وبأمر خاص من الامبراطور الهرم فرديناند الثانى تخطر خواريز أن فيكتور هوجر طلب العفو عن ماكسيميليان . ووصلت البرقية متأخرة بعد تنفيذ الحكم بالاعدام فى ماكسيميليان . وفقدت الجمهورية المكسيكية بهذا العمل فرصة عظيمة للمجد والفخار .

٤

فولتير

فى عام ١٨٦٧ ، افتتحت صحيفة « لوسبيكل » اكتتابا شعبيا لاقامة تمثال لفولتير وأرسل فيكتور هوجو قائمة تبرعات جماعة المنفيين فى جيرنسى ، وكتب لمحرر جريدة توسبيكل :

الاكتتاب من أجل اقامة تمثال لفولتير واجب عام .

فولتير رائد

انه حامل سبعة القرن الثامن عشر ، فهو يتقدم النورة الفرنسية ويعلن عنها • انه نجم ذلك الصباح العظيم .

كان القساوسة محقين حين أطلقوا عليه لقب لوسيفير (١)

(فيكتور هوجو)

(١) ابليس - المترجم •



جون براون

نظم مديرو جريدة باريسية اسمها « لأكوؤيراسيون » (النعاون)
منذ بضعة شهور اكتتابا مجددا ببيني (١) واحد لتقديم وسام لأرملة
ابراهيم لنكولن . وعندما تم لهم تحقيق هذا الغرض ، فتحوا اكتتابا مماثلا
من أجل تقديم تذكارة من هذا القبيل لأرملة جون براون ، وأرسلوا الخطاب
الآتي الى فيكتور هوجو :

(بريد أوروبا)

باريس في ٣٠ يونية ١٨٦٧

سيدي

نظمنا اكتتابا بعشرة سنتيم لاهداء وسام لأرملة جون براون .
ولا بد أن يدرج اسمك على رأس قوائمنا . وقد قمنا من تلقائنا بدرج
اسمك في رأس القوائم . لك تحياتنا الأخوية واحتراماتنا .

بول بلان

احد مديري صحيفة « لأكوؤيراسيون »

فأرسل فيكتور هوجو الرد التالي :

سيدي

أشكرك

اسمى لمن يريد أن يستخدمه في سبيل التقدم والحقيقة . الوسام
لنكولن يستدعي وساما لجون براون . فلنوف بهذا الدين حتى نسد
أمريكا دينها . وأمريكا مدينة لجون براون بتمثال في متل علو تمثال
واشنطن . لقد أسس واشنطنجتون الجمهورية ، أما جون براون فانه أقام
دعائم الحرية . وانى لأشد على يدك مصافحا .

أوتفيل هاوس في ٣ يولية ١٨٦٧

(فيكتور هوجو)

(١) عملة انجليزية تقدر بصفة مليمات - المرحم .

عقوبة الاعدام الغاؤها فى البرتغال

« من المعروف ان ملك البرتغال الشاب دون لويز دى نوريوجال
قد تفضل قبل أن ينادر بلاده لزيارة المعرض العالمى بالتوقيع على قانون
أقره مجلسا البرلمان بالغاء عقوبة الاعدام »

« وقد أتاح هذا الحدث الخطير فى تاريخ المدينة نبادل الرسائل
اللتين نطالعهما فيما يلى بين أحد نبلاء البرتغال وبين فيكتور هوجو »
(صحيفة بريد أوروبا « فى ١٠ أغسطس ١٨٦٧)

الى السيد فيكتور هوجو

لشبونة فى ٢٧ يونية ١٨٦٧

فرنا بنصر عظيم • بل ان المدنية قد خطت خطوة جبارة ،
وفاز التقدم بأساس آخر متين ! واشتد اشراق نور المعرفة ، وارتدت
الظلمات على أعقابها •

فازت الانسانية بنصر مبين • ولسوف تهنئ الامم الحقيقة ، نهنئها
الواحدة بعد الأخرى ، وتتعلم الشعوب كيف تعرف أصدقاءها الحقيقيين ،
أصدقاء الانسانية •

استاذى ، ان صوتك الذى يصل دائما الى الأسماع حين يتحتم الدفاع
عن مبدأ كبير ، أو تسليط الأضواء على فكرة كبيرة ، أو الاشارة بأنبال
الاعمال ، صوتك الذى لا يكل أبدا من الدفاع عن قضية المظلوم ضد
الظالم ، والضعيف ضد القوى ، صوتك الذى ينصت اليه الانسان
باحترام ، من الشرق الى الغرب ، والذى يصل صدها الى كل مكان ، الى
أقصى بقاع العالم ، صوتك الذى كثيرا ما ارتفع قويا حازما رهيبا ،
كصوت نبي عملاق من أنبياء البشرية ، حتى وصل الى ها هنا ، وفهمه

الناس ، مخاطب القلوب ، ونرجم الى حدث كبير ٠٠٠ فى هذا الركن الذى هو الى ذلك مكان مبارك ، يكاد لا يبين فى أوروبا ، بقعة « مجهرية » (لا نراها العين المجردة) فى العالم ، فى هذه الأرض الواقعة فى الغرب الأقصى ، والتي كانت ذائعة الصيت فى الزمان الماضى . واستطاعت أن تدون صفحات لامعة لا تمحى فى تاريخ الأمم ، وفتحت نغور الهند لتجارة العالم ، وكشفت الحجاب عن بقاع غير معروفة ، وتكاد أعمالها العظيمة أن تكون اليوم منسية ، وكأنها قد أمحت ، محنها الغزوات الاخيرة التى أنجزتها المدنية ، وبالأجمال ، فى هذه البقعة التى تسمى البرتغال .

لم لا ينهض الصغار الأذلاء فى هذه الآونة التى يدنو عيها القرن التاسع عشر من نهايته ، ليصيحوا فى وجه الكبار الأقوياء قائلين : الانسانية نثن ، فلنبعثها حية ، الانسانية تضطرب فلنهدئها ، الانسانية توتسك أن نفع فى الهاوية فلننقذها !

لم لا يستطيع الشعوب الصغيرة أن نرسد الكبيرة الى طريق الكمال ؟ لم لا نستطيع ، بحجة أنها صغيرة فحسب ، أن تعلم الشعوب القوية طريق الواجب ؟

البرتغال اقليم صغير بلا شك ، بيد أن شجرة الحرية قد ازدهرت فيها بقوة من قديم الزمان . البرتغال اقليم صغير بلا ريب ، ولكننا لا نجد رقيقا واحدا ، ولكنها ، كما قلت أمة عظيمة .

أستاذى ، أذف اليك أننا قد وزنا بنصر عظيم .

لقد أقر مجلسا البرلمان أخيرا الغاء الاعدام . هذا الالغاء الذى كان موجودا منذ عدة سنوات وجودا واقعا ، أصبح اليوم حقيقة قانونية . انه قانون بالفعل ، قانون كبير فى أمة صغيرة . فيالها من فدوة حسنة ، وياله من درس مقدس !

تقبل من صديقك المخلص وتلميذك المتواضع فبلاته واحمراماه .

سدرو دى بريتو أرانها

الى السيد بيدرو دى بريتو أرانها

أوتفيل هاوس فى ١٥ يولية

خفق قلبى من تأثير خطابك النبيل . وكنت على علم بالخبر العظيم ، ففرحت حين تلقيت عن طريقك هذا الصدى اللطيف .

لا ، ليس هناك شعوب صغيرة • بل هناك اناس صغار مع الأسف !
وهم أحيانا قادة الشعوب الكبيرة •

الشعوب التى بها طغاة كالسبع المكممة الأفواه •
اننى أحب وأمجد برغالكم الجميلة العزيزة • انها حرة ومن هم فهى
عظيمة •

لقد ألغت البرتغال عقوبة الاعدام •
وانجاز هذا التقدم ، انما هو انجاز خطوة المدنية الكبيرة •
أصبحت البرتغال منذ اليوم على رأس أوروبا •
ومازلتم دوما ، أيها البرتغاليون ملاحين بوسائل ، تتقدمون دائما :
تتقدمون فى المحيط فى الزمان الماضى ، وتتقدمون اليوم فى عالم الحقيقة •
اعلان المبادئ شئ أبعد من اكتشاف العوالم •
واننى أصيخ : المجد للبرتغال ، ولكم الحظ السعيد !
وأشد على يدك الصديقة •
ف.هـ •

هيرنانى

تنشكّل أحكام النفى من تفاصيل متنوعة لا بد من تسجيلها مهما كانت وضاعة الأمر بهذه الأحكام . ويستكمل التاريخ بنيانه بهذه الطرائف . من ذلك أنّ السيد لوى بونابرت لم يحكم بالنفى على فيكتور هوجو وحده ، وإنما نفى أيضا « هيرنانى » . نفى كل مسرحيات الكاتب المنفى . فلا يكفى نفى الإنسان ، بل لا بد أيضا من نفى فكره . بل انهم كانوا يريدون نفى ذكره . وكانت صورة فيكتور هوجو هي سمة ١٨٥٣ تعتبر ضربا من التمرد ، وخطر على السيد بيلفيى والسيد ماريستك نشر صورته على مقدمة طبعة جديدة عرضها للبيع .

وتنتهى الصغائر بأن تبلى وتخلق . لذلك نغد صبر الرأى العام وطالب بما يريد . وفى عام ١٨٦٧ ، صرح السيد بونابرت بمسرحية « هيرنانى » فى مناسبة المعرض العالمى .

وسرى فيما بعد أن هذا الصريح لم يستمر طويلا . وهذا الحظر الثانى لم تظهر هيرنانى على المسرح الفرنسى . ونقول ضمنا ان الكثير من الأشياء التى عملتها الامبراطورية ، تبدو اليوم ونحن فى عام ١٨٧٥ ، ولها قوة القانون فى عهد الجمهورية . وجمهوريةنا تحيا فى ظل الأحكام العرفية ، وتتناهى مع الرقابة ، ولا يسوؤها قليل من النظام الامبراطورى ممزوجا بالحرية . ولم تزل مسرحيات فيكتور هوجو ممنوعة من العرض تقريبا نقول « تقريبا » لأن ما كان صريحا فى عهد الامبراطورية أصبح مستثرا فى عهد الجمهورية . كل ما هنا لك أن الصراحة قد ضعفت بعض الشيء . ويبدو أن المسارح الرسمية تتخذ من فيكتور هوجو موقف الخطر على أعماله ، وتمارس هذا الخطر فى سكون . ومع ذلك تتفجر الطبيعة العسكرية فى بعض الأحيان ، وتتبدى الرقابة فى سداجة عسكرية فتعترف بما فيها من صفات . ويكف الرقيب العسكرى الفظ الطباع عن تلك المظاهر الساذجة ، مظاهر التحشم البلهاء التى يتجلى بها الشرطى المدنى ،

فيظهر على حقيقته . من ذلك أن السيد الجنرال « لادميرو » لم يستخف حين منع عرض مسرحية « الملك يلهو » بمقتضى الأحكام العرفية . بل انه لم يهتم البتة بأن يفسر كيف أن تريبوليه (١) عرض « مارى ألاكون » (٢) للخطر ، اذ نراى له هذا الأمر حقيقة واضحة ، واكتفى بذلك ، وكان لا بد لنا أن نكتفى نحن أيضا بذلك .

ونتذكر أنه حدث منذ سنتين أن قام موظف آخر ، وهو مأمور مركز ، لمجو مسرحية « الشبح » عن اعلانات مسرح من المسارح الافليمية ، وصرح بأنه يجب ، لنشر أى كلام عن مسرحيه من مسرحيات فيكتور هوجو ، الحصول على اذن خاص من وزير الداخلية ، ينجدد لكل حفلة مسائية . ولنعد الى عام ١٨٦٧ .

أعيد عرض « هيرنانى » فى ٢٠ يونية ١٨٦٧ فى نفس اللحظة الذى كان فيها فيكتور هوجو يتشفع من أجل ماكسيميليان . وأرسل اليه بعض الشعراء الشبان الذين نطالع أسماءهم فيما يلى الخطاب التالى :

أيها الأسناذ الجليل العزيز

استقبلنا اعادة عرض مسرحيتكم « هيرنانى » على خشبة المسرح بهتافات حاسية سديدة . وكان للنصر الجديد الذى ناله اعظم شاعر فرنسى رنة فرح كبيرة فى نفوس شباب الشعراء كلهم ، وسوف يكون يوم ٢٠ يونية هذا يوما تاريخيا مشهودا فى حياننا .

ومع ذلك فقد شاعت فى هذا الحفل سخابه من حزن ، اذ كان عبايكم عنه مبعث ألم لرفاتكم فى الكفاح المجيد عام ١٨٣٠ ، فلم يستطيعوا أن يصافحوا يد الأستاذ الكبير الصديق ، وكان عبايكم مع ذلك أشد ايلاسا لنفوس الشبان الذين لم يحظوا أبدا بمصافحة تلك اليد التى كتبت « أسطورة القرون » . وقد صمموا أن يبعثوا اليك اليد التى كتبت الأستاذ الجليل بآيات ولائهم الشديد واعجابهم الذى لا حد له سالى برودوم ، أرمان سيلفستر ، فرانسوا كوبييه ، جورج لافونيستر ، ليون فالاد ، ليون ديركس ، جان ايكار ، بول فترلين ، البيرمرا ، أندره تورييه ، أرمان رينو ، لوى كزافييه دوريكار ، هـ . كازاليس ، ايرنست ديرفيللى .

(١) تريبوليه (المشهور بلوهوريال) مهرج لوبس الثانى عشر وفرانسوا الاول
١ (نوفى حوالى ١٥٢٨) - المترجم .

(٢) القديسة مارجيريت مارى « الاكون » ، راضة (١٦٤٧ - ١٦٩٠) .
شرت شعار « ساكر كور » (القلب المقدس) - المترجم .

وأجاب فيكتور هوجو قائلا :

بروكسل في ٢٢ يولية ١٨٦٧

أيها الشعراء الأعزاء

الثورة الأدبية لعام ١٨٣٠ ، المترتبة على ثورة ١٧٨٩ حدث من أحداث القرن الحاضر وأنا جندي متواضع من جنود هذا التقدم ، أقاتل من أجل الثورة في جميع أشكالها ، في شكلها الأدبي ، والاجتماعي ، سيدي الحرية ، وقانوني التقدم ، ونمطي الميل الأعلى .

لست شيئاً يذكر ، ولكن الثورة هي كل شيء . لقد استقرت دعائم شعر القرن التاسع عشر . كان عام ١٨٣٠ على حق ، وتجلي ذلك في عام ١٨٦٧ . وسمعتكم الطيبة الفتية برهان على ذلك . ولعصرنا منطق عميق لا تدركه النفوس السطحية ، ولا سبيل لأي رد فعل أن يعمل ضده . والفن الكبير جزء لا يتجزأ من هذا القرن . انه روحه .

ولسوف يزداد النور اشراقاً بنصالحكم أنتم . أصحاب المواهب الجميلة الفتية ، والنفوس النبيلة . كان من نصيبنا نحن الكبار الكفاح أما أنتم الشباب فسوف يكون لكم النصر .

ان روح القرن التاسع عشر لتقرن السعي الديموقراطي وراء الحقيقة بقانون الجمال الأبدى . وتيار عصرنا الذي لا يقاوم يقود كل شيء نحو هذا الهدف الأسمى ، نحو الحرية في الممارك ، والمثل الأعلى في الفن . وإذا صرفنا النظر عن كل ما هو لاصق بشخصي ، رأينا بالتأكيد أن الاتحاد قد تم بين جميع الكتاب ، والمواهب ، والممارك من أجل تحقيق هذه النتيجة الرائعة . ويريد الشباب الكريم ، وأنتم منه ، بحماسة عظيمة . أن يحقق الثورة الشاملة ، في الشعر ، كما يحققها في نظام الدولة . فلا بد أن يكون الأدب ديموقراطياً ومثالياً في وقت واحد ، ديموقراطياً من ناحية الحضارة ، ومثالياً من ناحية الروح .

المسرحية هي الشعب . الشعر هو الانسان . وهذا هو اتجاه عام ١٨٣٠ الذي واصلتم السير فيه ، واستوعبه التقدم العظيم في وقتنا الحاضر . واني لأؤكد أنه ليس ثمة جهد رجعي بقادر على التغلب على هذه الحقائق . فالنقد السامي على اتفاق مع الشعر السامي .

واني ، على قلة شأنى ، لأشكر وأهنئ هذا النقد السامي الذي يتحدث بثقة ومقدرة في الصحافة السياسية والأدبية ، ويتمتع بإدراك عميق لفلسفة الفن ، ويهتف بالاجماع لعام ١٨٣٠ كما يهتف لعام ١٧٨٩ .

وتقبلوا شكرى أنتم أيضا ، يا زملائي الصغار •
وفى هذه المرحلة من الحياة التى أمر بها ، أبصر بوضوح النهاية ،
أى اللانهاية • وعندما تصبح هذه النهاية وشيكة ، لا تترك مبارحة هذه
الأرض فى نفوسنا سوى هموم قاسية • ومع ذلك فقبل أن يبدأ هذا
الرحيل المحزن الذى أعد له العدة فى وحدتى هذه ، يسعدنى أن أنلقى
رسالتكم البليغة التى تجعلنى أحلم بالعودة بينكم ، وتبعث فى نفسى وهما
بتلك العودة • فما أحلى الشئبه بين الغروب والشروق انكم ترحبون
بشخصى ، أنا الذى أستعده للقاء الاله القدير •
شكرا • أنا الغائب من أجل الواجب ، عزمى قوى لا يتزعزع ،
ولكن قلبى معكم •
وانى لفخور بأن أرى اسمى محاطا بأسمائكم • ان أسماءكم أكليلى
من النجوم •

فيكتور هوغو

٨

مبتننا (١)

الى جاريبالدى

هؤلاء الشبان ، أولاد برتوس وكامبى ،
 وترازياس ، كم كانوا ؟ أربعة آلاف •
 كم مات منهم ؟ ستمائة • احصوا ، انظروا •
 شتان من أشلاء بترتها القنابل ،
 أذرع مقطوعة ، عيون سود مثقوبة ،
 بطون تنهشها ذئاب تعوى خرجت من مرائبها ،
 لحم آدمى مضروب بالرصاص وسط الأيكات •
 هذا كل ما تبقى بعد الخيانات ،
 بعد الفخاخ ، بعد الكمائن المشيئة ،
 واحسرتاه لتلك القلوب الكبيرة والنفوس العظيمة !
 أنظروا ، لقد حصدوا بالمناجل •
 جريمتهم ؟ أرادوا روما وما بها من أقواس النصر ،
 كانوا يدافعون عن الشرف والحق ، عن هذه الأوهام •
 اقتربن أيتها الأمهات ، تعرفن على أولادكن !
 فالانسان دائما هو ابن من أرضعته •
 انظروا ، هذا الجبين الزائع الذى اخترقته رصاصة شدخته ،
 انه الرأس الأشقر المسكين الذى كنت أيتها المرأة المسكينة ،
 ترينه فيما مضى يتلأل فى الشفق ، وينبلج فيه الروح •

(١) قرية ايطالية بالعرب من روما ، انهزم عندها جاريبالدى أمام الجيوش البابوية
 والفرنسية فى ٣ نوفمبر ١٨٦٧ ، المترجم •

هاته الشفاء التى لطح العشب زبدها ،
هذه اليد الباردة ، بالقرب من تلك الأجفن المخلقة ،
كانت تفجر لبنك بين أصابعها الوردية •
ها هو ذا المولود الأول ، وها هو ذا المولود الأخير •
ايه أيها الأمل الذى خبا ، فأصبح كومة نعسة !
ادمع غزيرة ! كانوا أحياء ، وطالبوا بنهر التيبر ، نهرهم •
الشباب لا يكتمل ، من غير حرية •
أرادوا التحرير ، والترميم ، العزاء ،
وكان كل واحد منهم يعانى فى نفسه ، فى ورع وإيمان •
جماع الإهانات التى يعانىها الوطن •
كانوا يعرفون حساب كل شئ ، فيما عدا الأعداء •
واحسرتاه ! ها أنتم اذن نائمون نوما أبديا !
انقضت سويغات النور والحب •
فلن تقطفوا مع خطيباتكم ،
أوراق زهور المروج اليبانة اللألاء ••
كم من دماء فوق هذا القس ، أيها المسيح الشاحب اللون

حبر عظيم مختار ، مسه الملاك بخوصته ،
أمره الله أن يمسك برقة وهدوء ،
انجيله مفتوحا على العالم اليتيم •
أيها الأخ ، أتح الناس كلهم ، ذو الرداء الكتانى ،
نصفك على المنبر ، ونصفك الثانى فى القبر •
حادم الحمل ، وحارس الحمام ،
أنت الذى تحمل من السماوات زنبقة ترتجف فى يدك •
أيها الانسان الدانى من نهايتك ، لأن جبينك ناصع البياض ،
وهواء القبر يتلاعب بين شعرات رأسك ،
أنت يانائب ذلك الذى كان يعرض خده الثانى ،
يامن تنثر الغفران بلا حساب ،

ان ما يتلج صدرك فى هذه الساعة . وما باركه
على أرضنا الظلماء حيث تناضل الروح البشرية ،
انما هى بندقية تقتل أثنى عشر رجلا فى الدقيقه !

١

ويظهر يوليوس النانى (١) تحت تاجه الأسقفى الحديدى
وأخيرا تؤيد البابوية الشرسية الجحيم .
حفا ، لقد قامت أداة الموت بمهمتها خير قدام .
وهؤلاء الملوك ! صاعقنهم خائنه ، ورعدهم جبان .
كنتم أيها الفرنسيون فيما مضى عظماء ، ما أثقل ذلك على النفس .
كنتم فيما مضى واحدا ضد عشرة ، وأنتم اليوم عشرة ضد واحد .
أيا فرنسا ، لقد جلدوك بالعار ، وساقوك ، وربطوك ،
وأجبروك على استعباد إيطاليا .
هاك ما صنعه بك ، أنت الماردة ، فريسة الأقزام !
جدول يغلى ويسيل على سفح جبال الأينين .

٢

يا أيها الشيخ المنحوس ، ها أنت ذا مسئول
عن الرخمة التى تنبش الرمال لتخرج جمجمة ،
وعن نعيق الغربان المشنوم !
املئى من الآن خيالاته ، أيتها القبور ،
والبقاع البشعة حيث تتجول بنات عرس ،
وأشباح الطيور الجاثمة على هياكل عظمية !
فاذا نام ، اظهرى له يا ساحة الحرب المظلمة .
المدافع ساخنة ، لقد أدت واجبها ،
والمدفع الرشاش الذى دعى قلبى الدعوة وأنجز الوعد ،
وانتهى كل شئ ، وقضى الموتى ، فلتقرأ القديس ،
ولتتناول القربان المقدس بين أصابعك بعد أن تجففها قليلا ،

(١) نابا روماني (يولييان دو لاروفير) من ١٥٠٣ الى ١٥١٣ - كان سياسيا كبيرا

واشترك فى حروب إيطاليا - المترجم .

اد لا يليق أن تلطخ الاله بالدم !
 كل شيء مع ذلك بديع ففرنسا ليست فخورة ،
 وملك بروسبا يضحك ، وأموال سان بير موفورة
 والايرلندى يبدل آخر قرش فى جعبته ،
 ويستسلم الشعب ويركع على ركبتيه ،
 وينتنى كما ينتنى العشب خشية أن يحصده أحد •
 ويسترد العدو فروزيون ، ويدخل فيثيرب ،
 ويأمر قصر الروسية باقادة شعائره الدينية •
 وفى كل واد استلقى فيه ميت شاحب اللون ،
 جاء الجرز فرحا ينهشه ، ويرنجف خشية أن يتحرك الميت •
 هنا الأرض سوداء ، هنا السهول حمراء
 لم يعد جاريبالدى سوى اسم خالد لاجدوى منه ،
 مثل ليونيداس ، ومثل وليم تل •
 أما البابا فانه يضع كل جواهره فى سكستين وجيزى وكارم •
 وهو لركة مشاعره ، ينثر دموع الفرح •
 انه وديع للغاية ، يتحدث عن نجاح أسلحته ،
 والدم المهرق ، والفرنسيين الطيبين ،
 وكميات الرصاص التى يقذفها المدفع •
 وفى تواضع ، وعيناه مطرقتان ، كأعين الشعراء ؛
 يتلقى من البعض رجاء بأن يتفضل بتلاوة أشعاره •
 الطرق مغطاة بمواكب الجرحى
 والنصر يضحك فى كل مكان
 فائدة الخونة
 بينما انت جالس أيها البابا على عرشك ، تحت مظلتك ،
 بين الآلىء ، والذهب والحريز ، وسط فرسانك
 الذين كنت بالأمس تقودهم بأصبعك فى ميدان القتال ،
 وعلى رأسك تاجك البابوى ذو الشعب الثلاث ،
 تبصر أيها القس ذات يوم فى الفاتيكان
 رجلا حزينا يدخل عليك متسرلا بشياب بالية ،

رجلا مسكينا لا يعرفه أحد • فتقول له .
 من أنت يا عابر السبيل ؟ ماذا تريد مني ؟ أخرج أنت من السجن ؟
 لماذا نرى هذه الفتل من الصوف على كتفك ؟
 وسوف يجيب الرجل قائلا : كانت ساء فوقها منذ قليل •
 أنا آت من بعيد • أنا اليسوع •

٣

فيعد للبطل ! حبل للرسول !
 جون براون ، جاريبالدى ، مروا الواحد بعد الآخر •
 من هذا السجين ؟ انه بطل التحرير •
 على الأرض ، فى كل مكان ، من الفطب الى خط الاستواء ،
 يسود الظلم ، ويننصر ، ويقود الضمير الانساني
 بالقوة والجبن والنذالة •
 يا للمعجزات المخزية ! يا لقلّة الحياء العجيبة !
 يتلقون الصفعات على أيدي السفراء ،
 يكللون بالحديد ذلك الذى أحسن البنا •
 أنت تعلم أنى لمتك لأنك أعطيت هذا العرش !
 كان شريفا ، فأصبح شرطيا •
 أنه مدين لمملكة ، ومن ثم يوفى دينه بالنفى •
 المرء خسيس • ولم لا ؟ فهو يؤمر بأن يكون خسيسا •
 فلنرحل على الأرض • أسلم للانسان أن يلحق سيده من أن يعضه •
 ثم ان كل شيء معقول • أين اللامعقول ؟
 السجن السحيق للمجد ، أما الجريمة فلها البخور •
 فمم تشكون ؟ لما كان صاحب الخزى هو صاحب المقام الرفيع ،
 فلا بد أن تكون الحقيقة زورا وبهتانا ، وهكذا يستقيم الميزان •
 يقال للجندي : اضرب ! فلا بد له أن يضرب •
 الموت هو الخادم الكئيب الذى ينفذ أوامر الأقوى •
 ثم ان النسب قد يأتى ليساعد البجعة !

- ضرب الرصاص هو المبدأ . أما الايمان فهو الأمر .
- ما الجندي فى نظركما ؟ حديد يحميه خادم .
- يريد البابا نصرا كنصر سادوفا ، فليكن له ما يريد !
- ماذا اذن ؟ هل يبلغ الأمر بنا فى القرن الذى نعيش فيه ،
- ان نناقش القانون القديم الذى يفرض على الناس
- أن يطيعوا أميرهم . ويقتتلوا فيما بينهم ؟
- لم السعى فى سبيل التقدم المزعوم ،
- مادام السوق ثابتين على عاداتهم ؟
- ويتمتع الجمهور بأكثر قدر من الهدوء لأن عندهم أقل قدر من المعرفة .
- ان كل المصالح الكبرى عند الشعوب ، كآلة الاعداء ،
- والحرب ، والميزانية ، والجهل الضرورى ،
- لاتتعرض الا للقليل من الأخطار ، وهى متوازنة عند الانسان
- المشدود الوفاق أكثر مما هى متوازنة عند الانسان الحر .
- الانسان الحر يتحرك ويسبب الاضطراب .
- ورجل مثل جاريبالدى يستطيع أن يحطم كل شئ فى أية لحظة ،
- ويجر خلفه الجماهير التى تفر ،
- وتنتقل الى المل الأعلى . وهذا شئ خطير .
- ومن المفهوم حقا أن المجتمع الذى يرباه الملوك ،
- حقيق بأن يهتز ويرتعد ويصيح طالبا النجدة .
- اذا كان هناك بطل لم تغل يده عن البطش .
- والظلام ينهم المنار بجريمة اللمعان .

٤

- لم يجد جاريبالدى الوسيلة المثلى لتعريف الامور
- ليست غاية كل انسان فى هذه الحياة الدنيا
- ألا يكون غرا الا بأقل قدر مستطاع ؟
- الاستمتاع شئ جميل . والحياة رماية على مرمى .
- الضمير الحى فى الأسماك يرتجف ، وانى أرثى له .
- لاشئ يملك من الفضيلة أكثر مما تملك الخزائن المليئة .

من مصلحة الناس كلهم أن يكون هناك أمراء
 يتشرون الذهب في الأقاليم .
 من أجل هذا يجب أن يكون المالك غنيا ،
 ومن الواجب أن يقرر له راتب ضخم .
 أما البابا الذي يريدون أن يكون مكانه في الكواكب
 فانه ملك كسائر الملوك ، في حاجة الى القروش .
 يا للشيطان ! الرخاء هو قانون الكنيسة ،
 ولا بد من طلاء البابا بالذهب حتى يمكن اثبات وجود الله .
 أما أن يكون الانسان معذما لا يملك حجرا يريح عليه رأسه ،
 فهذا خليك ييسوع المسيح . والأسماك الرنة عار .
 لنبحث المسألة من الوجهة الأخلاقية .
 ان غاية الكولونيل أن يصير جنرالاً ،
 وغاية المارشال أن يكون قائداً أعلى للجيش !
 ولنتكلم بصراحة . اننا نريد مرتباتنا قبل كل شيء .
 المنكر لمبادئه مخطيء طالما لم يكن في رتبة مشير
 فان كان مشيراً فهو على حق . المهم هو الفنى والانراء
 انظروا ، ها نحن نتمثل بأفراد ، أسرة هانوفر .
 أما هؤلاء اللصوص قطاع الطرق الذين يريدون أن يبقوا فقراء ،
 فانهم أعداء الشعب . ويل لهم ، الخارجين على القانون ،
 انهم مثل سىء . اسجنوا هذا الصعلوك ،
 الذى كان حاكماً مطلقاً فلم يضع في جيبه شيئاً .
 عندما يمس الانسان الناقوس يصطدم بالمقرعة .
 وعندما يقترب من القسيس يجده جندياً خسيساً .
 ويح نفسى ، ليست البابوية موضوعاً من مواضيع الفن .
 فبالجسام فى أسبانيا ، وبالعصا فى ألمانيا .
 والرقابة فى فرنسا ، يخفون ويشذبون
 الاغراق فى الأحلام والميل الى الحق .
 الشعب عند الأمير حذاء شديد الضيق ،
 من المفيد توسيعه باستهلاكه في المسيرات العسكرية .

ويستطيع صاحب النيافة ، بمواعظه الدينية الصارمه ،
 أن يلصق بالسماء تلك القوانين التى نسجها عاسفة •
 أما المجلدة ، فان اللاتينية تسميها « سيلابس » (المنهاج)
 النظام كل شيء • وبندقية « شاسيو » حلوة
 والتقدم مبارك ، ولكن فيمن ؟ فى الزواوى (١)
 وكرات المدافع مباركة فى طلقانها ، وابن آوى
 مبارك فى جوعه ، اذا كان من أتباع البابوية •
 أما نحن ، فانا نرى شيئا عظيما أن يسخر
 البابا من هذا الجيل الغبى ، ويحطم ويضرب •
 وما أن يحاول بعضهم أن يأخذ منه ماله ،
 حتى ينقلب دون حياء شرطيا يجمع الجنود ،
 ويضرم نيران الحرب وبصيح : الموت للأحرار •
 فليوص فى عظة الأحد باستخدام قنلة المدفع ،
 ولبقل فى ختام صلاته : اذبحوا !
 وليرسل الى المحاربين عربات كثيرة مشحونة
 بالبارود والحديد والرصاص والمؤن ،
 ويغذى عمليات الابادة فى ميادين القتال •



فليذهب اذن ! ليذهب حاملا تفويض الشعب له •
 ليذهب ، هذا الفارس ، فارس الشعوب التائه ، هذا الجندى ،
 هذا الفارس المغوار ، حامى المنزل الأعلى ، ليرحل •
 أما نحن المنفيين من أيتنا ، فانا نفتح أبوابنا
 لهذا المنفى من اسبرطة ، وليكن اليوم ضيفنا
 ولبدخل دارنا المظلمة ، وهو مشرق الأنوار •
 نعم ، تعا أيها الأخ المكروب ، ان كل واحد منا ،
 يريد أن يجعل من منفاه وطننا لك !

(١) حندى فرنسى بلباس أهل الجزائر والمغرب - المترجم •

نعال ، اجلس مع أولئك الذين لم يعد لهم دار •
 نعال ، أنت الذى استطاعو أن يهزموك ، ولم يستطيعوا أن يطوؤوك
 ولسوف نبحت عن اسم للأمل •
 سوف نقول : ايطاليا ! فتجيب أنت قائلا : فرنسا •
 وسوف ننظر الى النجوم وهى تشرق ،
 ونحن نصبو الى نيل الحقوق ، فالليل يبعث الأحلام •
 حب الانسانية يخالطه شيء من الحقد ،
 يعادل نقل العبودية ، وبرودة السلاسل ،
 وأكاذيب القسيس ، وقسوة الملك •
 اننا نزار ونخيف • لماذا ؟
 لأننا نحب • اننا نريد أن نرى كل هذه الرؤوس الصغيرة
 ننمو وتشب • نحن وحوش فى مراتبها ،
 ولشعوب هى صغارنا
 أنا وأنت يا أخى ، قد ألقوا بنا على نفس الصخرة ، ولكننا لم نغرق عندها •
 وسوف يحكى كل منا للآخر قصته •
 سوف تحكى لى قصة باليرمو وانصارك فيها ،
 وسوف أحكى لك عن باريس ، وسقوطها ، وزفراتنا ،
 ونقرأ معا هوميروس على حافة الأمواج ،
 ثم نواصل سيرك القوى الجرى •
 وهناك يتحول البريق حريقا •

٦

آه ! أيها الشعب الايطالى ، لقد كان دعامتك •
 آه ! أيتها الشعوب ، كنت ستظفرين بروما بفضل ،
 بفضل ذراع المحارب ، بفضل قلب النبى •
 كان حقيقا أن يعطيها اباكم أولا ، ثم يصلحها بالتالى •
 نعم ، انه فى هدوئه ، وفى عظمتة التى تكفى
 لأن تلحقه دون صعوبة بالأبطال الغابرين
 كان خليقا بأن يعيد بناء روما ، وأن يمزج

أمتولة القبر القديم بأمتولة المعبد القديم ،
 كان خليقا بأن يجمع بين تورين وبيزا وألب وفيلماينرى ،
 ويجمع الكاينول بيميزوف ، ويعجن ،
 روح جوفينال بروح دانتي ،
 ويزيد من صلابة معدن الاستقلال
 ويريكهم الطرق المجيدة ، طرف الجبابة •
 ابكوا أيها الايطاليون ، انه كان خليقا بأن يجعلكم من الرومان ••

٧

وتم ارتكاب الجريمة •• من ارتكبها ؟ هذا البابا ؟
 لا • هذا الملك ؟ لا • السلاح يقلت من سواعدهم الهزيلة •
 من المذنب اذن ؟ انه الرجل الغامض
 الذى نربص خلف حائطنا
 انه ابن « سينون » الاغريقى ، وابن يهودا الاسخريوطى
 ذلك الذى ترصد للجمهورية مبسما ،
 وايمانه فى جبينه ، وخنجره فى يده •
 انه بينكم ، أيها الملوك ، أيتها الجماعة التى تكاد تتجرد من الانسانية ،
 رجل يرمقه البرق من حين الى حين •
 هذا المدان ، الذى يصاعف حوله الحرس
 يضيق جهده سدى • ان دوره يصرب • منى ؟ عما هريب •
 ولهذا نسمع هديرا فى الأعلى •
 الظلام فوق قصوركم أيها الملوك ، لقد جاء به الليل •
 الرعد يطلب أن يتحدث الى أحدكم ،
 وكأنه الجلالد جاء يفرع بابكم
 وفى هذه الاناء تفوح رائحة الموتى البشعة ،
 ممترجة بدخان البخور الذى يرفع مع تسييحات الشكر لله ،
 تفوح من أغوار الغابات وأعماق المروج الملائى بالحنائش ،

من البرارى والمستنقعات ويطون الوديان ، ومن كل مكان !
 وبشم الانسان أبخرة القبور العفنة فى شوارع باريس الناصية ،
 وفى المكسيك وبولندة وإيطاليا والكريت التى يهبط عليها الليل .
 كما لو كانت المذابح الحمراء قد نفتحت أزهارها ،
 فى سجرة الموت النامية فى أرض مجتونة ،
 فقد حان أوان ازدهارها ،
 على الكرة الأرضية ، وتحت القبة السماروية .
 قتلى فى كل مكان ، ودبحى فى كل مكان .
 الجثث ملقاة على الأرض . والفكرة قائمة .
 الجثث سنلقاة فى السهول الوحشة ،
 والدعوة الى السلاح ترفرف على شفاهها .
 وكان هذه الجثث مبدوة ، وهى بالفعل مبدورة .
 أما خط المحراث فاسمه الحرية ، وأما الموت فاسمه ربح الشمال العاصف .
 وأما الموتى الأمجاد فهم الحبوب النبيلة التى ينثرها
 الموت بعيدا فوق المستقبل ، فوق الهاوية .
 انهضوا أيها الأبطال ! وأنت أيتها الجثث ، تعفى .
 أد عمك ، أيها السر الغامض . أما هؤلاء البائدون ،
 المشتتون ، العرايا ، الشعب ، الفاغرو الأفواه ،
 الذين يعرضون على السماء أذرعهم المقطوعة المدلاة ،
 كل هؤلاء البائدين الجامدين ينتظرون .
 وبينما يقيم الملوك الفرعون المخبرون
 حفلا مهيبا مظفرا فيما بينهم
 وبينما تقصف آلتهم فى بطون السحب ،
 بالموسيقى والأعياد والضحكات والأغاني ،
 وتعرض على الملأ السعيد ، فى جبهاتنا ،
 اخاء القياصرة والسلاطين ،
 يتآخى النسر من ناحيته مع الموت ؛ هناك ؛
 بعيدا فى الصحراء ، فى الظل ، تحت ربح الشمال الباردة .

هناك تنقابل دوب القبور مغابلتها الدنيئة •
 هناك الغراب ، والأنوق الأسنوص ، والنسر الأصهب ،
 والرخمة الشرهة ، والبواشن ، والخطاطيف الضارية ،
 تطير بأقصى سرعتها بأسطة أجنحتها ،
 فاصدة تلك المجازر حيث جنب الموتى
 فتنبض هذه الطيور الشرسة عليها ،
 ينهش بعضها اللحم ، ويعض بعضها العظم
 مولولة ، ينادى أحدها الآخر ، والنار نحت أجفانها
 وتقبل على شرب الدم الذى يسيل بين الحجارة

٨

أيها الشعب الغارق فى سباته ، متى تصحو ؟
 ان الرقاد المصل لا يليق بمن قصمته القواصم ،
 انم نائم ، ودمك على يديك ، والتدبة على جسدك
 التدبة التى خلفها الخندق الخشن واللعين
 وأثر الحبل الذى كان ملفوفا حول رسغيك
 ماذا فعلت بروحك ، انت يامن اضطرمت غبظا ؟
 الامبراطورية كهف ، وكل صنوف الليل ،
 نمسكك فى دياجيرها الكثيفة •
 وتنام ناسيا كل شئ : مجدك ، والدسائس ،
 والحرية ، والحق ، والانوار العلوية •
 وتغلق عينيك متناقلا . مستلقيا تحت اغطية بشعة ،
 لاتبالى بالاهانة التى تلقىها للنجوم !
 هيا ، تحرك ، هيا أنهض واجلس •
 ونشهد أخيرا جذع المارد يتحرك •
 أصبحت الهجعة الطويلة خزيا وعارا •
 هل أنت مكدود ؟ هل أنت أصم ؟ هل أنت ميت ؟ انى انكر كل ذلك •
 الا تشعر بما أنت فيه من كد وارهاق ؟
 وبأن العار ينمو ويسنفحل لحظة بعد لحظة ؟

الا نسمع من يسير فوق رأسك ؟
 انهم الملوك يقتربون الشرور وبقيمون الأفراح •
 أنت نائم على هذا الروث ! كنت مواطنا •
 فأصبحت دابة تحمل الأفعال • حسس !
 الحمار ينهض وينهق • والور بقف ونجور •
 أبحث اذن في ظلام ليلك ، ماداموا قد ذهبوا بنور عييك !
 أنت يامن كنت عظيما ، فف ! الوقت متأخر •
 في هذه الظلمة ، قد يصع الاسنان يده عفوا ،
 على الخزى • أو قد يضعها على المجد •
 أمدد ذراعك على طول الجدار الأسود •
 فقد ينواري المجهول غير المرغب في هذا الظل •
 ولعلك تستطيع أن تمسك حساما بين قبضتيك التعسيتين ،
 وانت تنلمس طريقك مضطربا في الظلمات !

اوتينل هاوس في نوفمبر ١٨٦٧

لم ينقض شهر على نشر هذه الأسعار ، حتى ظهر سبع عشرة
 ترجمة لها ، بعضها في صورة سعرية • وزاد احتدام الصحافة الاكبركية
 غيظا من دوى هذه الأسعار •

ورد جاريبالدى على فيكتور هوجو بقصيد من الأسعار الفرنسية ،
 يتضمن آيات الشكر النبيل المعبرة عن نفس عظيمة •

وكان من أثر نشر أسعار فيكتور هوجو الحادث الآنى : ذلك انه
 فى تلك الآونة (فى شهر نوفمبر ١٨٦٧) كانت مسرحية هيرنانى
 تمثل فى « المسرح الفرنسى » (الكوميدي فرانسيز) ، ومسرحية
 « روى بلاس » على وشك أن تعرض على مسرح الأوديون ، ومن ثم أوقفت
 حفلات « هيرنانى » ، وتسلم فيكتور هوجو فى جرنسبي الرسالة
 التالية :

« يتشرف مدير مسرح أوديون الأمبراطورى باخطار السيد فيكتور
 هوجو بأنه قد صدر الأمر بمنع اعادة عرض مسرحية روى بلاس »
 شيلي

فاجاب فيكتور هوجو قائلا :

الى السيد لو بونابرت ، بقصر التويليرى •
 سيدي ، تسلمت رسالتك الموقعة باسم شيلي •

فيكتور هوجو

الأطفال الفقراء

عيد الميلاد - ديسمبر ١٨٦٧

أشعر دائما بنوع من الحيرة كلما رأيت أشخاصا كثيرين مجتمعين حول شيء بسيط وصغير للغاية . فانا الانسان الوحيد ، أفصح داري مرة كل سنة . لماذا ؟ لكي يشهد كل الناس حفلة صغيرة ، ويستمتعوا بساعة من السعادة ليست من عندي وانما من عند الله يهبها لأربعين طفلا فقيرا ، يعيشون سنة بطولها في تعاسة ، ويوما واحدا في سعادة . أهذا كثير عليهم ؟

سيداتي ، أوجه كلامي هذا اليكن . فلمن أهب فرحة الأطفال ان لم أهبها لقلوب النساء ؟ فكن جميعا في أطفالكن حين ترين هؤلاء الأطفال ؛ وفي حدود ما تتمتعن به من قوة ، ومن أجل أن تبدأن مؤاخاة الناس منذ الطفولة . اجتهدت أيتها الأمهات السعيدات المحظوظات أن لا يحسد الصغار الفقراء الصغار الأغنياء ! ليندر الحب . وهكذا سوف نجعل المستقبل هادئا ميسورا .

بذل الاحسان لأربعين طفلا ، كما قلت من قبل في منزل هذه المناسبة ، عمل قليل الأهمية . ولكن اذا أمكن زيادة عدد هؤلاء الأطفال الأربعين الى ما لا نهاية له ، بتعاون كل النفوس الطيبة ، كان ذلك مثلا طيبا مفيدا . ومن أجل هذه الغاية ، غاية الدعاية ، وافقت على نشر بعض الاعلان عن مشروع « عشاء الأطفال الفقراء » الذي وضع أساسه في أوتفيل هاوس . لهذه المبرة الصغيرة اذن هدفان رئيسيان ، هدف صحي وهدف دعائي .

فهل نجح من الوجهة الصحية ؟ نعم ؛ والميكن البرهان . منذ سبعة أعوام ، أى منذ تأسيس « عشاء الأطفال الفقراء » هذا في أوتفيل

هاوس ، لم يمت سوى طفلين فقط من بين الاربعة طعلا المشتركين فيه .
طعلان فى ستة أعوم ! اننى أعرض هذه الحففة على رجال الصحة والأطباء ،
ليأملوها .

هل سجع من وجهه الدعابة ! نعم هناك ولائم عشاء اسبوعيه
للأطفال الفقراء ، على سبيل هذا العشاء : الذى بدأ فى أوتفيل هاوس) ،
بهأت ننتظم فى كل مكان بقربا ، فى سويسرا وانجلترا ، وأمريكا بوجه
خاص . وقد اسنلم بالأمس صحيفه انجليزية اسمها « ليث يابلوت »
بوصى بانشائها فى حماسه .

قرأت لكم فى العام الماضى خطابا نشر فى صحيفة التايمز ، يعلن
فى لندن من انشاء مبرة لعشاء ٣٢٠ طعلا . وهاكم اليوم رسالة حررتها
لبدى طومسون . أمينه صمدوف مبرة عشاء الأطفال الفقراء فى قرية
« ماريلبون » ، تضم ٦٠٠٠ طفل . من ثلاثمائة الى سنة آلاف ، تقدم
رائع ، سنة بعد سنة . وانى لأهنى وأشكر مراسلتى النبيلة ليدى
طومسون . وهكذا أمرت فكرة المعتكف بفضلها وبعض أصدقائها
المبجلين . لقد أصبح الجدول الصغير فى جيرنسى نيرا كبير فى لندن .
كلمة أخيرة .

علينا جميعا فى هذه الحياة الدنيا واجبات متعددة الأنواع . لهد
فرض الله علينا أول ما فرض واجبات فاسية . علينا أن نناضل من
أجل مصلحة الناس كافة . علينا أن نحارب الأقوياء وذوى السلطان .
نحارب الأقوياء حين يسيئون استخدام القوة ؛ ونحارب ذوى السلطة
حين يستخدمون السلطة فى عمل الشر . علينا أن نقبض على عنق
الطاغى ، مهما كانت هويته . من سائق عربة النقل الذى يسىء معاملة
الحصان ، الى الملك الذى يعتسف شعبا ، المقاومة والنضال ضرورتان
قاسيتان . ولسوف تكون الحياة قاسية اذا اقتصرت على هذين الأمرين .
وفى بعض الأحيان يبلغ الأعياء من الانسان غايته ، فيستهمل الواجب .
ويواجه الانسان عندئذ ضميره فيرد عليه الضمير قائلا . ماذا تريدنى
أن أعمل فى هذا الشأن ؟ الواجب أن تستمر . ومع ذلك فهو يستوقف
النضال لحظة ، وينزع فى تأمل الأطفال الفقراء الصغار ، تلك الوجوه
الناصرة التى يجعلها فجر الحياة الرائع ورودا وأنوارا للآلة . ويتأثر
الانسان ، ويتحول من السخط الى الحنان . وعندئذ يفهم الحياة كلها
ويشكر الله الذى يعطينا الأقوياء والخبء لنحاربهم ، ويعطينا أيضا
الأبرياء والضعفاء لنخفف آلامهم . الله الذى جعل الواجبات اللذيذة الى
جانب الواجبات الصارمة ، الأولى تؤاسى الثانية .

١

مانين (١)

دعى أهالى فينيسيا (البندقية) فيكنور هوجو لحضور الاحتفال
بمقل رماد مانين الى فينيسيا . فرد على دعوتهم بالخطاب الآتى :

أونفيل هاوس فى ١٦ مارس ١٨٦٨ :

كتب الى بعضهم من فينيسيا متسائلا عما اذا كان عندى كلمة
أدلى بها فى هذا اليوم المشهود ، يوم ٢٢ مارس . نعم ؛ واليكم هذه
الكلمة :

لقد انتزعت فينيسيا من مانين ، منلما أنتزعت روما من جاريبالدى
أما مانين الميت فانه يستعيد فينيسيا . وأما جاريبالدى الحى فانه سوف
يدخل روما .

وليس لفرنسا من حق الضغط على روما بأكثر مما للنمسا من حق
الضغط على فينيسيا .

نفس الاغتصاب الذى ينتهى الى نفس النتيجة .

وهذه النتيجة التى سوف ترفع من قدر ايطاليا ، سوف تزيد من
عظمة فرنسا .

ذلك لأن كل الأشياء العادلة التى يصنعها الشعب أشياء عظيمة .

وسوف تبسط فرنسا الحرة يدها لايطاليا المتكاملة .

وسوف تنجاب الأمتان . أقول هذا بفرحة عميقة ، وأنا ابن فرنسا
وحفيد ايطاليا .

وانتصار مانين اليوم ينبىء بانتصار جاريبالدى فى الغد .

(١) مانين (دانيليه) وطنى ايطالى . ولد فى فينيسيا (البندقية) . رئيس جمهوريه
وسيسيا فى عام ١٨٤٨ . من أكبر أعداء السيطرة النمساوية (١٨٠٤ - ١٨٥٧) - المترجم .

• ويوم ٢٢ مارس هذا يوم يبسر بالمستقبل •

مثل هذه الأحداث ملأى بالوعود • كان مانين مقاتلا ، ونفى من أجل الحق • لقد ناضل في سبيل المبادئ ، ورفع عاليا سيف النور • كان يتميز مثل جاريبالدى برقة الأبطال • وحلف نعرته ، تقف حرية إيطاليا المرتبة رغم أنها مفعنة • وسوف نزرع قناعها • عندئذ نصبح الحرية سلاما ، مع بقائها حرية •

• هذا هو ما تعلن عنه عودة مانين الى فينيسيا •

• فى موت ، مثل موت مانين ، شىء من الأمل •

فكتور هوجو

جوستاف فلوران

من أجل بعض الوقائع ، تنطلق صبيحة غضب وسخط .

السيد جوستاف فلوران كاتب سباب موهوب ، وهو ابن رجل كرس نفسه للعلم ، ومن ثم كرس هو نفسه للتقدم . عندما اندلعت ثورة كريت ، مضى إليها . لقد جعلته الطبيعة مفكرا ، وجعلته الحرية جنديا . وتبنى القضية الكريتيية ؛ وناضل من أجل وحدة كريت واليونان . تبنى كانديا (كريت) البطلة بعاطفة الأبوة الخالصة . وسالت دماؤه وقاسى على تلك الأرض التعسة ، وعانى فيها القر والقيظ ، والجوع والعطش . وحارب هذا الباريسى فى جبال « سفاكيا البيضاء » وعانى فصول الشتاء والصيف القاسية ، وخبر ميادين القتال الكثيرة ، ونام فى الثلج أكثر من مرة بعد انتهاء المعركة بجانب الذين ناموا مع الموت . وهب دمه ، وهب ماله . وثمة واقعة مؤثرة : فقد أقرض حكومة كريت ثلثمائة فرنك . وأفهم أن تحتقر الحكومات المدينة بثلاثة عشر مليارا (١) مثل هذا المبلغ الزهيد . وبعد سنوات قضاهها هذا الفرنسى فى اخلاص عنيد ، منح الجنسية الكريتيية . وضم مجلس الأمة الكريتي الى عضويته السيد جوستاف فلوران ، وبعنه الى اليونان ليقوم برسالة الاخوة والسلام ، كما كلفه بتقديم نواب كريت الى البرلمان اليونانى . وفى أثينا ، أراد السيد جوستاف فلوران أن يقابل جورج الدانمركى الذى يقال انه ملك اليونان . ولكن قبض على السيد جوستاف فلوران .

(١) كان هذا الملح دين فرنسا فى عهد الامبراطورية فى تلك الآونة . ومن ذلك الحين . اضاف معركة سيدان وأذبالها الى هذا الدين مبلغ عشرة مليارات . وتدين فرنسا من جراء المعامرة الاخيرة التى قام بها الامبراطور به بدس اضافى فدره عشرة مملارات . فى حين أنها فقدت اقليمين ؛

كان بصفتة فرنسا صاحب حق ، وبصفتة كرينيا ملتزما بواجب .
 وأنكرت الحكومة اليونانية هذا الحق وذاك الواجب . وقامت الحكومتان
 الفرنسية واليونانية المتواطئتان في لجريمة بترجيله على ظهر سفينة ركاب
 أوصلنه قسرا الى مارسييا . وهناك كان من العسير حرمانه من حرية
 التنقل ؛ ومن ثم كان لابد من اخلاء سبيله . وما أن استرد السيد
 جوستاف فلوران حتى سافر من فوره الى اليونان وهكذا عاد الى أينا
 قبل انقضاء ثمانية أيام على طرده منها . كان هذا واجبه ، لقد قبل السيد
 جوستاف فلوران مهمة مقدسة ، فهو نائب شعب يحتضر ، وحامل صحة
 النزع الأخير ، والأمين على أسس الوصايا ، على حق أمة ؛ ويريد أن ينفذ
 هذه الوصية بكل أمانه ، ويؤدي المهمة خير أداء . ومن ثم كان عناده
 وبسالته . ولكن بعض العهود تعتبر أن من يؤدي واجبه انما يرتكب
 جريمة . والسيد جوستاف خارج على القانون في هذه اللحظة ، تطارده
 الحكومة اليونانية وتسلمه الحكومة الفرنسية . وها هو المناضل الشديد
 البأس يكتب الى من أثبتنا حيث أختبأ فيقول : « اذا قبض على ، فاني
 اوقع ان يدسوا لي السم في سجن ضيق » .

ونقرأ في خطاب آخر كتبه لي بعضهم من اليونان ، « جوستاف
 فلوران مخذول » .

لا ، انه لم يخذل . فلتعلم الحكومات ، سواء منها التي تعتقد
 أنها قوية ، مثل روسيا ، أو التي تشعر بأنها ضعيفة مثل اليونان ،
 أو التي تسوم بولندا العذاب ، أو التي تخون كريت ، لتعلم وتنفكر في
 أن فرنسا قوة ضخمة مجهولة . فرنسا ليست أمبراطورية أو جيشا أو
 بقعة جغرافية ، بل انها ليست كتلة بشرية تبلغ ثمانية وثلاثين مليونا من
 الناس الغافلين الى حد ما عن الحق بسبب ما هم فيه من عناء ، ولكنها
 روح . اين هي ؟ في كل مكان . ولعلها في هذه اللحظة موجودة في
 الخارج أكثر مما هي في داخل فرنسا نفسها . ويحدث أحيانا لأمة من
 الأمم أن تكون منفية . أمة مثل فرنسا تمثل مبدءا ، واقليمها الواقعي
 هو الحق . الى الحق تلجأ ، تاركة الأرض للاستعباد ، والأمالك المادية
 للطغيان المادي . لا ؛ لم تهجر الكريت التي لا يعتبرونها أمة من الأمم .
 لا ؛ لم يخذل نائبها وجنديها جوستاف فلوران الذي اعتبر خارجا على
 القانون . أما الحقيقة ، وهي الخطر الأكبر ، فانها هناك ، يقظة . الحكومات
 نائمة ، أو تتظاهر بالنوم . ولكن هناك في جهة ما عيون مفتوحة ، ترى
 وتحكم . هذه العيون ترى وتحكم ؛ انها عيون ثابتة مخيفة . الحدقة التي
 يكمن فيها الضوء هجوم متصل على كل ما هو كذب وظلم وظلام . هل

يعلم أحد لماذا انهار القيصرية • والسيلاطين والملوك الأقدمون والقوانين
والعقائد القديمة ؟ انهارت لأن هذا الضوء كان مسلطا عليها • هل يعلم
أحد لماذا سقط نابليون ؟ سقط لأن العدالة الواقفة فى الظلال كانت
تنظر اليه •

فيكتور هوجو

أوتقبل هاوس فى ٩ يولية ١٨٦٨ :

وبعد ثلاثة اسابيع من نشر هذه الرسالة ، تلقى فيكتور هوجو
البطاقة التالية :

نابولى فى ٢٥ يولية ١٨٦٨ •

استاذى :

أصبحت بفضلك خارج السجن بعيدا عن الخطر • لقد اضطرت
الحكومات تحت ضغط الضمير العام الى الافراج عن الشخص الذى طالب
فيكتور هوجو بالافراج عنه • لقد دان لك باريس بحياته ، وأنا أدین لك
بحريتى •

جوستاف فلوران

اسبانيا

فى عام ١٨٦٨ ، دهم الرجل المنفى مصيبتان : فقد زوجته ، وفقد حفيده المولود البكر لابنه شارل . مات الطفل فى شهر مارس وماتت مدام فيكتور هوجو فى شهر أغسطس . واستطاع فيكتور هوجو أن يحتفظ بالطفل الى جواره ، اذ دفن فى أرض المنفى . أما مدام فيكتور هوجو فانها عادت الى فرنسا . وكانت الأم قد أبدت رغبتها فى أن ترقه بالقرب من ابنتها ، فدفنت فى جبانة فيلكيه . ولم يستطع المنفى أن يضى فى أثر المتوفاة ، فوقف بعيدا على الحدود ، يرقب النعش وهو يختفى عند الأفق . وألقيت كلمة الوداع الأخيرة باسمه على مقبرة فيلكيه ، ألقاها صوت نبيل . وها هى الكلمات السامية العظيمة التى قالها بول موريس :

« أود فقط أن أودعها باسمنا جميعا .
« انكم تعلمون جيدا ، يا من تلتفون حولها لآخر مرة ، من كانت هذه النفس الجميلة الرقيقة ، هذه الروح المحبوبة ، هذا القلب الكبير .
« آه ، هذا القلب الكبير ، بنوع خاص ! كم كانت تحب الحب ، وتحب أن تكون محبوبة ! كم كانت قادرة على المعاناة مع أولئك الذين تحبهم !

« كانت زوجة أعظم رجل فى الوجود ، وارتفعت بقلبيها الى مرتبة هذا العبقري . كانت نديدة له من كثرة ما كانت تفهمه .

« لابد أن ترحل عنا ، ولابد أن نتركها .

« لقد وجدت بالفعل حبها . وجدت طفلها هنا (يشير الى الحفرة) وهناك (مشيرا الى السماء) .

« قال لى فيكتور هوجو بالأمس عند الحدود : قل لابنتى انى ارسل لها أمها حتى يأتى الأوان • وها أنذا قد قلت كামته ، وأعتقد أنها سمعتها • »

« والآن وداعا ! وداعا للحاضرين ، وداعا للغائبين ! وداعا لصديقتنا ، وداعا لأختنا ! » وداعا ، ولكن الى لقاء ! » •

ولكن الواجب لا يرحم ، فله مطالب عاجلة ملحة • وقد رأينا أن مدام فيكتور هوجو توفيت فى شهر أغسطس • وفى شهر أكتوبر ، سقطت الملكية فى اسبانيا ، فأعاد سقوطها الى نفس فيكتور هوجو الرغبة فى الكلام ، واضطر أمام مثل هذه الأحداث الحاسمة الى قطع جمل السكوت ، رغم ما هو فيه من حداد •

الى اسبانيا

شعب كان طوال ألف سنة ، من القرن السادس الى السادس عشر ، أول شعوب أوروبا ، ندا لليونان فى الأدب الملحمى ، ولايطاليا فى الفن ، وفرنسا فى الفلسفة • كان لهذا الشعب « ليونيداس » تحت اسم « بيلاج » ، وأخيلوس تحت اسم « سيد » • بدأ بفيريات وانتهى برييجو • كان له « ليبانت » مثلما كان لليونان « سالامين » • ولولا هذا الشعب لما خلق كورنبي التراجيديا ، ولما اكتشف كريستوف كولومب أمريكا • هذا هو الشعب الصلب العود ، شعب « فويرو يوزجو » • اسبانيا منيعة بجبالها الشماء ، كسمويسرا ، فجبل « مولاهاسين » (مولى حسن) هو بالنسبة الى « مون بلان » (فى سويسرا) كنسبة ١٨ الى ٢٤ • كان لها مجلسها فى الغابة ، وكان هذا المجلس معاصرا للمفوروم فى روما ، ويعقد المجلس فى الغابة حيث يباشر الشعب الحكم مرتين كل شهر ، مرة والقمر هلال ، ومرة والقمر بدر • كان لها مجالسها الوطنية فى « ليون » قبل أن يعرف الانجليز البرلمان فى لندن بسبعين سنة • وكان لها فى « مديناديل كامبو » قسمها المائل لقسم « لعبة الكرة » (١) فى عهد « دون سانشى » • وفى عام ١١٣٣ ، كان له طبقة ثالثة (عامة الشعب) متفوقة فى مجالس بورخا • وشهدنا فى مجلس هذه الأمة مدينة مثل « ساراجوس » تبعث وحدها خمسة عشر نائبا • ومنذ عام ١٣٠٧ أعلن

(١) قسم آداه بواب الطبقة الثالثة (عامة الشعب) فى فرنسا فى يوم ٢٨ يولية ١٧٨٩ ، بالا بفنروا قبل أن يمنحوا فرنسا دسورا ، رغم أن الملك لوس السادس عشر مد رضى أن يصرح لهم بدخول قاعة المداولات - المترجم •

الشعب في عهد الفونس الثالث حقه وواجهه في الثورة . وفي أراجونا نبت دعائم ذلك الكائن المسمى بالعدالة . وهو اسمى من ذلك الكائن المسمى بالملك . وأقسام في وجه العرس ذلك الحق الرهيب ، حق « الرفض » فرفض الضريبة لشارل كنت . لقد خذل هذا الشعب في منشئه شارلمان ، وخذل وهو يحتضر نابليون . كان لهذا الشعب علله ، وتحمل أذى الحشرات ، ولكنه بالاجمال لم ينله من الخزي على أيدي الرهبان أكثر مما يبال السبوع من الأذى بسبب الفمل . ولم يتخلف عن هذا الشعب سوى شيئين : أن يعرف كيف يستغنى عن البابا ، وأن يستغنى عن الملك . كان شبيها بانجلترا من حيث الملاحة والمغامرة والصناعة والتجارة والاختراع في أنحاء الكرة الأرضية ، وانشاء طرق للمواصلات كانت مجهولة ، والمبادأة ، والاستعمار الشامل : كان شبيها بانجلترا فيما عدا عزلتها - أي عزلة انجلترا - وبزيادة شمسها ، سمس إسبانيا . كان له ربانته وأطبائه وشعراؤه وأنبيائه وأبطاله وحكمائه . يملك هذا لشعب قصر الحمراء ، كما تملك أنينا البارنيون ، ويملك سيرفانتس كما نملك فولنير . وألقت روح هذا الشعب الضخمة على وجه الأرض أنوارا قوية ، لم يكن في المستطاع اطفائها الا على يدي رجل مثل « توركمادا » (١) . وعلى هذه الشعلة وضع البابوات قلائسهم الشبيهة بالمطفأة الهائلة . وتحالفت البابوية مع السلطة المطلقة للتغلب على هذه الأمة . ثم أحالت كل ضياء هذا الشعب الى لهيب ، وشهدنا إسبانيا مشدودة الى الآتون . وغطت محاكم التفتيش هذه الدنيا ، وكان دخانها يشكل طوال قرون ثلاثة سحابة بشعة تظلل المدينة . وما أن انتهى التعذيب والاحراق حتى أصبح في الامكان القول بأن هذا الرماد هو الشعب .

واليوم تنبعث هذه الأمة من داخل هذا الرماد . وما هو خرافي في طير العنقاء حقيقى بالنسبة للشعب .

هذا الشعب يبعث حيا ، فهل يبعث ضئيلا ؟ أو يبعث كبيرا ؟ هذا هو السؤال .

في مقدور إسبانيا أن تسترد مكانتها ، وتعود ندا لفرنسا وانجلترا . وانها لهبة عظيمة من الله ، وفرصة نادرة . فهل تترك إسبانيا هذه الفرصة تفلت منها ؟

(١) توماس دي توركمادا ، فاض بمحاكم التفتيش بأسبانيا (١٤٢٠ - ١٤٩٨) اشتهر بنسوته ، وبقي اسمه مقمرنا بذكرى محاكم التفتيش - المترجم .

والفائدة من قيام ملكية أخرى فى القارة الأوروبية ؟ اسبانيا خاضعة للملك خاضع لسائر الدول ، يا للاضطراب آ وفضلا عن ذلك فان اقامة الماكبة فى هذه الساعة تستلزم جهدا فى سبيل أمر لن يدوم الا وقنا قصيرا ، فسوف تتغير الصورة عن قريب .

الجمهورية فى اسبانيا هى الأمن المستقر فى أوروبا ، هى السلام ، هى التوازن بين فرنسا وبروسيا ، ومعها تصبح الحرب بين الملكيات العسكرية مستحيلة بسبب الثورة الحاضرة ، وتوضع الكمامة على سادوفا (١) كما وضعت على أوسرلنز (٢) . ونسبدا صورة العمل والرشاء بصورة التفتيل ، وبحل النسيج الحريرى (الجكار) محل البنادق . وفى القارة الأوروبية يقوم التوازن فجأة بفضل ذلك النقل الذى سموصع فى كفة الميزان والذى يمثل الحقيقة بدلا من الخيالات والأوهام . الجمهورية فى اسبانيا هى الدولة الاسبانية القديمة ، وقد تجددت بفعل تلك القوة الفتية ، قوة الشعب . انها من وجهة التجارة والاساطيل البحرية ، الحياة وقد عادت الى ساحلين ، كان أحدهما مسيطرا على البحر المتوسط قبل فينيسيا ، والثانى على المحيط قبل انجلترا . انها الصناعة وقد ازدهرت وانتشرت حينما حلت التعاسة . انها قادس ندا لساونامبتون ، وبرسلونة ندا للفيربول ، ومدريد ندا لباريس . انها البرنغال عائدة فى لحظة من اللحظات الى اسبانيا ، يجذبها اليها النور والرشاء ، فالحرية هى المغناطيس الذى يضم الأقاليم . الجمهورية فى اسبانيا هى البرهان الخالص على سيطرة الانسان على نفسه ؛ وهى سيطره لا جدال فيها ، سيطرة لا تؤخذ الأصوات من أجلها . انها الانتاج من ثمة نسعير ، والاستهلاك من غير جمرك ، والتداول بلا عوائق ، والمشغل من غير طبقة العمال الكادحين ؛ والثورة دون تدخل الطفيليين ؛ والضمير بلا مزاعم باطلة ، والكلام بلا كمامة ، والقانون بلا اكاذيب ، والقوة من غير جيش ، والأخاء من غير قابيل . انها العمل للجميع ، التعليم للجميع ، والعدالة للجميع ، والغاء آلة الاعدام . انها المثل الأعلى وقد أصبح ملموسا . وكما أن هناك خطافا يقود سرب الخطاطيف (طير السنونو) ، فسوف تكون هناك أمة منالية . ولن يكون هناك خطر . اسبانيا ملك المواطنين ، هى اسبانيا القوية . واسبانيا الديمقراطية هى

(١) سادوفا ، قرية تشكيلييه هزم عندها النمساويون مزيمة فاصله فى حرب النمسا وبروسيا ١٨٦٦ - المراجع .

(٢) أوسرلنز ، مدينة صغيرة بشيكوسلوفاكيا هزم نابليون عندها الروس والنمساويين عام ١٨٠٥ - المترجم .

اسبانيا المنيعه • الجمهورية في اسبانيا هي الادارة الأمنية ، هي الحقيقة
 الصادقة الحاكمة ، هي الحرية السائدة ، هي الحقيقة السامية المنيعه •
 الحرية هادئة لانها منيعه ، وهي منيعه لا تقهر لانها معدية • من يهاجم
 الحرية يكتسب مبادئها : الجيش المبعوث ضدها يرتد على الطاغية •
 ولذا فالتناس يدعون الحرية وسأنها ، ويتركونها في سلام • الجمهورية في
 اسبانيا سموف تكون اشعاع الحق عند الأفق ، والوعد للجميع ؛ أما الوعيد
 فهو للشر وحده ؛ وسوف تكون ذلك المارد ، الحق ، واقفا في أوروبا
 خلف ذلك السور ، جبال البيرينية •

• اذا بعثت اسبانيا ملكية ، بعثت صغيرة •

• واذا بعثت جمهورية ، كانت كبيرة •

• فعليها أن تختار •

فيمكتور هو جو

اونفيل هاوس في ٢٢ أكتوبر ١٨٦٨ :

٤

خطاب ثانٍ لاسبانيا

اتانى نداء تان من عدة مواضع فى اسبانيا ، من لاكورونا عن طريق عضو اللجنة الديمقراطية ، وأوبييدو ، واشبيلية ، وبرشلونة ، وساراجوسا (سرقسطة) ، المدينة الباسلة ، وقادس المدينة النورية ، ومديره ، عن لسان السيد الفاضل اميليو كاستيلار وفى النداء تساؤل • وهأنذا أجيب •

ما الموضوع ؟ انه الرق •

اسبانيا التى طرحت عن كاهلها كل المخازى القديمة : التعصب ، السلطة المطلقة ، آلة الاعدام ، القانون لالهى ، أثرها تحتفظ من كل هذا الماضى بأبشع ما فيه ، الرق ؟ أقول لا ! بل لابد من الغائه ، الغاء عاجلا • هذا هو الواجب •

أهناك مجال للتردد ؟ أهذا ممكن ؟ عجبا ، ان ما فعلته انجلترا فى عام ١٨٣٨ ، وما فعلته فرنسا فى عام ١٨٤٨ ، لا تفعله اسبانيا فى عام ١٨٦٨ • أتكون أمة متحررة ، وتحت أقدامها عنصر مستعبد ومكبّل بالأغلال ! عجبا لهذه المتناقضات ! أن يكون النور فى داخل الدار والظلام فى خارجها ، العدالة فى داخل الدار ، والظلم فى خارجها • هنا مواطن • وهناك نخاس ! القياس بتورة لها جانب من المجد وجانب من الحزى ! عجبا ! أبعد طرد الملكية ، تبقى العبودية ! ويكون هناك بالقرب منكم انسان ملك لكم ، بل شئ من أسيراتكم ! على رأسكم قلنسوة الحرية وفى يديكم سلاسل تربطونه بها ! ما هو سوط المزارع ؟ انه صولجان الملك ، صولجان ساذج مجرد من التذهيب • فإذا تهشم الصولجان ، سقط السوط •

الملكية مع العبيد شيء معقول • أما الجمهورية ذات المبيد فهي شيء فاجر • وما يرفع من قدر الملكية يشين الجمهورية طهارة وصفاء •

ولكنكم جمهورية من اليوم ، ودون انتظار لأي تصويت • لماذا ؟ لأنكم اسبانيا العظيمة • انتم جمهورية ، وقد سجلت أوروبا الديموقراطية ذلك • يا أيها الاسبان ! لن تستطيعوا ان تظلوا فخورين الا بشرط ان تظلوا أحرارا • الندهور مستحيل عليكم ؛ فالتمو من طبعة الأشياء ، والتصاغر ليس من طبيعتها • سوف تبقون أحرارا • بيد أن الحرية متكاملة • انها شديدة الغيرة على عظمتها وصفائها • لا مهادنة ، ولا تنازل ، ولا تناقص • الحرية تستبعد الملكية من أعلى ، والعبودية من أسفل •

من يملك عبيدا يستحق أن يكون هو عبدا • العبد من تحتك يبرر قيام الطاغية من فوقك •

وتعتبر سنة ١٧٦٨ سنة فظيعة في تاريخ تجارة الرقيق • ففي هذه السنة ارتكب أكبر قدر من جرائم الرق ؛ فقد سرق أوروبا من أفريقيا مائة وأربعة آلاف من السود ، باعتهم لأمريكا • مائة وأربعة آلاف ! لم يشهد العالم أبدا مثل هذا الرقم المخيف من مبيعات اللحم البشري • حسن ! احتفلوا اذن بهذه الذكرى المثيرة بالغاء الرق ؛ ولشرد سنة جلييلة على سنة مخزية ؛ وبرهنوا على أنه يوجد بين اسبانيا في عام ١٧٦٨ واسبانيا في عام ١٨٦٨ أكبر من قرن من الزمان ، توجد هوة سميقة لا يمكن عبورها ، تفصل بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين العدل والظلم ، بين المجد والدناءة ، بين الملكية والجمهورية ، بين الحرية والعبودية ، هاوية فاغرة دوما خلف التقدم ، يقع فيها من يتراجع الى الوراء •

الشعب يزداد بكل الأفراد الذين يحررهم • فلتكونوا اسبانيا العظيمة المتكاملة • ان ما يلزمكم هو ضم جبل طارق وترك كوبا • كلمة أخيرة • في أعماق الشر يتلاقى الاستبداد والعبودية فينتجان أثرا واحدا • أمران متماثلان كأوضح ما يكون التماثل • وقد تكون أغلال الرق أشد احكاما على السيد منها على العبد • ترى من من الاثنين يمتلك الآخر ؟ هذا سؤال • من الخطأ أن تظن أنك تملك انسانا تشتريه وتبيعه • انك أسير هذا الانسان ، وهو يمسكك بقبضته ؛ ولابد أن تقاسمه خشونته ، وفظاظته ، وجهالته ، ووحشيته ؛ والا فانك سوف تشمئز من نفسك • تعتقد أن هذا الأسود هو ملك يديك ، كلا بل أنت مملوكه • لقد أخذت منه الجسد ولكنه أخذ منك العقل والشرف • ويقوم بينك وبينه مستوى

غامض • العبد يعاقبك لكونك سيده • يالها من ثارات محزنة وعادلة ،
 ثارات رهيبة لأن العبد الأسود الذى يسيطر عليك لا يدرك شيئا منها •
 رذائله هى جرائمك ، وتعاساته تغدو مصائبك • العبد روح جفول فى
 دارك ، ساكنة فى نفسك ، تنفذ فيك ، وتظلم جوانبك ، كالسم
 الزعاف • آه لا يرتكب المرء هذه الجريمة الكبيرة ، جريمة العبودية دون
 أن يلقي جزاءه • الأخاء الذى ينكره الناس يغدو شوما وتعسا • اذا
 كنتم شعبا وضاء مجيدا ، فان قبول الرق كنظام له كيانه انما يحيلكم
 شعبا ممقوتا • التاج على جبين الطاغية ، والطوق حول عنق العبد ،
 دائرتان متماثلتان ، تحبسان روحكم ، روح الشعب • أمجادكم كلها
 تعيىها بقعة واحدة : الزنجى • فالعبد يفرض عليكم ظلماته • انكم
 لا تنقلون اليه الحضارة ، ولكنه ينقل اليكم الهمجية • وأوروبا ، عن طريق
 الرق تطعم نفسها بلباق أفريقيا •

أيا شعب اسبانيا النبيل ! اليك التحرير الثانى • لقد تخلصت
 من الطاغية ، والآن تخلص من الرقيق •

أوتفيل هاوس فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٨ ••

فيكتور هوغو



الأطفال الفقراء

عيد الميلاد فى عام ١٨٦٨

لم تكن الأحزان التى نعانيها لتحجب عنا وجود الفقراء • وإذا تأتينا
لنا أن ننسى ما يقاسيه الآخرون ، فإن ما نقاسيه نحن حقيق بأن يذكرنا
بآلامهم ، فالحنن نداء للواجب •

أثمرت المؤسسة الصغيرة التى أنشأتها منذ سبع سنوات بدارى
فى جيرنسى لمساعدة الطفولة • وأنتن أيتها السيدات اللوانى تنصتن
لحديثى بمزيد من اللطف والرفقة سوف نتأثرون كثيرا لهذا الخبر الجديد •
لا شأن للمسألة بما أفعله هنا ، وإنما هى تتعلق بما يحدث فى
الخارج • ما أفعله شئ ضئيل لا يستحق عناء الحديث عنه •

تتميز مبرة عشاء الأطفال الفقراء هذه بشئ واحد ، تتميز بأنها
فكرة بسيطة • ولذلك سرعان ما فهمها الناس ، خاصة فى بلاد الحرية ،
فى انجلترا وسويسرا وأمريكا ، حيث تطبق على نطاق واسع • وانى
لأذكر الواقع دون الحاح • ولكنى أعتقد أن هناك نوعا من الصلة بين
الأفكار البسيطة وبين البلاد الحرة •

أذكر لكم رقمين أو ثلاثة أرقام فقط حتى تحكموا بمقدار التقدم
الذى نالته فكرة عشاء الأطفال الفقراء • وقد استقيت هذه الأرقام من
انجلترا ، من لندن ، بلدكم •

لعلكم قرأتم فى الصحف الخطاب الذى وجهته الى السيدة المبجلة
ليدى طومسون • لقد ارتفع عدد الأطفال الذين قدمت اليهم هذه المساعدة
فى أبرشية ماريلبون وحدها فى عام ١٨٦٨ من ٥٠٠٠ الى ٧٨٥٠ •
وتأسست جمعية للمعونة باسم « جمعية رعاية الطفل » منذ قليل ، فى

سارعى مادوكس وريجننت برأس مال قدره عتسرون ألف جنيه استرليني .
وهناك أخيرا واقعة ثالثة ؛ فأنتم تذكرون أننى هنأت نفسى فى مثل هذا
اليوم من العام الماضى حين قرأت فى الصحف الانجليزية أن فكرة أوتفيل
هاوس قد أنمرت فى لندن لدرجة أنهم قدموا هناك معونة لثلاثين ألف
طفل . هذا بديع . افرأوا اليوم عدد صحيفة « الاكسبريس » الغراء
الصادر فى ١٧ ديسمبر ، وسوف تلاحظون به تقدما رائعا فى هذا الشأن .
كان فى لندن فى عام ١٨٦٦ ستة آلاف طفل تلقوا المعونة على الوجه
الذى أنشرت اليه ؛ أصبحوا ثلاثين ألفا فى عام ١٨٦٧ ، ومائة وخمسة
عشر ألفا فى عام ١٨٦٨ .

أضيفوا الى رقم ١١٥٠٠٠ هذا أطفال ماريلبون ، وعددهم ٧٨٥٠
طفلا ، وتضمهم جمعية خاصة ، تحصلوا على مجموع قدره ١٢٢٨٥٠ طفلا
تلقوا المعونة .

ما أعظم الحبة التى توضع فى الأخدود حين يشاء الله أن يخصبها !
كم ترون عندى هنا من أطفال ؟ أربعين . هذا عدد قليل للغاية ؛ لا يساوى
شيئا . بيد أن كل طفل من هؤلاء الأطفال ينتج فى الخارج ثلاثة آلاف
طفل ، فيصبح الأربعون طفلا الموجودون فى أوتفيل هاوس مائة وعشرين
ألفا فى لندن .

وبإمكانى أن أذكر حقائق أخرى ، ولكنى اكتفى بما ذكرت . اننى
أتحدث عن نفسى ، ولكنى أفعل ذلك على الرغم منى . ليس لى أى فضل
فى كل هذا ، ولا أية جدارة . ويجب أن توجه كل آيات الشكر الى
معاونينى الذين يستحقون الاعجاب والتقدير فى انجلترا وأمريكا .
كلمة ختامية :

اننى أجد المنفى شيئا طيبا . أولا لأنه عرفنى بهذه الجزيرة
المضيافة ؛ ثم أتأخ لى فراغا لتحقيق الفكرة التى كانت تراودنى منذ
زمن بعيد ، فكرة القيام بمحاولة عملية لتحسين أحوال الأطفال الفقراء
بصورة عاجلة مباشرة ، من الناحية الصحية المزوجة ، أى الصحة البدنية
والصحة العقلية . ونجحت الفكرة . ومن أجل هذا أشكر المنفى .

آه ، لن أمل أبدا من أن أقول : فلنفكر فى الأطفال ! ان مجتمع
الناس هو دائما ، وبدرجة ما ، مجتمع مذنب . ونحن فى هذا الخطأ
الجماعى الذى نفتخره جميعا ، والذى نسميه أحيانا القانون ، وأحيانا
العادات والأخلاق ، لاثق الا فى نوع واحد من البراءة : براءة الأطفال .

حسن ، فلنحب الطفولة ، ولنعمل على أن نغذيها ، ونكسوها ،
ونعطيها خبزاً وأحذية ، ونشفيها من المرض ، وننير لها السبيل ،
ونبجلها •

أما أنا ، فهل أنتم مشتاقون لمعرفة رأيي السياسي ؟ سأقوله لكم •
انى من حزب البراءة ، وخاصة حزب البراءة التى تنال العقاب - لماذا
يا الهى ؟ - لتعاستها •

ومهما كانت الآلام فى حيائى هذه . فلن أشكو منها ؛ اذا أُنِيج لى
أن أحقق أسمى مطمحين يمكن أن يصبوا اليهما الانسان على وجه الأرض :
أن يكون الانسان عبداً ، وأن يكون خادماً : عبداً لضميره ، وخادماً
للفقراء •

١

كريت الى السيد فولوداكي رئيس حكومة كريت

سيدي :

أثر خطابك البليغ في نفسي تأثيرا شديدا . نعم ، انك على حق في اعتمادك على . وانني لأضع في خدمة قضيتك النبيلة شخصي الضعيف وقدراتي القليلة . قضية كريت هي قضية اليونان ؛ وقضية اليونان هي قضية أوروبا . هذا التسلسل في الأمور يوجب على خاطر الملوك ، وهو مع ذلك منطقي للغاية . ليست الدبلوماسية سوى مكر الأمراء ضد منطق الاله . ولكن الله على حق في فترة معينة من الزمن . الله والحق معنيان مترادفان . ولست سوى صوت عنيد ولكنه تائه في لجب المظالم السائدة المظفرة . ما علينا ، انني لبن أسام ، سواء سمعني الناس أم لم يسمعوني . نقول لي ان كريت تطلب مني ما طلبته اسبانيا . ولكن وأسفاه ! ليس في وسعي الا أن أصبح . لقد أطلقت صيحتي قبلا من أجل كريت ، وسوف أطلقها مرة أخرى .

سوف اتجه ناحية أمريكا ، مادمت ترى فائدة في ذلك ، وطالما كانت أوروبا صماء فلنضع آمالنا في هذه الناحية .

وأصافحك
فيكتور هوجو

نداء الى أمريكا

استسلام شعب ما ، استسلاما مؤسفا ، للاغتصاب والتذبيح في صميم المدنية ، خزي يدهش له التاريخ . وأولئك الذين يلطخون هذا القرن التاسع عشر العظيم بمثل هذه الوصمات يتحملون مسؤولية عملهم أمام الضمير العالمي . وتكفل الحكومات الحالية جبين أوروبا بالخزي والعار .

هناك فى الساعة التى تمر بنا مذابح من جهة ، وحديث بين الدبلوماسيين من جهة أخرى . من ناحية يقتتلون ويذبحون ويبترون الأعضاء ويبقرون بطون النساء والسيوخ والأطفال ، ويتركون جثث هؤلاء ناعن فى الملح أو تحت الشمس ، ومن ناحية أخرى يحررون البروتوكولات ، وتنهل البرقيات الواردة من دور البعثات الدبلوماسية من كل آفاق الأرض على مائدة المؤتمر الخضراء ، فى حين تنقض العقبات على أركاديون . هذا هو المنظر . خيانة كرييت وتسليمها للعدو عمل سسى . وسياسة رديئة .

هناك أمران . اما أن تسنم ثورة كاندبا أو نقضى . اما أن تؤجج كرييت لهيبها السامى فيسمر مشتعلا ، واما تطفئه . فى الحالة الأولى يصير هذا البلد بطلا . ويصير فى الحالة الثانية شهيدا . وسوف نتعقد الأمور فى المستقبل بصورة رهيبة . ولابد . ان عاجلا أم آجلا ، أن نتعامل مع الأبطال ، ونتعامل أكثر من ذلك مع الشهداء . الأبطال ينتصرون بالحياة ، أما الشهداء فينتصرون بالموت . انظروا بودان (١) . خافوا من الأشباح . ان ماتت كرييت فسوف تكون ثقيلة الظل كالقبر . عفن فوق ما فى سياسيتكم من عفن وسبكون لأوروبا منذ الآن بولندنان . واحدة فى الشمال والثانية فى الجنوب . ويسود النظام فى جبال سناكيا كما يسود فى وارسو . أما أنتم يا ملوك أوروبا فسوف تستمتعون بالرخاء بين جثتين .

لا تنتمى القارة فى هذه اللحظة الى الأمم ، وانما الى الملوك . ولنقلها صريحة ، ان اليونان وكرييت لم يعد لهما ما تنتظرانه من أوروبا . هل فقدنا كل أمل ؟ لا .

هنا يتغير وجه السؤال . هنا تتجلى مرحلة جديدة ، وهذا أمر مدهش .

أوروبا تتقهقر ، وأمريكا تتقدم . أوروبا ترفض دورها ، وأمريكا تقبله .

ننازل يعوضه ارتقاء . سوف يحدث أمر جليل .

(١) شارل بودان : اميرال فرنسى ، ولد فى سيدان (١٧٨٤ - ١٨٥٤) ومضى فى عام ١٨٣٨ ومعه أربع سفن حربية فقط بحصن سان جان ديلوا امام فيراكور (ميناء بالمكسيك) - انترجم .

جمهورية الأمم ، اليونان ، سوف تسندنها وتحميها جمهورية
اليوم ، الولايات المتحدة • نراسيبولومس (١) يستنجد بواشنطن ،
ليس هناك ما هو أعظم من ذلك •

وسوف تسمع واشنطن النداء وتأتي • ولسنا نشك في أن
العلم الأمريكي سوف يرتفع بين جبل طارق والدردييل •
انه الفجر • المستقبل ينير الأفق • وتتجلى معالم آباء الشعوب •
التضامن عظيم •

هذا وصول العالم الجديد الى العالم القديم ؛ ونحن نحيا هذا
القدم • ولن تأتي أمريكا لنجدة اليونان فحسب وانما أيضا لنجدة
أوروبا • سوف تنقذ أمريكا اليونان من الانقسام ، وتنقذ أوروبا من
العار •

ان في ذلك خروجا لأمريكا من سياستها المحلية ، ودخولها في
ساحة المجيد •

في القرن الثامن عشر حررت فرنسا أمريكا ؛ وفي القرن التاسع
عشر سوف تحرر أمريكا اليونان • فياله من سداد رائع للمدين •

أيها الأمريكيون ، كنتم مدينين لنا بذلك الدين الكبير ، الحرية !
خلصوا اليونان ، نعظكم مخالصة بالدين • فالسداد الى اليونان سداد
الى فرنسا •

فيكتور هوغو

أوتفيل هاوس في ٦ فبراير ١٨٦٩ :

(١) رعيم وفاند أنبي - اسمان بطيية فطرذ الطغاة الثلاثين من أثينا ، ويمكن بذلك
من إعادة الحكم الديمقراطي في عام ٢٠٢٠ في م - المرجم •

الى رؤساء التحرير المؤسسين الخمسة لصحيفة « لورابيل » (١)

أصدقائي الأعزاء :

لما كنت قد ناقشت تفويضا معلقا ، ولكنه غير ناجز ، فليس في وسعي أن أظهر على منبر الخطابة أو في الصحافة السياسية الا لكوني أواصل هذا التفويض من حيث انقطع . وأودى واجبا قاسيا ؛ وتلزمى الحرية لأفعل ذلك ، كما هي الحال في أمريكا . وتعلمون ما صرحت به في هذا الشأن ، وتعرفون أنى لا أستطيع أن أتعاون مع أية جزيرة ، حتى تحين الساعة ، كما لا أستطيع أن أقبل أى ترشيح . يجب اذن أن أبقى غريبا بالنسبة الى صحيفة لورابيل .

وفضلا عن ذلك ، فانى لم أكتب أبدا في صحيفة « ليفيمان » . لأسباب أخرى تفصل بالتعقيدات المترتبة على الحياة السياسية والأدبية المفروضة على . وصدرت صحيفة « ليفيمان » في عام ١٨٥١ بأربعة وستين ألف نسخة . هذه الجريدة الحية ، سوف تعيدون إصدارها بعنوان « لورابيل » .

« لورابيل » (أى التذكرة) - اننى أحب كل معاني هذه الكلمة ، التذكرة بالمبادئ عن طريق الضمير ؛ التذكرة بالحقائق عن طريق الفلسفة ؛ التذكرة بالواجب عن طريق الحق ؛ التذكرة بالموتى عن طريق التبرجيل ؛ التذكرة بالقصاص عن طريق العدالة ؛ التذكرة بالماضى عن طريق التاريخ ؛ التذكرة بالمستقبل عن طريق المنطق ؛ التذكرة بالتقدم فى العلم عن طريق التجربة والحساب ، التذكرة بالله فى الأديان عن.

(١) بول موريس ، أوجست فاكيرى . مرسى روشفور ، شارل هوجير .

طريق الغاء عبادة الأوتان ، واعدة تنظيم القانون عن طريق الغاء عقوبه الاعدام ؛ تذكرة الشعب بالسيادة عن طريق الانتخابات العامة المستنيرة ؛ التذكرة بالمساواة عن طريق التعليم المجاني الالزامي ؛ التذكرة بالحرية عن طريق نهضة فرنسا ؛ التذكرة بالنور عن طريق صيحة « لتحيا العدالة ! » .

نفولون : هندي هي مهمتنا ! وأقول لكم . هذا عملكم هذا العمل أدبتهوه من قبل ، سواء بصفنكم صحفيين أو شعراء ، في الكتيب ، في النضال ، في الكتاب ، في المسرح ؛ في كل مكان وكل وقت . واليوم تتناولون من جديد هذه الجريدة القوية : « لورابيل » . ستكون جريده مشرقة وقاطعة كالحديد . فهي أحيانا سيف ، وأحيانا شعاع من نور . سوف نقاتلون وأنتم تضحكون . أما أنا ، الهرم الحزين ، فاني أصدق لكم .

شجعوا اذن ، والى الأمام ! ما أقوى سلطان الضحك ! سوف تتخذون مكانكم في الجماعة الباريسية اللامعة ، جماعة الصحف الضاحكة ، أنبعا لكل ذوى العزائم الصادقة .

اننى أعرف استغاثكم كما أعرف استقامنى ، وفي نفسى مرآتها . ولذلك أعرف مقدها منهاجكم . لا أرسم لكم هذا المنهاج وانما أتثبت من وجوده . لست أصبر الى أن أكون مرشدا ، وانما أقنع بأن أكون شاهدا . تم انى لا أعرف الشئ الكثير فى هذا الباب ، وعندما أنطق بكلمة . الواجب . أكون قد قلت تقريبا ما يجب أن أقوله .

عليكم قبل كل شئ أن تكونوا اخوانا ، ممل للشآل ، ولا يترتب على خطتكم أى انقسام فى صفوفنا . وستنتظرون دواما الضربة الأولى . واذا سألتى احدهم عما فى نفسى اجب بكلمتين : المسألة والمهادنة ، الأولى للأفكار ، والثانية للناس .

ويتطلب الكفاح فى سبيل التقدم تركيز القوى ، والتصويب بدقة ، واجادة الضرب ، فلا يجوز أن تشرذم قذيفة او تضيع رصاصة فى معركة المبادئ . العدو يستحق كل ضربتنا ، فاذا اخطأناه فى ضربة كنا ظالمين فى حقه . انه يستحق أن نضربه دواما بالمدافع الرشاشة ، وألا نطلق هذه المدافع الا عليه . العدو بالنسبة الينا ، نحن المتعطشين للعدالة والمنطق والحقيقة ، اسمه الظلمات .

للطوائف الديمقراطية مظهران : فهي سياسية ، وهي أدبية . فهي فى فن السياسة قد رفعت لواء عام ١٧٨٩ ، ١٧٩٢ ، وهي فى الأدب قد

رفعت لواء عام ١٨٣٠ . هذه الواريخ ذات الاسعاع المزدوج ، التي تنبر
الحق من ناحية ، وتنذر الفكي من ناحية أخرى ، تساحص في كلمة واحدة :
النهرة .

ونحن ، سلاله البدع الوردية ، أبناء هذه الكوارب النى هي في
الوقت نفسه انصارات . نفضل هرح الدراما على رسميات التراجيديا ،
وصبحة الشعب العميقة على الحديث المسادل بين الملوك ، وباريس على
فبرساي . لقد وصل الفن مع المجمع الى الغاية وهي « الدنيا للجميع »
Onmia et emmes أما المرون الأخرى فكانت حاملة للسجان .
وتحسب لكل قرن منها ، في نظر الساريخ . في شخصيه بيلور فيها
الاستثناء . القرن الخامس عشر هو البابا ، والسادس عشر هو الأمبراطور .
والسابع عشر هو الملك ، والتاسع عشر هو الانسان .

خرج الانسان ، واقفا وحرا ، من تلك البوة الكبيرة ، القرن الثامن
عشر .

ولنبجل هذا القرن الثامن عشر ، القرن الحاسم الذي بدأ بوفاة
لويس الرابع عشر ، وانتهى بموت الملكية .

سوف تقبلون هذا المراث . لقد كان قرنا بهيجا ورهبا .

في عرفكم أن تكونوا باسمين وبغضين . وأنا أؤيدكم في ذلك .
الابنسام نضال . البسمة التي ترمق السلطة المطلقة قوة عجيبة تسبب
الشلل . لقد حر لوسبان جوبتر . ومع ذلك لم يلجأ جوبتر ، اله
الروح ، رغم غضبه ، الى السبد . (وهنا افتح قوسا . لا تحرجوا في
أن تستبدلوا خطوطا منقوطة بأى موضع في كتابتي هذه يحلو لكم أن
تفعلوا به ذلك . وهنا أقفل القوس) . لقد تغلبت سخرية الموسوعيين
على مذهب مولينا (١) والبابوية . يا لها من أمثلة عظيمة رائعة . لقد
كشف هؤلاء الفلاسفة الشجعان عما في الضحك من قوة . السخرية
من الاخطبوط أمر يبدو غريبا ، ومع ذلك فهو شيء بديع : أولا لأن
الكثير من حيوان الاخطبوط له جلد رقيق يؤثر فيه وخز الابر أكثر
مما يؤثر ضربات الهراوة . أما اشباه الاخطبوط من البشر ، ومنهم
القياصرة ، فالتهم يفزعهم ، وخاصة اذا كان في هذا التهم دعوة الى

(١) لوى مولينا ، من الجزويت الاسبان (١٥٣٥ - ١٦٠٠) صاحب مذهب
« المولنبية » الذى يهدف الى التوفيق بين الحرية وبين البصيرة والرحمة الرئانية - المترجم .
٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ - انظر هامش الصفحة التالية .

النور • اذكروا الديك الذى يغرد على ظهر نمر • الديك هو السهم ،
وهو أيضا فينسا •

وقد أنبت القرن الثامن عشر سيادة الهكم • قابلو بين القوة
المادية والقوة الروحية ، احصوا الكوارث التى تم التغلب عليها ،
والوحوش التى تم القضاء عليها ، والضحايا الذين نالوا الحماية •
اجعلوا فى ناحية ليرن ، ونيميه ، دايريمانث ، ونوركربت ، ونين
الهيبيريد • وآنتى المخنوق ، وسيرير المكبل بالأغلال ، و (اسطبلات)
أوجياس وقد نظفت ، وأطلس وقد تخفف من أقاله ، وهيزيونى وقد
أنقذ ، والسبست وقد تحرر ، وپروميثيوس وقد أنجد ، واجعلوا فى
فى ناحية أخرى الخرافة وقد انكشف أمرها • والنفاق وقد نزع نقابه ،
ومحاكم التفتيش وقد أمحت من الوجود ، والهبة القضائية وقد كمت ،
والتعذيب وقد وصم بالعار ، وكالاس (١) وقد رد اعتباره ، ولابار (٢)
وقد أخذ بنأره ، وسيرفين (٣) وقد دوفع عنه ، والأخلاق وقد تهذبت ،
والقوانين وقد أصلحت ، والعقل وقد أطلقت حريته ، والضمير الانسانى
وقد تخلص هو أيضا من الرخمة التى هى النعصب • استرجعوا تلك
الذكرى المقدسة ، ذكرت الانتصارات لانسانية الكبيرة ، وقابلوا أعمال
هرقل الاثنى عشر بأعمال فولتير الاثنى عشر • هنا عملاق القوة وهناك
عملاق الروح • من الغالب ؟ أفاعى المهد هى الأوهام الباطلة • أروية
(فولتير) قتل هؤلاء (أى الأوهام الباطلة) منلما قتل « السيد » (٤)
أفاعى المهد •

سوف تجرون أقلامكم بمساجلات حية قوية • هناك حق مكفول
محتدم تستمتعون به ، ذلك هو حق الرد • لقد استعملت أنا الذى أتكلم
هذا الحق ، تحت مسئوليتى ، بل وأسأت استعماله • ولكم أن تحكموا •

(١) جان كالاس ، تاجر من تولوز ، ولد عام ١٦٩٨ ، اتهم ظلما بقتل ابنه لمعه من
الارنداد عن المذهب البروتستانى ، وأعدم على عجلة الاعدام فى عام ١٧٦٢ تنفيذا لحكم
المرلمان ، ثم رد اليه اعتباره فى عام ١٧٦٥ بعد أن دافع عنه فولتير دفاعه المشهور - المترجم •
(٢) لانا ، جان فرانسوا - نبيل فرنى ، اتهم بكسر أطراف صلب عليه صورة
المسيح ، فقطع رأسه ثم أحرق (١٧٤٧ - ١٧٦٦) - المترجم •

(٣) سر بول سيرفن - بروتستانى ، ولد عام ١٧٠٩ وحكم عليه بالاعدام فى عام
١٧٦٤ لابهامه بالاشتراك فى قتل ابنته لمعه من اعتناق المذهب الكاثولكى • استطاع مع
ذلك الفرار ، ونجح فولتير فى رد اعتباره بعد خمس سنوات - المترجم •

(٤) ألسد - من سلالة هرقل ، البطلي الأسطوري اليوناني المعروف - المترجم •

فى ذلك • فذات يوم - ولا بد أن نذكره - فى عام ١٨٥١ • فى عهد الجمهورية • كنت أجد على مبر الحبيب الوطنى • وفلب : الرئيس لوى بونا برت يآمر • وعمدئذ صاح فى وجبى رجل وفور من أنصار الجمهورية القدامى • اسمه السيد فيبار - وقد توفى وهو عضو بمجلس الشيوخ - صاح غاضبا : انك مفتر أنيم • فأجبت بكلام غير معقول : أنا أفصح مؤامرة لاعادة الامبراطورية • عند هذا هددنى السيد دويان بأن يوجه الى نسيها بمراعاة النظام • وهى عقوبه رهيبة اسحقها • وارعدت • وكتب لحسن حظى معروفا بشئ من البلاءه • وهذا ما أنقذنى • فقد صاح احد أعضاء الأغلبه فائلا بنوع من الشفقة : السيد فيكتور هوجو لا يعرف ما يقول ! وكان لهذا الكلام السمع وقع السحر فهذا كل نىء • وأخفى السيد دويان حفيظته فى جبه (وفى هذا الجيب كان يضع رايته عن طيب خاطر • جيب واسع • وود فى هذه المناسبة لو استطاع أن يخفى نفسه فى داخل جيبه هذا) • وهكذا ترون معى أنى قد أسأت استعمال حق الرد • ومن ثم فلتخذه هذا الحق •

جرى هذا فى زمان غريب • كنا فى عهد الجمهورية • ومع ذلك كانت صبحه « لتجبا الجمهورية » تعتبر باعنا للفتنة والتمرد • أما أنتم فقد كنتم جمعا فى السجن • باستثناء روشفور الذى كان وقتئذ فى الكلية • وهو اليوم فى بلجيكا •

ولسوف نشجعون جماعة الشعراء الشبان اللامعين الذين ينهضون اليوم فى كبر من التآلق والانراف • ويدعمون بأعمالهم ومآثرهم مبادئ هذا القرن العظيمة القوبة • ولن يخلو عملكم من الشبهامه والكرم • اكشفوا عن كلمة السر فى الأمل لهذا الشبان المدهش • شباب اليوم الذى يحمل على جبينه صراجه المستقبل وطيبته واخلاصه • سوف تجمعون فى ذلك الايمان المشترك الذى لا يهن ولا يفسد تلك المجموعة الكبيرة من العقول الأبية المواظبة على الدرس والتحصيل • التى تنبض بفرحة الانشراق • وتملا المدارس فى الصباح والمسارح - التى هى نوع من المدارس - فى المساء • تبحث فى الصباح عن الحقيقة فى العلم • وفى المساء تنشيد العظمة فى الشعر أو تصفق له • وتنشد الجمال فى الفن أو تصفق له • أعرف هؤلاء الشبان النبلاء • شباب اليوم • وأحبهم • انى على علم بخلاجاتهم • وأشكرهم على هذه الهممة الرقبقة التى كثيرا ما يرسلونها الى أذننى • كأنها هممة سرب بعد من النحل • ان لهم ارادة غامضة قوية • وسوف يصنعون الخير • وأنا كقيلهم فى ذلك • ذلك الشباب • هو زهرة فرنسا • هو النورة وقد بزغ فجرها من جديد •

عليكم أن تتصلوا بهذا الشاب . ايقظوا بجميع الكلمات السحرية .
من قبيل الواجب والشر والعقل والنفاد والوطن والانسانية والحرية
نالك اللامابة من الأصداء الموجودة في نفوسهم . انها انعكاسات عميقة قابلة
اكل الردود العظيمة .

أصدقائي ، وأنتم يا أبنائي ، هيا ، ناضلوا نضالكم الباسل ،
ناضلوا من غري ، ومعى . من غري لأن فدى المقاتل القديم لن يكون
مع أقلامكم ، ومعى لأن روحى ستكون مع أرواحكم . ها ، أنشطوا ،
وكافحوا ! ابجروا بجرأة صوب قطبكم الهادى الذى لا يمكن ازعاجه ،
صروب الحرية . ولكن نجسوا الصخور ، ففى البحر صخور . وسوف
يكون معى من الآن ، وفى وحدتى ، ذلك الأمل المرتقب ، صحيفة
« لورابيل » المنتصرة ، لتغير أحلامى القديمة . ونأمل أيضا أن نواصل
« لورابيل » صدورها .

لن أعاود الكتابة فى هذه الصحيفة التى احبها ، ولن أكون منذ
الغد الا واحدا من قرائكم . قارى حزين ورؤوف . سوف تواصلون
جهادكم ، وأواصل جهادى . وفضلا عن ذلك فانى لم أعد أصلح لشيء ،
الهم الا ان اعيش فى عزلة مع المحيط . أنا الشيخ المسن الهادى
الفلق . هادى ، لأنى فى اعماق أغوار الهاوية ، وقلقى لأن بلدى قد يسقط
فى هذه الهاوية . ويمثل المشهد الذى امامى هذه القصة المفجعة ، مشهد
الربد وهو يهين الصخر . وأنشغل بعظمة الطبيعة عن أمجاد الامبراطورية
والمملكة . ما أهمية أن يزيد على الناس أو ينقص منهم انسان وحيدا !
الشعوب تمضى الى مصائرهما . لسر نه نهاية لا يسبقها اعداد وتعبئة .
السنين تؤدى عملها المطى فى الانضاج ، حتى تنجهاز الأمور . وبينما
شوج الكنيسة البابا فى مناسبة عمده الخمسين ، أفقت أنا خبزا على
سطح منزلى . القه الى العصفار ، ولا انشغل فكرى بأى تنويج ، ولا حتى
بما يتوج أى بناء .

أوتفل هاوس فى ٢٥ أبريل ١٨٦٩ .

فيكتور هوغو

٢٩٢

مؤتمر السلام في لوزان

بروكسل في ٤ سبتمبر ١٨٧٩ :

مواطنو الولايات المتحدة الأوروبية .

اسمحوا لي أن أطلق عليكم هذا الاسم لأن الجمهورية الاتحادية
الأوروبية قد تأسست قانونا في انتظار تأسيسها بالفعل . انتم موجودون ،
فهى اذن موجودة . وسيمون من وجودها بانحدكم الذى يرسم الوحدة .
انتم بداية المستقبل العظيم .

قلدتوموني الرئاسة الفخرية لمؤتمركم ، فمستتم بذلك شفاف قلبى
مسا عميقا .

مؤتمركم اكثر من مجرد مجلس يضم ذوى الالباب ، انه بنوع ما
لجنة لصياغة قوانين المستقبل . لا وجود للصفوة الا اذا كانت تمثل
جمهور الناس ، وانتم تلك الصفوة . وعليكم من الآن أن تعلنوا لأصحاب
النشأن أن الحرب وبال ، والقتل خرى وعار ، حتى ولو كان عملا مجيدا
أو ملكيا طنانا نفاجا ، ودم الانسان تمين ، والحياة مقدسة . اعذار
رسمى .

لا مناص من حرب أحيرة مع الأسف ! لست بالتأكيد من أولئك
الذين ينكرون ذلك ، نرى أى حرب ستكون ؟ حرب غزو وفتح . أى
منح تنتهى اليه ؟ الحرية .

الحرية هى أول حاجة للانسان ، أول حق له ، أول واجب عليه .

وتميل الحصاره بصوره حتمية الى وحدة الأسلوب ، ووحدة القياس المتردى ، ووحده العدد ، والى انصهار الامم في الانسانية التي هي الوحدة الكبرى . للوفاء مرادف . هو التبسيط ، لكن للسرو والحياة مرادف ، هو التداول . وأول ابواع العبودية اقامة الحدود .

الحدود معنى القيود . افطعوا القيود ، أدبلوا الحدود ، اطردها موظفى الجمارك والجنود . وبتعبير آخر كونوا أحرارا ، وبالتالى يأتى السلام . سلام عميق ، سلام دائم لا رجوع فيه ، سلام منيع . وضع سوى للعمل ، وبادل السلع . والعرض والطلب . والانتاج والاستهلاك ، والجهد المشترك المصيح ، وجاذبية الصناعات ، وحركة الأفكار ، وحركة الانسانية مدا وجزا .

من صاحب المصلحة فى اقامة الحدود ؟ الملوك . يفرغون ليسودوا . يتطلب الحدود طارمة (تخشيه) والطارمة نسنلزم حارسا . « ممنوع المرور » عبارة نخص بها كل الامنيات ، والمحظورات ، والرقابات ، وضروب الطغيا . ونخرج مصائب الانسانية من هذه الحدود والطوارم ، ومن هؤلاء الجنود .

ولما كان الملك هو الاستثناء ، فانه يحتاج فى الدفاع عن نفسه الى الجندى ، ويحتاج الجندى بدوره الى القتل حتى يعيش . لابد للملوك من جيوش ، ولابد للجيوش من حروب ، والا تلاشت العلة فى وجود الملوك والجيوش . ومن العجيب أن يوافق الانسان على قتل الانسان دون أن يعرف سببا لذلك . فن الطغاة أن يجعلوا من الشعب جيشا ، فيعتسف نصف الشعب النصف الآخر .

للحروب كلها حجج شتى ، ولكن ليس لها أبدا سوى سبب واحد ، هو الجيش . امحوا الجيش ، لمحى الحرب . ولكن كيف يمحى الجيش ؟ بمحو الاضطهاد .

كل سىء يشبب بكيانه ! عليكم اذن ان تمحوا الطفيليات فى جميع صورها ، من روائب ملكبة ، وألوان التخاذل والتواكل التى تدفع لها الاجور ، وطوائف دينية تجرى على أفرادها المهايا ، وهيئات قضائية صرف لها النفعا والمرببات ، ووظائف ارستقراطية يبتغى أصحابها المهايا دون أن يعملوا شيئا ، وتنازل الدولة عن المباني العامة بلا مقابل ، وجيوش دائمة . أجروا هذا المحو ، وسوف تربح أوروبا عشرة ملابرات فى العام . هاكم بجرة قلم مشكلة الفاقة مبسطة .

ولكن العروس نرفض عدا البسيط ، ومن ثم كانت العابات من حراب البنادق .

وننفق آراء الملوك في نقطة واحدة : ان سديم الحرب ابد الآباد . ويعتقد الناس انهم يعاركون ، أبدا ، بل انهم ينعاونون . أكرر القول ان الجندي يجب أن يبرر وجوده . وتأيد الجيش تأيد للاستبداد . انه لمنطق رائع وقاس ولا ريب . والملوك ينفكون مريضهم ، وهو السئب ، بسيفك دماثة . هناك اخاء وحشى بين الأسلحة الفتاكة يترنب عليه استعباد الناس .

لذلك عليكم بالمضى نحو الهدف الذى سمينه فى موضع آخر « اسنعادة الجندي فى شخص المواطن » . وفى اليوم الذى نتم فيه هذه الاسنعادة ، والذى يخفى فيه رجل الحرب ، ذلك الأخ العدو . فلا يكون له وجود منفصل عن الشعب . يصبح الشعب وحدة واحدة متكاملة . محابة ، وتكون المدينة كلها موافقة مناسفه . ويضم فى ذاتها قوة ، هى قوة العمل ، وروحا . روح السلام ، حتى يخلق النروة من جانب ، والنور من جانب آخر .

فيكتور هوجو

واحتجرت مشاغل عائلية فيكتور هوجو فى بروكسل . ومع ذلك ، وبناء على الحاح شديد من المؤتمر ، صبح عزمه على الذهاب الى لوزان .

وفى يوم ١٤ سبتمبر افتتح المؤتمر . واليكم ما قاله فيكتور هوجو :

نعزنى الكلمات لكى أعبر عن مبلغ تأثرى بالحفاوة التى استقبلتمونى بها . وانى لأبدى للمؤتمر ولجمهور المستمعين الكرام الطيبين آيات تأثرى العميق . أيها المواطنون ، كنتم على حق حين اخترتم مكان اجتماعكم ومداولتكم هذا البلد النبيل . بلد جبال الألب ، فهو قبل كل شئ بلد حر ؛ ثم هو بلد سام . نعم ، هذه الطبيعة الرائعة تتواءم مع اعلان النصرىحات الانسانية العظيمة ، ومنها : لا حرب بعد اليوم !

ونمة سؤال يسيطر على هذا المؤتمر .

واسمحوا لى ما دتم قد منحتمونى هذا الشرف الرفيع باختيارى رئيسا ، اسمحوا لى أن أذكر لكم هذا السؤال . وسأوضحه فى كلمات

قلائل • ماذا نريد نحن الموجودين هنا جميعا ؟ السلام • نريد السلام ،
ونريده بحرارة ، نريده بالتأكيد : بين انسا و انسا ، وبين شعب
ونشعب ، وسلالة وسلالة ، وآخ وآخ : بين هابيل وهابيل • نريد زوال
الضغائن والأحقاد وخمودها •

ولكن هذا السلام ، كيف نريده أن يكون ؟ هل نريده بأى ثمن ؟
بلا شروط ؟ كلا نريد سلاما ، وظهرنا مقوسة ، ورؤوسنا مطأطئة •
لا نريد سلاما فى ظل الاستبداد : لا نريد سلاما تحت ضربات العصا :
لا نريد سلاما تحت صولجان الملك •

أول شروط السلام هو الخلاص • ومن أجل الخلاص لابد من ثورة ،
هى الثورة الكبرى ؛ أو ربما حرب : نكون مع الاسف الحرب الأخيرة •
عندئذ يتم كل شيء • وعندما يصير السلام منيعا ، لا ينتهك ، يصبح
سلاما أبديا • عندئذ لن نكون نمة جيوش ولا ملك ، ويتلاشى الماضى •
هذا هو ما نريده •

نريد أن يعيش الشعب وينشط ، ويشترى ويبيع ، ويشغل ،
ويتكلم ، ويحب ويفكر بحرية : نريد أن تكون هناك مدارس تصنع
المواطنين ، وألا يكون هناك أمراء يصنعون المدافع الرشاشة • نريد
جمهورية القارة الكبرى ، نريد الولايات المتحدة الأوروبية •

وأختم مقالى بهذه الكلمة : الحرية هى الغاية ؛ السلام هو النتيجة •

واستمرت مداولات « أصدقاء السلام » أربعة أيام • وختم
فيكتور هوجو المؤتمر بهذه الكلمات : أيها المواطنون •

يفتضينى الواجب أن أنهى هذا المؤتمر بكلمة خاتمة • وسأجند
أن نكون هذه الكلمة ودية ، فساعدونى على ذلك •

أنتم مؤتمر السلام : أى مؤتمر الصلح • واسمحوا لى بهذه
المناسبة أن استرجع احدى الذكريات •

فى عام ١٨٤٩ ، أن منذ عشرين سنة ، كان فى باريس ، كما
يوجد اليوم فى لوزان ، مؤتمر للسلام • كان ذلك فى يوم ٢٤ أغسطس،
وهو يوم دموى ، يوافق الذكرى السنوية لأحداث سانت بارتيليمى •
وكان هناك قسيسان يمثلان الشكلىين المختلفين للمسيحية ، الراعى
كوكيريل ، والأب دوجيرى • وأثار رئيس المؤتمر ، وهو الذى يتشرف
بالتحدث اليكم فى هذه اللحظة ، أثار الذكرى المشثومة لعام ١٥٧٢ ،
ووجه الخطاب الى القسسين قائلا : « فليقبل كل منكما الآخر » •

وفى ذكرى هذا التاريخ المنسوم ، وامام هتافات الجمعية ، ببادلت
البروسمانيه والكاتوليكية القبلات (تصفيق) .

واليوم ، فصلنا بضعة أيام فلائل من تاريخ آخر . تاريخ مجيبه ،
بقدر ما كان التاريخ الاول محزيا . فمدح على قاب قوسين من يوم ٢١
سبتمبر . فى ذاك اليوم تأسست الجمهوريه الفرنسيه . وكما حدث
فى يوم ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ حين قال الاستبداد والتعصب كلمتهما
الآخيره . الإبادة ، حدث فى يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ أن أطلقت
الديموقراطيه صبحها الاولى : الحريه ، المساواة ، الأخاء !
(برافو ، برافو !) .

حسن ! فى حضره هذا التاريخ الجليل . أتذكر هاتين الديانتين
كان يملهما قسيسان نعانما وقيل أحدهما الآخر : وأطاب تفبيلا آخر ،
نقبلا ميسورا ليس من سأل أن يسدل ستار النسيان على أى سئء ،
أطلب أن نقبل الجمهوريه والاشتراكية كل منهما الأخرى (تصفيق)
طسويل) .

يقول أعداؤنا : سوف ترضى الاشتراكية بالامبراطوريه عند
الحاجة . ولكن هذا غير صحيح أعداؤنا يقولون : الجمهوريه بجعل
الاشتراكيه . وهذا غير صحيح .

فالصيغه النهائية العليا التى ذكرتها مند هنيهة نعب عن الاشتراكيه
فى نفس الوقت الذى نعب فيه عن الجمهوريه .

هناك الى جانب الحريه التى تتضمن الملكيه ، المساواة التى تتضمن
حق العمل ؛ وهذى هى الصيغه الرائعة لعام ١٨٤٨ ! (تصفيق) .
وهناك الأخاء الذى يشمل التضامن .

وعلى ذلك فالجمهوريه والاشتراكية سى واحد (صيحات برافو
منكره) .

لست أنا الذى أناطبكم ، أيها المواطنون . من كانوا يسجونهم فيما
مضى واحدا من جمهورى الأمس ، ولكنى واحد من اشتراكي أمس
الاول . فاشتراكيته ترفع الى عام ١٨٢٨ . من حقى اذن أن أتحدث
عنهما .

الاشتراكية فسيحة ، ليست ضيقة . انها نخطب المشكله الانسانيه
كلها ، ونحيط بالمفهوم الاجتماعى كله . وفى الوقت الذى نطرح فيه
المسأله الهامه المتعلقة بالعمل والأجر ، تنادى بحصانه الحياه البشرية

والغاء القتل بجميع صوره . وامصاص العقوبة عن طريق التعليم .
 فيالها من مشكلة تحل بأعجوبة (عظيم !) . والاشتراكية نطالب بالتعليم
 المجانى الالزامى ، وتنادى بحق المرأة . تلك المخلفة المساوية للرجل .
 (برافو !) وتنادى بحق الطفل ، الطفل الذى يتحمل الانسان مسؤوليته
 (عظيم ! - تصفيق) ؛ وتنادى أخيرا بسيادة الفرد ، السيادة التى هى
 عين الحرية . ما كل هذا ؟ انها الاشتراكية . نعم . انها أيضا الجمهورية !
 (تصفيق طويل) .

أيها المواطنون ، الاشتراكية تؤكد الحياة . والجمهوريه تؤكد
 الحق . الأولى نرفع الفرد الى مرتبة الانسان ، والثانية ترفع الانسان الى
 مرتبة المواطن . فهل هناك توافق أعمق من هذا ؟

نعم ، نحن جميعا متعفون : ونحن لا نريد قياصرة . وائى لأدافع
 عن الاشتراكية المفترى عليها !

وفى اليوم الذى يطرح فيه السؤال مخيرا بين العبودية مع الرفاهيه
 من جهة (خبز والعب) وبين الحرية مع الفقر من جهة أخرى ، لا يتردد
 انسان فى الاجابة ، لا فى صفوف الجمهوريين ، ولا فى صفوف
 الاشتراكيين . وائى أعلن وأؤكد أن الجميع سوف يفضلون خبز الحرية
 الأسود على خبز العبودية الأبيض (صيحات استحسان مستمرة
 « برافو ») .

علينا اذن الا نترك للعداوة فرصه البزوع والانبثاق . ولنتكاتف
 اذن يا اخوانى الاشتراكيين ، ويا اخوانى الجمهوريين ؛ لتتكاتف بقوة
 حول العدالة والحقيقة ، ونواجه العدو (نعم ، نعم ، برافو !) .
 ما العدو ؟

العدو هو شئ أكبر من انسان وأقل منه (حركة) . انه مجموعة
 من الأحداث البشعة التى تنقل على العالم وتبتلعه ؛ وحسن له ألف مخلص
 رغم أنه لا يملك سوى رأس واحد . العدو هو ذلك التجسيد المشئوم
 للجريمة العسكرية والملكية القديمة . هو الذى يكتم أفواهنا وينهبنا ؛
 يضع يده على أفواهنا ، وداخل جيوبنا ؛ يملك الملايين والميزانيات ،
 والقضاة ، والقساوسة ، والحشم والحشم والقصور ، والمخصصات
 الملكية ، والجيوش كلها ؛ ولكنه لا يملك شعبا احدا . العدو هو ذلك
 الذى يسود ويحكم ويحتضر فى هذه اللحظة (تأثر عميق) .

أيها المواطنون ، لنكن أعداء للعدو ، ولنكن أصدقاء لأنفسنا .

لنكن روحا واحدة نقاتل العدو ، وقلبا واحدا لنتحاب • آه ! أيها
المواطنون • الأخاء (هتاف) •

كلمة أخرى وأنتهى •

لنحول أنظارنا الى المستقبل • لنفكر في اليوم الاكيد • اليوم
المحنوم • ولعله يوم قريب ، الذي ننسأل فيه أوروبا على غرار هذا
الشعب السويسري النبيل الذي يحفى بنا في هذه الساعة • هذا
الشعب الصغير له أمجاده ، وله وطنه المسمى « الجمهورية » • وله جبل
اسمه « لافييرج » (أى العذراء) •

لكن لنا منه الجمهورية حصا ، ولكن حريننا النفيه عبر
المدسة ، كقمة جبل « بونجفراو » (١) ، ذروة عذراء نفيض بالانوار
(هتاف متواصل) •

وأحيى ثورة المستقبل •

(١) ومعناها « العذراء » من قمم جبال الألب الألمانى - المترجم •

٢

الرد على رسالة فليكس بيات (١)

بروكسل في ١٢ سبتمبر ١٨٦٩ :

عزيزي فليكس بيات :

قرأت خطابك الودي الرائع .

وأنت تعرف أنه ليس من حفي أن أتكلم باسم زملائنا في المنفى .
لذلك اقتصر في اجابتي على ما يخصني .

وأظن أنه لن يمضي وقت طويل حتى يسقط حاجز الشرف الذي
مرضته على نفسي تصديقا لقول الشاعر : وإذا لم يبق غير واحد ، فسوف
أكون هذا الواحد .

وعلى ذلك سأعود .

وبعد أن أديت واجب المنفى ، سوف أؤدي الواجب الآخر .

وأنا ملك لضميري وللشعب .

فيكتور هوغو

أزمة أكتوبر ١٨٦٩

الامبراطورية النمساوية الى الزوال • وصارنا نميز بوضوح في كل أعمالها تلك الدلالات التي تفصح عن الأشياء التي تسير بها الى نهايتها •
ففي أكتوبر ١٨٦٩ نقضى لدى بونابرت الدستور الذي صنعه بنفسه •
وكان عليه أن يدعو الى الانعقاد في يوم ٢٩ منه ما كان يسميه بمجالسيه ولكنه لم يفعل ذلك • وكان من سداجة الشعب أن تدمر لأمر بسيط كهذا •
وبدت بوادر تهديد بثورة • وأبدى بعضهم أن لفيكتور هوغو يبدأ في هذا السخط والغضب ؛ وطن الناس في لحظة ما أن الموقف في أيدي رجلين ، أحدهما الامبراطور الذي اعتدى على الدستور ، والآخر منفي يهيج الشعب •

ونشر السيد لويس جوردان في ١٢ أكتوبر في صحيفة «لوسكييل» مقالا أحدث دويا كبيرا ، بدأ بهذه السطور :

هناك في هذه اللحظة رجلان يشغلان أكثر المراكز تباعدا في عالم السياسة ، ويحملان أضخم مسئولية يمكن أن يحملها ضمير انسان : أحدهما جالس على العرش ، وهو نابليون الثالث ، والآخر فبكتور هوغو •

ولما كان في هذه العبارة دعوة صريحة لفيكتور هوغو ، فقد كتب هذا الى السيد لويس جوردان ما يأتي :

بروكسل في ١٢ أكتوبر ١٩٨٦ •

عزيزي وصديقي القديم •

جاءني بعضهم بجريدتك « لوسيكل » وقرأت مقالك الذي أثار في نفسي ، وشرفني ، وأدهشني •

وما دمت تدعوني الى الكلام ، فما أنذا أتكلم •

وأشكر اذ مهدت لى الطريق لكى أزيل بعض اللبس والغموض .
 فليست أول كل سىء سوى فارىء عادى من قراء صحيفة « لورابيل » .
 وأعتقد أنه سبق لى أن قلت هذا بوضوح كاف يعفينى من اعادة قوله .
 ثم انى لم أنصح ولا أنصح بتنظيم أية مظاهرة شعبية يوم ٢٦ أكتوبر .

وقد أيدت صحيفة « لورابيل » كل التأيد فى طلبها الى ممثلى اليسار أن يأتوا عملا تشترك معهم فيه بباريس كلها . وما طلبته « لورابيل » هو تنظيم مظاهرة سلمية مجردة من أى سلاح ، على غرار مظاهرات نسب لندن فى مثل هذه الحالة ، ومظاهرة المائة والعشرين ألف « فينى » (١) فى مدينة دبلن منذ ثلاثة أيام .

ولكن اليسار رفض هذا العمل ، فكان لزاما على الشعب أن يمتنع عنه .

وافتقر الشعب الى ركيزته .

اذن فلا مظاهرات .

الحق فى جانب الشعب ، والعنف فى جانب السلطة . فعليئنا
 الا نبيح للسلطة أية حجة لاستخدام العنف ضد الحق .

لا يحوز لانسان أن ينزل الى الشارع فى يوم ٢٦ أكتوبر .

والشئ الذى يصدر بالفعل عن هذا الموقف هو الغاء القسم (٢) .
 والمخرج الحقيقى لللازمة هو تصريح علنى يصدر من ممثلى اليسار يتحملون
 به من القسم الذى أدوه فى مواجهة الأمة ، وهذا مخرج خلقى وثورى .
 وانى لأجمع بين هاتين الكلمتين عن قصد .

فليمتنع الشعب ، فتشل البنادق ؛ وليتكلم ممثلو الشعب ، فيلغى
 القسم .

تأنكم نصيحنائى . ومادمت قد تفضلتم بطلب رأى ، فهاكم رأى
 بأكمله .

وكلمة أخيرة . فى اليوم الذى أنصح فيه بالنورة ، سبأكون فيها .

ولكنى لا أنصح بها هذه المرة .

أشكر على ندائك البليغ ، وهأنذا البيه على عجل ، وأصافحك .

فيكتور هوجو

(١) الفتيون أعضاء جمعية ثورية ابرلادية ، غانها بخلص ابرلدا من السطرة
 الانجليزية - المترجم .

(٢) بعضاء رسم الولا للإمبراطور وديستور الإمبراطورية - المترجم .

جورج بيبودى (١) الى رئيس اللجنة الأمريكية بلندن

آوتفيل هاوس في ٢ ديسمبر ١٨٦٩ :

سيدي :

وصلني خطابك اليوم ٢ ديسمبر ، وأشكرك . وقد انتزعني خطابك من ذكرى الامبراطورية ، فهأنذا أنساها وأفكر في أمريكا . كنت أواجه الليل ، والآن استدير نحو النهار .

نطلب مني حديثا عن جورج بيبودى : وتظنني في وهمك السمع الكريم شخصا غير شخصي . تظنني صوت فرنسي . وخيل الي من قبل أننى صوت المنفى فحسب . مهما يكن الأمر يا سيدي فان نداء نبيلاً مثل نداءك لابد أن يسمع . ومهما قل سأنى فمن واجبي أن ألبى النداء . وهأنذا البسه .

نعم ، أمريكا على حق حين تفخر بهذا المواطن العالمى العظيم ، بهذا الأخ الكبير للناس ، جورج بيبودى . كان بيبودى رجلاً سعيدها ، يتألم لجميع الآلام ؛ غنيا يشعر بما يشعر به الفقراء من برد وجوع وعطش . كان مكانه بالقرب من روتشيلد (٢) ، فاستطاع أن يغير هذا المكان بحيث أصبح قريباً من فانسان دو بول (القديس) . كان له مثل يسوع المسيح جرح فى جانبه ، وكان هذا الجرح هو تعاسة الآخرين . ولم يكن ما يسيل من هذا الجرح دماً ، وإنما كان ذهباً ، ذهب يتدفق من قلب انسان . .

(١) جورج بيبودى - محسن أمريكي . ولد في دنفرس (١٧٩٥ - ١٨٦٩) - المرحوم
(٢) عمدة أسرة اعضاؤها من أفوى رجال المال في أوروبا - اسره روتشيلد - وهى أسرة يهودية ، تملك مصارف في كل بلاد العالم - المرحوم .

على هذه الأرض رجال يحقدون ورجال يحبون • وكان يهودى
من أهل الحب • وعلى محبا هؤلاء ابتسامه ربانية • ما هو الفهمون
الذى يمارسونه • قانون واحد ، قانون الأخاء ، قانون الهى ، قانون
انسانى ، ينوع النجداث نبعا لتنوع الشدائد : يعطى المبادى فى
مكان ، والملايين فى مكان آخر : يرسم فى ظلماتنا عبر القرون خطا من
النور يمتد من اليسوع الفقير الى يهودى الغنى •

فاليعد يهودى الى بلادكم يحدل شكرنا وبركتنا ! ان عالمنا ليحسد
عالمكم عليه • سوف يحافظ الوطن على رماده ، ونحتفظ قلوبنا بذكراه •
ولنحمله البكم أمواج البحر الفسحة المضطربة ! لن يبسط العدم
الأمريكى أبدا ما يكفى من النجوم فوق هذا النعش •

وثمة مقابلة لابد لى من اجرائها • ففي مثل هذا اليوم من عشر
سنوات ، فى يوم ٢ ديسمبر ١٨٥٩ ، وجهت ، أنا الوحيد المعسكف ،
التماسا الى الأمة الأمريكية المجيدة من أجل المحكوم عليه بالاعدام فى
هاربرزفرى • واليوم أوجه لها خطاب تمجيد • فمنذ عام ١٨٥٩ جرت
أحداث عظيمة ، اذ ألغى الرق فى أمريكا • وفى مأمولنا أن يلقى فى
يوم من الأيام ذلك اللون الآخر من الاستعباد ، وهو الفاقة • وعلينا الى
أن يأنى العمل التقدمى الثانى ليكمل الأول ، أن نكرم رسولى العاملين •
فنجمع فى فكرة واحدة من التوفير والعرفان بالجميل كلا من جون براون ،
صديق العبيد ، وجورج يهودى ، صديق الفقراء •

وانى لأشد على يدك يا سيدى مصافحا ••

فمكتور هوجو

الى السيد الكولونيل بيرتون
رئيس اللجنة الأمريكية بلندن

٧

الى شاول هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٩ :

ها أنت ذا يا ولدى قد أصبت لثانى مرة • فى المرة الأولى ، منذ تسع عشرة سنة ، كنت تكافح آلة الاعداء ، وأدانوك • واليوم للمرة الثانية ، عندما دعوت الجنود الى الأخاء ، كنت تناضل الحرب ، فأدانوك أيضا • واني لأحسدك على هذين المجدين •

فى عام ١٨٥١ ، تولى الدفاع عنك « كريميو » ، ذلك القلب الكبير ، واللسان الفصيح ، ودافعت أنا عنك معه • وفى عام ١٨٦٠ ، دافع عنك جامبيتا الذى يعيد بقوة ذكرى بودان ، ودافع عنك أيضا جول فافر ، سيد الكلمة الرائع الذى شهدته جرائته فى يوم ٢ ديسمبر •

كل شىء على ما يرام ، فاطمثن •

لقد افترفت مثلى جريمة تفضيل المجتمع الذى ينير ويعلم على المجتمع الذى يقتل ، والشعوب التى تعاون على الشعوب التى تتناصر • أنت تحارب تلك الضروب الكالحة من الطاعة السلبية التى يمارسها الجلاذ والجندي • وأنت ترفض بالنسبة للنظام الاجتماعى هذين الشمالين الحائطين ، اللذين يمثل احدهما رجل الجيوتين فى طرف ، وثانيهما الرجل حامل البندقية فى الطرف الآخر انك تحب « جيومين » أكثر مما تحب « جوزيف دو ميستر » (١) ، وتحب اليسوع أكثر من قيصر ؛ ولا تقبل الفأس الا فى يدى الرائد الذى يشتغل فى الغابة ، ولا السيف الا فى يدى المواطن الذى يناضل الطغيان • انك تشير الى بيكاريا كممثل

(١) فيلسوف دينى فرنسى (١٧٥٣ - ١٨٢١) - له عدة مؤلفات أشهرها « البابا » و « أمسيات سان بطرسبرج » ، يدافع فيها بشدة عن مبادئ السلطة فى السياسة والدين - المترجم •

أعلى للمشرع ، وجاريبالدى مثلا أعلى للجندى • فنالك من كل ذلك
السجن أربعة أشهر ، وغرامة ألف فرنك •

نضيف الى ذلك اشتباههم فى أنك لا توافق على ، هناك القوانين
بالمداح ؛ وربما كان فى مقدورك أن تثير الضمائر فى النفوس بسبب
القبض على الناس ليلا ، وأن تحض على احتفال حلف الزور •

أقول ثانية ان كل شئ على ما يرام •

كنت ابنا للجيش • وعندما ولدت ، قيد أبى اسمى فى سجلات
« روبال كورس » (نام كورس (١) ، وليس هذا خطئى) ، ولذلك -
وما دمت قد شرعت فى الاعترافات - أبلغه أن أقر بأنى أشعر بصيب
طبيعى قديم الجش • وقد كتبت فى موضع ما : أحب رجال السيف لأنى
والجندى • وذلك بشرط واحد : أن يكون السيف غير مدنس •

السيف الذى أحبه هو سيف وإشنجتون ، وسيف جون براون ،
وبديز باربيس (٢) •

ويجب أن أقول كلمة لجيش اليوم : ذلك أنه يخطئ إذا ظن أنه
شبيه بجيش الماضي انصد بهذا ذلك الجيش العظيم ، منذ ستين سنة
مضت • ولدى كان يسمى فى البداية جيش الجمهورية ، ثم جيش
الأمم المتحدة ، وكان فى حقيقته الواقعة ، وفى أوروبا كلها ، يسمى
جيش الثورة • وأنا أعرف كل ما يمكن أن يقال ضد ذلك الجيش ،
ولكن كان له وجهه العظيم • لقد هدم فى كل مكان الأوهام والسجون ،
كسجن الباستيى • كان فى جعبته الانسيكلوبيديا (دائرة المعارف) •
ونشر الفلسفة بفضل جنود الحرس وطبيعتهم السهلة التى لاتصنع
فيها • كان رجال الجيش ينادون البورجوازي بلفظة « بيكان » (٣)
ويطلقون على القسيس « كالتان » (٤) • كان الجيش يأخذ المعتقدات

(١) جزيرة كورسيكا - المرحم •

(٢) باربيس ، أرمان - فرنسى من رجال السياسة (١٨٠٩ - ١٨٧٠) ممثل الشعب
فى عام ١٩٤٨ • سجن فى مام ١٨٤٩ ، وأطلق سراحه فى عام ١٨٥٤ ، وغادر البلاد ،
ثم مات فى لاهاى - المرحم •

(٣) لفظة فرنسية معناها الاصل « فماش من حرير ملون » كان يصنع فى البداية
فى الصين ، ثم صنع فى أوروبا ، ودرجت اللفظة على السنة الجنود الفرنسيين يقصدون
بها البورجوازي - المرحم •

(٤) لفظة فرنسية دارجة تطلق بنوع من التحمير على رجال الدين - المرحم •

الخرافية بشدة وعنف • وسخر سامبوينيه (١) من القديس جانفييه (٢) • كان الجيش هو الذى صوت ضد الامبراطورية حين أرادت أن تقيم دعائمها • وكان فى صفوف هذا الجيش أوديه ، والفيلادلفيون • وكان يضم ماليه ، وجيدال ، واشبيني فيكتور دو لاهورى ، وقد قتل الثلاثة رميا بالرصاص فى سهل جرونيل • وكان بول لوى كورييه فى ذلك الجيش • كان هؤلاء هم الزملاء القدامى لهونى وهارس ، وكليبر وديزيه •

قام ذلك الجيش ، فى طريقه عبر العواصم باخلاء كل السجنون التى كانت مكتظة بالضحايا ، فمنها غرف التعذيب فى لاندجرف بألمانيا ، وحجرات الحبس المظلمة فى حصن سانت آنج بروما ، وكهرف محاكم التفتيش فى اسبانيا • ومن ١٧٩٢ الى ١٨٠٠ شق بسيفه بطن هيكال الطغيان الأوروبي القديم •

غير أنه مع الأسف أقام فيما بعد ذلك بعض الملوك ، وترك آخرين منهم على العرش ، ولكنه عزل أيضا بعضهم • وقبض على البابا • كنا وقتئذ بعيدين عن منتانا • من ذا الذى حارب الجيش فى اسبانيا وإيطاليا ؟ القساوسة : الراعى والراهب والخورى ، انهم رؤساء لعصابة • بالعظمة هذا الجيش ، حتى ولو انتزع نابليون منه ! كان الجيش فى الواقع فيلسوفا ووطنيا ، يملك شعلة الجمهورية القديمة • كان روح فرنسا ، روحا مسلحة •

لم أك وقتئذ الا طفلا ، ولكن عندى له ذكريات ، اليكم واحدة منها •

كنت فى مدريد فى عهد جوزيف ، عهد كان فيه القساوسة يظهرون للفلاحين الاسبان العذراء القديسة وهى ممسكة بيد فرديناند السابع فى مذنب (نجم بذيل) عام ١٨١١ ، والفلاحون برون هذا الشئ بوضوح • كنت مع أخوى فى مدرسة الاشراف الاكليريكية ، بكلية سان ايزيدرو ، وكان معلمونا اثنين من رجال الجيزويت ، أحدهما رفيق الشمال والثانى فظ : « دون مانويل » و « دون بازيليو » • وذات يوم قادنا معلمونا الجيزويت ، بنساء على أمر صدر اليهم ولا ريب الى لشبونة لنشهد وصول أربع فرق عسكرية فرنسية قادمة الى مدريد

(١) أسقف بينيفان • ولد حوالى ٢٥٠م واستشهد فى عام ٣٠٥م وظل راعى مدينة نابولى حيث احتفظوا بقبينة من دمه المتجمد ، تقول الأسطورة انه يتحول الى حالة السيولة فى يوم عيدِه وكذا فى المناسبات التى يثبت أنها خطيرة بالنسبة الى المدينة - المترجم •
(٢) قائد فرنسى (جان انطوان ايتين) (١٧٦٢ - ١٨٠٠) أشهر بالكرم والانسانية والتجرد من الأهواء الشخصية - المترجم •

لتدخلها . كانت هذه الفرق قد حاربت في إيطاليا وألمانيا ، وكانت يومئذ عائدة من البرتغال . ووقف الجمهور على جانبي الطريق الذي يمر به الجنود ينظرون بلهفة الى هؤلاء الرجال الذي نقلوا الروح الفرنسية الى الظلمات الكاثوليكية ، وأذاقوا الكنيسة قوة الضربات النورية ، وفتحوا الأديرة ، وهدموا الأسوار ، ونزعوا الحجب ، وقاموا بتهوية مخازن المخلفات المقدسة ، وأزالوا قدس الأقداس . وبينما كان الجنود يمرون تحت شرفتنا ، مال دون مانويل على أذن بازيليو قائلا :
هاك فولتير يمر .

فليعلم الجيش الحالي وليتأمل في أن هؤلاء الرجال كانوا على استعداد لعصيان أى أمر يصدر اليهم باطلاق الرصاص على النساء أو الأطفال . لم يكن الجيش عائد من أركوك (١) ، ومن فريلانده (٢) لبعض الى ريكامارى (٣) .

أؤكد أنى لا أجهل كل ماعساه يقال ضد هذا الجيش العظيم الذي انقضى ، ولكن أحمد له تلك الثلثة الثورية التي شقها في أوروبا القديمة الخاضعة لسلطان الدين . وعندما انقشع الدخان ، ترك هذا الجيش يرثى من النور .

وكانت مصيبتة التي اختلطت بمجده أنه كان مفصلا على مقاس الامبراطورية الأولى . فليخدر جيش اليوم أن يكون مفصلا على مقاس الامبراطورية الثانية .

والقرن التاسع عشر يحصل على ثروته أينما يجدها ، وثورته هي التقدم . وها يسجل مقدار ما تراجع جيش من الجيوش كما يسجل مقدار تقدمه . ولا يقبل الجندى الا اذا لمس في شخصه المواطن . الجندى مقدر له أن يهلك ، أما المواطن فمقدر له أن يعيش .

لقد أدانك القضاء الفرنسى لأنك افتقدت أن هذا (الذى ذكرته) صحيح . ونذكر بهذه المناسبة أن القضاء الفرنسى سييء الحظ أحيانا ، فيعجز عن العثور على المتهمين بالخيانة العظمى . ويبسود أن العرش يخفى جيدها من يجلس عليه .

(١) أركول ، قرية ايطالية ، هزم نابليون عندما النمساويين في ١٧ تومبر

١٧٩٦ - المترجم .

(٢) فريلانده ، بلدة في بروسيا الشرقية ، هزم عندما نابليون الروسى في ١٤ يونيه

١٨٠٧ - المترجم .

(٣) ريكامارى ، قرية فرنسية صغيرة - المترجم .

لنتأبر ولنردد اخلاصا لروح هذا القرن العظيم ، ولنبتعد عن
 المحاباة ، فنجر الأنوار كلها ، ولا نتجادل جدلا عقيما حول النقطة التي
 نسطع عندها الأنوار على خط الأفق . أما أنا الذي أتكلم ، أنا الوحيد
 المنعزل كما قلت قبلا ، الوحيد من حيث المكان الذي أقطن فيه ، والمنعزل
 من حيث المهاوى التي جعلت حول ضميرى . أنا غريب تماما عن
 المجادلات الكتابية التي لاتصلنى فى الكثير من الأحيان الا بعد مرور
 وقت طويل من تاريخها ، ولا أكتب ولا أستوحى شيئا من الأشياء التي
 تضطرب لها باريس ، ولكنى أحب هذا الاضطراب ، وأفرح به روحى
 من بعيد . أنا من أولئك الذين يحيون روح النورة اينما التفتوا بها ،
 وأصفق لكل من يستبطن هذه الروح ، سواء كان اسمه جول فافر ،
 أو الوى بلان ، أو جامبيتا ، أو باربيس ، أو بانسيل ، أو فليكس
 بيات . وانى لأشعر بتلك الروح القوية فى لسان « بيلتان » الفصيح
 القوى ، وفى سخرية روشفور اللاذعة الطنانة .

هذا يا ولدى ما كنت أريد أن أقوله لك .

الآن يبدأ شتائى التاسع عشر فى المنفى . وأنا لا أشكو من هذا .
 والشتاء فى جيرنسي ليس الا عاصفة طويلة . هذا المحيط المتوازن
 كل التوازن رغم العواصف التي تكتنفه من كل جانب ، انما هو جيرة
 طيبة لنفس ساخطة هادئة . وليس ثمة شئ ينعش النفس مثل هذا
 المنظر ، منظر الغضب المهيب .

فبكتور هوجو

٨

الأطفال الفقراء

ختم فيكتور هوجو هذا العام ، عام ١٨٦٩ حسب عادته بعيد
الأطفال الفقراء • وكانت هذه هي السنة قبل الأخيرة فى المنفى •
ونشرت الصحف الانجليزية حديث فيكتور هوجو فى هذه المناسبة ،
مناسبة عيد الميلاد فى أوتفيل هاوس • وننقل فيما يلى هذا الحديث •

سيداتى

لا أريد أن أبعث السامة فى نفوس هؤلاء الأطفال الذين ينتظرون
لعبهم ، وسأجتهد فى أن أوجز الحديث • لقد سبق لى أن قلت ، ويجب
أن أعيد القول بأن هذا المشروع الأخوى العمل الصغير المحدود هاهنا
بأربعين طفلا فقط ، هو عمل ضئيل فى ذاته ، لو لم يكن قد اتخذ فى
الخارج أبعادا شاسعة حسبما قدرتها الصحافة الانجليزية والأمريكية ،
ولو لم يكن « عشاء » الأطفال الفقراء الذى أنشأته منذ ثمانى سنوات
فى دارى فى نطاق صغير للغاية ، قد أصبح بفضل القلوب الطيبة
الكبيرة التى أخلصت له نظاما حقيقيا ضخما بالنسبة الى العدد الهائل
من الأطفال الذين تم غوتهم • ويتزايد هذا العدد باطراد فى إنجلترا
 وأمريكا • ولا بد أن تقدر وجبات العشاء المكونة من اللحم والخبز التى
قدمت للأطفال الفقراء بمئات الألوف • وتعرفن النتائج المدهشة التى
تم الوصول اليها بفضل همة السيدة المبجلة ليدى طومسون ، والقس
« وود » • وقد نشرت صحيفة « ابلاستريتيد لندن نيوز » صورا تمثل
القاعات الفسيحة الجميلة التى تقدم فيها وجبات عشاء الأطفال الفقراء •
ولا تعد أوتفيل هاوس شيئا يذكر الى جانب كل هذا ، اللهم الا أنها
نقطة بداية • ولا تحظى الا بقدر متواضع من الشرف ، شرف كونها
البادئة للمشروع •

وجرت العناية فى كل البلاد بفضل الصحافة • وفى كل مكان

تتضاعف جهود أفضل من جهودى هذه ، وفى كل مكان يحظى مشروع معونة الأطفال بالنجاح . ومن واجبى أن أشكر المحافل الماسونية على انضمامها الحماسى الى المشروع ، وأشكر كذلك ولنفس السبب تلك الجمعية النافعة ، جمعية المعلمين فى سويسرا الفرنسية ، وشعارها : الله ، الانسانية ، الوطن . وتصلنى من جميع الأنحاء رسائل تخطرني بالمحاولات التى جرت فى هذا السبيل . وقد أثر فى نفسى بصفة خاصة خطابان أحدهما من هايتى والانى من كوبا .

واسمح لى ، ما دامت الفرصة قد سنحت ، أن أبعث بكلمة ودية الى هذين البلدين النبيلين اللذين أطلقا صيحة الحرية . وسوف تتخلص كوبا من اسبانيا ، كما نتخلص هايتى من فرنسا . واذ حررت هايتى السود منذ عام ١٧٩٢ ، فانها نصرت ذلك المبدأ الذى يقرر أنه ليس للانسان حق فى أن يملك انسانا آخر . وسوف تنصر كوبا ذلك المبدأ الآخر الذى لا يقل عظمة عن الأول ، مبدأ أنه ليس لشعب ما الحق فى أن يملك شعبا آخر .

وأعود الى أطفالنا . مساعدة الأطفال هو أيضا عمل من أعمال التحرير . ففي العناية بالصحة والتربية شيء من التحرير . فلنعمل على تقوية هذا الجسد الصغير الضعيف المتألم ، ولننم هذا العقل الرقيق الناشئ . ماذا نعمل اذن ؟ نخلص الجسم من المرض ، ونحرر الروح من الجهل . لقد استقبلت فكرة عشاء الأطفال الفقراء بالحفاوة فى كل مكان . وتمت الموافقة فورا على هذا النظام الأخرى . لماذا ؟ لأنه يتوافق بالنسبة الى المسيحيين مع روح الانجيل ، وبالنسبة الى الديموقراطيين مع روح الثورة .

ونحن فى انتظار ما هو أفضل من هذا . ذلك لأن اغائة الفقراء بتقديم يد المعونة اليهم ليس الا مسكنا وقتيا . أما الغوث الحقيقى للبوساء ، فانه يتم بالغاء البؤس وسوف نبليغ هذا الغرض .

لنعاون التقدم ، بمساعدة الطفولة . ولنساعد بجميع الوسائل ، بالغذاء الجيد ، والتعليم الجيد . ويجب أن تكون مساعدة الطفولة ، فى هذا الزمن المضطرب ، شاغلا من مشاغلنا الرئيسية . يجب أن يكون الطفل موضع اهتمامنا . أتعرفن لماذا ؟ أتعرفن اسم الطفل الحقيقى ؟ الطفل اسمه المستقبل .

لنمارس الأبوة المقدسة ، أبوة الحاضر بالنسبة للمستقبل . وما نفعله من أجل الطفولة سوف يضاعفه المستقبل مائة مرة . الطفل ،

هذه النفس الصغيرة ، هو الحقل الذى سينتج محصول المستقبل • انه
يشتمل على المجتمع الجديد • فلننزر البذور فى هذه النفس ، ولنضع
فيها العدالة ولبهجة •

ونحن اذ نربى الطفل ، ننشئ المستقبل • التنشئة ، كلمة عميقة !
ونحن اذ نصلح هذه الروح الصغيرة انما نباشر تربية المجهول • واذا
كان الطفل صحيح الجسم ، فان المستقبل سوف يكون سليما معانى ،
واذا كان الطفل أمينا ، فان المستقبل سيكون طيبا • فلنعلم هذه الطفولة
الموجودة تحت انظارنا ، ونضئ لها الطريق حتى يشرق القرن العشرون
بأنواره • الشعلة فى الطفل هى الشمس فى المستقبل •

١

كوبا

بدأت أوروبا التي كانت راقدة على أحداث رهيبة تفقد رؤيا الأنبياء البعيدة . كان الناس على هذا الجانب من المحيط الأطلسي يعرفون بالكاد أن الثورة في أوج اشتعالها في كوبا . وكان الحكام الأسبان يقيمون هذه الثورة بقسوة ووحشية . وأبديت مناطق بأكملها في عمليات حربية . وهرب النساء ، ولجأ الكثير منهن الى نيويورك . وفي بداية عام ١٨٧٠ أرسل نساء كوبا من نيويورك الى فيكتور هوجو نداء يحمل أكثر من ثلاثمائة توقيع ، يلتمسن منه أن يندخل في هذا النضال ، فأجاب .

الى نساء كوبا

أيا نساء كوبا ، أسمع شكواكن ، أيتها القانطات ، تخاطبني أيتها اللاجئات ، الشهيدات ، الأرمال ، اليتيمات ، وتطلبين المعونة من انسان مغلوب على أمره . أيتها المنفيات ، انكن تقصدن رجلا منفيا . أولئك اللواتي لم يعد لهن دار ، يطلبن العون من ذلك الذي لم يعد له وطن . حقا ، لقد ضعفتنا الرزايا ، ولم يبق لكن غير صوتكن ، ولم يبق لي الا صوتي . صوتكن يثن وصوتي يحذر . هاتان النسمتان النشييج عندكن ، والنصيحة عندي ، هي كل ما تبقى لنا . من نكون يا ترى ؟ الضعف . كلا ، اننا القوة ، فأنثن الحق ، وأنا الضمير .

الضمير هو العمود الفقري للروح . وطالما كان الضمير مستقيما ظلت الروح قائمة . لسبت أملك سوى هذه القوة ، ولكنها تكفى . لقد أحسنن صنعا بمخاطبتى .

سأتكلم من أجل كوبا ، كما تكلمت من أجل كريت .

ليس من حق أية أمة أن تنشب مخالبا في جسد أمة أخرى . ليس من حق أسبانيا أن تفعل ذلك في كوبا ، ولا من حق انجلترا أن تفعل ذلك في جبل طارق . لا يملك شعب شعبا آخر ، كما لا يملك

انسان انسانا آخر • الجريمة ضد أمة أبشع من الجريمة ضد الفرد ، هذا كل ما هنالك • ان نوسيع نطاق العبودية انما يزيد من دناءتها • شعب يصطهد شعبا آخر ، جنس ينتزع الحياه من جنس آخر ، ذلك هو الأخطبوط يمتص دماء فريسته بوحشية • وهذا التراكم المرعب هو حدث من الأحداث الرهيبة فى القرن التاسع عشر • نشهد فى هذه اللحظة روسيا فوق بولندا ، وانجلترا فوق أيرلندا ، والنمسا فوق المجر ، وتركيا فوق الهرسك (١) وفوق كريت ، واسبانيا فوق كوبا • فى كل مكان ، شرايين مفتوحة ومصاصو دماء فوق الجثث •

جثث - كلا • انى أمحو هذه الكلمة • قبلت من قبل ان الأمم تنزف دماءها ولكنها لا نموت • كوبا تملك حياتها كلها كما تملك بولندا روحها كلها •

اسبانيا أمة نبيلة تستحق الإعجاب ، وأنا أحبها • ولكنى لا أستطيع أن أحبها أكثر مما أحب فرنسا • نعم ، لو كانت فرنسا تملك هايتى الى الآن ، لقلت لفرنسا ، تخلى عن كوبا مثلما أقول لاسبانيا ، تخلى عن كوبا •

ويمثل هذا القول ، أثبت لفرنسا تبجيلي لها • فالاحترام يتكون من نصائح صادقة • والحب هو قول الحقيقة •

ايا نساء كوبا اللواتى تفضين الى فى عبارات فصيحجة بأشجانكن وعذابكن ، انى أركع على ركبتى أمامكن ، وأقبل أقدامكن المساك • لا يساوركن الشك أبدا فى أن وطنكن المثابر سوف يتاب على ما يبذله من جهد والى ، فلن تضيع هدرا هذه الدماء التى سالت بغزارة • وسوف تنهض كوبا العظيمة ذات يوم حرة ذات سيادة بين أخواتها الجليلات • جمهوريات أمريكا أما من ناحيتى ، فانى أبعث اليكن بعقيدتى مادمتن تطلبن رأيى • اننى أرفع رأسى وأنظر ، فى هذه الساعة التى تغطى فيها الجرائم أوروبا ، فى هذه الظلمة التى يلمع الانسان خلالها فوق الندى أشباحا هى آثام تلبس تيجانا ، وتحت الأكداس البشعة من الأحداث التى تغل العزائم • كانت عبادتى على الدوام أن أتأمل فى الأمل • ويكفى المهزوم أن يتملك المستقبل بوجدانه وبصيرته • وإنها لبهجة أن يبصر الانسان اليوم ما سوف يراه العالم فى الغد • وفى لحظة معينة ، سوف تنبثق العدالة والحقيقة والحرية ، وتنبجلى على الأفق فى بهائها وروعها • وأشكر الله أن منحنى الثقة فى ذلك منذ الآن • وما بقى للمنفى من هناة فى ثنايا الظلمات هو أن يرى شروق الفجر فى أعماق روحه •

أوتفيل هاوس • •

فيكتور هوجو

(١) من جمهوريات اتحاد يوجوسلافيا - المترجم •

٢

من أجل كوبا

فى هذا الوقت ، طلب زعماء الجزيرة المناضلة الى فيكتور هوجو
أن يعلن عن حقهم • ففعل •

طلب من أولئك الذين يقال عنهم « ثوار كوبا » تصريحاً • وها هو
التصريح •

فى هذا النزاع القائم بين اسبانيا وكوبا ، اسبانيا هى النائرة ،
كما كان التائر فى صراع ديسمبر ١٨٥١ هو بونابرت •

انى لا أهتم بموضع القوة ، وانما بموضع العدالة •

يقول بعضهم : ولكن الوطن الأم ! أليس للوطن الأم حقوق ؟
لنتفاهم فى هذا •

ان له حقاً ، هو حق الوطن الأم ، ولكن لا حق له فى أن
يكون جلادا •

ولكن أليس فى المدنية شعوب كبرى وشعوب أصغر منها ؟ أليس
للكبار وصاية على الصغار ؟ لنتفاهم فى هذا أيضا • فى المدنية ، الأخ
الأكبر لا يملك حقاً على أخيه الأصغر ، وانما عليه واجب اإزاءه • وهذا
الواجب فى الواقع يعطى حقوقاً ، منها الحق فى الاستعمار • وللأمم
الموحشة حق فى المدنية ، كحق الأطفال فى التعليم ، والأمم المتمدنة ملتزمة
لها بهذا الحق • وأداؤها هذا الدين واجب ، وهو أيضا حق • من هذا ،
فى الأزمنة الغابرة ، حق الهند على مصر ، وحق مصر على اليونان ، وحق
اليونان على ايطاليا ، وحق ايطاليا على الغال • ومن ذلك أيضا ، فى
الوقت الحاضر ، حق انجلترا على آسيا ، وحق فرنسا على أفريقيا ، هذا

بشرط ألا يتولى النـمـور تـمـدـين الذئـاب ، وبشرط ألا تملك انجلترا كلايد (١) ، وألا يكون لفرنسا بيليسيه (٢) .

اكتشاف جزيرة لا يخول لمكتشفها الحق فى أن يضطهد أهلها .
تلك هى قصة كوبا . لا يجوز البدء بكريستوف كولومبوس للوصول الى شاكون .

لا اعتراض فى أن تتطلب المدنية الاستعمار ، وأن يتطلب الاستعمار الوصاية ، ولكن الاستعمار ليس هو الاستغلال ، وليست الوصاية هى الاستعباد .

الوصاية تنتهى حتما ببلوغ القاصر سن الرشـد ، سواء أكان القاصر هذا طفلا أم شعبا . وكل وصاية تمتد الى ما بعد فترة القصور انما هى اغتصاب ، والاغتصاب الذى يرتضيه الناس بحكم العادة أو التسامح هو عسف . والاغتصاب الذى يباشر بالقوة جريمة . وانى لأفصح الجريمة أينما أراها .

لقد بلغت كوبا سن الرشـد ، فأصبحت بذلك ملكا لنفسها .
كوبا فى هذه اللحظة تعاني عذابا رهيبا لا يمكن التعبير عنه . انها تطارد وتضرب فى غاباتـها ووديانـها وجبالـها ، وتقاس كل الأهوال التى يقاسيها العبد الهارب .

كوبا تناضل مذعورة ، مروعة ، ومسفوكة الدماء ضد ضراوة الظلم بكل أشكاله . ترى هل تنتصر ؟ نعم . وحتى تنتصر ، فانها تقاسى وتنزف الدماء . وكأنه من المحتم أن تمتزج السخرية بألوان التعذيب ، اذ يبدو أننا نلمح لونا من السخرية فى هذا القدر الوحشى الذى يعطى كوبا دائما فى مجموعة حكامها المختلفين نفس الجلاد ، دون اهتمام بتغيير اسمه ، فيرسل لها جونشا بعد شاكون ، كالمهرج الذى يقلب ثوبه .

الدم يسيل من بورتو برانتشيبي الى سنتياجو ، الدماء تجرى فى جبال « النحاس » وجبال كاراكوناس ، وجبال جوبافوس ، وتحيل لون الأنهار أحمر ، نهر كانتو ، ونهر آى لاشيكا .

كوبا تطلب النجدة .

(١) كلايد ، أحد حكام الهند الانجليز ، وكان قاسيا . حقق لاجلثرا استعمار الهند - المترجم .

(٢) جان جاك بيليسيه ، دوق دومالاكوف ، مارشال فرنسا (١٧٩٤ - ١٨٦٤) ، استولى على سيباسيتول ، وعين حاكما عاما على الجزائر - المترجم .

انى أشكو الى اسبانيا نفسها هذا العذاب الذى تقاسيه كوبا ، لأن
اسبانيا كريمة ذات مروءة • ليس الشعب الاسبانى هو المذنب ، انما
حكومته هى المذنبة - شعب اسبانيا كريم الشماثل انزعوا من تاريخه
القسيس والملك ، تجدوا أنه لم يفعل الا كل خير • استعمر ، ولكنه كنه
النيل أخصب وأثمر •

وفى اليوم الذى يصير فيه سييدا ، يسترد جبل طارق ويتخلى
عن كوبا •

السيد يزيد بقدر ما يفقد من عبيد • فتحرير كوبا ينمى اسبانيا ،
لأن الارتفاع فى المجد ، زيادة فى القدر • وسوف يكون للشعب الاسبانى
ذلك الطموح ، الطموح فى أن يكون حرا فى وطنه ، وعظيما فى
خارج وطنه •

أوتفيل هاوس

فيكتود هوجو

لوكريس بوجيا (١) من جوج صانده الى فيكتور هوجو

صديقى الكبير ، خرجت بعد مشاهدة مسرحية « لوكريس بوجيا »
وقلبى ينبض بهجة وتأثرا • ولم يزل فى خاطرى الى الآن كل تلك المشاهد
المؤثرة ، والكلمات اللطيفة أو المنيعة ، وابتسامة الفونس ديست المريبة ،
وحكم جينارو المرعب وصيحة الأمومة التى أطلقها لوكريس ، ولم يزل
يرن فى أذنى تلك الهتافات التى أطلقها جههوز المشاهدين وهو يصيح
« بوجيا فيكتور هوجو ! » ويناديك ، وأسفاه ! كأنك ستأتى اليهم ،
وكانك تستطيع أن تسمعهم •

عندما يتحدث الانسان عن عمل خالد مثل لوكريس بوجيا ،
لا يجوز له أن يقول : حظيت المسرحية بنجاح هائل • ولكن أقول :
لقد نلت نصرا مبينا • ويسالنى أصدقاؤك أصحاب جريدة « لورابيل » ،
وهم أيضا أصدقاؤى عما اذا كنت راغبة فى أن أكون أول من يزف اليك
بشرى هذا النصر • سأفعل ذلك بالتأكيد ! فليحمل هذا الخطاب ،
أيها العزيز الغائب ، صدى هذه السهرة البديعة •

ذكرتنى هذه السهرة بسهرة أخرى لا تقل عنها جمالا • أنت لا تعرف
أننى حضرت أول عرض لمسرحية لوكريس بوجيا ، وكان ذلك على
ما يقوله لى البعض ، من سبع وثلاثين سنة كاملة بالضبط ، يوما
بيوم •

وأذكر أنى كنت فى الشرفة ، وشاءت الصدفة أن يكون مكانى الى
جانب « بوكاج » الذى رأيته يومئذ لأول مرة • كنا أنا وهو غريبين ،

(١) فتاة إيطالية ، تنتمى الى أسرة إيطالية مشهورة من أصل أسباني (١٤٨٠ - ١٥١٩)
اشتهرت بجمالها ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون ، اتهمت باقتراح جرائم عديدة - أطلق
اسمها على مسرحية تاريخية لفكتور هوجو - المترجم •

بـهـل أحـدنا الآخـر • ولكن الحماسة جعلتنا صديفين ، فكنا نهتف معا ونقول : ما أجمل هذا ! ولم يسعنا في فرات الاستراحة الا أن نتبادل الحديث ، ونبدى افتتاننا ، وننذكر معا بعض الفقرات والمشاهد •

كان في النفوس وقتئذ ايمان وحماسة للأدب ، اختلجا للفور في نفسك ، وخلعا حزبا من الألفة والاخاء في الفن • وفي نهاية المسرحية ، حين نزل السنار عن الصيحة المفجعة : « أنا أمك ! » تصافحت أيدينا ، وبنييت ساسكة حتى وفاة ذلك الفنان العظيم والصديق العزيز •

وشهدت اليوم لثاني مرة « لوكريس بورجيا » كما شهدتها من قبل ، ولم تهرم المسرحية يوما واحدا ، ولم يصيبها غضن أو طى ، وبقي هذا الشكل الصافي المتين كرخام باروس^(١) نقيا سليما كاملا •

تم انك لست في هذه المسرحية ، وتبهرت بسحرك الذي لا يقارن به سحر من أسوأ المشاعر التي تزلزل كياننا • لقد جسدت « الـام » رسـئـفـتـها ، وإنه لشيء عـالـد خلـود القلب •

ولعل لوكريس بورجيا هي اقوى مسرحياتك وأرفعها • وإذا كانت « روى بلاس » هي أكر المسرحيات بهجة ولمحة ، فإن فكرة • لوكريس بورجيا هي أكر الافكار اثارا للعواطف ، وتأثيرا في النفس ، وتخلخلا في أغوار المشاعر الانسانية •

والشيء الذي نال اعجابي بنوع خاص ، هو البساطة الجريئة التي أقامت هذه المسرحية على الدعائم القوية لثلاثة مواقف رئيسية • وكان المسرح القديم يقوم على مثل هذه الرحابة القوية الهادئة •

وكان في الفصول الثلاثة والمناظر الثلاثة ما يكفي لبسط هذا الفعل المدهش وربطه ثم حل عقده :

الأم وقد أهينت أمام ابنها ،

والابن وقد سمته أمه ،

والأم وقد عاقبها ابنها وقتلها •

وكان لابد ان تسيل هذه الثلاثية الرائعة من ينبوع واحد ، وكأنها مجموعة برونزية واحدة • ألم تكن كذلك ؟ بل أعتقد أنها كانت كذلك •

(١) من جزر اليونان ، اشتهرت في الزمان الماضي برخامها الأبيض الجميل - المترجم •

وأذكر الظروف والأحوال التي ألفت فيها مسرحية « لوكريس بورجيا » بصورة ارتجالية بنوع ما ، في مستهل عام ١٨٣٣ .

فقد قدم « لوتيانر فرانسيه » (مسرح الكوميدي فرانسيز) في نهاية عام ١٨٣٢ العرض الأول والوحيد لمسرحية « الملك يلهو » ، وكان هذا العرض معركة ضارية ، واستمر وانتهى بين عاصفة من صفيح الاستنكار وأخرى من هتافات الاستحسان . فلمن نكون الغلبة في العروض التالية ، للصفاير أم للهتافات ؟ انه لسؤال كبير ، وتجربة هامة بالنسبة الى المؤلف . . .

ولكن لم تكن ثمة عروض تالية .

ففي غداة العرض الأول ، منع عرض « الملك يلهو » بالأمر ، ولم يزل ينتظر على ما أعتقد عرضه الثاني . ومع ذلك فأوبرا « ريجوليتو » (١) تمثل على خشبة المسرح كل يوم .

وسببت هذه المصادر العنيفة ألما شديدا للشاعر . ولا بد يا صديقي أنك عانيت من جرائها لحظة قاسية من الألم والغضب .

ولكن جاء في اللحظة نفسها هاريل ، مدير مسرح « بورت سان مارتان » ، يطلب منك مسرحية مسرحه وللآنسة جورج . وكان في حاجة عاجلة الى هذه المسرحية . ولم يكن لمسرحية « لوكريس بورجيا » وجود الا في قريحتك ، بل ان بناءها لم يكن قد بدأ بعد . ولكن لم يكن لذلك أهمية ، اذ كنت تريد أن تنال ثأرك في الحال ، فقلت لنفسك ما قلته للجمهور من قبل في مقدمة « لوكريس بورجيا » نفسها : « ان اخراج مسرحية جديدة بعد المسرحية الملقاة بستة أسابيع لهو أسلوب لمصارحة الحكومة برأيك فيما فعلته هي ، ويثبت لها أن جهدها يذهب أدراج الرياح ، وأن الفن والحرية قديران على الظهور ثانية في ليلة واحدة من تحت القدم الحزقاء التي داست عليهما » .

وشرعت في العمل للتو . وفي غضون أسابيع سنة كانت مسرحيتك قد كتبت ، وحفظت ، وجرت عليها التدريبات ، ومثلت . وفي يوم ٢ فبراير ١٨٣٣ ، بعد انقضاء شهرين على معركة « الملك يلهو » كان أول عرض لمسرحية « لوكريس بورجيا » أعظم نصر في حياتك المسرحية .

(١) ريجوليتو - أوبرا من أربعة فصول - من نص إيطالي لبيافيه (ترجمة فرنسية لادوار دوبويه) - موسيقى فيردى - وهي اخراج موسيقى أوبرالي لمسرحية « الملك يلهو » ليفيكتور هوجو - المترجم .

ومن الطبيعي أن يكون هذا العمل الذي تم في كرة واحدة متينا ،
خالدا ، وأن يصفق له الجمهور بالأمس ، كما صفق له منذ أربعين سنة
وكما سيصفق له بعد أربعين سنة ، وكما سيصفق له على الدوام .

كان تأثيره في النفوس قويا جدا منذ الفصل الاول ، وازداد قوة
فصلا بعد فصل ، حتى كان الانفجار الكبير في الفصل الأخير .

والأمر العجيب ، أننا نعرف هذا الفصل الأخير ، معرفة بوجداننا ،
ونترقب دخول الرهبان ، وظهور لوكريس شوجيا ، وطعنة سكين ابنها
جينارو .

ومع ذلك فقد انفعلنا ، وارتعينا ، وتلاحقت أنفاسنا ، كما لو كنا
نجهل كل ما سوف يحدث . وأرسلت أول نغمة في صلاة الموتى قطعة من
أغنية الخمر ، أرسلت رعدة في الأوصال . وكنا نأمل أن يتعرف
ابن لوكريس بورجيا على أمه ويصفح عنها ، ولا يقتلها . ولكن لا ، انك
لم ترد ذلك أيها الاستاذ العنيد ، فلا بد عندك من التكفير عن الجريمة ،
ولا بد من ارتكاب جريمة القتل العمياء ، قتل الابن أمه للاقتصاص من كل
هذه الآثام التي قد تكون هي أيضا عمياء .

وأخرجت المسرحية وقبلت بصورة مدهشة على هذا المسرح ووجدت
ليه مكانها المناسب .

وكانت مدام لوران زائعة حقا في دور لوكريس . ولا أنكر الصفات
العظيمة التي تتحلل بها الأنسة جورج ، من جمال وقوة وأصالة ، ولكنني
أقر بأن موهبتها لم تؤثر في نفسى الا عندما تأثرت من الموقف نفسه .
ويبدو لي أن ماري لوران قد دفعتني هي بنفسها الى البكاء ! وكان لها في
الدور الأول مثلما كان للأنسة جورج ، صيحتها الرهيبة ، صيحة اللبوة
المجروحة : « كفى ! كفى ! » ، ولكنها كانت في الفصل الأخير ، عندما
زحفت عند أقدام جينارو ، ذليلة رقيقة مبتهلة خائفة خوفا شديدا ، لا لأنها
سوف تقتل ، وانما لأنها ستقتل بيد ابنها ، لدرجة أن القلوب كلها
كانت تذوب كقلبها ومع قلبها . ولم يجرؤ أحد على التصفيق ولا التحرك
وكنتم الناس أنفاسهم . ثم نهض جمهور النظارة كلهم يستندونها ويهتفون
لها ولك في وقت واحد .

ولم تبرز شخصية « ألونفس دينست » بمثل الصندوق والروعة

الذين تجليا في منيل ميلانج (١) ، فما اشبهه بوننجنون (٢) أيتيسيان (٣) . وليس نمة انسان اشبه بأمر ، بل بأمر ايطالى من امراء القرن السادس عشر من ميلانج ، فهو شرس ، وهو رقيق الحاشية . وهو كمنان ، يعد انتقامه ، ويشكله ، ويتذوقه ، بفدر واحد من القسوة والرشاقة . وانا لنعجب به فى هلع وهو يستخدم مخالفه القطبية كأنه نمر ملكى جميل .

أما تاياذ فان له وجه جينارو المفجع القاتل ، واستخدم عبارات رائعة تحمل طابع الشراسة المتعالية النافرة فى المشهد الذى يكون فيه جينارو قاضيا وجلادا .

وأما « بريزيل » فكان رائعا فى ثياب نبيل اسباني مزيف « هيدالجو » وهو يمثل شخصية « جويتا » الشيطانية ، بمشيتها وحركتها العريضة .

وأما الشبان الخمسة الأشراف ، الذين أدوا أدوارهم أداء مشرفا فنانون ذوو كفاءة حق ، على رأسهم « شارل لوميتير » ، فيبدو عليهم كأنهم قد خرجوا من احدى لوحات جيوجيوني أو بونيفاسيو .

وأما الأخراج فهو على قدر كبير من الدقة والاحكام ، والثراء الذى يعيد احياء ايطاليا العظيمة الرائعة كلها فى عهد النهضة ، فى صورة تخلق الأنظار . لقد عاملك السيد رافائيل فبلكس معاملة جديرة بالملوك ولكنه عاملك أكثر من ذلك بأسلوب فنى .

ولكن - أرجو ألا يغضب منى المخرج لقولى هذا - هناك من احتفى بك أكثر من حقاقته بك ، ذلك هو الجمهور ، أو بالأحرى الشعب . فكم من هتافات لاسمك ولعملك !

كنت سعيدة للغاية وفخورة من أجلك لهذه الهتافات الصادقة المشروعة التى تستحقها مائة مرة أيها الصديق الكبير . وليس فى عزمي أن أمدح هاهنا قدرتك وعبقريتك ، ولكن بوسعى أن أزجى لك الشكر لما أعهدك فيك من صفات العامل القدير الذى لا يعرف كلالا فى عمله .

وحين يفكر الانسان فيما صنعتته من قبل فى عام ١٨٣٣ ! لقد

(١) اتيين ماران ميلانج ، ممثل وحفار فرنسى (١٨٠٨ - ١٨٧٥) - المترجم .
 (٢) ريتشارد باركس بوننجنون ، مصور انجليزى ، اشتهر بنضارة ألوانه ، وبضرب من الجمال الصافى الاستقرامى (١٨٠١ - ١٨٢٨) - المترجم .
 (٣) تيسيان - مصور ايطالى ذائع الصيت (١٤٧٧ - ١٥٧٦) - زعيم المدرسة الفينيسية فى التصوير - المترجم .

جددت الشعر الغنائى ، وأعطيت فى مقدمة « كرومويل » كلمة السر
للثورة المسرحية ، وكنت أول من كشف الحجاب عن الشرف فى
« الشرقيات » ، وعن العصر الوسيط فى « نوردام دوبارى » .

وكم من أعمال وروائع ظهرت منذ ذلك الحين ، كم من أفكار تحركت
وأشكال اخترعت ! ومحاولات ومغامرات جريئة واكتشافات !

وأنت مع ذلك لا تستريح ! كنت تعلم بالأمس فى جيرنسى أنهم يعيدون
عرض لوكريس بوجيا فى باريس ، وتحدثت فى هدوء وسكينة عن
الفرص المتاحة لهذا العرض . ثم كنت نائما فى الساعة العاشرة ، فى
اللحظة التى كانت فيها قاعة المسرح تدعو ميلانج ومدام لوران للظهور
بعد الفصل الثالث ، حتى تستطيع أن تصحو حسب عادتك فى الصباح
المبكر . وقيل لى أنه فى اللحظة التى أختتم فيها خطابى هذا ، تشعل أنت
مصباحك ، وتشرع فى هدوء فى عملك الذى بدأه من قبل ؟

فيكتور هوجو

من فيكتور هوجو الى جورج صائد

أوتفيل هاوس فى ٨ فبراير ١٨٧٠

كنت بفضلك حاضرا فى هذا العرض ، ورأيت كل شيء خلال
أسلوبك الرائع : المسرح ، والمسرحية ، وبريق المشاهد ، والصالبة المشرقة
والممثلين الأقوياء المؤثرين الذين يستثيرون انفعالات الجماهير ، وتلك
الرؤوس المنبتهة ، والشعب المتأثر ، وأنت ، المجد ، تصفقين .

منذ عشرين سنة ، وأنا محجور على . لقد صادر أملاكى حفظة
الإملاك ، وصادرت حكومة الانقلاب مجموعة أعمالى ، وعزلت مسرحياتى
الموبوءة فى الحجر الصحى ، وارتفع العلم الأسود يرفرف فوقى . ومنذ
ثلاث سنوات ، صرحوا بخروج « هيرنانى » من « الليمان » ، ولكنهم
سرعان ما أرجعوها اليه فى أقرب وقت مستطاع ، لأن الجمهور لم يبد
قدرا كافيا من الكراهية لذلك اللص قاطع الطريق . واليوم يوم
« لوكريس بوجيا » ، فما هى ذى قد تحررت ، ولكن انكشف سترها
واشتبه الناس فى عداوها ، ترى هل يتركونها خارج سجنها مدة
طويلة ؟

لقد منحتها « تصريحاً حريزا بالمرور » ، أنت سيدة هذا القرن
العظيمة النفس النبيلة ، الخلف الحى ، صاحبة الحق فى الكلام الصريح
القوى .

وجاءنى خطابك على الرحب والسعة • ان وحدتى عرضة للكثير من
الاهانة والسب ، ويقول الناس عنى كل ما يريدون قوله • ولكنى رجل
صموت هادى • ان فى التغاضى عن القدح والوشاية قوة • وأنا أملك
هذه القوة • ثم انه من الطبيعى ان تدافع الامبراطورية عن نفسها بكل
الوسائل • الامبراطورية هدفى وأنا هدفها • ومن ثم تنطلق ضدى الكثير
من القذائف التى تسقط ، لحظها ، فى الماء ، لأن عليها أن تجناز بحرا •
ومهما كان أمر هذه القذائف ، فأنها انما تثبت جمودى وانعدام حساسيتى
فلاهانة تزيدنى صلابة فى ايمانى وازادتى ، وتجعلنى أبتسم للثلب •
ولكن أمام العطف والرضا والصدقة والمودة القوية الرقيقة التى يبدىها
الشعب ، أشعر ، انا الشيخ البسيط المفكر ، اشعر بقلبى يذوب • أحقا
اذن أنى محبوب بعض الحب !

وفى الوقت الذى تخرج فيه « لوكريس بورجيا » من السجن ، يدخله
أبنى شارل • وهكذا هى الحياة • فلنتقبلها •

أما أنت ، فانك خليفة بأن تجعلى من حياتك التى عانت هى أيضا
الكثير من الآلام ، نورا ساطعا • وسوف يتوج رأسك فى المستقبل بالأكليل
المهيّب اللائق بالمرأة التى دافعت عن المرأة • ان عملك فى مجموعه معركة
وماهو معركة فى الحاضر ، سيغدو نصرا فى المستقبل • ومايكون مع التقدم
يكون مع اليقين • وما يرقق المشاعر عند قراءة ما تكتبين ، انما هو
سمو قلبك • انك تبذلين هذا القلب كله فى الفكر والفلسفة والحكمة
والتعقل والحماسة فيالك من كاتبة قديرة ! وسوف أفرح عما قريب لأنك
ستفوزين بالنجاح ، فأنا أعلم أنهم يجرون التدريبات على مسرحية لك •

وانى لأشعر بالسعادة فى كل مرة أبادل فيها معك بعض الحديث •
ان أحلامى فى حاجة الى تلك الومضات من النور الذى ترسلينه الى •
واشكرك لأنك تتجهين ناحيتى من وقت لآخر ، من أعلى القمة التى تقفين
فوقها ، أيتها النفس العظيمة •

يا صديقتى المجيدة ، اننى اركع عند قدميك •

فيكتود هوجو

٤

واشنطن

طالعنا صحيفة « رسالة أوروبا » عدد ١٢ مارس ١٨٧٠
بما يأتى :

« اجتمع بعض مواطنى الولايات المتحدة فى فندق لانجهام هوتيل للاحتفال بعيد ميلاد واشنطن . وكان من بين الأنخاب التى قدمت النخب الأتى : الى فيكتور هوجو صديق أمريكا ، وحامل لواء التجديد فى العالم القديم ! » .

« وكلف المواطنون الكولونيل بيرتون الذى ترأس الولاية أن يبعث الى المنفى فى جيرنسى بنخب المواطنين الأمريكين . ومن ثم بادر فيكتور هرجو بالاجابة :

أوتفيل هاوس فى ٢٧ فبراير ١٨٧٠

سيدى

تأثرت تأثرا عميقا من النخب النبيل الذى بعثت به الى . أشكر وأشكر أصدقاءك المبجلين . نعم ! يجب أن يكون لنا « ولايات متحدة أوروبية » الى جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وجدير العالمين أن يشكلوا جمهورية واحدة . وسوف يأتى هذا اليوم ، وعندئذ يقوم سلام الشعوب على هذا الأساس المتين الأوحد ، وهو حرية الرجال .

اننى رجل لا أنشد الا الحق ، ولا شئ أكثر من الحق . وثقتك تسرفنى وتؤثر فى نفسى . وانى لأشد على يدك الصديقة .

فيكتور هوجو



هينيت دو كيسلر

استهل عام ١٨٧٠ بالنسبة الى فيكتور هوجو وفاة صديق له .
وكان فيكتور هوجو قد استضاف في داره منذ عدة سنوات رجلا مقادما
من المغلوبين على أمرهم في أحداث ديسمبر ، هينيت دو كيسلر . وكان
الاثنان قد تصافحا بالأيدى لأول مرة في صباح يوم ٣ ديسمبر بشارع
سانت مرجريت على بعد خطوات قلائل من متراس بودان الذي رفع في
نفس اللحظة التي وصل فيها فيكتور هوجو . بدأت هذه الأخوة عند
المتاريس واستمرت في المنفى » .

وفي يوم ٦ أبريل ١٨٧٠ توفي كيسلر الذي أضناه الحنين الى الوطن
ولكن بقي مع ذلك قوى الروح . وكان قبره في جبانة « فولون » بالقرب
من بلدة « سان بيير » ، وعليه حجر نقش عليه هذه الكتابة :

الى كيسلر

وفي اسفل الحجر ، هذه العبارة : زميله في المنفى

فيكتور هوجو

وفي يوم ٧ أبريل ، أدلى فيكتور هوجو على قبر كيسلر بالحديث
الآتي :

في غداة كمين عام ١٨٥١ ، مع بزوخ فجر ٣ ديسمبر ، أقيم متراس
في ضاحية سانت انطوان ، متراس خالد الذكر ، سقط عنده أحد نواب
الشعب . واعتقد الجنود أنهم كانوا مخطئين . فالمتراس الذي هدم في
باريس ، أقيم من جديد في المنفى .

وظهر متراس بودان ثانية وللغور ، لا في فرنسا ، وانما في خارج

فرنسا ، ظهر مشيدا لا بالبلاطات والحجارة وانما بالمبادئ ، وبحول من سىء ماضى الى شىء متالى ، أى شىء رهيب . لقد شيد المنفيون هذا المتراس الشامخ بأنقاض العدالة والحرية ، واستخدموا فيه كل حطام الحق ، مما جعل منه شيئا فخما ومهيبا . وبقي المتراس من ذلك الحين قائما هناك فى وجه الأمبراطورية ، يقطع عليها سبل المستقبل ، ويمحو من أمامها الأفق . انه شاهق كالحقيقة ، متين كالشرف ، مضروب بالمدافع كالعقل رلا يزال الناس يموتون عنده . فبعد بودان - نعم ، فالمتراس هو نفسه - ماتت عنده بولين رولان ، ومات ريبيرو ، وشارا وجزافيه دورير ، ومات منذ هنية كيسلر .

وإذا شئنا أن نميز بين المتراسين ، متراس ضاحية سانت انطوان ومتراس المنفى ، وجدنا كيسلر همزة الوصل بينهما ، اذ كان ينتمى الى الاثنين ، مثل الكثير من المنفيين .

اسمحوا لى أن أمجد هذا الكاتب الموهوب ، والرجل الباسل الذى كان يتمتع بكل ضروب الشجاعة ، من شجاعة القتال الحية الى شجاعه المحنة البطيئة ، من البسالة التى تنصدى لطلقات البنادق الى البطولة التى ترتضى الحنين الى الأوطان . كان مناضلا وكان صبورا .

كان كاثوليكيًا من أنصار الملكية مثل الكثير من رجال هذا القرن ، وشئلى انا الذى اتحدث فى هذه اللحظة . وليس الانسان مسئولاً على بدايته . وخطأ البداية يزيد من جدارة النهاية لصداقة .

كان كيسلر أيضا ضحية لذلك التعليم المقنن الذى هو ضرب من الكماثن المنصوبة للطفولة ، يخفى التاريخ عن المداك الصغيرة ، ويزيف الوقائع ، ويشوه النفوس . ونتيجة ذلك : الأجيال التى عميت قلوبها . فاذا جاء الطاغية استطاع أن يمويه كل شىء فى نظر الامم الجاهلة ، كل شىء حتى ارادتهم ، بل يستطيع أن يزيف الانتخابات العامة . عندئذ نشهد هذه الظاهرة ، نشهد شعبا محكوما بموجب توقيع مقتصب ، وهذا ما يسمى الاستفتاء العام . وكيسلر ، مثل الكثير منا ، أصلح تعلمه وقومه ، وطرح عنه الأوهام التى وضعها مع اللبن ، وسلخ الطفل القديم ، لا الرجل القديم من اهابه ، وتخلص خطوة خطوة من آثار الأفكار الخاطئة ، ودخل فى ساحة الافكار الحقيقية ، ونضج ، وكبر ، وتبصر بالحقيقة الواقعة ، واستقام بفضل المنطق ، فتحول من ملكى الى جمهورى وما أن أبصر الحقيقة حتى أصبح وفيا لها . ولم يكن ثمة وفاء أعمق وأصلب من وفائه . ورغم أنه عانى من الحنين الى الوطن ، الا أنه رفض العفو العام عنه . وقد أكد عقيدته بالموت .

كانت ارادته أن يحتج حتى النهاية • وبقي منفيًا لشدة حبه للوطن •
وكان تدهور فرنسا يعتصر قلبه • وظل يرمق بعينه تلك الأكذوبة التي
هي الامبراطورية ، فكان ساخطا ، يرتعد خجلا من العار ، ويقاسى • ودام
نفيه وغضبه تسعة عشر عاما • وها هو أخيرا قد نام •

نام • لا • انى أسحب هذه الكلمة • الموت لا ينام • الموت يعيش •
الموت تحقيق عظيم • الموت يمس الانسان بكيفيتين : يجمده ، ثم يعثه
حيا • أنفاسه تطفئ ، نعم ، ولكنه يشعل من جديد • نحن نرى العينين
التي يغلقهما الموت ، ولكننا لا نرى العيون التي يفتحها •

وداعا يا زميلي القديم - سوف تحيا اذن الحياة الحقّة ! سوف تمضي
حتى تجد العدالة والحقيقة والأخاء والوفاق والحب في الصفاء الفسيح •
ها أنت ذا تطير في الضياء • وسوف تعرف السر العميق لهذه الأزهار ،
وهذه الاعشاب التي يميلها الريح ، وهذه الأمواج التي نسمع هديرها
هناك ، وهذه الطبيعة العظيمة التي تتقبل القبر في ليلاها ، والروح في
نورها • سوف تحيا حياة النجوم • تلك الحياة المقدسة التي لا تنطفئ •
سوف تذهب الى حيث الارواح المنيرة التي أضارت وعاشت ، والمفكرين
والشهداء والرسل والانبياء والرواد الأوائل ومحرري الشعوب • سوف
تشهد كل تلك القلوب الوهاجة في صورتها المشعة التي أضفاها الموت
عليها • اسمع ، سوف نقول لجان جاك أن منطق الانسان قد ضرب بالعصى
وتقول لبيكاريا ان القانون قد أصبح في حالة من الخزي والعار ، يستخفي
بسببها لكى يقتل ، وتقول لميرابو أن عام ١٧٨٩ قد أزرى به علنا ، وتقول
لدانتون أن الاقليم قد غزته عصابة أسوأ من الاجنبى ، وتقول لسان جوسيت
أن الشعب لا يتمتع بحق الكلام ، وتقول لمارسو ان الجيش ليس له حق
التفكير ، وتقول لروبسيير ان الجمهورية قد طعنت بالخنجر ، وتقول
لكامبى ديمولان ان العدالة قد ماتت • وتقول للجميع ان كل شيء على
ما يرام ، وان هناك فرقة باسلة تقاتل في داخل فرنسا قتالا أشد من ذى
قبل ، واننا نحن الضحايا المتطوعين في خارج فرنسا • نفر من المنفيين
الباقين على قيد الحياة ، مازلنا صامدين ، مصممين على الا نستسلم ،
راقفين على تلك النغرة الفسيحة التي يسمونها المنفى ، ومعنا معتقداتنا
ومعنا أشباحهم !

الى بحارة المانش

تسلمت من يدى الكابتن هارفى المحترم ، الرسالة الجماعية التى وجهتموها الى ، ونشكرونى فيها لأنى أهبت لبحر المانش هذا كتابا (١) .
 ايه لكم أيها الرجال البواسل ، انكم تفعلون أكثر من مجرد اهداء كتاب لبحر المانش ، انكم تهبون له حياتكم ، وأيامكم ، ولياليكم ، وكدمكم وسهادكم ، وشجاعتهكم ، مقطونة سواعدكم ، وقلوبكم ، ودموع نسائكم اللواتى يرتعدن فرقا بينما انتم تكافحون ، ووداع الأطفال والخطيبات والآباء المسنين ، والدخان المتصاعد من أكوأخكم والذى تزجيه الرياح .
 البحر هو الخطر الكبير ، والكبد الكبير ، والضرورة الملحة العاجلة . انكم تعطونه كل شىء ، ونقبلون منه ذلك الكرب الشديد الذى يحل بكم حين تختفى الشواطىء عن الأنظار . ويثور سؤال منجع فى كل مرة نرحلون فيها : هل سترون ثانية أولئك الذين تحبونهم ؟ ويختفى الشاطئ مثلما يختفى الديكور الذى تحمله يد وتخرج به من فوق خشبة المسرح .
 « اختفاء الأرض عن الأنظار » ، يالها من عبارة مؤثرة ، يشعر الانسان معها أنه قد ابتعد عن الأحباء . وأنتم أيها الرجال البواسل ، تكرسون أنفسكم للبحر . اننى ألمح بين توقيعاتكم أسماء أولئك الذين كانوا أخيرا فى دنجينييس من المتقدمين الأبطال (٢) . لا شىء يعيبكم . تعودون الى الميناء ثم تبجرون ثانية .

حياتكم تحد مستمر لصخور البحر ، وللصدفة ، وفصول السنة ، وجروف الماء ، ومكامن الريح . تمضون هادئين على مرأى البحر الجبار ، وتلدعون العواصف تعبت بشعور رؤوسكم ، أنتم الصامدين المشايرين أبد الآباد ، أنتم البحارة الأشداء ، تشقون عباب الماء ، حيث لا حدود

(١) كتاب : « المناضلون فى البحر » .

(٢) الديرديج وويندهام .

على الاطلاق ، وحيب المغامرة ممكنة في كل مكان . تمضون في ذلك
القضاء اللانهائي ، تتحدون المجهول . تلك الصحراء ، صحراء اللجب
والضوضاء ، لا ترهبكم . انكم تتميزون بفضيلة رائعة ، اذ تعيشون
وحيدين مع المحيط في داخل دائرة الافق المشؤومة . المحيط لا يفرغ
ولا ينضب له معين . وانتم يشر فانون ، ولكنكم لا تخشونه . لن نكون
لحم زوبعته الاخيرة ، ولكنه سيأخذ منكم أنفاسكم الاخيرة . ومن ثم كان
فخاركم الذي أقدره . وبدأت معكم عاداتكم الجسورة منذ الطفولة عندما
كنتم تركضون عارى الاقدام على رمال الساحل ، مختلطين بمد البحر ،
وانتعه الشمس تلعج بشركم ، والرياح العاصفة تنمي أجسامكم . ويتقدم
بكم العمر وسط الزوايح . انكم لا نرهبون المحيط ، وتستمتعون بألفته
الوحشية . فطالما لعبتم وانتم صغار مع لجنه الهائلة . انتم لا تعرفونني
الا قليلا . اننى فى نظركم شبح من الأغوار على صخرة بعيدة . ومن لحظة
الى أخرى تلمحون فى القمامة ذلك الشبح وتمرون . ومع ذلك فمن خلال
هدير اللجج ودوى الزوايح ، جاء الى دياركم ذلك النوع من اللفظ الغامض
الذى يصنع كتابا ، فاذا بكم تستديرون ناحتي بين ريحين وتشكرونني .
واحبيكم .

سأقول لكم من أكون . أنا واحد منكم . أنا بحار ، مقاتل من مقاتلي
الدوامة . فوق رأس ريج عاصفة هادرة . ارتعد الماء يقطر على جسدى
ولكنى أبسم ، وأحيانا أغنى مثلكم ، غناء مريرا . أنا مرشد . فشل
لم يخطئ ، ولكنه غرق . تقول البوصلة « انه على صواب ، ولكن
الزوبعة تثبت أنه مخطئ » . فى نفسه ذلك القدر من اليقين الذى تخلقه
الكارثة بعد مرورها : له الحق فى أن يخاطب الربانية بما فى خطاب
الفريق من قوة ويفين . أنا فى ظلام الليل ، انتظر فى هدوء ما سوف
يكون عليه النهار القادم ، دون أن توقع منه الشئ الكثير ، فاذا كان بعد
الغد يوما مكفولا ، فان الغد لبس كذلك ، والانجازات الحالة نادرة
الحدوث ، لقد شهدت مثلكم ، أكثر من مرة ، وأنا غير مطمئن ، بزوغ
فجر منحوس . وحتى يأتى الأوان ، فأنا مثلكم فى العاصفة ، وفى القمامة
وفى الصاعقة . وحول أفق يتزلزل أبدا . أشهد حركة تلك الموجة المسماة
بالواقعة . ولما كنت تحت رحمة الاحداث ، مثلكم وانتم تحت رحمة
الرياح ، فانى أدركت جنوبها الظاهري ومنطقها العميق . أشعر أن العاصفة
ارادة وأن ضميرى عاصفة أخرى ، وأنها فى الواقع متفقان . وأنا
وأقوام ، وأناضل الطغاة كما تناضلون الاعاصير ، وأدع وحوش المستنقعات
الأسنة وكلاب الظلمات تعوى كلها حولى ، وأودى واجبى ، لا يؤثر فى
الحقد والضغينة بأكثر مما يؤثر فيكم الزبد .

اننى لا أرى النجم ، ولكنى أعلم أنه ينظر الى ، وهذا يكفينى .
هذا أنا ، فأحبونى .

لنستمر ، ولنؤد مهمنا ، أنتم من جانبكم وأنا من جانبى ، أنتم بين
اللعج ، وأنا بين الناس . ولنمضى فى عمليات الانقاذ . نعم ، لننجز
وظيفتنا وهى وصاية ، ولنسهر ونراقب ولا نهمل أية استغاثة حتى
لا تضيع أدراج الرياح ، ولنمد أيدينا الى كل من يغوص فى الهاوية ،
ولنكن رقباء القضاء المظلم ، ولا نتبع الظهور لما يجب أن يختفى ، ولنرمق
تلك الاشياء التى تفر فى الظلمات ، فأرمق أنا الماضى ، وترمقون أنتم
شبح السفينة . ولنثبت أن العناصر المضطربة يمكن الملاحه فيها . فقد
تتنوع السطوح ولكن القرار واحد ، هو الله . أما أنا المتحدث اليكم ،
فأنى ألمس هذا القرار الذى نسميه الحقيقة والعدالة . ومن يسقط من
أجل الحق يسقط فى الحقيقة الحقة . ولنمط بهذا الأمن أنتم تتبعون
البوصلة وأنا أتبع الضمير . اخوانى ، المناضلون البواسل ، ضعوا ثقثكم
فى موج البحر ، ولأضع ثقثى فى القدر . أين اليقين ان لم يكن فى تلك
الحركة الخاضعة لحكم المستوى الثابت ؟ واجبكم مماثل لواجبى .
ولنكافح ، ونبدأ من جديد ، وتناير مع تلك الفكرة ، فكرة ان البحر
العالى يمتد الى ما وراء البصر ، وأن الملاحه الكبرى تستمر حتى اخارج
الحياة ، وأنا سنلحظ ذات يوم الشبه بين المحيط اللجى وبين القبر الذى
يضم الارواح . اللجة لالتى تفكر هى الروح البشرية .

فيكتور هوجو

٧

المنقلدون

أوفيل هاوس في ١٤ أبريل ١٨٧٠

سادتي ضباط ميناء « سانت بيير »

في هذه اللحظة ، لحظة الكوارث وحوادث الفرق ، يجب ان نشجع
رحال الانقاذ • وعلى كل ائتمان أن يشكرهم وييجلهم في حدود قدرته •
والانقاذ في الموانئ هو دائما من المواضيع التي تشغل الأذهان •

ان أملك عاتمة لارشاد السفن ، وحزام انقاذ نموذجين صنعهما
خصيصا أحلى الصانع البار « ديكسون » من ساند رلاند • وقد انتظر
طويلا الى أن يتاح لي استخدامهما ، ولكن يبدو لي أنه من الأفضل استخدامهما
منذ اليوم ، وذلك بأن أمنح هذين الجهازين الكفيلين بانقاذ الحياة
البشرية لمن أنجز في هذه الجزيرة أكبر عدد من عمليات الانقاذ ، تقديرا
عاما لفضله •

ولابد انكم أدري منى بهذا الموضوع ، فارجو ان تتفضلوا باخطاري
عنه ، ولي الشرف بأن أسلمكم الحزام والعاتمة في الحال لتتقدّمها اليه •
وتقبلوا صادق الرد •

فيكتور هوجو

بعد

وعلى أثر وصول هذا الخطاب ، اختير الكابتن ابراهام مارتن « ناظر
الميناء » باعتبار أنه قد أجرى في حياته حوالى خمس وأربعين عملية انقاذ
ومن ثم سلم اليه جهازا لانقاذ اللذان كتب عليهما السيد فيكتور هوجو
بخط يده :

ومهدى الى الكابتن ابراهام مارتن تقديرا عاما لفضله •

٨

العمل فى أمريكا

أوتفيل هاوس فى ٢٢ أبريل ١٨٧٠ •

أبلغتنى أيها الجنرال نبأ طيبا ، ذلك هو اتحاد العمال فى أمريكا
الذى سوف يكون شبيها باتحاد الملوك فى فرنسا •

العمال جيش ، والجيش يلزمه رؤساء ، وأنت من الرجال المشار إليهم
كقادة ، بفضل فطرتك الثورية والحضرية • أنت من أولئك الذين يعرفون
أسداء النصيح المستطاع الى الشعب دون الخروج من نطاق العدالة
والحقيقة •

أنت تعرف أن الحرية وسيلة وهدف فى وقت واحد • ومن ثم
انتخبك العمال لتكون ممثلهم فى أمريكا • فأهنتك وأهنتهم •

العمل اليوم هو الحق الأكبر ، كما هو الواجب الأكبر •

وينتمى المستقبل من الآن الى رجلين : الرجل الذى ينكر ، والرجل
الذى يعمل •

والحقيقة ان هذين الرجلين رجل واحد ، لأن التفكير هو العمل •

انى من أولئك الذين جعلوا من الطبقات الكادحة شغلهم الشاغل
فى الحياة • ومصير العامل فى كل مكان ، فى أمريكا وفى أوربا ، يجذب
أشد اهتمامى ويؤثر فى نفسى ويحرك عطفى وحنانى • يجب أن تصبح
الطبقات الكادحة طبقات سعيدة ، والرجل الذى كان يشتغل حتى اليوم
فى الظلمات ، يجب أن يعمل من الآن فصاعدا فى النور •

انى أحب أمريكا كوطن • والجمهورية العظمى ، جمهورية
واشنطن وجون براون ، هى فخر من مفاخر المدنية • عليها ألا تتردد
فى الاضطلاع بنصيبها فى حكم العالم بقوة واقتدار • وبسليها من الوجهة
الاجتماعية ، أن تحرر العمال ، ومن الوجهة السياسية أن تنقذ كوبا •

عيون أوروبا ترمق أمريكا • وما ستعمله أمريكا سوف تجيد عمله • ومن
حسن طالع أمريكا أنها حرة مثل انجلترا ، ومنطقة مثل فرنسا •
وسوف نصفق لها بحماسة وطنية من أجل ضروب التقدم التي تفوز
بها • ونحن مواطنون لكل أمة عظيمة •
أيها الجنرال ، قدم يد المعونة الى العمال في اتحادهم القوى
المقدس •

وأصافحك ؟

فيكتور هوغو

الاستفتاء الشعبي

في ربيع عام ١٨٧٠ ، أحس لوى بونابرت على ما يبدو بزعة غامضة ، وبالحاجة الى مساندة الشعب له . ومن ثم طلب الى الأمة أن تؤيد الامبراطورية بالتصويت لها . واستشار بعض الناس في فرنسا فيكتور هوجو في هذا الأمر ، وطلبوا اليه أن يبدى ما يجب أن يكون عليه هذا التصويت ، فأجاب :

لا .

نعتبر هذه الكلمة في حرفين عن كل شيء . وما تتضمنه خليك بأن
بملاً مجلدا .

هذا الرد قائم في وجه الامبراطورية منذ تسع عشر سنة . ويشعر أبو الهول الغامض هذا بأن هذه الكلمة هي مفتاح سره ولغزه .

تكفي كلمة « لا » ردا على كيان الامبراطورية كلها ، وعلى كل ما تريده ، وتحلم به ، وتعتقد فيه ، وتستطيع عمله بالفعل .

لا ، هي حكم القضاء .

كتب أحد منفيي شهر ديسمبر في كتاب نشر في عام ١٨٥٣ في خارج فرنسا يصف نفسه قائلا : « الفم الذي يقول لا » . كانت كلمة « لا » هي الرد على ما يسمونه « العفو الشامل » . وسوف تكون « لا » الرد على ما يسمونه « الاستفتاء الشعبي » .

ويحاول الاستفتاء الشعبي أن يصنع معجزة ، يحاول أن يحمل الضمير الانساني على قبول الامبراطورية .

المسألة أشبه بمحاولة جعل الزرنيخ صالحا للاكل .

استهلكت الامبراطورية بهذه الكلمة : النفي ، وتريد أن تنتهي بهذه الكلمة : التقادم . لكن ما أصعب تحويل الكلمة الأولى الى الثانية (١) . ما أسهل أن ينصب الانسان نفسه قيصرًا ، وينقض القسم ، ويعبر نهر الروبيكون (٢) ، ويرمى التقدم الانساني كله فى ليلة واحدة فى كمين ، ويقبض فجأة على الشعب فى تشكيله الجمهورى العظيم فيضعه فى سجن ماراس (٣) ، ويمسك الأسد فى مصيدة ، ويدبر المكائد ليفسخ وكالة النواب ، ويحطم سيوف الجنرالات . ويرسل الحقيقة الى المنفى ، ويقصى الشرف ، ويسجن القانون ، ويصدر أمره بالقضاء على النورة ، ويمحو أعوام ١٧٨٩ ، ١٧٩٢ ، ويطرد فرنسا من فرنسا ، ويضحى بسبعمائة رجل ليدهم بلده سباستيول الصغيرة ، ويشترك مع انجلترا ليعرض صورة أوروبا المخربة للدمار والآثار على الصين ، ويدهش الهمج بهمجيتنا ، ويهدم قصر الصيف (فى الصين) ليقسم نزواته مع ابن لورد ايلجن الذى نهب البارتيون ، ويزيد ألمانيا وينقص فرنسا بمعركة سادوفا ، ويأخذ لوكسمبورج ثم يتخلى عنها ، ويعد أحد الارشيدوقات (٤) بمنحه مدينة مكسيكو ثم يعطيه بدلا منها مدينة كويريتارو (٥) ويمنح ايطاليا خلاصا يؤول الى مجمع الأساقفة ، ويرمى جاريبالدى برصاص البنادق الايطالية فى اسبرومونتي ، ورصاص البنادق الفرنسية فى منتانا ، ويثقل الميزانية بدين يبلغ ثمانية مليارات ، ويتخلى عن نصرة اسبانيا الجمهورية ، ويشكل محكمة عليا تصم آذانها عن طلقات المسدسات ، ويهدم كرامة القضاة بتبجيل الأمراء ، ويحرك الجيوش ، فيرسلها ثم يستند عليها ،

(١) « النفي » بالفرنسية Prescripian ، و « التقادم » Prescription (أى اكتساب الحقوق أو فقدانها وسقوطها بمضى المدة) . وتختلف الكلمتان ، الواحدة عن الأخرى فى حرف واحد . ومن ثم يقول المؤلف : « ليس هنا كالا حرف صغير متغير ، ولكن ليس ثمة شيء أصعب من إجراء هذا التغير - المترجم .

(٢) الروبيكون ، نهر صغير كان يعتبر الحد الفاصل بين ايطاليا وبلاد الغال فى داخل الألب فى العصور القديمة . أصدر السيناتو (فى روما) قرارا مشهورا يدين بالخيانة كل من يعبر على اجتياز هذا النهر بجيش أو عصابة من الأفراد ، وذلك حماية لمدينة روما من غارات قوادها الذين يعودون من بلاد الغال منتصرين . ولكن ازدري بهذا القرار وعبر النهر وحذف على روما متحديا السيناتو واستوى على زمام الحكم . ومن ثم أصبحت عبارة « اجتياز الروبيكون » كناية للاستيلاء على الحكم بالقوة - المترجم .

(٣) مازاس - سجن مشهور (بحجرات للحبس الانفرادى) ، شيد فى باريس من ١٨٤٥ الى ١٨٥٠ فى شارع مازاس (اليوم شارع ديديرو) - هدم فى عام ١٨٩٨ - المترجم . (٤) الارشيدوق ، لقب كان يطلق على أمراء النمسا - والمقصود هنا الامراطور ماكسيمليان (١٨٣٢ - ١٧٦٧) الذى نصبه الفرنسيون امراطورا على المكسيك فى عام ١٨٦٤ ، ثم تخلى عنه نابليون الثالث ، فقبض عليه فى كويريتارو حيث أعدم رميا بالرصاص - المترجم .

ويسحق الديمقراطية ، ويحفر المهاوى ، ويزحزح الجبال ، كل هذا ميسور . ولكن ابدال كلمة « التقادم » كلمة « النفي » أمر مستحيل .

أيمكن اقضاء الحق ؟ نعم يمكن ذلك . أيمكن أن يسقط الحق بالتقادم ؟ لا

ان نجاحا مثل نجاح يوم ٢ ديسمبر ليشبه الميت من حيب أنه يعفن فوراً ، ويختلف عنه من حيث أنه لا يغوص فى أغوار النسيان . المطالبة بالاسترداد ضد مثل هذه الأعمال حق دائم أبدي . لبس هناك حدود شرعية أو أخلاقية فى هذا الموضوع . ولا يمكن الدفع بسقوط الحق ضد الشرف والعدالة والحقيقة ، فلا يستطيع الزمن أن يفعل شيئاً بهذه الأشياء . الشرير الذى يستمر فى غيه انما يضيف الى جريمته الأصلية جريمة الاستمرار ولم تعتبر أعمال تييرىوس (١) أبداً ، فى نظر التاريخ ولا فى نظر الضمير الانسانى أمراً واقعياً .

قدر نيوتن أن المذنب (النجم ذا الذنب) يستغرق مائة ألف عام حتى يبرد . هناك جرائم فظيعة لابد أن يمر عليها أكثر من هذا الزمن حتى تخبث .

ان أسلوب العنف السائد فى هذا الزمن لا جدوى منه ، والاستفتاءات الشعبية لا حول لها ولا قوة فى هذا السبيل . ويعتقد أسلوب العنف أن له الحق فى الحكم ، ولكن ليس له هذا الحق .

الاستفتاء الشعبى أمر غريب . والانقلاب السياسى يجعل من نفسه قطعة ورق . فبعد طلقات المدافع ، يأتى الاقتراع . المدفع المشروح ، يتبعه صندوق الانتخابات المشقوق . أيها الشعب ، اعط صوتك بأنه لا وجود لك . وبصوت الشعب . ويحصى السيد الأصوات ، ويحصل منها على العدد الذى أراد الحصول عليه ، ويضع الشعب فى جيبه . ولكنه لا يلحظ أن ما يظن أنه قد استولى عليه انما هو شيء لا يمكن امساكه . لا تستطيع الأمة أن تتنازل عن سلطانها . لماذا ؟ لأنها شيء يتجدد . والتصويت أمر يمكن تكراره مرة بعد أخرى . ان حمل الأمة على التنازل بصورة ما عن سيادتها ، واستخلاص الأبدية من لحظة وقتية ، واعطاء عملية التصويت العام الذى يقتصر على التعبير عن الحاضر أمراً

(١) امبراطور روماني (١٤ - ٣٧ م) - كان مكروها جدا فى روما لتسوته الشديدة ، وكان شديد الخوف على حياته . بشك فى كل الناس ، والغالب أنه كان مختل القوى العقلية فى أواخر أيامه - المترجم .

بالتعبير عن المستقبل ، عمل باطل من نفسه ، فما أشبه ذلك بمن يامر
« الغد » بأن يسمى نفسه « اليوم » !

ما علينا ، لقد تم التصويت • واعتبر السيد نتيجته موافقه • ولم
يعد هناك شعوب • وهذه الأعمال نضحك الانجليز • كيف يأتى لأمه أن
تتحمل الانقلاب السياسى ، والاستفتاء الشعبى ، ونقبل هذا الهوان ؟
ان انجلترا لتنهأ فى هذه اللحظة باحنقار فرنسا قليلا احنقروا اذن
المحبط • لقد ضرب اجريركيس (١) المحبط بالسوط •

يدعوننا الى التصويت على اكمال جريمة • وتعتقد الامبراطوريه بعد
ممارسة الحكم تسع عشرة سنة أنها مارالب وائمة متماسكه ، وتعرض
علينا منجزاتها التقدمية ، وتقدم لنا الانقلاب السياسى متمشيا مع وجهة
النظر الديموقراطية ، وليلة ديسمبر متسقة مع الحصانة البرلمانية ،
والمنبر الحر مقيدا فى جزيرة كاين ، وسجن مازاس فى صورة التحرير ،
وانتهاك القوانين كلها فى شكل حكومة حرة • كلا ، اننا لا نعترف بكل
هذه الأفضال •

نحن ، مواطنى الجمهورية القليلة ، نحن المفكرين المحسنين لسيادة
العدالة ، ننظر الى الوهن الحتمى الذى يلازم تقادم العهد بالخيانة ، ونريد
استغلال هذا الوهن ، وننتظر •

والى أن يأتى هذا الأوان ، نهز أكتافنا سخريه أمام هذا الاجراء
الذى يسمى استفتاء شعبيا •

الى أوروبا التى لم تنزع سلاحها ، وفرنسا التى لا نفوذ لها ،
وبروسيا التى ليس لها قوة توازن قوتها ، وروسيا التى ليس ثمة رادع
يردعها ، واسبانيا التى لا ركيزة لها ، واليونان من غير كربت ، وإيطاليا
من غير روما ، وروما من غير الرومان ، والديموقراطية بلا شعب ، الى
كل هؤلاء نقول لا • الى الحرية المدموغة بالطغيان ، الى الرخاء المترتب
على الكارثة ، الى العدالة التى تجرى باسم متهم ، الى هيئة القضاء التى
تحمل حروف ل•ن•ب• (لوى نابليون بونابرت) ، الى عام ١٧٨٩ وهو
يحمل طابع الامبراطورية ، الى يوم ١٤ يولية مضافا اليه يوم ٢ ديسمبر
لبكملة ، الى الاخلاص وقد صدرت به يمين كاذبة ، الى التقدم الذى يفضى
الى التقهقر ، الى الصلابة الموعود بها طريق الخراب ، الى النور الذى

(١) ملك العرس (٤٨٥ - ٤٦٥ ق م) - سى جيرا من الين عمر الدردنيل ، وعزا
بلاء الاغريق ، ولكن اسطوله تحطم فى موقعة سلامبس ٠٠٠٠ المترجم •

أنعمت به الظلمات ، الى البندقية خلف الصعلوك ، الى الوجه خلف القناع ،
الى الشيخ خلف الابتسامة ، الى كل هؤلاء نقول لا •

وفضلا عن ذلك فانه اذا كان مدير الانقلاب السياسى مصمما أن
يوجه اليها نحن الشعب سؤالاً ، فانا لا نقر له الا بحق توجيه هذا
السؤال :

« هل من واجبى أن أغادر قصر التويليرى الى سجن
الكونسيرجيرى(١) ، وأضع نفسى تحت تصرف العدالة ؟ » نابليون •

نعم ؟

أوتفيل هاوس فى ٢٧ أبريل ١٨٧٠ •

فيكتور هوجو

(١) سجن مشهور بداخل قصر العدالة ببافيس ، وكان يسجن به المحكوم عليهم بالاعدام
فى عهد الارهاب ، قبل أخذهم الى المقصلة - المترجم •

الحرب فى أوروبا

اندلعت نيران الحرب فى يولية ١٨٧٠ ، ونصب آل هوهنزولرن ،
حكام بروسيا الفخاخ لفرنسا ف وقعت فيها • واعنقد فيكتور هوجو أن
فرنسا مسلحة ، ومن ثم اطمأن مقدها الى أنها سوف تنتصر • ومع ذلك
فانه كان متكدرا من أجل هذه الحرب ، يفكر فى الدماء التى سوف
تسفكها •

وكتب الى نساء جيرنسى الخطاب الذى نقرأه فيما يلى والذى نشرته
الصحف الانجليزية باعتبار أنه موجه الى نساء انجلترا كلها •

وفى غضون حصار مدينة باريس ، كانت بالات صغيرة من الخرق
المعدة كضامات للجرحى ترسل من انجلترا الى فيكتور هوجو الذى
كان يجعلها نصفين متساويين ، كما تعهد بذلك فى خطابه ، فيخصص
نصفها للجرحى الفرنسيين ، والنصف الثانى للجرحى الألمان • وتكفل
السيد « دو فلايني » رئيس اللجنة الدولية (الصليب الأحمر) بأن
يحمل الى القيادة العليا بفيرساي بالات الخرق التى أعدها فيكتور هوجو
لترسل الى المستشفيات الألمانية المتنقلة •

الى نساء جيرنسى

أوتفيل هاوس فى ٢٢ يولية ١٨٧٠ •

سيداتى

طاب لبعض الرجال أن يحكموا بالموت على قسم من البشر ، ومن ثم
يجرى الاعداد لحرب طاحنة • ليست هذه حربا فى سبيل الحرية ، ولا فى
سبيل الواجب ، ولكنها حرب نزوة وهوى • سوف يقتل شعبان ارضاء

لمزاج أميرين ، وفي حين يسعى المفكرون الى التقدم بالحضارة ، يسعى الملوك الى اتقان الحرب التي سوف تكون رهيبة .

ويعلن بعضهم عن أعمال رائعة . فهناك بندقية تردى اثنى عشر رجلا ، وموقع يقتل ألف رجل . ولن يسيل الماء الحر الصافي بغزارة في نهر الرين النابع من جبال الالب ، ولكن دماء الرجال هي التي سوف تسيل . وسوف تبكي أمهات وأخوات وبنات وزوجات . وسوف تلبسن جميعا ثوب الحداد ، بعضكن بسبب مصابهن ، والبعض الآخر بسبب مصاب الآخرين .

سيداتي ، كم من مذابح ! وما أشد الصدمة التي سوف تصيب كل هؤلاء المقاتلين المناكيد ! اسمحن لي أن أتوجه اليكن برجاء . فما دام هؤلاء العميان ينسون انهم اخوة ، فجدير بكن ان تكن لهم أخوات . قدمن لهم يد المساعدة ، وأعددن لهن الضمادات . فكل الأقمشة القديمة في بيوتنا ، والتي لم تعد صالحة لشيء يمكن أن تنقذ هناك حياة الجرحى . وانه لشيء بديع أن ينقطع كل نساء هذا البلد لهذا العمل الأخوى ، وسوف يكون ذلك مثلا عظيما وخيرا كبيرا . اذا كان الرجال يرتكبون الشرور ، فعليكن أيتها النسوة أن تتكفلن بالعلاج . وطالما كان هناك ملائكة شر على وجه الأرض ، فكن أنتن ملائكة الخير .

فاذا صدقت عزيزمكن ، فسوف يكون من المستطاع الحصول على كمية كبيرة من قماش الضمادات في مدة قصيرة . وسوف نجعل منها حصتين متساويتين ، نرسل واحدة منها الى فرنسا والثانية الى بروسيا .

وانى لأضع آيات احترامى تحت أقدامكن ؟

فيكتور هوجو

ملاحظات

١٨٥٣

اقتراءات الامبراطورية خطاب شارل هوجو

يعرض الخطاب التالى الموجه الى الصحف الامينة فى خارج فرنسا
فكرة عن اقتراءات الصحافة البونابرتية ضد المنفيين .
جيرسيى فى ٢ يونية ١٨٥٣ .

• سيدى المحرر •

« نشرت جريدة لاباترى المقال التالى الذى أعادت نشره الجرائد
الرسمية فى الأقاليم ، والذى طالعه فى جريدة « اتحاد السارت » (١)
عدد ١١ مايو .

« وقع فى جيرسيى حادث يسحق التنويه لما فيه من عظمة وفائدة .
فقد توفى فى الجزيرة فرنسى معتقل فيها ، فألقى السيد فيكتور هوجو
على قبره خطابا طبع فى صحيفة ذاك البلد ، صور فيه فرنسا كما لو كانت
مغطاة فى هذه اللحظة بالمشانق السياسية . وكتب اليها بعضهم أن هذه
الاكذوبة التى يستحق قائلها أن يطالب من أجلها بوضعه فى مصحة
للأمراض العقلية ، قد أحدثت سخطا شديدا بين سكان جيرسيى الهادئين
دواما ، لدرجة أنهم حرروا التماسا ملأوه بالتوقعات ، يطلبون فيه منع
المظاهرات التى من هذا النوع والتى دأب المنفيون الفرنسيون على القيام
بها ، فتستثير فى نفوس السكان كلهم اشمئزا شديدا .»

شن شيلار

هذا الخطاب يشتمل على ادعاءين ، يتعلق أحدهما بخطبة السيد
السيد فيكتور هوجو ، أما الثانى فانه يتعلق بالآثر الذى أحدثه الخطاب
فى جيرسيى .

(١) السارت ، مقاطعة فى شمال غربى فرنسا . يجرى فيها نهر سارت - المرحم •

أما فيما يختص بالخطبة ، فالرد بسيط . فما دامت هذه الخطبة التي نقض فيها فيكتور هوجو نقضا نهائيا ، مهما كان المستقبل ، كل فكرة من المشانق السياسية والعقوبات التأريية الدموية ، وذلك باسم منفيي جيرسيي الذين فرضوه في هذا الشأن ، وبتأييد كل المنفيين الجمهوريين الأوفياء لسابقة فبراير الكبرى - مادامت هذه الخطبة قد سببت مثل هذا السخط الشديد في جيرسيي ، على حد قول صحيفه « لا باترى » فانها سوف تستثير في فرنسا بالتأكيد سخطا لا يقل في شرته عن هذا السخط ، ولن يكون في وسع « لا باترى » أن تفعل شيئا أحسن من أن تنشر هذه الخطبة . ونحن نتحداها أن تفعل كذلك . وقد أودعت البريد اليوم نسخة من الخطبة بعنوان محرر صحيفه لا باترى .

وأما فيما يتعلق بالتأثير الذي أحدثه الخطاب في جيرسي ، فاني أقصر في ردى على الوقائع .

ففي جيرسي أربع صحف تصدر بالفرنسية وهي « لاكرونيك » و « لامبارسيال » و « لوكونستيتسيوديل » ، و « لا باترى » . ونشرت الصحف الأربع كلها خطاب والدى بنصه ، وسجلت في اليوم نفسه الأثر الذي أحدثه هذا الخطاب . وأذكر فيما يلي ما كتبه في هذا العدد :

قالت الكرونك : « كان الاهتمام شديد بالحفل . وكان معروفا أن السيد فيكتور هوجو سوف يحدثها في هذه المناسبة ، فرغب كل انسان في أن يسمع هذا الصوت القوى العظيم . ولذلك ، فقبل وصول الموكب الجنائزى بوقت طويل ، تقاطر حول القبر جمع كبير من الأشخاص جاءوا من المدينة على الأقدام أو في العربات . وعندما دخل الموكب الجبانه دار حول الحفرة التي أعدت لاستقبال جثمان المتوفى . ولما استقرت الجثة في منواها الأخير ، كشف الجميع عن رؤوسهم . وفي وسط السكون التام ألقى السيد فيكتور هوجو بصوت قوى النبرات خطابه الرائع الذي نشره في هذا المكان . (يلي ذلك الخطاب) .

» وردد المنفيون كلهم هذه الصيحة ، ثم أقبل كل واحد منهم في حشوع وهندو ووضع حفنة من تراب الأرض على نعش أخيهم المتوفى . أما الخطاب الذي ألقى في هذه المناسبة فانه سوف يترك ذكرى خالدة في سجل هذه الجبانه الصغيرة بأحرار قرية سانت جان . وسوف يأنى اليوم الذي يعرض فيه على الأجانب الموضع الذي وجه فيه فيكتور هوجو ، الخطيب المنوه والساعد العظيم الى اخوانه المنفيين كلماته النبيلة المؤثرة التي سوف يكون لها صدى عالمي شامل ، ويسجلها التاريخ بعناية .

وقالت صحيفة لوكو نستتسيونيل (في جيرسى) بعد أن نشرت الخطاب :

« أسعد الحظ عددا كبيرا من سكان جيرسى الذين جاءوا الى جبانة سانت جان بسماع مثل هذه العبارات على لسان ضيفنا العظيم » .

أما صحيفة « لاباترى » (في جيرسى) فقد نشرت المسطور التالية قبل الخطاب :

« أبجده الموكب صوب سانت جان ، في أم نظام وهدهد وورع . وهناك ألقى فيكتور هوجو في حضور حشد كبير من الناس الذين جاءوا لسماعه ، الخطاب البديع الذى نشره فيما يلي » .

وأخيرا كتبت صحيفة « لامبارسيال » (في جيرسى) .

« أخرجت الجبة من عربة المولى ، وحملت على الأذرع حتى حافة الحفرة ، وعندما أنزلت فيها ، وقبل أن تغطي بالتراب ، نهض فيكتور هوجو الذى كان الجميع ينتظرون سماعه بفروغ صبر ، فألقى فى سكون تام وخشوع ، ووسط أكثر من أربعمئة مسنم ، وبذلك الصوت القوى الملىء الذى طالما دافع به عن الجمهورية ، وبذلك النبرة التى لا تقاوم والتى هى ولادة العقيدة والايمان بأفكاره ، نقول انهلقى الخطاب السالى الذى زادت خطورته بتأثير المكان والظروف . ولذلك فانه لقى أذانا مصغبة فى نهم لا يتسنى لنا وصفه ولا يمكن مقارنته الا بالتأثير القوى الذى أحدثه » .

وكان لهذه الصحيفة « لامبارسيال دوجيرسى » فكرة صححة بنوع ما عن حسن نية بعض الصحف الفرنسية ، ولكنها ، فى هذا الموضوع ، نسبت خطأ الى صحيفة لوكونستتسيونيل فكرة لابد أنها قد طرأت على صحيفة لاباترى . واليكم ما قالت صحيفة لامبارسيال (الباريسية) عندما نشرت خطاب أبى وثقيرها للأثر الذى تركه الخطاب :

« سوف نحكى لنا بلا شك صحيفة لوكونستتسيونيل الصادقة بعد بضعة أيام كم من رجال الشرطة لزم استخدامهم لحفظ النظام خلال حنازة جان بوسكيه ، ثانى المنفيين فى يوم ٢ ديسمبر الذى توفى منذ عشرة أيام ، وتقص علينا بالتاكيد بصراحتها واخلاصها المعتادين كم كانت السلطات مضطرة لاستدعاء كتائب الجيش لقمع الشغب الذى استشارته الكلمات الملهته التى ألقاها الخطيب العظيم بذلك الصوت القوى الشديد التأثير على المشاعر » .

وفى استطاعتى يا سيدى المحرر أن أكتفى بهذا الرد ، ومع ذلك أرجو أن تسمح لى بأن أضيف إليه حديثا ، لا فكرة • فقد نشرت صحيفة « لا باترى » (الباريسية) التى نهين اليوم والدى المنفى ، نشرت منذ عامين ، فى شهر يوليو ١٨٥١ مقالا تسب فيه صحيفة « ايتيمان » • فطلبنا الى صحيفة « لا باترى » اما انكار المقال أو رد الشرف بالسلاح • وفضلت « لا باترى » سحب المقال ، فعلت ذلك بالعبارات الآتية : « أمام التفسيرات النى تبودلت بين شهود السيد شارل هوجو وبين شهود السيد ماير ، صرح السيد ماير بأنه يسحب مقاله دون شرط أو تحفظ » •

ويلاحظ أن محرر الباترى ، مقتترف الاهانة ، وساحب المقال ، يدعى السيد ماير ، وانه أقدم فيما بعد على عمل يتسم بالشجاعة ، اذ نشر فى باريس فى ديسمبر ١٨٥١ كتابا بعنوان « قصة ٢ ديسمبر » : فى عام ١٨٥١ ، أهانت الباترى ثم سحبت الاهانة ، وكنا وقتئذ حاضرين • واليوم تعاود الباترى اهانتها ، ولكننا غائبون » •

وليس من شك يا سيدى المحرر فى انك تريد أن تساعد المنفيين على دفع الافتراء ، والتفضل بنشر هذه الرسالة •

وأرجو يا سيدى أن تتفضل بقبول خالص شكرى وعظيم مودتى الأخوية •

شارل هوجو

١٨٥٤

قضية تابنر

استخرجنا من صحيفة « لاناسيون » عدد ٨ فبراير ما يلي :

« نعود لآخر مرة الى موضوع اعدام تابنر من أجل الحركة الجديرة بالذكر التى سبقته »

« وفى يوم ١٠ يناير ، وجه فيكتور هوجو الى سكان جيرنسي نداء الديموقراطية ولقى حديثه المنفى الجمهورى الورع آذانا مصغية ، وتردد صده فى كل النفوس ، فقدم سبعمائة مواطن انجليزى الى الملكة التماسا بالعفو عن المحكوم عليه »

« وفى يوم ٢١ ، أعلنت صحيفة لاكرونك دوجرسيى أن البلاط قد اهتم بالالتماس ، فحوله فى يوم الخميس ١٩ الى الوزير • ووافق لورد المستون على التأجيل ثمانية أيام • وكان هذا بداية نصر للديمقراطية ، وأملا فى النصر التام على الجلاء فى هذه المناسبة المشهودة •

« وكان السبعمائة مواطن انجليزى قد اعلنوا فى التماس العفو الذى قدموه استجابة لنداء فيكتور هوجو عن مبدأ حصانة الحياة البشرية ، وقالوا ان عقوبة الاعدام يجب أن تلغى •

« وفى يوم ٢٨ طلعت علينا صحيفة « لوستار » فى جيرنسيى بالحكم الصادر على تابنر ، وقالت ان التنفيذ سوف يتم فى يوم ٣ فبراير • وفى يوم ٣ فبراير شنع تابنر (شنع يوم ١٠ فبراير بعد أن تأجل التنفيذ مرة ثانية) •

« لم تكن الديموقراطية تعمل حسابا لسفير السيد بونايرت فى لندن •

« ولا يمكن أن ينسى هذا النضال حول المشنقة فى سجلات الزمان •

« يبدو لنا في جيرنسي أن العالم الوثني قد صعد الى المشنقة مع تابنر . لقد أبلغت الثورة المقبلة صوت المستقبل الى المجتمع الجديد ، على لسان فيكتور هوجو ، وأصدرت حكم الانسانية ضد قوانين المجتمع الملكي الدموية . »

« وظفر الجلاذ الانجليزى برأس انسان جديد ، ولكن الديمقراطية فضحت الجلاذ من فوق صخور المنفى ، وفازت عليه بنصر من تلك الانتصارات الأدبية التي لا يعوض عنها رأس قاتل . »

« وكسب سفير الامبراطورية قضية المشنقة أمام لورد بالمرستون ، ولكن ممثل الجمهورية كسب قضية المستقبل أمام أوربا . »
« فمن ذا الذى نال شرف هذا اليوم ؟ »

« من ذا الذى يتحمل مسئولية شنق رجل آخر ؟ من من الاثنيين يحق له أن ينظر في وجه الآخر ، أمام جثة تابنر ، فيكتور هوجو أم السيد فالييتسكى ؟ (١) الديمقراطية المنفية أم الامبراطورية القائمة والقوية بدرجة تتيح لها أن تعلق مشنقة جيرنسي جثة سبرية تذكارا للنصر ؟ »
« الديمقراطية المنفية أم الامبراطورية القائمة والقوية بدرجة تتيح لها أن تعلق مشنقة جيروسيى جثة بشرية تذكارا للنصر ؟ » .

ونطالع في صحيفة « لوم » فى ١٥ فبراير :

« لدول العالم وحكوماتها عادة قبيحة ، وذلك أنها ترفض شفاعة الافكار ، الافكار المبتهلة القوية . فكل ضروب السلطة والقوة وكذا الدولة شحيحة بوجه عام من ناحية منح الحريات والعفو عن الجرائم : فالقوة غيورة ، وهى اذا لم تقطع الرقاب كما يحدث فى باريس سواء بالقتال المسلح ، أو ينصب الكمائن ، فان لها كما فى لندن دفوعا صغيرة »
« بعدم قبول النظر فى الدعوى » أو مقتضياتها السياسية ، أو قضاءها الشرعى . »

« ومع ذلك فقد يحدث أحيانا أن هذه العادة تكلف أصحابها ثمنا غاليا ، وأن السلطة التي لا تعرف العفو تلقى عقابا قاسيا ، يحدث ذلك حين تسهر نفس عظيمة ذات طبيعة انسانية عميقة الجذور خلف أدوات الاعدام ، خلف الحكومات . من ذلك أن الرجل الذى شنق فى جيرنسي منذ قليل قد دافع عنه وهو حى فيكتور هوجو ، فلما سرت فى أوصاله برودة الموت جعله فى حماه . والقى على هذا التعس الملتخ بالجريمة

(١) ابن نابليون الاول من عشيقه ماريا فاليفسكا البولندية التى بقيت مخلصه له

حتى النهاية - المترجم .

كسء الأمل الثمين ، وميثاق الحصانة الكبير الذى ينبع النوبة والغفران غير أن السلطة فى لندن قد صمت أذنيها عن هذا الصوت ، كما صمتها عن السبعمئة صدى التى استنارها هذا الصوت فى الجزيرة الصغيرة المتأثرة ، فشئق تابئر بعد تأجيلات ثلاثة كانت بالنسبة الى هذا الرجل المقضى عليه بالموت فرصا ثلاث للحياة ، ثلاثة أسحر ! ولكن ها هى روح الفلسفة المنتقمة تعود صلبة صلبة القانون ، فتميل فوق الجنة التى لم تزل دافئة ، وتجس الجروح ، وتحكى الصراعات الرهيبة التى عاناها ذلك الجسد المحتضر البائس وطفرائه وإيماءاته ورعشاه الأخيرة ، ونظراته التى تكاد تنطفئ خلال الدماء ، واشفاق الجمهور المحنشد اسفاقا ممزوجا بالسخط واللعنات .

« قولوا لنا ماذا يا نرى جناء القانون والحكومة والمنزل الأعلى من هذا الاعدام الذى لم يجرؤ على مواجهة الميدان العام الحر ، والذى يذكر الجميع بتفاصيله البشعة بمآسى المجزرة ، والذى فضحته للعالمين مرافعة عظيمة .

« ونحن نعلم ان هذه الصفحات البليغات لن نمحو عقوبة الاعدام ، ولن تعيد الحياة الى المحكوم عليه الذى صرعه العدالة . ولكن مشئقة جينسى سوف يراها الناس من جميع بقاع العالم ، ولكن الضمير الانسانى الذى ربما قد أفامه نجاح الجريمة سوف يتحرك فى كل أعماقه ، وسوف ينقطع حبل تايز ان عاجلا أم آجلا ، كما انكسرت عجلة التعذيب فى القرن الماضى « تحت كالاس » .

« أما نحن ، رجال المذهب الجديد . فمهما كان المستقبل ، ومهما كانت مصائر الناس ، فانا سعداء وفخورون لان مثل هذه الاعمال والاقوال العظيمة نخرج من صفوفنا . وانه الأمل وفرحة ، وانه لعزاء فائق لنفوسنا طالما أن الوطن قد أغلقت أبوابه دوننا ، أن نرى الفكرة الفرنسية تسطع فى المنفى فوق خيامنا . أليست فكرة فرنسا هى أيضا شمس فرنسا ؟

« انظروا كم تتجلى الأدوار واضحة للعيان ، حتى تتم المعرفة بصورة قاطعة ولا ريب ! العدالة تحكم وتدين لأنها ، والحق يقال ، مرتبطة بالنصوص ، والسياسة الحرة السائدة تؤيد العدالة وتضمن سريان قانون الدم . أما قساوسة الاديان كلها ، وهم رسل الرحمة والاحسان ، فانهم ينوارون ، فلا يظهرون الا من أجل النزاع الاخير - ومن ذا الذى يلبى نداء العقو ؟ الرأى العام - ومن الذى يطلبه ؟ منفى . المجد له !

وهكذا نجد الاديان والحكومات فى جانب ، والشعوب والافكار فى جانب آخر . الحياة معنا والموت معهم . . . وسوف تنفذ الأقدار ! »

شن ريبيرول

ونطالع في صحيفة « لانسايون » عدد ١٢ ابريل ١٨٥٤ :

« كان لقضية بابر صدى قوى ، وترتب عليها احيرا فى أمريكا حادث مدهش للغاية وغير متوقع بالمرّة . ونحن نعرض الحادث على أصحاب العقول النيرة لنأمله وتتدبره . »

« ففى اوائل شهر فراير الماضى حكم بالاعدام فى كوبيك (كندا) على شخص يدعى جوليان بتهمة اغتيال رجل يدعى بيير ديون ، وهو حموه . وفى اللحظة ذاتها أتت الصحف الأوروبية الى كندا بالرسالة التى وجهها فيكتور هوجو الى أهالى جرنسى طالبا العفو عن نايز . »

« ونشرت صحيفة المونيتور الكندية فى عدد ١٦ فبراير الموجود تحت أنظارنا نداء فيكتور هوجو الى أهالى جرنسى ، واتبعته بالملاحظة التى نطالعها فيما يلى :

« ألم يأت هذا التفنيد القوى لعقوبة الاعدام فى الوقت المناسب لرسم السلوك الواجب اتباعه ازاء القاتل التعس ديوت ؟ » .

« والسكم الآن ما نطالبه بعد أيام قلائل فى صحيفة « لوبيبي » التى تصدر فى موزيال : « خفف حكم الاعدام الصادر ضد جوليان لقتله حماه فى كوبيك ، واسنبدت به عقوبة السجن المؤبد فى اصلاحية المجرمين الاقليمية » .

وتصنيف الصحيفة الكندية :

« لقد رفع فيكتور هوجو صوته الفصيح فى نفس اللحظة التى كانت فيها حياة جوليان وموته يتأرجحان على كفتى الميزان . وعلم كل الذين يحبون الانسانية ويحترمونها ، ويرون التفكير عن الجريمة لا فى القتل الذى يتم فى هدوء (الاعدام) ، وانما فى ساعات طويلة من الندم تمنح للمذنب ، علموا بسرور نبأ هذا الحدث الذى يحل مسألة من أهم مسائل الفلسفة الاجتماعية حلا ضمنيا . »

« ويمكن القول بأن عقوبة الاعدام أصبحت فى كندا ملغاة بحكم الواقع . »

« يا لقوة الفكر المقدسة ! انها تتسع كالانهار ، فهى خيط رفيع من الماء فى منبعها ، ومحيط عند مصبها ، وهى نفثة على بعد خطوتين ، تغدو اعصارا على بعد الفى فرسخ . والحديث الذى يرح جيسبى ، ويدو أنه لم يستطع أن يعوض مشنقة جرنسى ، يعبر هو نفسه المحيط الاطلسى وينتلع عقوبة الاعدام فى كندا . ولم يستطع فيكتور هوجو أن يفعل فى

أوروبا شيئا من أجل تابنر الذى كان يحتضر أمام عينيه . ولكنه أنقذ فى أمريكا جوليان الذى لا يعرفه . فالخطاب المكتوب من اجل جيرنسى يصل الى عنوانه فى كويبيك .

« ولنقل ، سمجيدا لرجال القضاء فى كندا ، أن النائب العام الذى كان قد حكم بالاعدام على جوليان . ندخل بحماسة حتى لا ينفذ الحكم فى المتهم . ولنمجد حاكم كندا الجنوبية ، الجنرال روان الذى استوعب التقدم وأيده . لامراء فى أنه سوف يخالفه الشعور بأداء الواجب والخلاص من المسئولية حين يطالع فى هذه اللحظة الخطاب الذى بعنه فيكتور هوجو الى لورد بالمرستون ، وختم به كفاحه عند فاعدة المشنقة فى جيرنسى .

« وثمة شيء أعظم من الواقع نفسه ، يخلص لنا من القصة التى حكيناها آنفا . ذلك أن ما تخنقه السلطة والاضطهاد حاليا فى قارة ، يبعث حبا وللغور فى قارة أخرى . ولهذه الخفقة التى ينبض بها قلب الانسانية الكبير الذى يختنق فى جيرنسى رجعة فى كندا . وتقترب اللحظة التى لن يكون للنوع الانسانى فيها غير روح واحدة ، بفضل الديموقراطية ، والفكر ، والصحافة .

ضروب الوحشية فى حرب القرم

خلاصة رسالة بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٨٥٤

« وقع أمس الجمعة حادث شديد الغرابة يستحق نقدا مريرا . فقد صدرت اشارة من البارجة « لامبيرير » (الامبراطور) الى كل السفن تطلب اليها أن ترسل مرضاها الى ظهر السفينة « كانجارو » . وأثناء النهار ، أحيطت السفينة الأخيرة بمئات المراكب المحملة برجال مرضى ، وسرعان ما امتلأت بهؤلاء المرضى حتى غصت بهم . وقبل أن يجن الليل كانت السفينة تحتوى على حوالى ألف وخمسمائة من العجزة من كل الفئات ، يتناسون على ظهرها الآلام . وكان المنظر الذى يتبدى للعين رهيبا ، والتفاصيل مخيفة لدرجة لا أستطيع معها الخوض فى وصفها . وعندما حانت لحظة الاجبار ، أجابت الكانجارو على أمر الرجيل باشارة تقول فيها « المحاولة خطيرة » فأجابت لامبيرير باشارة تقول « ماذا تعنى ؟ » مردت الكانجارو « لا تستطيع السفينة أن تترك كما تريد » . وبقيت الكانجارو طول اليوم ملقبة مراسيها ، ورافعة اشارة تقول « أرسلوا سفنا للنجدة » . وأخيرا صدرت أوامر لنقل جزء من هذه الحمولة المحزنة الى سفن أخرى قاصدة الى القسطنطينية .

« ومات الكثيرون على ظهر السفينة • وجرت مشاهد تتقطع لها الأفتدة ولكن لا فائدة مع الأسف من وصفها • ومع ذلك فقد كان واضحا أن الخدمة الطبية لم تكن كافية لا على ظهر السفينة ولا على البر • لقد رأيت بعيني رأسي رجلا يموتون على الشاطئ ، وعلى خط السبر ، وعند استراحات الجنود في العراء دون أى اسعاف طبي ، وحدث ذلك على كتب من اسطول يضم خمسمائة مركب شراعى ، وعلى مرأى من مقر قيادة الجيش • اننا فى حاجة الى عدد أكبر من الجراحين ، فى الأسطول وفى الجيش • ولا أتر للمعونة الطبية على الاطلاق فى الكثير من الأحيان ، وكثيرا ما تصل متأخرة بعد فوات الاوان » •

(جريدة التايمز فى ٣٠ سبتمبر ١٨٥٤)

خلاصة رسالة من القسطنطينية فى ٢٨ سبتمبر ١٨٥٤ :

« من المستحيل على أى انسان أن يشهد المناظر المحزنة فى هذه الايام الأخيرة ، دون أن يدهش ويغضب من عدم كفاية خدماتنا الطبية • أما الطريفه التى يعامل بها جراحانا ومرضاينا فانها لا تليق الا بالمتوحشين فى داهومى • كانت الآلام على ظهر السفينة « فولكان » قاسية • كان بهذه السفينة ثلاثمائة جريح ، ومائة وسبعون مصابا بالكوليرا ، وكل هؤلاء، تحت رعاية أربعة من الجراحين ! كان منظرا مخيفا ، والجرحى يمسون بتلاشب الجراحين عندما كان هؤلاء يشقون طريقهم خلال أكداس الموتى والمحتضرين ، ولكن الجراحين ينزعون أنفسهم من قبضتهم ! ولا بد أن نتوقع ، ولعلنا فى ذلك على صواب أن يتلقى الضباط الاسعافات الأولية قبل غيرهم ، ويحتكروا وحدهم دون شك معونة الاطباء الاربعة • لذلك كان من الخطأ بالتأكد أن تشحن السفن بحشود من الجرحى دون أن يكون هناك من يقدم اليهم المعونات الطبية والجراحية ، ويوفر لهم المطالب الضرورية العاجلة • ووصل عدد كبير منهم الى سكوتارى دون أن يمسمهم الجراح ، منذ أن سقطوا مصابين برصاص الروس على مرتفعات آلمان • وكانت جروحهم متييسة وقواهم منحطة عندما حملوا من السفن لنقلهم الى المستشفى حيث تاتى لهم لحسن الحظ أن يحصلوا على المعونات الطبية •

« ببد أن كل هذه الفظائع تتلاشى اذا قورنت بحالة ركاب السفينة كولومبو التعساء • فقد أبحرت هذه السفينة من القرم فى يوم ٢٤ سبتمبر ونقل الجرحى الى ظهرها قبل أن تنشر قلوها بيومين • وعندما رفعت المراسى ، كان بالسفينة سبعة وعشرون ضابطا جريحا ، وأربعمائة واثان وعشرون جنديا جريحا ، ومائة وأربعة من الاسرى الروس ، ومجموع

هؤلاء خمسمائة وثلاثة وخمسون شخصا . وكان حوالى نصف الجرحى قد
 دمجت جروحهم قبل أن يوضعوا على ظهر السفينة . وكان هناك ، لنيلية
 مطالب هذا الحشد من الآلام ، أربعة أطباء ، منهم جراح السفينة الذى
 كان مستغرقا فى العناية بطاقم السفينة الذى كان أفرادهم يمرضون دائما
 فى هذا الفصل من السنة وفى هذه البقاع وكانت السفينة مغطاة تماما
 بأنسكال آدميه ملقاة على أرضيها . فان من المسحيل فادها . ولم يكن
 الضباط يستطيعون الانحاء لرؤية أجهزة السكسنانت (السداسيه) .
 ومن ثم سارت السفينة على غير هدى . وبقيت فى البحر اننى عشره ساعة
 أكثر من اللازم بسبب هذا التعويى . ووضع المرضى الذين كانت حالتهم
 أسوأ من غيرهم على الجزء الخلفى من السفينة . وبعد يوم أو يومين
 أصبحوا مجرد كومة من الاجسام المتعفن ! وكانت الاصابات الممثلة . من
 الطلقات النارية يخرج منها ديدان نجرى فى كل الانجافات . وتسمم غذاء
 الركاب التعساء . وكانت المواد الحيوانية المتعفنة تفوح منها رائحة
 نتفزز منها النفس لدرجة أن الضباط وأفراد الطاقم عانوا من الغثيان ،
 وأن ربان السفينة لم يترك الى اليوم مريضا بسبب هذه الايام الخمسة
 التى انقضت فى تعمس وشقاء . والقبت فى البحر كل ملائذ السرائر التى
 تبلغ الالف وخمسمائة ملأه . ومات ثلاثون رجلا خلال الرحلة . واشتغل
 الجراحون بأقصى جهد ممكن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا الا سببنا
 وليلا جدا وسط هذا العدد الكبير من المرضى . ولذلك مر الكثير من هؤلاء
 التعساء لأول مرة بين يدي الطبيب فى سكوتارى ، أى بعد انقضاء ستة
 أيام على المعركة !

« ان الاشارة الى الأخطاء والحديد عن عدم كفاية الرجال الذين
 يبذلون غاية جهدهم ، مهمة عسيرة مؤلمة . ولكن حدث افعال يؤسف له
 منذ وصول الباخرة . فقد ترك ستة وأربعون رجلا على ظهر السفينة
 يومين آخرين ، فى حين أنه كان بالامكان ، بشئ من الجهد الاضافى
 وضعهم فى المستشفى فى مكان أمين . والسفينة موبوءة تماما ، وسوف
 يستخدم للحال عدد كبير من الرجال لتنظيفها لتوقى خطر التيفوس الذى
 يظهر عادة فى مثل هذه الظروف . ونمة نقالتان للجنود قطرتهما السفينة
 كولومبو ، وكانت حالتهما سيئة للغاية مثل حالة كولومبو تقريبا . »

(جريدة التايمز فى وم الجمعة ١٣ أكتوبر ١٨٥٤)

« ٠٠ أدى الأضرارك خدمات طمبه فى التحصينات . ويقاسى هؤلاء
 المساكين من الدوسبتتاريا والحملات والتيفوس . وليس عندهم أية خدمات
 طبية ، ولا وقت عند جراحيها لرعايتهم »

(التايمز ، رسالة بناربخ ٢٩ أكتوبر ١٨٥٤)

والقائلة التالية مأخوذة من رسالة موجهة الى صحيفة « المورنيخ يوسست » ومؤرخة ٨ نوفمبر ١٨٥٤ من بالاكالفا :

« ولكن لا فائدة من التأكيد على هذه التفاصيل المؤلمة : وانما يكفى القول بأنه كان يرقد بين هياكل حوالى مائتى حصان مقنول او مجروح جنت جنود مدفعيتنا الانجليز والفرسيين ، وكلهم قد برت أعضاؤهم وشوهوا بدرجة ما . فبعضهم فصل رأسه من رقبتة ، وكان بلطة قطعتة ، وآخرون فصلت سيقانهم من أردافهم ، وآخرون قطع أذرعهم . وآخرون ضربوا فى صدورهم أو بطونهم أو سحقوا كما لو كانت آلة قد هرستهم . ولم يكن الحلفاء وحدهم هم الممددين هناك ، بل كان هناك على العكس من ذلك عشرة من الروس فى مقابل واحد منا . والفارق بينهم أن الروس قتلوا كلهم برصاص البنادق قبل أن تطلق المدفعية قذائفها . وفى هذا المكان أرسل الروس سيلا متواترا من القنابل طول الليل ، ولكن القنابل كانت تنفجر على جثث الموتى . »

« وبعد أن يجاز الانسان الطريق المؤدى الى سباستبول ، بين أكداش من جنت الموتى الروس ، يصل الى المكان الذى اضطر عنده رجال الحرس الى الكف عن الدفاع عن الاستحكامات التى تشرف على وادى اينكرمان . وهماك نجد موبانا كديرين كمونى العدو . وعلى عرض الطريق تمدد خمسة من رجال الحرس جنبا الى جنب وقد قتلوا بقذيفة واحدة بينما كانوا يطلقون الرصاص على العدو ، وهم راقدون فى نفس الوضع ، ضاغطين على بنادقهم بأيديهم المثقلصة ، وعلى وجوههم نفس التقيطيب الرهيب المؤلم . ووراء هذه الجماعة ، يرقد الجنود المشاة من المقاتلين والحرس الروس ، غليظين كالأوراق بين حثث القنلى . »

« وعلى يمين الاستحكامات ، الطريق الذى يؤدى الى بطارية المدفعين » ، ويمر الطريق عبر دحل كفيف ، ولكنه طريق زلق بسبب الدماء الى تغطيه ، وقد النوت الأيكات رافدة على الأرض واكتظت بالموتى . ويبدو المنظر رهيبا اذا سوهده من ناحية البطارية ، رهيبا بدرجة تفوق كل وصف . ووقفت على الحاجز فى حوالى الساعة التاسعة مساء ، وشعرت بقلبي يغوص بين ضلوعى كما لو كنت أشهد المذبحة نفسها . وكان القمر بدرا يضىء الأشياء كلها ، كما لو كانت الدنيا نهارا ، وأمامى وادى اينكرمان ونهر تشيرنايا يتلوى بصورة رائعة بين المرتفعات كما لو كان شريطا من الفضة . منظر رائع خليق بأن يبارى أبدع مناظر العالم من حيث الاصالة والطرافة . ومع ذلك فانى لم اتذكر أبدا وادى اينكرمان الا وانتابنى شعور بالتعزز والفرع ، ذلك لأن أكثر من خمسة آلاف جثة

كانت راقدة حول المكان الذى انظر اليه . وكان هناك الكثير من الجرحى . رفعت أذنى ، قرعا جلبا مشؤوما ، التأوهات البطيئة المؤلمة التى كانت تصدر منهم وهم يحتضرون . وأكثر من هذا ايلاما للنفس ما كنت اسمعه من الصرخات المبحوحة ، والحشجة القانطة الصادرة من الذين كانوا ينازعون سكرات الموت .

« وكانت عربات الاسعاف التى تبذل أقصى الجهد لكى تصل بأسمى ما يمكن تلقي حمولتها من المصابين المتألمين ، ونستخدم فى نقلهم كل شئ حتى الأغطية .

» وفى خارج المدفعية ، كان الروس راقدين منى وثلاث ، بعضهم فون بعض . أما فى الداخل ، فكان المكان مكتظا برجال الحرس الروس من الكتيبة الخامسة والخمسين ، والكتيبة العشرين . وكان فى المستطاع بنظرة واحدة يميز مواطنيا الساكنين بقوامهم الفارع الجميل رغم أن السباب الرمادية الواسعة المضرجة بالدماء قد أصبحت متشابهة فى منظرها الخارجى . وكان الرجال راقدين فى الوضع الذى سقطوا عليه ، مكسبين فى أكوام . فهنا واحد من جنودنا فوق ثلاثة أو أربعة من الروس وهناك روسى فوق ثلاثة أو أربعة من جنودنا . وثمة بعض الجنود فاطت روحهم والابتسامة على شفاههم ، ويبدون كأنهم نائمون . وآخرون نقلصت ملامحهم بصورة بشعة ، وتدل عيونهم الجاحظة وتقاطيع وجوههم المنفخعة على أنهم قضوا وهم ينازعون من الموت السكرات ، ولكن فى ملامحهم سيما التهديد حتى النهاية . والبعض راقدون كما لو كانوا قد استعدوا للدقن وكان يد أحد الأقارب قد جمعت ورتبت أطرافهم المبتورة ، فى حين كان آخرون ولم يزاووا فى أوضاع القتال ، واقفين نصف وقفة أو راكعين نصف ركعة ، ضاغطين على سلاحهم ، أو يمزقون خرطوشا ، والكثير منهم ممددون وأيديهم مرفوعة الى السماء وكأنهم يتفادون ضربة أو يتلون دعاء . وكان آخرون عابسين عبوسا عداثيا يعبر عن عن الخوف أو الحقد وكأنهم قد ماتوا بالفعل يائسين . ونشر ضوء القمر على هذه الاشكال شحوبا خارقا للعادة ، وجعلت الريح الرطبة الباردة التى كانت تكتسح النلال ، تهز غصون الاشجار فوق هذه الوجوه المقلوبة ، فكان الظل يضى عليها مظهرا حيويا بشعا . وبدا الموتى وكأنهم يضحكون ويوشكون أن يتكلموا . ولم يكن هذا المكان وحده هو الذى يسدو وكأنه ينبض بالحياة ، وانما كان ميدان القتال كله على هذه الصورة .

« وعلى طول التل ، كانت جماعات صغيرة ومعها محفات تبحث عن أولئك الذين لم يزاووا أحياء ، وجماعات أخرى تحمل المصابيح وتقلب

أجساد الموتى بحنا عن الضباط الذين علم أنهم قتلوا ولكن لم يعمر عليهم
 احد . وكان هناك أيضا نسوة انجليزيات لم يرجع أزواجهن أو آباؤهن
 يجريين هنا وهناك ويطلقن صيحات مؤلمة ، يقلبن في لهفة وجوه مونا
 نأحية ضوء القمر ، يائسات ، وهن أحق بالثناء من الراقدين على
 الأرض » .

(المورننج هيرالد ، فى يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٥٤)

« . . كنا نسمع ارتطام الأكواب ، وصوت الزجاجات وهى تتكسر .
 وهنا وهناك فى الظلام شمعة صفراء أو قنديل تحمله يد ، ونسوة جاثلات
 بين الجثث ، يتفرسن فى الوجوه الشاحبة ، وجها بعد وجه ، هذه نسحب
 عن ابنها ، وتلك عن أبيها ، وأخرى عن زوجها .

(من كتاب « نابليون الصغير » صفحة ١٢٣) .

١٨٦٠

نداء موجه من جزيرة جيرسي الى فيكتور هوجو

سيدى

فررت لجنه اصدقاء جزيرة صقلية أن ندعو لعقد اجتماع عام يحضره سكان جيرسي فى يوم ١٣ يونية ١٨٦٠ ، بغرض التعبير عن تعاطفهم مع شعب صقلية الذى يناضل بقوة السلاح فى سبيل الحرية ضد اضطهاد كرية وممقوت ، ومن ثم يلتمس الموقعون أدناه بكل احترام التشرف بحضورك واشتراكك القيم فى هذا الحفل .

ان فضية صقلية لتستحق اهتمام كل من هم جديرون بلفب انسان ، وكل انسان يقدر الأنظمة الحرة ، وكل صديق للحرية وللجنس البشرى . ونحن مقنعون بأن فضية مقدسة مثل هذه لابد أن نحظى بعطفك الشديد . لقد كرست عبقريتك للحرية والعدالة والانسانية ، وسوف يشرف جزيرتنا الصغيرة صونك البليغ الذى يرتفع فى جيرسي لصالح اهل صقلية ، ويسهم هذا الصوت فى اسندار عطف انجلترا وفرنسا وأوروبا كلها على هذا الشعب الباسل الذى يكافح ضد قوى نفوق كثيرا فونه ، من أجل أمن شيء فى هذه الحياة . ولسنا بمبالغين اذا أكدنا أن بلاغتك سوف تنفث قوة جديدة فى قلوب المقاتلين من أجل الحرية ، الذين هم منتصرون ولكنهم مجهدون ، وسوف تبعث الرعب فى نفوس أعدائهم .

نعم يا سيدى ، ان مرافعاتك المضطربة فى صالح الحرية والانسانية واحتجاجاتك ضد الاستبداد والقسوة ، سوف يتردد صداها فى معسكر حاربالى وتدفق أحراس البأس فى أذنى ملك نابولى المجلل بالعار .

نعود فنكرر التماسنا لمعاونتك ، ومع تعبيرنا بالاحترام لك والاعجاب بشخصك نتشرف بأن نكون . . الخ

(يلى ذلك التوقعات)

مأدبة بروكسل

شر السيد جوستاف فريد بركس ، وهو من أبرع الكتاب الصحفيين الفرنسيين والبلجيكي في عام ١٨٦٢ عن مأدبة بروكسل صفحات لامعة كان لها وقتئذ دوى كبير ، وسوف نكون مرجعا في يوم من الأيام لأنها بعض من تاريخ عصرنا السياسى والأدبى (١) . كانت مأدبة بروكسل لقاء مشهورا جمع أصحاب الفكر والشهرة الذين قدموا من جميع أنحاء العالم المتحضر للاحتجاج مع رجل منفى ضد الامبراطورية . ونجد فى المقال البليغ الذى كتبه السيد جوستاف فريد بركس كل تفاصيل هذه المظاهرة الالامعة . ونرأس المأدبة السيد فيكتور هوجو ، والى يمينه عمدة مدينه بروكسل ، والى يساره رئيس مجلس النواب . وتكلم خطباء عظام . منهم لوى بلان ، وأوجين بيللبنان . ثم تحدث باسم الصحافة من مختلف البلاد صحافيون مشهورون ، منهم السادة بيراردى عن بلجيكا ، ونيفتزر عن فرنسا ، وكويسنا عن اسبانيا ، وفيرارى عن ايطاليا ، ولو عن انجلترا . وشكر السيدان المبعجلان لأكروا ، وفيرويكهوفن ناشرا كتاب « البؤساء » مؤلف الكتاب باسم المكتبة الدولية . وحيثا شانفلورى فيكتور هوجو باسم الكتاب النادرين . وحيثا تبودور دوبانفيل باسم الشعراء . ولم يسمع أحد قط أنبل من الأحاديث التى ألقيت . وكان الحفل هاما ومهييا .

وفى ذلك الوقت كان عمدة بروكسل رجلا شريفا يدعى فونتينا : وهو الذى حمل النخب الى فيكتور هوجو قائلا له :

« يسرنى أن أرحب بكم أيها السادة الذين نزورون بلجيكا ، والمخلصين اخلاصا شديدا لقوميتها ، السعداء سعادة عميقة بالأنظمه الحرة التى تحكمها : انتم أيها السادة الذين تخلب مواهبكم ألبابنا ، وتواسى نفوسنا ، وتسمو بها . ولكن هناك ، بين هذا الجمع الكبير من

(١) « ذكرى المأدبة المقامة لفكتور هوجو فى بروكسل »

الأسماء اللامعة ، اسما ألمع منها ، ذكرته منذ هنيهة ، وهو فيكتور هوجو ، صاحب المجد الذى يستغنى بمجده عن كل ما أستطيعه من ثناء .
« اننى أقدم نخباً للكاتب العظيم ، للشاعر الكبير ، لفكتور هوجو ! » .

فنهض فيكتور هوجو وأجاب قائلاً :

سأدتنى :

« أشرب فى صحة عمدة بروكسل .

« لم يسبق لى أبدا أن قابلت السيد فونتينا . اننى أعرفه منذ أربع وعشرين ساعة ، وأحبه . لماذا ؟ انظروا اليه وسوف تفهمون . ليس هناك طبيعة أكثر صدقا وصراحة من هذه الطبيعة ، مرسومة على وجه أطيب من هذا الوجه . يده التى تصافح الأبدى تعبر عن كل ما فى روحه ، وحديثه حديث ود وتعاطف . اننى أكرم وأحیی فى شخص هذا الرجل اللطيف الممتاز المدينة النبيلة التى يمثلها .

« والواقع أننى سعيد الحظ مع عمدة مدينة بروكسل ، ويبدو أنه قد قدر لى أن أحبه دائما . فمذ أحد عشر عاما ، حينما وصلت الى بروكسل فى يوم ١٢ ديسمبر عام ١٨٥١ ، كانت أول زيارة تلقيتها ، زيارة عمدتها السيد شارل دوبروكير ، وهو أيضا رجل ذو فكر ثاقب رفيع ، وروح قوية طيبة وقلب كريم . وأقيمت فى « الميدان الكبير » ببروكسل ؛ وأقول بهذه المناسبة ، انه أثر عظيم كامل ، يضم دار البلدية الفخمة التى تحف بها منازل بديعة . وكان السيد شارل دوبروكير يمر بدارى كل يوم تقريبا ، وهو فى طريقه الى دار البلدية ؛ فيدفع بابى ويدخل . وكان يلبي للفور كل ما أطلبه من أجل زملائي المواصل فى المنفى ، وهو نفسه رجل باسل ، قاتل وراء متاريس بروكسل . وكان يزودنى بالمودة والاخاء والبهجة . ووإسانى فى مصاب الوطن وآلامه . كان من أمر الأشياء على دانتى أن يرقى سلم الأجنبى ؛ أما شارل « بروكير » فانه كان يشعر بالفرحة عندما يرقى سلم المنفى . انه رجل سجاع ونبيل وطيب . حسن ؛ هذه الحفاوة الكبيرة التى استقبلنى بها السيد دوبروكير فيما مضى ، حظيت بمنزلها ثانية لدى السيد فونتينا . وجدت عنده نفس الظرف ، والخلق الطيب ، والحفاوة الجميلة ، والروح السمحة ، والوجه الطلق . الرجلان مختلفان ، ولكن القلبين متماثلان . اسمعوا . قمت بجولة فى بلجيكا ، وذهبت الى كل مكان فيها تقريبا .

من الروابي الى غابات « أردنين » ؛ وكنت في كل مكان التقى باسمه
واسمع ثناء عليه . انه محبوب في أصغر قرية كما هو محبوب في
العاصمة . هذه الشعبية لا تمنع من رنين الأجراس ، وانما من الأمة .
ويبدو عمدة بروكسل هذا كما لو كان عمدة بلجيكا كلها . العزة لمثل
هؤلاء العمدة . انهم أعزاء لنا عن غيرهم .

« أشرب نخب السيد فونتينا المنجل ؛ عمدة بروكسل ، وأهتئء
هذه المدينة الشهيرة اذ جعلت على رأسها واحدا من هؤلاء الرجال الذين
يتمثل في أشخاصهم كرم الضيافة والحرية : كرم الضيافة الذي كان
فضيلة الشعوب القديمة ، والحربة التي هي قوه الشعوب الجديدة .

١٨٦٣

الى اعضاء اجتماع جيسيمى من اجل بولندا

اوتفيل هاوس في ١٧ مارس ١٨٦٣ :

سادنى :

اعانى في هذه اللحظة من التهاب مزمن في الحلق يمنعنى من بلبيه
دعوتكم التي سرفتمونى بها ، فارجو قبول أسفى الشديد .

التعاطف وجود ، ولذلك فانى سأكون بينكم بروحى ، وأشارك من
اعماصى أفكاركم الكريمة .

مثل أمة أمر مستحيل . الحلق هو النجم ، يأفل ولكنه يظهر من
جديد . والمجر سميت ذلك ، وتنبته كذلك فينيسيا وبولندا . وبولندا
تتألق في اللحظة الحالية . انها لا نحيا كل حياتها ولكنها فى أوج
مجدها . واذا عاد الى بولندا المجاهدة الدامية الناهضة كل ضيائها ، فانها
بهر العالم .

الشعوب نحيا ، والطفاة يموتون : هذا هو القانون الأعلى . وعلينا
أن نذكر دوما بهذا القانون ذلك الأمراطور الأثيم الذى يعسف فى هذه
اللحظة أمتين ، فتشقى احدهما ، وتنسر بل الثانية بالعار . وليست
بولندا التي يخنقها ذلك الأمبراطور هى أحق الأمتين بالرثاء : وانما
الأحق بالرثاء هى الروسا التي يجلب لها الحزى . ومما يحط بقدر شعب
من الشعوب أن يقدم على هلاك شعب آخر . أتمنى لبولندا أن تسترد
حريتها . وأتمنى للروسيا أن تسترد شرفها . وأنا لا أتمنى هذين البعثين
فحسب ، وانما انتظرهما .

نعم ، ان الشك فى هذا الامر كفر ، ومشاركه بنوع ما فى الاثم .
نعم ، لأن بولندا سوف تنتصر . ذلك لأن موتها النهائي هو بالتقريب
موت لنا كائنا : فرلندا جزء من قلب أوروبا . وفى اليوم الذى تخمد فيه
آخر خلية فى حياة بولندا ، تحس فيه المدنية كلها ببرودة القبرة .

اسمحوا لى أن أطلق من بعيد هذه الصيحة التى سوف يتردد
صداها فى أرواحكم : -

لتحيا بولندا ! لتحيا الحق ! لتحيا حرية الناس واستقلال
الشعوب !

واسمحوا لى فى هذه المناسبة أن أبعث بمنياتى بالسعادة الى جزيرة
جيرسيى العزيزة على نفسى ، والى سكانها الممتازين • وتقبلوا يا أصدقائى
محيتى القلبية ؟

فكتور هوجو

١٨٦٤

العيد المئوى لشكسبير

أحاط لوى بلان فيكتور هوجو علما برغبة لجنة العيد المئوى لشكسبير فى ضمه لعضويتها وضم ابنه فرانسوا فيكتور هوجو ، مترجم أعمال شكسبير • فكتب فيكتور هوجو الى السيد ن • هيبويرت ديكسون سكرتير لجنة شكسبير فى لندن :

أوتفيل هاوس فى ٢٠ يناير ١٨٦٤ :
سيدى :

الرسالة التى أبلغها اياكم صديقى العزيز النزيل السيد لوى بلان ، هى فى رأى الرد على خطاب وصلنى منه ، واليكم هذا الرد :
أوتفيل هاوس فى ١١ أكتوبر ١٨٦٣ :

عزيزى لون بلان :

نشرت الجرائد خلال اشهر يونية ويولية وأغسطس عددا من اخطارات القبول الصادرة من أشخاص مبرزين دعوا الى عضوية لجنة شكسبير • ولم يكن نجلى ، مترجم أعمال شكسبير قد دعى الى هذه اللجنة • ولكنه دعى اليها اليوم • وأرى أن دعوته قد تأخرت كثيرا •

ولم أكن أنا أيضا قد دعيت فى غضون هذه الشهور الثلاثة ، ولكن لا أهمية لذلك • انما المسألة تتعلق بابنى ، وأنا أشعر بالاهانة فى شخص ابنى • أما من ناحيتى ، فكرامتى لم تمس ، ولست عرضة لاية اهانة • ولن أكون أبدا عضوا فى لجنة شكسبير ؛ ولكن طالما أن السيد لوى بلان سيكون عضوا بها ، فان فرنسا سوف تجد فيه خير من يمثلها •

فيكتور هوجو

وجاء الخطاب الودى الذى حررته لى يا سيدى بتاريخ ١٩ يناير ١٨٦٤ باسم لجنة شكسبير ، فبدل موقفى تجاه اللجنة ، ولكنه ترك فى نفسى مع ذلك أسفا - أسف لا يشعر به فى الحقيقة سوى •

واسمح لى أن أوضح لك ماهية هذا الأسف .

لو كانت الدعوة الودية التي سرفتنى بتوجيهها الى اليوم قد وجهت الى منذ ستة اشهر ، كما وجهت الى العديد من الأشخاص المبجلين الذين تذكر أسمائهم ، لكان فى مقدورى فى تلك اللحظة ، وقد اخطرت بالأمر مقدما . أن أدبر أمورى بحيث أتمكن الاشتراك فى جلسات اللجنة ، ولكان هذا بالنسبة الى واجبا وسعادة . واذ لم أكن قد دعيت الى الاشتراك فى اللجنة فانى لم أجد أية صعوبة منذ ذلك الحين فى قبول عروض وارتباطات تستغرق اليوم كل وقتى ، وتخلق لى التزامات عمل ملحة . هذه الارتباطات التي التزمت بها على أثر سوء التفاهم الذي تفضلت بتفسيره لى ، لم تترك لى الحرية فى أن أجنم معكم ، وسوف تحرمنى حسب الظواهر كلها ، بسبب الأعمال العاجلة الملحة التي نفرضها على من شرف حضور اجتماعكم العظيم . فى لندن يوم ٢٣ أبريل . وانها لخسارة بالنسبة الى ، ولكنى أكرر القول بانها خسارة بالنسبة الى فقط . بل انها خسارة طفيفة من وجهات النظر الأخرى . فحضورى كفيابى أمر لا أهمية له .

وسوء التفاهم الذي فسرته فى خطابك تفسيراً رقيقاً ، الى جانب هذه الخسارة الطفيفة أمر يمكن اصلاحه والتعويض عنه . فلجنة شكسبير التي نتكلم بلسانها ، تبدى رغبتها الكريمة بأن يدون اسمى فى قائمتها المحترمة . وانى لأبادر بالموافقة على هذه الرغبة ، وآسف لعدم استطاعتى اكمال هذا التعاون الاسمى بتعاون فعال . أما بخصوص الحفل المجيد الذي تعدونه من أجل رجلكم العظيم ، فلن استطع حضوره الا بقلبي فقط ، ولكنى سوف أكون حاضرا فيه بشخص ابني فرانسوا فيكتور الذي سوف يكون سعيدا بأن يتخذ بينكم المحل المجيد الذي تقدمونه له ، بعد أن أديتم تفسيركم الممتاز

وسوف يكون يوبيل يوم ٢٣ أبريل عيد انجلترا الحقيقي ، انجلترا النبيلة التي يمثلها منبرها البليغ الفخور ، وصحافتها الحرة المدهشة صاحبة السيادة ، والتي لها كل ألوان المجد التي تحظى بها الشعوب الجديرة بالشعراء العظام . وانجلترا جديرة بشكسبير .

وأرجو يا سيدى أن تفضل بتبليغ اللجنة هذه الرسالة ، وتقبل منى أصدق مشاعر المودة .

فيكتور هوجر

١٨٦٥

عقوبة الاعدام

الفترة التالية مأخوذة عن صحيفة « أوروبا » :

نزداد الدلائل التي تبشر بالغاء عقوبة الاعدام طهورا وجلالا يوما بعد يوم ، في جميع الأنحاء . واذا يزداد عدد الأحكام التي تمفذ ، فانها تعجل بذلك الغاء آلة الاعدام ، عن طريق استشارة الضمير العام . وفد نسلم السيد فيكتور هوجو منذ قليل ، وفي غضون أسبوع واحد رسالتين في شأن عقوبة الاعدام ، بين الواحدة والاخرى بضعة أيام ، احدهما من ايطاليا والثانية من انجلترا . كتب الرسالة الأولى الى فيكتور هوجو اللجنة الإيطالية المركزية بتوقيع « كونت فرديناند تريفلزيو ، ودكتور جورج دي جيوليني ، والمحامي جان كابریتی ، ودكتور البرت سارولا ، ودكتور جوزيف موسى المستشار الاقليمي ، ودكتور فريدريك بونولا » . ويعلن هذا الخطاب المؤرخ من ميلانو في أول فبراير فيكتور هوجو بتنظيم اجتماع شعبي كبير في ميلانو من أجل الغاء عقوبة الاعدام ، ويرجو المنفى في جيرنسي أن يبعث من فوره برقية الى شعب ميلانو المجتمع في هذا اللقاء ببعض الحديث الذي من شأنه « توليد صدمة كهربائية في ايطاليا كلها » كما جاء في الخطاب . وكانت اللجنة تجهل أنه لا توجد لسوء الحظ اسلاك تليفونية في جيرنسي . أما الرسالة الثانية المرسلة من لندن ، والصادرة من المحسن الانجليزي المعروف السيد « ليلي » فانها تشتمل على تفاصيل قضية رجل ايطالي يدعى « يولبوني » حكم عليه بالشنق من أجل طعنة بالسكين طعنها خلال معركة في حانة ليلية ، وترجو فيكتور هوجو أن يتدخل لمنع اعدام هذا الرجل .

الى السادة أعضاء اللجنة الإيطالية المركزية لالغاء عقوبة الاعدام .

أوتفيل هاوس ، السبت ٤ فبراير ١٨٦٥ :

سماذتى :

لا يوجد فى جبرنسىى نلغراف كهبرى • وقد وصلنى خطابكم الیوم
٢ منه ، ولن یرحل البرید القادم الا یوم الاتین ٦ منه • وانى لشدید
الأسف لعدم استطاعتى الاجابة على نداءکم النبیل المؤثر فى الوقت
المناسب • وکم کان یسعدنى أن یصل هتافى الى شعب میلانو وهو بنجز
عملا عظیما •

حصانة الحیاة البشریة هی أم الحقو ، هی الحق الذى ینبع منه کل
المبادئ • هذا الحق هو جذر الشجرة ، وباقى المبادئ هی الغصون •
أما آلة الاعدام فانها جریمة مستمرة • انها أوقح اهانة یمکن أن نصیب
كرامة الانسان والمدنیة والتقدم • وفى کل مرة تقام فیها آلة الاعدام ،
تصیبنا صفة • هذه الجریمة ترتكب باسمنا •

كانت ایتالیا أم الرجال العظام ، وهى أم المثل الکبرى • ولست
أشک فى أنها سوف تلغى عقوبة الاعدام • وسوف تنجح لجنّتکم المشکلة
من هذا العدد الکبر من الرجال العظام الکرام • وسوف نشهد عملا
قرب هذا المنظر الجدید بالاعجاب : ایتالیا وقد حذفت منها آلة الاعدام ،
وأضيف إليها روما وفینبسیا •

أصافحکم بیدى ، وأنا صدیقکم ••

فیکتور هوچر

ورد فیکتور هوچو على الخطاب الوارد من انجلترا فقال :

الى السید لیلی ، ٩ سانت بیتر یتراس ، نوتنج هیل ، لندن •
أوتفیل هاوس فى ١٢ فبرایر ١٨٦٥ •
سیدی

یشرفنى أن توجه خطابک الى ، واشکرك على ذلك •

ستقام مشنقة ، وأنت تنبهنى الى ذلك ، وتعتقد أننى قاصر على
هدمها • ولكنى لا أملك مع الأسف هذه القدرة • لم استطع انقاذ تابنر ،
ولن استطیع انقاذ بولیونى • فالى من أوجه الخطاب ؟ الى الحكومة ؟ الى
الشعب ؟ اننى أجنبى فى نظر الشعب الانجلیزى • ومنفى فى نظر الحكومة
الانجلیزیه • فأنت ترى أننى أقل من لا شىء • ولكنى بالنسبة الى انجلترا
صوت من الأصوات ، قد یكون لجوجا ، ولكنه صوت عاجز بالتأکید •
لا أستطیع یا سیدی أن أعمل شیئا ؛ فارت لبولیونى وارث لى •

لو كان بوليوني في فرنسا لحكم عليه بعقوبة مؤقتة في جريمة القتل دون سبق اصرار . أما العقوبات الانجليزية فانه يعوزها هذا المخفف العظيم ، وهو : الظروف المخففة .

فلتفكر انجلترا الفجورة في هذا الامر . ففي اللحظة الحاضرة لا يرقى شريعها الى مستوى التشريع الجنائي الفرنسي الذي هو مع ذلك كثير العيوب . وانجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا . فهل تريد انجازنا ان تستعيد في لحظة واحدة كل المجال الذي فقدته ، وتسبق فرنسا ؟ في استطاعتها ذلك ، وما عليها الا أن نخطو خطوة واحدة ، فتلغى عقوبة الاعدام .

هذا التي ، العظيم حذر بهذا الشعب العظيم . واني أدعوها الى ذلك .

لهد العيب عقوبة الاعدام في الكبر من جمهوريات أمريكا الجنوبية ؛ وسوف نلغي ، ان لم تكن قد ألغيت من قبل في إيطاليا والبرتغال وسويسرا ورومانيا واليونان . ولن تتأخر بلجيكا في الاقتداء بهذه المثل الرائعة . ومما يدعو الى الاعجاب أن تقدم انجلترا على هذه المبادرة وتبرهن ، بالغائها المشنقة ، على أن أمة الحرية هي أيضا أمة الانسانية . ولا حاجة بي الى القول يا سيدي بأنى أترك لك حرية الانتفاع بخطابي على الوجه الذي تستصوبه .

وأرجو قبول اسمى مشاعر الود . .

فيكتور هوجو

ونضيف جريدة « رسالة أوروبا » بعد أن ذكرت هاتين الرسالتين :

« انه لما يؤثر في النفس أن نرى خصوم الجلاد . يتوجهون صوب صخرة جيرنسي ليطلبوا العون والمساعدة من ذلك الذي هزت يده القوية المشنقة من قبل ، وسوف ينجح في هدمها . ان منظر « الجمال خادم الحقيقة » هو أعظم المناظر . ومن الطبيعي أن يقيم فيكتور هوجو من نفسه محامي الرب ليطالب بحقوقه الثابتة على حياة الانسان ، تلك الحقوق التي اغتصبها عدالة الانسان . من الجدير بأن يتكلم باسم الاله ، ان لم يكن هذا العبقري ! » .

الثورات التي أخدمت

أوتفيل هاوس في ١٨ نوفمبر ١٨٦٦ :

أثر في نفسي كثيرا ذلك النداء الكريم الذي وجهه الصحافي البليغ
الموقر رئيس تحرير جريدة « الشرف » ، ولكن فات الأوان لسوء الحظ .
فمن جميع الأنحاء يعلنون أن الثورة قد خمدت . وها هو مع الاسم
نعش جديد ينفث للشعب ، ثم يغلق .
أما أنا ، فهذه منذ سنتين هي المرة الرابعة التي يصلني فيها
نداء من هذا النوع متاخرا كثيرا . فنوار هاييتي ورومانيا وصقلية قد
وجهوا الى نداءهم ، ولكنهم فعلوا ذلك متأخرين . ويعلم الله أنني كنت
حليما بأن أقدمهم بغيرة وحماسة ! ولكن ألا يجدر بنا أن نتفاهم فيما
سننا بصورة أفضل ؟ لم لا يخطر رجال الحركة بهذه الأمور رجال
التقدم ؟ لم لا يتفق المحاربون بالسيف مع المحاربين بالفكر ؟ يجب
المطالبة بمعاونتنا مقدما لا مؤخرا . فلو أخطرت بالأمر في الوقت المناسب
لكتب حريا أن أكتب ما يناسب الحال ، ولاستطاع الجميع أن يتعاونوا في
سبيل نجاح الثورة عامة ، خلاص الكافة . بلغوا صديقي المبجل هذا
الكلام .

وتقبلوا تحييتي القلبية العاحلة ،

عشاء الأطفال الفقراء

لعله المفيد ، لكي نوضح للأذهان ما قد يكون القارئ قد طالعه في
هذا الكتاب في موضوع المشروع الصغير الخاص بعشاء الأطفال الفقراء ،
أن ننشر تقريرا من تقارير الصحافة الانجليزية .

اليكم خطاب اللبدى طومسون ، ومقال جريدة « اكسبريس » الذي
نحدث عنه فيكتور هوجو في خطابه .

الى فيكتور هوجو

٣٥ ، شارع ويمبول ، لندن ، ٣٠ نوفمبر ١٨٦٦ .

سيدي العزيز - بعد الاهتمام الذي أوليته بنجاح مشروعنا الخاص بعشاء الأطفال الفقراء ، يسرني كثيرا أن أرسل اليك تقرير العام الماضي .
وتسير خططنا سيرا حسنا . وقد بدأت منذ قليل العمل للسنة القادمة .
أعلم أنك تتمتع بصحة جيدة ، وأنتك تشهد فكرتك الجليلة تزداد انتشارا .

وتفضل بقبول عميق الاحترام ،

كيت طومسون

« من المزايا النادرة التي تتمتع بها هذه المنشأة الخاصة بعشاء الأطفال الفقراء بين غيرها من المؤسسات الخيرية ، أنها بسيطة ومباشرة وعملية وسهلة المحاكاة ، لا نطلب مذهبا معيناً أو نظاما خاصا . ولا يجوز نسيان الرجل الذي كان أول من أبدى فكرة عشاء الأطفال المعوزين .
وندين انجلترا في الزمان الماضي بالفضل الكبير للمنفين السياسيين الفرنسيين . وندين « جمعية عشاء الأطفال الفقراء » هذه نشأتها لذلك القلب الكريم ، قلب شاعر عصرنا الكبير . فيكتور هوجو الذي يقدم كل أسبوع منذ عدة سنوات ، في داره بجبرنسي وبماله الخاص وجبات عشاء لأربعين طفلا فقرا ، لا يلتفت بشأنهم الى الجنس او الدين وانما الى الفاقة وحسب . وفي عيد الميلاد ، يزيد فيكتور هوجو عدد هؤلاء المدعوين الصغار ، ويزودهم لا بالغذاء والشراب فحسب . وانما بتشكيلة منتقاة من هدايا لبث البهجة والسلوى في قلوبهم الفتية وأخيلتهم الصبائية ، دون أن ينسى تغذية أفواههم الجائعة وكسوة أعضائهم المرتجفة . وفي لندن جمعية تشكلت على غرار مشروع فيكتور هوجو ، توجه النداء الى كل « أولئك الذين يشفقون على الأطفال التعساء الذين يرتدون أسمالا بالية ، ويكادون يموتون من الجوع في هذه العاصمة الشاسعة » .

« وقد بلغ عدد وجبات العشاء التي قدمت في عام ١٨٦٧ في سبع وثلاثين قاعة طعام خاصة حوالي ٨٥٠٠٠ وجبة . ومن ذلك الحين قدمت هبات جديدة تمثل ٣٠٠٠٠ وجبة . وبلغ اجمالي النفقات وقتئذ ١١٤ جنيهها ، والمجموع الكلي لوجبات العشاء ١١٥٠٠٠ » .

(جريدة اكبريس في ١٧ ديسمبر ١٨٦٦)

عيد الميلاد فى أوتفيل هاوس

الصفحة التالية منقولة من جريدة « لاجازيت دوجيرنسى » بتاريخ
٢٩ ديسمبر ١٨٦٦ :

« فى يوم الخميس الماضى ، تدفق جمهور أتيق على منزل السيد فيكتور هوجو ليشهد التوزيع السنوى للملابس واللعب الذى يجريه السيد فيكتور هوجو للأطفال الفقراء الذين يتعهدهم برعايته . وكان الحفل يشبه كالعادة :

١ - وجبة خفيفة من الشطائر والحلوى من عجين (جاتوه) ،
والفاكهة ، والنبيد .

٢ - توزيع الملابس .

٣ - شجرة عيد الميلاد نثرت عليها مجموعات من اللعب . وقبل
توزيع الملابس ، وجه السيد فيكتور هوجو خطابا الى الحاضرين .
واليكم ملخصا لما أمكننا جمعه من هذا الخطاب .

« سيداتى :

« تعلمن للغاية من هذا الاجتماع الصغير . هذا هو ما أسميه عيد
الأطفال الفقراء ، اذ لا أجد له اسما أبسط من هذا الاسم . وأود أن
أتحدث عن هذا العيد بأشد العبارات تواضعا وبساطة ، وإن أستعيد لهذا
الغرض بساطة أى واحد من الأطفال الذين يستمعون الى .

« هدفى أن أحسن الى الأطفال الفقراء فى حدود قدرتى . وليس
لى فى هذا العمل أى فضل صدقونى ، وما أقوله هذا أشعر به شعورا
عميقا ، فما يستطيع الانسان أن يفعله هو ما يجب عليه أن يفعله . هل
تعرفن شيئا أشد اثارة للحزن من عذاب الأطفال ؟ اذا قاسينا نحن
الرجال ، فأننا ننال فى الحقيقة ما نستحقه ، أما الأطفال فانهم أبرياء ،
والبراءة هى التى تقاسى ، وهذا أقسى ما فى الدنيا من ألوان الحزن .
وهنا تعهد الينا العناية الالهية بجزء من وظيفتها الخاصة . فالله يقول
للانسان : انى أعهد اليك بالطفل . والله لا يعهد الينا بأطفالنا وحدهم
لأن العناية بهم أمر طبيعى للغاية ، والحيوانات تؤدى هذا الواجب الطبيعى
بصورة أفضل أحيانا من أداء الانسان له ، ولكنه يعهد الينا بكل الأطفال
الذين يقاسون . رسالتنا الكبرى هى أن نكون آباء وأمهات للأطفال
الفقراء . وشعور الأمومة نحو الأطفال هو شعور الأخوة نحو
الانسانية ، .

« ويدكر السيد فيكتور هوجو بعد ذلك نتائج عمل أدبه الأكاديمية الطبية في باريس منذ ثمانية عشر عاما في صحة الأطفال . وقد أظهر التحقيق الذي أجرى في هذا الشأن أن معظم الأمراض التي بوى بحياة الكثير من الأطفال الفقراء تتسبب من سوء تغذيتهم وحدها ، وأنهم اذا استنطاعوا أن يأكلوا لحما ويشربوا نييذا مره واحدة فقط كل شهر ، فان هذا يكفى لوقاينهم من جميع العلل التي ينتج من فقر الدم ، لا أمراض الدرن وحدها ، ولكن أيضا على العلب والرثتين والمخ . ومن سأن الانبما ، او فقر الدم ، فضلا عن ذلك . ان يجعل الأطفال عرضة لمجموعة من الأمراض المعدية كالخناق والدفتريا التي يكفى لوقايه الاطفال منها أن يساولوا غذاء جيذا مرة واحدة كل شهر .

« وقد دهش السيد فيكتور هوجو دهشا عميقا من نتائج هذا العمل الذي أنجرنه الاكاديمية . ولما كان منهمكا في باريس بمشاغل الحياة العامة ، لم يكن لديه وقت لينظم في وطنه وجبات العشاء للأطفال الفقراء . ولكنه يقول انه استفاد من الفراغ الذي وفره له أمبراطور الفرنسيين في جيرنسى ليعمل على تنفيذ فكرته .

« وخطر له أنه اذا كان عشاء طيب يتناوله الطفل مره واحدة كل سهر يفيد فائدة كبيرة ، فان عشاء طيب يتناوله كل خمسة عشر يوما لابد ان يأنيه بفائدة اكبر ، ومن ثم فانه يقدم الغذاء لاثنين وأربعين طفلا فقيرا ، يأتى نصفهم - أى واحد وعشرون طفلا - الى داره كل أسبوع . ويريد في نهاية السنة أن يهيب لهم البهجة الصغيرة التي يتمنع بها كل الاطفال الأغنياء بين أسرهم ، يريد أن يتمتعوا بعيد « الكريسماس » . ويتضمن هذا العيد السنوى الصغير ثلاثة أقسام :

وجبة غذاء خفيف ، توزيع الملابس ، توزيع اللعب . ذلك لأن الفرح ، كما يقول السيد فيكتور هوجو ، جزء من الصحة بالنسبة الى الطفولة . ولذلك فاني أهدي لهم كل سنة سجرة عيد ميلاد صغيرة . واليوم هو خامس حفل ننظمه لهذا العيد .

ويستمر السيد فيكتور هوجو قائلا : والآن ، لماذا أقول كل هذا ؟ الفضل الوحيد في أداء العمل الطيب (اذا كان ثمة عمل طيب) هو في السكوت عنه . وجدير بى أن أصمت حقا اذا كنت لا أفكر الا في نفسى . ولكن غاييتي ليست أن اعمل خيرا لأربعين طفلا فقيرا فحسب ، وانما غاييتي بنوع خاص أن أعطى للناس مثلا نافعا . ذلك هو عذرى .

« وقد احدى الناس بالمثل الذي قدمه السيد فيكتور هوجو اقتداء

حسنا لدرجة أن النتائج النني حصلوا عليها تدعو الى الاعجاب حقا . وله أن يذكر في هذا الصدد أمريكا والسويد وسويسرا حيث يفتنذ بانتظام عدد جسيم من الاطفال الفقراء ، وإيطاليا بل وحتى إسبانيا التي بدأ فيها هذا العمل الطيب ، ولكنه لن يتكلم الا عن انجلترا وعن لندن ، ومعه الأدلة .

« وهنا يقرأ السيد فيكتور هوجو فقرات مقتبسة من رساله كتبها لجريدة « لوبوتى جورنال » أحد السادة الانجليز الأفاضل . »

« وإذا صدم بعض السادة الأبرار ، وعلى رأسهم الكونت دوشافنسبيرى بالمشهد المفجع الذى نتجلى به مدارس الأحياء الفقيرة . فى لندن ، وتأثروا تأثرا عميقا بمرأى الأطفال الشاحبى الوجوه الهزلي الأجسام الذين يرددون على هذه المدارس ، وفزعوا من نفشى الهزال ، تفشيا سريعا بين سكان المدن ، هزال من شأنه أن يستبدل بجنسنا الانجلو ساكسونى القوى جسما ضعيفا الأعصاب واهن القوى ، فقد أسس هؤلاء السادة جمعية عشاء الأطفال الفقراء . »

« الاحسان شئ لطيف للغاية . وتبرع الانسان بشئ قليل من فائض ماله عمل يجلب سعادة جميلة ، لا شك أنها نافعة ، ومن ثم فانا لا نستطيع أن نقاوم الرغبة فى تعريف فرنسا بهذا الابتكار فى مضمار الخير والاحسان ، وهذه التجربة الجديدة التى شرعت فى اجرائها انجلترا ، بلدنا القديم . »

« واضاف السيد فيكتور هوجو قائلا : فى هذه المدرسة وحدها ثلاثمائة وعشرون طفلا . تصوروا اذن هذا العدد وقد زاد أضعافا . ما أعظم الخير الذى سوف سوف تحظى به الطفولة ! »

« ثم قرأ السيد فيكتور هوجو رسالة كتبها الى جريدة التايمز السيد فولار سكرنر المؤسسة التى أنشأها فى لندن الأب وود على نسق منشأة أونفيل هاوس :

« الى محرر جريدة التايمز » .

« سيدى » .

« فضلت فى العام الماضى بنشر رسالة فى التايمز أوضحت فيها الحسن الكبير الذى طرأ على صحة الأطفال الفقراء بمدرسة « أصحاب الشباب الرثة بوستمنستر » ، وهو تحسن نتج من الطريقة المنتظمة التى يقدم بها لكل طفل وجبة عشاء كل خمسة عشر يوما ، والتى شجعت سائر الأشخاص لهم هذه الفرصة أن يفعلوا الشئ نفسه ان أمكن بمدارسهم . »

« ومرت سنة أخرى بمزيد من التجربة ، أكتب بصورة أقوى كل ما قلته آنفا بشأن الأثر الطيب الناتج من هذه الوجبات ، وهى تسجعه تعادل فى قوتها نتائج السنين الماضية ، فكانت صحة الأطفال بالمدرسة طيبة بصفة عامة ، ولم تصب الكوليرا أى طفل . ويؤسفنى مع ذلك أن أقول أن الأموال المكتتبة لهذا العشاء والننى لم نقتدها أبدا منذ ثلاث سنوات سوف تنفذ عما قريب ، وآمل أن نقتدوا بشر دة... وهى صحيفتكم لتقديم المعونة حتى أستطيع الاستمرار فى تقديم نفس العدد من وجبات العشاء هذا الثمنا . »

وليم مولار

(يتبع هذا حساب التكلفة لكل وجبة عشاء ، ولوجه عبد الميلاد) -
التايمز فى ٢٧ ديسمبر ١٨٦٦ .

« وعبر السيد فيكتور هوجو عن أمله فى أن نختفى كلمة » اصحاب النياب الرثة « قريبا من اللغة الانجليزية الجذيلة البهيلة ، وأن «نحن» أيضا هذه الطبعة نفسها . »

« وأبرز السيد فيكتور هوجو هذه الظاهرة بقوة ، ظاهرة أن الكوليرا لم تصب واحدا من الأطفال الذين اغتدوا على هذا النحو ، وسط الرزايا العظيمة التى أنزلها هذا الوباء فى لندن فى الصيف الماضى . ويعتقد أنه ليس فى مقدور الانسان أن يقول شيئا أقوى من هذا فى صالح المشروع ، ويعرض هذه النتيجة على الحاضرين ليتأملوها . »

« ويقول السيد فيكتور هوجو فى ختام حديثه : هذا يا سيدانى ما يبرر لى أن أحكى ما يجرى ها هنا ، ويبرر الدعاية المعمولة لهذا العشاء ، الذى يقدم لأربعين طفلا . ذلك لأنه يترتب على هذا الأصل الموضوع تحسن كبير فى أحوال الطفولة البريئة المعذبة . واجبنا هو تخفيف متاعب الأطفال ، وصنع الرجال . ولن أضيف الى هذا كلمة واحدة . هناك وسيلتان لبناء الكنائس : أن تبنى بالحجارة ، وأن تبنى باللحم والعظم . »

الفقر الذى أحسننت اليه وآسيته هو كنيسة شيدتها ، يرتفع منها الدعاء والعرقان بالجميل والحمد لله سبحانه . »

(تصفيق مستمر)

١٨٦٧

عشاء الأطفال الفقراء

الفقرة التالية منقول من الصحف الانجليزية :

« طبقت فكرة السيد فيكتور هوجو - فكرة العشاء الأسبوعي للأطفال - في لندن على نطاق واسع للغاية ، وأعطت نتائج مذهلة .
وقد قدمت المعونة لسنة آلاف طفل في لندن وحدها . وننشر فيما يلي الرسالة التي كتبتها الليدي طومسون ، أمينة صندوق « مائدة عشاء الأطفال » للسيد فيكتور هوجو :

« لندن في ٢٢ أكتوبر ١٨٦٧ ، ٣٥ سارع ديمبول .

« سيدى العزيز - أستبجح لنفسى أن أرسل لكم النشرة التى تعلن عن الموسم الثانى لمشروع « مائدة عشاء الأطفال » فى حى ميريلبون .
لندن .

« لقد حظى الموسم الماضى بأكبر نجاح ، واذا تفضلت بقراءة التقرير المرفق طيه ، فانك سوف ترى أن قرابة ستة آلاف طفل قد تناولوا العشاء فى غضون الشهور القلائل التى أعقبت تنظيم هذا المشروع .

« ولما كان انشاء مشروع العشاء فى الحى يرجع الفضل فيه الى فكرتك ومبادئك ، والكلمات التى ألقيتها فى هذا الشأن ، ولكى أستشهد بقيمة هذه الوجبات وشبوعها لدى كل الأشخاص الذين عرفوها ، فانى أحدثك فى شأن هذه المعلومات التفصيلية .

« واسمح لى أن أعبر عن عميق احترامى وشكرى اللذين يشيرهما فى نفسى عطفك الكريم على الفقراء .

وتفضل . . . الخ .

كيت طومسون

« ويعقب هذا الخطاب التقرير الذى يتضح منه أنه قد قدمت سبع وسبعون وجبة عشاء خلال نسعة أشهر ، وفى كثير من الأحيان وجبتان ، وأحيانا ثلاث وجبات يومية للعدد الكبير من الطلبات .

« وبلغ مجموع الوجبات التى قدمت ٥٥٤٢ ، منها ٤٨٢٠ قدمت فى القاعة ، ٧٢٢ أرسلت الى منازل اطفال مرضى . وظهرت فائدة الغذاء الجيد بوضوح فى كلتا الحالتين . ولوحظ أن عادة الجلوس الى مائدة معدة اعدادا جيدا كان لها أثر طيب على الاطفال ، لأن وجبات العشاء هذه هى أيضا مصدر لسعادة الاطفال وسرورهم . بالإضافة الى الطعام الجيد اللذيذ الذى يقدم لهم ، الأمر الذى قلما يصادفونه . وان الفرحة التى تبعثها الوجبات فى نفوسهم لتعادل وحدها الجهد والمال اللذين تكلفهما هذا العمل » .

« بريد أوروبا فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٧ »

١٨٦٩

نطالع في جريدة « بريد أوروبا » ما يلي :

وقعت تحت أنظارنا رسالة حقيقية (١) من فيكتور هوجو ، معنونة باسم مؤلف كتاب « داري دوفال » الذي أرسل نسخة من كتابه إلى فيكتور هوجو :

بين رسالتك يا سيدي وبين ردى عليها فترة حداد . واليوم أخرج من هذا الدليل الداجي ، ليل الآلام الأولى ، وأبدأ في ننسم الحياة .
قرأت كتابك الممتاز . كانت مدام دورفال أعظم ممثلات هذا العصر ، ولم يكن نمة نظير لها سوى الأنسة راشبل التي ربما كانت تفوقها لو انها اضطلعت بأداء الفن الحى ، الدراما التي نمثل الرجل ، والدراما التي نمثل المرأة ، الدراما التي هي قلب الانسان ، بدلا من أن تمثل النراجيديا المبثثة . لقد تحدثت عن مدام دورفال كما ينبغى أن يكون الحديث . واني لأشكرك وأنا متأثر من ذلك . مدام دورفال هي بعض من فجر عنصرنا . لقد سطعت فيه كما يسطع النجم العظيم .

كنت أنت طفلا عندما كنت أنا شابا . وأنت اليوم رجل ، وأنا شيخ . ولكن لنا ذكريات مشتركة . شبابك المشرق يتأخم شبابى الآفل . ومن ثم كان افتتاني بكتابك الجيد النبيل . فى هذا الكتاب روح وقلب وأسلوب ، فيه تلك الحماسة المقدسة التي هي فضيلة العقل .
الرومانسية (وهي كلمة مجردة من المعنى ، فرضها أعداؤنا ، بازدراء) هي الثورة الفرنسية فى الأدب ، وأنت تفهم ذلك ، وأهنتك من أجل ذلك .

وتقبل خالص التحية .

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٥ يناير ١٨٦٩ .

(١) وضع خط تحت هذه الكلمة فى الجريدة بسبب كثرة الرسائل التي تحمل كدبا اسم فيكتور هوجو والتي نشرتها بعض الصحف المقترية .

الى السيد جاستون تيساندييه

«اننى يا سيدى أو من بكل ضروب التقدم • فالملاحة الجوية تأتي
فى أعقاب الملاحة البحرية ، وعلى الانسان أن ينقل من الماء الى الهواء •
وفى كل مكان يتنفس فيه الانسان نسيم الحياة • ستطبع أن ينفذ فى
الخليقة • حدودنا الوحيد هو الحياة نفسها ، ويجب أن يتوقف الانسان
عند نهاية عمود الهواء الذى يمنع ضغطه انفجار أجهزتنا • ولكن الانسان
يريد أن يبلغ هذا الحد ، بل أنه يستطيع أن يبلغه ، ومن واجبه أن
يبلغه ، وسوف يبلغه • وأنت تدرهن على ذلك • وانى لشديد الاهتمام
برحلاتك الجريئة النافعة • ويتمتع زميلك البارع الجسور مسيو
دو فونفيل بملكة العلم الحقيقى الجليل • ولعل أتمتع أنا أيضا بذلك
التذوق البديع للمغامرة العلمية • المغامرة فى دنيا الواقع ، والافتراض
فى دنيا الفكر ، هما الأسلوبان الكبيران فى أساليب الاكتشاف • ولا مراء
فى أن المستقبل للملاحة الجوية • وواجب الحاضر هو العمل للمستقبل •
وأنت تؤدي هذا الواجب • أما أنا ، الوحيد ، المتسقط رغم وحدته ، فانى
أتابعك بعينى ، وأهيب بك أن تتشجع » •

ابريل ١٨٦٩ •

ونطالع فى جريدة « كرونك دوجيرسى » •

فيكتور هوجو ضد عقوبة الجلد

« تلفينا من أحد مراسلينا الخطاب التالى ، وهو رد الشاعر الكبير
على الرجاء الذى قدمه اليه المراسل بأن يستخدم نفوذه واعتباره من أجل
منع الحكم بعقوبة الجلد فى جميع المحاكم بالملكيات الانجليزية • وانا
نشكر فيكتور هوجو على غيرته » •

أوتفيل هاوس فى ١٩ ابريل ١٨٦٩ •

استلمت يا سيدى خطابك الممناز • وسبق لى أن طالبت علنا وبشدّة
(فى رسالتى الى جريدة بوست) بإلغاء هذه العقوبة المخزية ، عقوبة الجلد
الذى تشين القاضى أكثر مما تشين المحكوم عليه • وسوف أعيد المطالبة
بالتأكيد ، اذ يجب أن يختفى العصر الوسيط • لقد أطلق عام ١٧٨٩
صيحة الانذار •

ولك اذا سُئلت أن تنشر خطابى هذا .

وارجو أن تقبل خالص مشاعر المودة .

فيكتور هوجو

أونفيل هاوس فى ٣٠ مايو ١٨٦٩ .

عزيزى الفونس كار .

لك أن تنشر هذا الخطاب اذا سُئلت . أما أنا ، فاني لا أطلب نشره ،
ولا أبدى سببا لذلك . انما هى دلالة من صداقتى الى صداقتك
فحسب .

عرض عليهم بعضهم صفحة من انشائك ، وهى صفحة خلافة ،
تشير فيها الى قائلا اننى « كنت فيما مضى كثير التردد على قصر الاليزيه » .
واسمح لى أن اقول لك بكل صراحة أنك مخطئ فى هذا . لم اذهب الى
قصر الاليزيه الا أربع مرات فى المجموع . وفى استطاعتى أن احدد تواريخ
هذه الزيارات . ومنذ استنكار « الرسالة لى ادجارينى » لم أضغ
ندمى فيها .

فى عام ١٨٤٨ ، كنت من الأحرار فحسب . ولم أصبح جمهوريا
الا فى عام ١٨٤٩ . وظهرت لى الحقيقة مغلوبا على أمرها . وبعد
١٣ يونية ، حين رأيت الجمهورية صرعى ، صدمنى حقها ومس مشاعرى ،
خاصة وانها كانت تحضر . عندئذ ذهبت اليها - الى الجمهورية -
وانضمت الى الجانب الأضعف .

ولعل أقصى هذا الأمر فى يوم من الأيام . وأولئك الذين يعتبرون على
الأنى لم أكن جمهوريا من قبل محقون فى عتبهم . لقد وصلت الى الحزب
الجمهورى متأخرا ، وصلت فى الموعد المناسب لأنال نصيبى من النفى .
ونلت نصيبى . وهذا حسن .

صديقك القديم

فيكتور هوجو

« لم يساور هوجو أى شك فى أنى سوف أنشر رده .

« هناك جمال ، بل وشى من الدلال فى أن يعترف رجل على مثل هذا
القدر من الذكاء بأنه أخطأ ، شأنه فى ذلك شأن المرأة التى تتمتع بحسن
لا نزاع فيه ، ونقول مع ذلك : أنا اليوم قبيحة المنظر » .

الفونس كار

واليكهم مصطفات من الرسالة البديعة الى حررها فلبكس ببات .
ومن المعلوم أن فيكتور هوغو قد بمسك بقراره رغم العبارات البلغة المبيرة
التي حررها فلبكس ببات .

فى الخارج أم فى الداخل

عزيزى فيكتور هوغو :

« يفعل الطغاة البارعون فى مهنتهم برعاياهم ما يفعله الطفل بثمار
الكرز ، اذ يبدأ بأسدها احمرارا . وهم يبيعون الدرس الساع القديم الذى
أعطاه اياهم أستأذهم ناركوبنيوس(١) فيقطعون أعلا السنابل فى الحقل ،
وهم يستقرون ويوطدون مراكزهم على هذا النحو ، ويبدلون غاية وسعهم
لاستبعاد الصفوة الممتازة من أعدائهم ، فيقتلون البعض منهم ، ويطردون
البعض الآخر ، ويحتفظون بالباقى . يطرحون الروح ، ثم يقبضون على
الجسد . وهما هم أولاً مطمئنون لعشرين سنة . والتاريخ يؤكد أن كل
شخص وصولى يرتفع بافصاء الأحرار ، ولا يسقط الا عندما
يسترجعهم »

« فاذا صح هذا ، فانى أتساءل اذن عما يكون واجب المنفيين .
الواجب ؟ لا ، هذه الكلمة غير صحيحة هنا ، لان الموضوع ، والحمد لله ،
خاص بالوسيلة أكثر منه بالمبدأ . والسلوك ؟ ولا حتى هذا ، ففي السلوك
لون اخلاقى زائد عن الحد . أقول هذا لان المسألة تتعاقب بتكتيك (حيله ،
او تصرف) المنفيين . يبدو لى أن تكتيكهم هذا يتشكل على حسب تكتيك
الحاكم الذى يقضى بالمنفى . فما عليهم الا أن يتخذوا الموقف المضاد
اتصرفاته . فاذا طردتهم الدكتاتورية لظنها أنهم أقوياء ، فعلبهم أن يعودوا
عندما تعتقد أنهم ضعفاء . والاستبداد فى الحقيقة لا يخشى سوى
الاشباح . . ويخشى الحاضرين أكثر من الغائبين . يأتى المحررون دائماً
من الخارج ، ولكنهم لا ينجحون الا فى الداخل . ذلك هو على الأقل ما
حدث فى الماضى ، والماضى يدل على المستقبل .

« . . ولا ريب فى أن الرجل المنفى قد أصبح فى الخارج جديرا
بالوطن ، فله خدماته ، وله مخاطره . وقد كشف لهم ابنك شارل عن هذه
الخدمات والمخاطر بشاعرية طبيعية موروثة ، تجعلنى أومن بحق النبالة -
لو لم أكن على هذه الدرجة من القبح .

(١) اسم أسرة تربعت قديما على عرش روما فى القرن السادس قبل الميلاد - الترجم .

« ولكن ، لنكن عادلين مع الفضائل فى الداخل • وليست الفضائل
فى الخارج فى حاجة الى المزيد من الاطراء لكى تستطيع التعرف عليها •
ان من ينكر جدارتك فانما هو ينكر السماء • أما أنا ، تلك الحصاة
المتنقلة التى تتقاذفها الأقدار من سجن الى سجن ، وفى سويسرا وسافوا
وفرنسا وهولندا وبلجيكا ، فقد عرفت الشرطة الاوروبية كلها ، ولست
أفخر بذلك ولا أشكو منه ، فليس فى الأمر ما يستحق الفخر أو الشكوى •
وأما أنا وأصدقائي الذين وشى بعضهم بنا كما وشى بعض أعضاء مجلس
الشيوخ بمارا ، ووشى أحد السفراء بيلتيليه ، وتنكرنا فى صورة جى
فوكس ، وعلقت صورنا من أجل « رسائل الى الملكة » ، وسببنا لك
شبهنا من المتاعب فى جيرسي ، وقبض علينا ، وحوكنا ، وهددونا بقانون
الأجانب فى قضية « أورسينى » ، وبتسليمنا لدولتنا من أجل « الكومون
التورى » ، فانا قد نلنا نصيبنا من المحن واستمتعنا بأمان المنفى فى
لندن ، كما استمتعت أنت به فى جيرسي •

« •• قلت ان الواجب ، كالخطر ، لا شأن له بموضوع الدعوى ،
فهو يؤدى بشجاعة فى إنجلترا ، كما يؤدى بشجاعة فى فرنسا ، فى
الخارج كما فى الداخل ، ولكن بقدر من الجدوى والفائدة على أقل ما أعتد
يؤدى بمزيد من التآلق والضيء • وانما بمفعول أضعف ، بمزيد من الحرية
والفخار النسبى وانما بقدر من فظائع محاكم الأمن العام • واذا كانت
قضية بودان ، وهى قضية شبح رجل مات ، قد أيقظت باريس ، فما بالنا
بقضية « الشبح الاكبر » كما تسميك صحيفة « لوكنسنسيونيل » ، قضية
شبح رجل حى ، قضية فيكتور هوجو ! لقد أثار تيرتیه اسبارطة • ثم
ثم قضية ليدرو ، ولوى بلان ، وكينيه ، وباربيس •• سوف يهدم قصر
العدالة (وزارة العدل) • كان لسوفوكل(١) قضية التى ربحها ، وكان له
شعرك الأبيض ، ولك أنت أمجاده •

« وأدرك ابنك فرانسوا ، أخو شارل ونديده فى الموهبة ، أدرك
بنفسه ، وبظرة أبوية ، الضرر الذى سببه لنا العفو الشامل • قال بحق
ان لجيش المنفى مرشديه وأعلامه • وجاء العفو الشامل فسرحت هذا الجيش
وشنته وفرفه فى الداخل • وانهزم الجيش • عودة أخيل ، سقوط
هكتور (٢) • ويموت أخيل ، حقيقة ، ولكن طروادة تسقط • اذا كان

(١) شاعر يونانى فى القرن السابع قبل الميلاد ، حفز بأغانيه شجاعة أهل اسارطة
فى حرب ميسينا الثانية - المترجم •
(٢) أخيل وهكتور من الأبطال الصادبد فى حرب طروادة « الالياذة » - المترجم •

الاقوى ينتظر انتصار الاضعف ، فقد انقلبت أحوال العالم • وداعا إذن.
بتروكلوس وجنده الميرميدون (٢) •

« ولم يرد أبدا فى خاطرى فكرة أنك مستريح فى ضحيتك ! اسلحك.
نبرق فى الفضاء الشاسع كما نبرق الصاعقة • ولكنها تضيق فيها
أيضا • وهى خليقة بأن تفوز اذا تركزت فى الخارج وفى الداخل • عذرا
فالصراخ من شيم الجمهورية ، وهى ليست عندى كما هى عندك ، فى
م من ذهب ، ولكنها من حديد • ما أسد الصدمة النى نصاب بها باريس
اذا رجعتم اليها كلكم فى يوم ٢٢ سبتمبر !

« لقد جعلت من قصة « الرجل الضحوك » حدثا هاما ، وسوف نجعل
من « الرجل الباكي » زلزالا !

« ومع ذلك فهذى مجرد فكرة • والتاريخ نفسه لا يأمر بشئ ، وانما
يسدى النصح فحسب • والنصيحة لا نكتسب أية قوة اذا صدرت منى •
أننى أعرض عليك أو بالأحرى أرفع اليك رأى فى جراه ونواضع ، فخذ
النصيحة بما هى أهل له • تم انى أضيف الى ذلك أنه ليس فى الشئون
الإنسانية شئ مطلق ، وأن أمور الماضى قد تخطىء بالنسبة الى المستقبل •

« وعلى هذا فان على كل انسان فى النهاية أن يقدر مصلحته الشخصية
الاحترام والحرية لكل عقيدة ! ولعقيدتك أنت بصفة خاصة • ان لك
ما للنجوم من المزايا ، مع كونك أشد روعة فى غروبك منك فى شروقك !
ولعله من الأوفى لك أن تبقى فى سمائك النارية ، مثل اله هوميروس ،
لغير المعركة • لكل شئ مهمته ، المنار يحمل الشعلة ، والموجة تحمل
السفينة • فليكن الأمر كذلك ! ولكن مهما كان القرار المتخذ ، سواء
نصرف الانسان بالجملة أو بالتفصيل ، فى موضع واحد أو فى مواضع
مختلفة ، متجمعة أو مبعثرة ، عن بعد أو عن قرب ، بالداخل أو بالخارج
فى فرنسا أو فى الصين ، فالأمر سياتى ، والواجب سوف يؤدى ، والشرف
سليم فى كل مكان ، ان لم يكن النصر فى كل مكان !

« والشئ المهم بنوع خاص ، وقبل كل شئ ، أن نكون متحدين ،
والا فنحن هالكون •

« لنكن متحدين ، فى الخارج أو فى الداخل ، حبا فى الحق ! لقد
أعجبت بتوصيتك العظيمة فى بداية صدور جريدة « لورايل » هذا هو
الخلاص •

(١) بتروكلوس بطل اغريقى ، صديق أخيل ، اشترك معه فى حرب طروادة • سله
هكتور • والميرميدون جنوده ويتميزون بقصر القامة - « الالياذة » - المترجم •

« الى الامام اذن جميعا ! غائبين كنا أم حاضرين ، كل ما يهتز ، كل من يعيش ، ومن يكره ، كل من عاس باسم الحق والنظام والسلام وحياة فرنسا ، كل من يفضل الحق على الناس ، والمبدأ على كل شيء . كل من هو مستعد لأن يضحي في سبيل هذه الأشياء بالجسم والمال والروح والفن والمجد والاسم والأهل والذاكرة وكل شيء فيما عدا الضمير ، كل من هو على استعداد لان يهب نفسه حليفا للشيطان لو استطاع أن يهاجم في أسوأ أشكال الشيطان ، كل من ليس له غير حفيظة واحدة ، يدخرها ! ويجمعها ، ويكدسها ، ويخترنها ، منلما يفعل البخل ، فلا يصرف شيئا من حفيظته حتى لدى اشنع الاهانات ، كل من لا يبالغ في التعاطف والنعالي أمام العدو المشترك . الى الامام جميعا ضد العدو وحده ، بقلب واحد ، وساعد واحد ، وصيحة واحدة ، وهدف واحد ، الآباء والأبناء . هدف اليوم والامس ، الهدف المثالي الأبدى لفرنسا وللعالم ، الهدف المجيد أبدا ، المقدس أبدا ، ليوم ٢٢ من هذا الشهر العظيم . شهر سبتمبر : الحرية والأخاء والمساواة .

فليكس ببات

لندن في ٩ سبتمبر ١٨٦٩

١٨٧٠

لوكريس بورجيا

الى السيد رافائيل فليكس

سيدى

أننى سعيد بعودتى الى مسرحى الكبير الجميل ، وبعودنى الله معك
أب العضو المبجل فى هذه الاسرة البديعة ، أسرة الفنانين التى ينيرها
دجد راسثيل •

أرجوك أن تشكر باسمى وتهنىء مدام لوران التى كانت فى هذا
المعرض الأول ندا لذكرى الأنسة جورج العظيمة ، أو ربما فاقتها • لقد
بلغ اسماعى صدى انتصارها •

وقل للسيد ميلينج الذى أعرف موهبته القوية اننى اشكره لانه
كان فائنا ، وفاخرا ، ومرعبا •

وقل للسيد تايدانى أصفق له لنجاحه الذى هو جدير به •

وقل للجميع أنى أبعث اليهم بهتاف الجمهور •

انك تتمتع يا سيدى بذكاء رائع ونادر • الشعب العظيم فى حاجة
الى فن عظيم ، وفى مقدورك أن تحقق لمسرحك هذا المثل الأعلى •

فيكتور هوجر

غرق الباخرة نورماندى

استخلصنا هذه القصة المؤلمة لغرق الباخرة نورماندى من رسالة
لفيكتور هوجو •

(الورابيل فى ٢٦ مارس ١٨٧٠)

اوتفيل هاوس فى ٢٢ مارس ١٨٧٠

•• كتب الى بعضهم يسألني عن التأثير الذي أحدثته في نفسي وفاة
مونتالامبير •• وأجيب : لا شيء ، لا البكم • ولكن البكم ما أضنانى •

كان في الباخرة نورماندى التى غرقت فى عرض البحر منذ أربعة
أيام بحار فقير ومعه امرأته ، وهما من أهالى هذه الناحية ، من قرية
سان سوفير • كانا عائدين من لندن التى ذهب اليها الزوج بسبب
« خراج » فى ذراعه • وفجأة ، فى دجى الليل ، انشقت الباخرة نصفين •
وعاصت فى اليم • ولم يبق سوى زورق واحد ممتلئ بالناس الذين كانوا
على وشك قطع الحبل الذى يربطهم بالباخرة • وصاح الزوج « انتظرونا
سننزل » وأجابة بعضهم من الزورق : « لم يعد هنا مكان الا لامرأة واحدة •
فلتنزل زوجتك » •

فقال الزوج : « اذهبنى يا زوجتى » •

وأجابت الزوجة : « لا ، لن أذهب • لا مكان لك • سنموت معا » •
وكانت « لا » هذه رائعة • هذه البطولة التى يعبر عنها بالملهجة
العامية تعصر الفؤاد • « لا » رقيقة مع بسمة رقيقة أمام القبر •
وألفت المرأة المسكينة بذراعيها حول رقبة زوجها ، ومات الاثنان •
وأبكى وأنا أكتب هذا الكلام ، وأفكر فى زوج ابنتى العظيم ، شارل
فاكبرى (١) •

فبكتور هوجر

ونشرت الصحف الانجليزية الخطاب التالى الذى حرر فى موضوع
كارثة السفينة نورماندى •

(بريد أوروبا)

الى محرر جريدة ستار

أوتفيل هاوس فى ٥ أبريل ١٨٧٠

سبدي

أرجو النفضل بادراج اسمى فى قائمة النبرعات لأسر البحارة الذين

(١) أخو الكاتب الفرنسى اوجست فاكبرى الذى كان من المعينين ببكتور هوجو •
تزوج لبويولدين هوجو ، ابنة الشاعر الكبر ، ومات معها غرقا فى نزعة بالسفينة فى
فلبكويه عام ١٨٤٣ - المترجم •

رسائل ٣٨٥

هانوا في حادب غرق السفينة نورماندى . ذلك الحادب الذى سوف نخلد
ذكراه بالمسلك البطول الذى أبداه الكابتن هارفى .

ويهمنى ، بهذه المناسبة ، وأمام هذه الكوارث الأليمة أن أذكر
الشركات الفنية كشركة « ساوث ويسنر » بأن الحياة الانسانية لمينة
ران رجال البحر يستحقون رعاية خاصة ، وأنه لو كانت النورماندى قد
زودت أول كل شىء بحواجز صماء من شأنها حصر الماء ومنع تدفقه ،
وزودت ثانيا بأحزمة انقاذ فى متناول الفرقى ، وثالثا بأجهزة « سبلاس »
التي نضى البحر ، مهما كانت شدة ظلام الليل والعاصفة ، والتي تسر
الرؤية الواضحة خلال الكارثة . لو كانت هذه الشروط الثلاثة التي تتبع
مئانة السفينة ، وأمن الناس ، وإضاءة البحر متوفرة فربما لم يكن أحد قد
هلك في حادب غرق النورماندى .

وتقبل يا سيدى خالص آيات المودة .

فيكتور هوجر

١٨٨٣

فى رأس الطبعة الأولى من كتاب « من المنفى » (١٨٧٥) الملحوظة
الآتية :

فى هذا الكتاب ، كما فى كتاب « السنة الرهيبة » يلحظ القارى ،
(فى ثلاثة مواضع) سطورا منقوطة . وتكشف هذه السطور عن نوع
الحرية الذى كنا نتمتع به . فتمة أساء نشرت فى عهد الامبراطورية ،
لا يمكن أن تطبع بعد هذا العهد . هذه السطور المنقوطة هى إشارة الأحكام
العرفية ، وسوف تمحى هذه الإشارة من الكتب ، لا من التاريخ . ولصحفظ
بها من يريد ذلك .

أما فيما يختص بهذا الكتاب . فإن ايضاح هذا الشىء أمر لا أهمية
له . ولكن دناءات الوقت الحاضر لابد أن يشار إليها ، احتراماً للحرية
التي لا يجوز أن بسقط الحق فيها بمضى المدة .

ف.هـ

باريس ، نوفمبر ١٨٧٥

ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه السطور التي حذفت فى عام ١٨٧٥
قد أعيد طبعها فى الطبعة النهائية ،

٥ . . . ماهية المنفى

٣٣ . . . أنقرس في أول أغسطس سنة ١٨٥٢ .

٣٩ . . . الوصول الى جيرسى

٤٢ . . . نصريح فى موضوع الأمبراطورية

٤٥ . . . وليمة بولندية

٥٠ . . . على قبر جان بوسكبه

٥٦ . . . على قبر لويز جوليان

٦١ . . . الذكرى السنوية الثالثة والعشرون للنورة البولنديه

٦٦ . . . الى سكان جبرنسى

٧٦ . . . الى لورد بالمرسوم وزير داخلية انجلترا

٨٦ . . . الذكرى السنوية السادسة لوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨

٩١ . . . بداء الى المواطنين العالمين

٩٢ . . . على قبر فيلكس بونى

١٠٠ . . . حرب الشرق

١١٠ . . . الذكرى السنوية السابعة ليوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨

١٢٣ . . . خطاب الى لوى بونايرت

١٣٦ . . . الطرد من جيرسى

١٤٥ . . . العفو الشامل

١٥٠	• • • • •	العودة الى جبرسى
١٦٤	• • • • •	الى كابنن بتلر
١٦٧	• • • • •	المحكوم عليهم بالاعدام فى سارلزوا
١٧١	• • • • •	أرمان باربىس
١٨٠	• • • • •	مأذبة الاطفال الى الناسر كاستيل
١٨٢	• • • • •	جنيف وعقوبة الاعدام
٢٠١	• • • • •	الى الجيش الروسى
٢٠٧	• • • • •	ذكرى شكسبير المثوية
٢١٥	• • • • •	املى دوبيرون
٢١٨	• • • • •	نمناى بيكاريا
٢١٩	• • • • •	الذكرى المثوية لدانتى
٢٢٣	• • • • •	مؤمر الطلبة
٢٢٤	• • • • •	الحرية
٢٢٧	• • • • •	المحكوم عليه بالاعدام فى جبرسى
٢٢٩	• • • • •	كرىت
٢٢٨	• • • • •	العبنانيون
٢٤٢	• • • • •	الاهراطور ماكسميليان
٢٤٦	• • • • •	فولنير
٢٤٧	• • • • •	جون براون
٢٤٨	• • • • •	عقوبة الاعدام القاؤها فى البرنغال
٢٧٠	• • • • •	مانين
٢٨٩	• • • • •	الى رؤساء التحرير المؤسسين الخمسة
٢٩٥	• • • • •	مؤمر السلام فى لوزان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الانداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٠٣٨

ISBN ٨ - ١١١٦ - ٠١ - ٩٧٧

يضم هذا الكتاب مجموعة متشابهة من خطب ورسائل ، ألفها وحزوها في
 منفاه شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي ، يعد من أعظم الشخصيات
 العالمية في ميادين الفكر والأدب ، ومحالات السياسة والاجتماع والفنون .
 ذلك هو لكتون مروجو (١٨١٢ - ١٨٨٥) . لعب دوراً سياسياً خطيراً في
 فرنسا ، حتى قاوم صياغة الدستور الثالث مما أدى إلى تبعه ، فعاد باريس بعد
 الغلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١ ، واستقر به المقام أخيراً بجزيرة جيرسي
 وجيرسي في بحر المانش . وهناك وأصل نشاطه في كل مياديه ، وأبرز
 الكبر من روائعه مثل : العقوبات ، روايات ، روايات ، روايات ،
 وفنل في منفاه لرابنة عشرين عاماً حتى عاد إلى وطنه عام ١٨٧١ . وتكثرت
 هذه الرسائل والأحاديث ، عن عاطفة إنسانية ، رقيقة وسامية بقدر ما هي
 حزينة وقوية . عاطفة تترعرع على : المعاناة الكاسحة ، وثورة الأمم
 الكاسحة في سبيل حريتها ، وبثه بالحروب القتلية ، وبصناعة حرب
 القوم ، وثباته بالقوة بقوة الإعدام الشوينا ، وبعدم جدواها ، وباجم
 الرق والحرق المصيرية ، وبخاصة في أمريكا ، وثباته بظلم الحكم
 الملكي والجمهوريه ، والديكتاتورية والاستبداد . ولم تزل هذه الموضوعات
 التي عالها يترجمها لتصل الفكر العالمي والدولي حتى عصرنا الحاضر .